

البحث عن السعادة

رحلة في الفكر الصوفي وأسرار اللغة

د. ريم بسيوني



كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

البحث عن السعادة

{رحلة في الفكر الصوفي وأسرار اللغة}

د. ريم بسيوني

عن الكتاب..

"يتحدث الكتاب عن مفهوم السعادة المرتبطة بالرضا، وذلك من خلال رحلة تاريخية وفكرية عبر الصوفية منذ العصر الأموي وحتى العصر المملوكي.

كما يركز الكتاب على الحالة الإنسانية للمفكر الصوفي ورحلته للوصول إلى مقام الرضا، وهو أعلى مقام عند كثير من الصوفيين. للوصول إلى هذا المقام، يحتاج أي شخص إلى جهاد نفس قوي ومستمر، والوصول إلى الرضا مثل الوصول إلى الحرية في دنيا تعتبر إلى حد كبير، سجنًا؛ لأنها محدودة المدة والمكان. والرضا هو التحرر القليل من هذا السجن، ولكن كيف يحدث هذا؟ وما الرحلة التي يقوم بها الصوفي داخل نفسه؟ وما حقيقة الصوفية ولغتها؟ هل هناك خطوات نتبعها للوصول إلى السعادة؟

ويستطيع القارئ السياحة عبر صفحات الكتاب، والرياضة عبر الأمثلة؛ لنعرف كيف يحدث الرضا بعد البلاء؟ وهل نرضى ونحن نتعرض لظلم، أو فقد، أو فقر، أو مرض؟ ما سر السعادة؟ نحتاج إلى أن نقرأ عن الصبر والبلاء عند علماء الصوفية، وسنتكلم عن الخلق العظيم الذي يؤدي إلى التحرر في الدنيا.

يتركك الكتاب مع رسالة خاصة لك أيها القارئ، فهو يعتمد على بحث علمي للفهم الأعمق للصوفية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



مقدمة وإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى ابنتي مها لأن العالم أصبح أكثر تعقيدًا، وأكثر شراسة. أتمنى أن تقرئيه، وأن يفيدك في رحلتك.

وأهدي هذا الكتاب لجدي الأكبر الشيخ عبد القادر بن عبد السلام الأسمر الشاذلي الطريقة. (1)

أريد منه أن يعذرني أنني لم أعرف، ولم أفهم إلا عن قريب، ولكنه يعرف مقولة الغزالي «لا تسألني قبل الوقت، وتيقن أنك لا تصل إلا بالسير». (2)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رحلتي مع الصوفية رحلة قمت بها وحدي، ولكنني أبدًا لم أكن وحيدة. هي رحلة لا بد أن يقوم بها كل إنسان وحده مع بعض الإرشاد والرياضة والسياحة. (3) لعل القارئ يريد أن يعرف أكثر عن رحلتي في التفكير الصوفي، كل إنسان له مهمة وتكليف ودور في الحياة يقوم به. وفي التفكير الصوفي، الله دومًا يريد خيرًا للعباد فلا سبب يدعو للحزن أو اليأس. وفي التفكير الصوفي، حب الله هو أساس كل تقوى. الصوفية سهلة ليس بها تعقيد ولا استحالة. هي طريق اتباع السلف الصالح، هي طريق الإخلاص في العمل في الدنيا وطلب العلم. هي طريق لصفاء القلب حتى يتسنى له الوصول إلى الرضا في الدنيا، ويشعر بنفحات قربه من الله. عقاب الصوفي الأكبر ليس النار، ولكن الحجب عن الله. الصوفية ليست مجرد طرق مختلفة، أو أحزاب وأوراد، مع احترامنا الشديد للطرق الصوفية ومعتقداتها وأساليبها. هذا الكتاب يريد أن يوضح الفكر الصوفي وتطوره التاريخي، وليس الهدف أن ينضم القارئ لأية طريقة صوفية. وهو أولًا وأخيرًا رحلة داخل النفس التي تبحث دومًا عن السعادة والرضا في هذه الدنيا، ومع صعوبة هذا البحث وجب علينا أن نكتب هذا الكتاب لعله يفيد القارئ. ولأول مرة أكتب عن نفسي وعن تجربة شخصية مع الصوفية.

المحن مكتوبة لنا حتى نرتقي. وربما يكون طريق المحنة بداية لطريق أوسع للفهم. اهتممت بالصوفية منذ الصغر، وقرأت للغزالي في مراحل مختلفة من عمري، ولكن وأنا أكتب رواية سبيل الغارق زاد اهتمامي بالصوفية، وبدأت رحلتى من البحث، ثم قررت أن أبحث في اللغة المستعملة في التصوف، وأفهم أكثر عن اللبس الذي يقع فيه البعض بالنسبة للفكر الصوفي. أستمتع بالبحث دومًا إذا كان عن شيء أحبه، وأخلص له بشغف وشوق. وهذه المرة كان هناك بعض المرشدين في الطريق أحيانًا دون أن أطلب، هبة من الله. فكنت يومًا في مكتبة دار المعارف في الإسكندرية أبحث كعادتي عن كل

الكتب الصوفية، وحينها كنت أقرأ للغزالي ولابن عربي. وكان هناك رجلٌ يقف أمام رف الكتب الذي أريد أن أبحث فيه. لم يتحرك، وهو يراني أحاول البحث، ولكنني خجلت أن أطلب منه أن يتزحزح، فسألت عن الكتب أمين المكتبة فبدأ يبحث لي، والغريب أن الرجل التفت لي فجأة، وكان طويلًا في منتصف العمر، يمتزج شعره القليل بالبياض، أتذكره جيدًا، التفت إليّ ثم أمسك بكتاب مختبئ داخل الأرفف العالية، وأعطاه لي قائلًا: هل قرأت هذا الكتاب؟

دهشتي كانت كبيرة، أولًا لأنه كان صامتًا طوال الوقت، وثانيًا لأنه اختار كتابًا بعينه، ولم أزل أتذكر الكتاب، كان كتاب «شرح الحكم العطائية «تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود. ولم أكن قد قرأت شيئًا عن الشاذلي بعد، ولا عن ابن عطاء الله السكندري (عصر مملوكي)، مع أن كتاب الحكم كان في بيتي ينتظر الاهتمام والقراءة. وللحق لم أكن أعرف الشيخ «عبد الحليم محمود» حينها. وجدت نفسي آخذ الكتاب، وأدفع ثمنه، وأشكر الرجل، وبدأت في قراءته على الفور. كنت أقرأ عن حكم ابن عطاء الله السكندري، ولكنني بدأت البحث عن عبد الحليم محمود، وتصادف أن استطعت أن أقابل عائلته، وأعرف عنه أكثر؛ ففي إحدى محاضراتي تعرفت على زوجة ابنه، وهي عالمة جليلة. كنت أتمنى مقابلته بالطبع، ولكنني عشت مع كتبه، وافترستها افتراسًا. شرح لي الطريقة الشاذلية ببساطة، وقرأت الكتاب الذي كتبه عن المحاسبي، ويبدو أنه مأخوذ من رسالة الدكتوراه التي أنجزها في فرنسا. ابن عطاء الله عرفني على د. عبد الحليم محمود، ود. عبد الحليم محمود عرفني على أبي الحسن الشاذلي، فبدأت رحلة القراءة عنهم. ولكن هذا الاهتمام لم يكن دون رغبة في معرفة فكر جدي العالم الصوفي. كنت أبحث عن جد أمي، سمعت عنه ولم أعرف عنه الكثير حينها مع شهرته الكبيرة في الإسكندرية هو عبد القادر حفيد عبد السلام الأسمر الشاذلي الطريقة (توفي بعد 935 هـ). هاجر جدي في منتصف القرن التاسع عشر من «زليتن» في ليبيا إلى مرسى مطروح، ثم استقر في زاوية عبد القادر بالقرب من العامرية، ثم أنعم عليه الخديو سعيد بقطعة أرض في الإسكندرية في منطقة مينا البصل، ولكنه أصر أن يدفع ثمنها. بنى هناك جامعًا وبيتًا كبيرًا وإلى الآن لم يزل البيت قائمًا والمسجد. ذهبت لأول مرة لزيارة المسجد، ثم عدت إلى القراءة بشغف أكبر. هو جدي عن أمي رحمها الله، وعن أمها هي أيضًا. وتعلقت بجدي أكثر وأكثر.

في الفكر الصوفي ما نكتب وما نفعل هو تكليف من الله. كنت يومًا أتكلم مع صديقة لي صوفية، وأخبرتها عن حكايتي مع مسجد السلطان حسن، وكيف وجدت نفسي مشدودة إليه، وأريد الكتابة عنه وعن قصته، فقالت في ثقة: هذا ليس انجذابًا، هذا تكليف.

ثم حدث أثناء إحدى جولاتنا في مدرسة ومسجد السلطان حسن أن حكيت عن تجربتي مع البوصيري، وسماع قصيدته البردة في مدح الرسول   داخل المسجد. ففي أول زيارة لي للمسجد، كان الشيخ ينشد قصيدة البردة، ووجدت الدموع تفيض من عيني مع أنني لا أبكي بسهولة. ومنذ ذلك الحين، قررت أن أعرف أكثر عن البوصيري والصوفية وتاريخ المماليك. وعندما كنت أحكي هذه القصة سألتني صديقة: هل يمكن أن تتكلمي معنا عن الصوفية؟

قلت حينها إن هذا سيحتاج إلى يوم آخر، وإلى محاضرة طويلة، ثم أخذتني الحياة، ولم أنظم محاضرة عن الصوفية. ومر عام، ثم قالت لي السيدة نفسها: وعدتني أن تتكلمي معنا عن الصوفية.

حينها قلت بلا إرادة: نعم وسوف نرتب محاضرة خلال أسابيع.

شعرت بواجب ناحيتها، وناحية الكثيرين الذين يودون معرفة حقيقة هذا الاسم وسط اللبس والمعلومات المتناقضة، ومنذ ذلك اليوم وأنا أقرأ بجدية وأبحث بحثًا أكاديميًا عن الفكر الصوفي واللغة. لا أتذكر اسم السيدة الفاضلة أو شكلها. ولكنني أريد أن أشكرها لأنها فتحت لي بابًا، لم أكن أعرف أهميته، ولا طاقة النور التي ستغمرني. أعطيت أول محاضرة لي عن الصوفية وتاريخ تطورها، وبقدر سعادة الحضور كانت سعادتي وراحتي، ثم توالت المحاضرات وقررت أن أدون هذه المحاضرات، وأراجعها، وأكتبها في كتاب. يختلف الكتاب عن المحاضرات لأنه يقدم إلمامًا بجميع المصادر، ويمتاز بالإيجاز مقارنة بالمحاضرات. أتمنى أن يكون هذا المشروع مفيدًا. وكنت قد تكلمت معكم عن فكرة التكليف، وعن الشيخ الجليل د. عبد الحليم محمود الصوفي الذي أنجز الدكتوراه في الصوفية في فرنسا جامعة السوربون. فمنذ عثرت على أول كتاب لعبد الحليم محمود، وأنا أقرأ له حتى أنجَزت قراءة معظم كتبه بحمد الله. وله كتاب يتكلم عن الشاذلي، وأعتقد أنه كان شاذليًا والله اعلم مع أنه كتب عن المحاسبي وأبي مدين وغيرهما من أعلام الصوفية. كتب د. عبد الحليم فيَّ مقدمة كتابه عن الشاذلي حكاية إنسانية عنه هو لم تبرح ذاكرتي قط. حركتني وأثرت فيّ بقدر ما أثر فيَّ أسلوبه السهل الرائع في شرح الفكر الصوفي. قال الشيخ عبد الحليم محمود إنه حلم حلمًا غريبًا يومًا. حلم بشخص يعرفه يدعى «توفيق» كأنه بملابس شرطي ينظر إليه في صرامة ويأمره أن يترك ما في يده، ويكتب عن الشاذلي. صحا من نومه، ولم يكترث للحلم، واستمر في حياته، بل لم يكتب عن الشاذلي، وانغمس في أشغاله الكثيرة، ومرت السنون، وقرر أن يكتب كتابًا عن الإيمان، وكان قد جهز كل المصادر والكلام لهذا الكتاب، ولديه مسودة لكل شيء، وأخذ معه المسودة، وسافر إلى الريف المصري في عمل ومعه مسودة الكتاب، ثم خرج من سيارة الأجرة، وقد نسى المسودة بكل ما جهزه داخل السيارة، واختفت السيارة

بالسائق، وضاعت مسودة كتاب الإيمان. حينها قرر أنه آن الأوان ليكتب عن الشاذلي. كأن التكليف قد ألح عليه، والسير قد أوصله إلى الهدف، فكتب كتابًا من أجمل ما يكون.

وهذا ما كتب «وكما تذكرت الرؤيا عند عاصفة التستري، تذكرتها عندما أصبحت السيارة لا عينًا ولا أثرًا: «اترك ما بيدك، واكتب عن الشاذلي» (4) هكذا قال له الرجل في حلمه.

ساعدني عبد الحليم محمود في فهم شخصية الشاذلي الإنسان. ثم قرأت بعدها سيرة الشاذلي في أعمال ابن عطاء الله السكندري. هذه القصص إن دلت على شيء فهي تدل على أن هناك أناسًا في الطريق، وإشارات وعلامات تحتاج إلى قلب مفتوح لفهمها وتقديرها. هذه الكلمات من كلام الدكتور عبد الحليم محمود، وقد هزتني وحركتني:

«لقد اضطررت إلى كتابته اضطرارًا. وحملت على تأليفه حملًا. وما كان لي في تحديد زمن كتابته من إرادة حرة أو اختيار يبيح لي التأجيل الطويل. وسأذكر قصة تأليفه، سواء أسخر الناس منها أم لم يسخروا، وسواء أصدقوها أم أنكروها» (5)

ويضيف «ثم كانت ملابسات عديدة، وظروف متناسقة، جعلتني آخذ الطريق الشاذلي، وأندمج في جو المريدين، وأواظب على الأوراد والأذكار الشاذلية، ومكثت كذلك إلى أن كان شهر مارس سنة 1964» (6) ومع أن الشيخ عبد الحليم يتكلم عن أسفاره، ومقابلته للكثير من الشيوخ، لكنني لم أكن قرأت أنه تتلمذ على يد شيخ بعينه.

قبل أن أتكلم عن هدفي من هذا الكتاب، أريد أولًا أن أقول ما لا ينجزه الكتاب. هذا الكتاب لا يتبع طريقة صوفية معينة، بل يتكلم عن الفكر الصوفي، ويختار بعض أعلام الصوفية، لم يزل هناك الكثير من الأعلام المهمة التي لم يستطع الكتاب التطرق إليهم مثل، الحلاج، وابن الرومي، وشمس التبريزي، وفريد الدين العطار، إلى آخره.

وهذا الكتاب لا يعطي سيرة تاريخية عن أعلام الصوفية.

هذا الكتاب يتحدث عن التجربة الإنسانية في البحث عن اليقين في الدنيا والآخرة، والتجربة الإنسانية بتعثراتها وإحباطاتها ونجاحتها في البحث عن الرضا في دنيا يصعب فيها الوصول إلى السعادة الكاملة. هو كتاب عن النفس البشرية عن الرحلة والطريق، هو كتاب أتمنى أن يرشد أو يحث على التفكير، ولا أحد منا يملك الحقيقة المطلقة، هي محاولة للفهم والبحث والله أعلم. شكرًا على القراءة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

لماذا الصوفية؟

«الفرح بالله أولى من الحزن بين يدي الله!»

أبو بكر الشبلي

هذا الكتاب يتكلم عن رحلة الإنسان في هذه الدنيا في البحث عن السعادة. وأهم عنصر في السعادة هو الرضا، والرضا عند المتصوفة هو مقام، أي لا بد أن نصل إليه بالمجاهدة، وعند الوصول إليه نحاول أن نثبت عليه. فيصبح الوصول إلى الرضا هو «تحقيق هدف» وليس مجرد عبور من حالة نفسية إلى حالة أخرى. أما الفكر الصوفي الذي يعرضه هذا الكتاب، فهو مفتاح الوصول إلى هذا الهدف. أي وسيلة من وسائل الوصول للهدف. ولكن من حق القارئ أن يسأل. لماذا الصوفية؟ ولم لا نقول الإسلام فقط؟ لم علينا أن نجد مسمى جديدًا لأخلاق الصالحين وأفعالهم؟ وهل تعتمد الصوفية على شيخ يأمر وينهي؟ وهل لا بد لمن يندرج تحت اسم صوفي من شروط معينة؟ وإذا كان الإسلام دينًا للعالمين، فلم نحدده بأي مسمى؟ كل هذه الأسئلة مشروعة ومهمة، وهذا الكتاب هو إجابة عنها.

يعتبر الفكر الصوفي بالنسبة لكثير من علماء الدين من أرقى وأسمى طرق التفكير على الإطلاق. يقول الدكتور أحمد عمر هاشم عن التصوف «وهكذا رأينا أن الرؤية الصوفية هي بعينها رؤية الإسلام في تعاليمه السمحة، وفي عقيدته الواضحة، وعباداته الميسرة». (7)

هناك بعض الحقائق التي ستساعد القارئ في فهم الهدف أفضل، أولها أن اللغة المستعملة من المفكرين الصوفيين لغة خاصة ومختلفة، وقد أدت ببعض أصحابها إلى الاغتيال في بعض الأحيان، وإلى السجن في أحيان أخرى. وثانيًا أن الحركة الصوفية في العالم الإسلامي لم تظهر بلا إطار اجتماعي وسياسي. وثالثًا وهذا هو الأهم أن هناك فرقًا كبيرًا بين الفكر الصوفي والطرق الصوفية. الفكر الصوفي فكر عام، مبني على أسس الشريعة والقرآن الكريم والسنة، والطرق الصوفية ظواهر اجتماعية جاءت باعتبارها نتاجًا للفكر الصوفي، لها أوراد وأحزاب خاصة بها، وشيوخ ومريدون، أي طلاب علم. وظاهرة الطرق الصوفية تحتاج إلى دراسة أخرى غير التي نحن بصددها. نحن نهتم هنا بتطور الفكر الصوفي والبحث المتواصل عن السعادة، والراحة، والقرب من الله، وهو البحث الذي قام به أوائل علماء التصوف. وسوف نشرح هذا الفرق باستفاضة في هذا المقال.

سيتوقف الكتاب عند العالم الجليل ابن عطاء الله السكندري في القرن الرابع عشر الميلادي، أي في العصر المملوكي. ولعل هذا الكتاب يساعدنا

جميعًا على الصبر، والشكر، والرضا، وعلى السمو بالنفس. لا يستهدف الكتاب فئة معينة من البشر، بل يتوجه إلى البشر أجمعين، ويدعي أن الصوفية كنز إنساني يتميز بالمجاهدة، والتفكير، وتصفية القلب، وهي ليست للصفوة، ولا لأرباب الطرق فقط. فكل إنسان صفا قلبه، وقابل ربه بقلب سليم يمكننا أن نطلق عليه لقب «صوفي». وهذا ليس رأيًا شخصيًا لي، بل استنادًا إلى الأفكار التي سيتطرق لها علماء أجلاء من الصوفية على مر العصور. السمو، وتقبل الآخر، والخشوع، والتواضع، ومحاسبة النفس، والاهتمام بالأخلاق، والمجاهدة المستمرة مع الصدق، والإخلاص في العمل، والعلم، كلها صفات إنسانية يدعو لها البشر على مر العصور، وكلها تؤدي إلى الهدف الأسمى وهو الرضا. لنبدأ بتاريخ الفكر الصوفي والتسمية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



تعريف الصوفية

يعرف جلال الدين السيوطي الصوفية بأنها «إنما التصوف السعي في إصلاح القلب، وتطهيره من الأمراض الخبيثة، وتهذيب النفس وتفقد عيوبها». (8)

إذن الصوفية ليست لبس الصوف، ولا التجريد والزهد فقط. الصوفية تعتمد على الفكر العميق، وتهذيب القلب والنفس.

ارتكز الفكر الصوفي على فكرة جهاد النفس، وترقيتها، واعتمد على لفظ القرآن «القلب السليم» فأصبح هدف الصوفي هو الوصول لسلامة القلب من كل طمع وشر وكبر وحقد. ويقول السيوطي: «اسأل عن دواء قلبك». (9)

ويستدل السيوطي في تعريفه بالصوفية بحديث النبي عن البدلاء أو الأبدال، وهم الذين بدلوا سيئاتهم حسنات، وجاهدوا ليصلوا إلى التوبة الحقيقية. هؤلاء سيدخلون الجنة، ولكن الجنة لا ندخلها فقط بالقيام بالفرائض وقلبنا مريض بالحقد والكره، بل الجنة يدخلها كريم النفس سليم الصدر من يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

ويؤكد السيوطي في حديث عن النبي أن «الأبدال ليس أفضل من غيرهم بكثرة الصوم والصلاة والتسبيح، ولكن بحسن الخلق، وبصدق الورع، وحسن النية، وسلامة قلوبهم لجميع المسلمين، والنصيحة لله» حديث أبي الدرداء».

فالتصوف أخلاق. يقول ابن القيم الجوزية (ت751هـ / 1650م): «واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم: إنّ التصوّف هو الخُلق» (10) الصوفي يجاهد نفسه طوال الوقت. وهذا هو الجهاد الأكبر، ويدفع هوى النفس وشرورها، ويحاول التغلب على الكبر والحسد والغيرة والطمع، وكل ما نهى عنه الإسلام. الصوفي يعبد الله كأنه يراه. يقول أبو بكر الكتاني (ت322هـ / 934م): «التصوّف خُلق فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في الصفاء». (11)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



التسامح والعلم في الفكر الصوفي

أما صفة التسامح فربما هي من أجل الصفات وأعمقها، ويتسم بها علماء الصوفية على مر العصور كما يقول ابن الطيب «وربما وجدنا هذا المظهر الأخلاقي متجليًا في صفة من أبرز صفات المتصوّفة الكبار وهي التسامح، ومن تجليّاته عدم التمييز بين الناس في المعاملة على أساس من الدين أو العنصر أو اللون. وهذا الموقف الأخلاقي الإنساني عريق عند الصوفيّة، فقد عرّف الجنيد شيخ الطائفة الصوفيَّ بأنّه «كالأرض يطؤها البرّ والفاجر، وكالسّحاب يُظلّ كل شيء وكالمطر يسقي كلّ شيء». (12)

أما بالنسبة للعلم فالحديث الشريف يقول : «من طلب العلم، تكفل الله برزقه». (13)

الصوفي يطلب العلم طالما هو حي، ويجاهد نفسه لآخر العمر. يرى الدنيا فانية، دار انتقال ورحلة فهي ليست الوطن، كما يقول ابن عربي «موطن الرحلة ليس بموطن» (14). ويرى الحياة تحتاج إلى سياحة ورياضة. الرياضة هي مجاهدة النفس وتطويعها. كما يقوم الإنسان بالرياضة للحفاظ على صحة بدنه، ويزيد قوته تدريجيًا، يحتاج الإنسان أن يحافظ على صحة قلبه، ويسيطر على هوى نفسه، وعليه أن يفعل ذلك أيضًا تدريجيًا حتى يصل إلى مقام أعلى. فالمقام هو الهدف والمكانة التي يصل إليها من جاهد نفسه. يصل إليها الصوفي بالمجاهدة أما الحال فهو إحساس نفسي يقذفه الله في القلب. فحال الرضا غير مقام الرضا. حال الرضا هو إحساس بالرضا عن الدنيا والآخرة، ولكنه إحساس يتغير كما هو الحال، وكما قال ابن عربي دوام الحال من المحال. أما المقام الذي يصل إليه الإنسان بالرياضة والمجاهدة فلا يتغير، لأنه يصل إليه بعد عناء ومحاربة للأهواء وللأطماع. أما السياحة فهي السفر، ولكن السفر لطلب العلم، ومعرفة حال البشر، وتأمل النفس بمشاهدة أفعال الناس والتعلم منها. أقصد السياحة أو السفر بغرض العلم والمعرفة وتجويد العبادة لله تعالى. الإنسان في هذه الدنيا هو عبد لله موحد به، ومقام العبودية من أعلى المقامات كما هو مقام التوحيد. ومعنى الشرك عند الصوفية هو وضع البشر في مكانة قريبة من مكانة الله، فيظن الإنسان أن من يقضى حاجته مثلًا هو أمير أو مدير، بينما هما أدوات في يد الله. إذن المعبود هو الله فقط، لا وساطة بين العبد وربه، ولا خير أو شر إلا منه هو.

لاحظ أن استعمال اللغة عند الصوفيين يختلف كل الاختلاف عن استعمال اللغة عند أهل الشريعة، أو الفلسفة، أو أي من العلوم. للصوفيين لغتهم الخاصة المجازية الرمزية، وربما عدم فهم المجاز والرمز من البعض هو السبب الأساسي في عدم فهم الفكر الصوفي أو فهمه بطريقة غير صحيحة.

دلالة ألفاظ الصوفية لا يمكن فهمها إلا بشرح واضح منهم هم، وليس من غيرهم، فهم من يعرفون سر لغتهم. وهناك مقال خاص بهذا الموضوع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



أسباب ظهور الصوفية

قبل أن نتكلم عن أسباب ظهور الصوفية أريد أن أستشهد بكلمات الدكتور أحمد عمر هاشم عن أهمية الصوفية في مواجهة التعصب «لا تعرف الأنانية طريقها إلى قلوب أهل التصوف، لأنهم يتحابون في الله، ومن أجل ذلك فإن هذه المرحلة التي تمر بها أمتنا هي أحوج ما تكون إلى الفكر الصوفي الصحيح المشيد على الكتاب والسنة البعيد عن الشطحات أو الادعاءات، بل القائم على العقيدة الصحيحة والعبادات الكاملة والأخلاق الفاضلة». (15)

يقول محمد بن الطيب في كتابه (الإسلام واحدًا ومتعددًا إسلام المتصوفة) إن «ظهور الإسلام الصوفي لم يكن فقط من نابع ديني، ولكنه كان أيضًا من نابع اجتماعي وثقافي. فمع اتساع الخلافة الإسلامية بعد موت الخلفاء الراشدين ومجيء الدولة الأموية، تغير حال الساسة، وأصحاب القرار، وأصبح هناك ثراء فاحش مع انتشار لعادات سيئة مثل اقتناء الكثير من الجواري والغلمان، واكتناز الذهب والفضة، والإسراف في المأكل، والمشرب، وفي القتل، والصراعات السياسية التي لا علاقة لها بالدين. فوجد بعض الشيوخ أن الأمة الإسلامية ابتعدت عن الهدف الأسمى من الرسالة وهو السمو بالإنسان وأخلاقه، والمساواة بين البشر، ومنذ مقتل علي بن أبي طالب أصبح الوضع في الأمة بالنسبة لهؤلاء الشيوخ مختلقًا». (16)

والفكر الصوفي الذي ربما ظهر في الدولة الأموية هو بالنسبة للصوفيين ليس فكرًا جديدًا، ولا يحتاج إلى مسمى جديد. فهناك ثلاث مراتب للمسلم: الإسلام، والإيمان، والإحسان. والإحسان كما قال النبي «هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك». ويرى الصوفيون أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يعتكف في الغار ليتأمل، وكان يزهد في المال، لا يريد سلطة أو منصبًا (رياسة)، وجاء ليتمم مكارم الأخلاق، فهم يحذون حذوه، ويتعلمون منه، يذكرون الله، ويحاولون جهاد النفس، والإخلاص، والصدق. فالصحابة مثل أبي بكر الصديق ربما يعتبرون صوفيين بالنسبة للمفكرين الصوفيين كأبي حامد الغزالي مثلًا.

يأخذ الصوفي لغته وأفكاره كلها من القرآن والسنة. فنجدهم يشتاقون للقاء ربهم، ويحبونه حبًا شديدًا كما قالت الآية الكريمة {وَمِنَ لنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ للَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ للَّهِ وَ لَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى لَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِذْ يَرَوْنَ لْعَذَابَ أَنَّ لْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ للَّهَ شَدِيدُ لْعَذَابِ} [البقرة:165]. ونجدهم ينظرون إلى الدنيا على أنها فانية، كلها أوهام وخداع للنفس معتمدين على الآية الكريمة: {إِنَّمَا لْحَيَوٰةُ لدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا

يَسْـَٔلْكَمْ أَمْوَٰلَكَم} [محمد:36]. ويعتمدون على الآية { لَّذِينَ ءَامَنُو وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ للَّهِ أَلَا بِذِكْرِ للَّهِ تَطْمَئِنُّ لْقُلُوبُ} [الرعد: 28]، فيذكرون الله كثيرًا. ويتأملون آية {يَـٰٓأَيَّتُهَا لنَّفْسُ لْمُطْمَئِنَّةُ. رْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَ مَّرْضِيَّ .فَ دْخُلِى فِى عِبَـٰدِى.وَ دْخُلِى جَنَّتِى}[الفجر: 27-30]. فيفسرون الرضا بأنه شعور متبادل بين العبد وربه، لا بد للعبد أن يرضى بقضاء ربه حتى يرضى ربه عنه. وقد حاولوا الوصول إلى مقام الرضا في الدنيا بوضعها في اليد لا في القلب. (17)

فأصبح قرب العبد من الله هو هدفه الأساسي، أما الله فهو قريب في كل وقت وحال.

بالنسبة للصوفية جهاد النفس هو أهم وأصعب أنواع الجهاد ويطلقون عليه الجهاد الأكبر، أما الجهاد الأصغر فهو الحروب. قد كان للصوفيين دور في محاربة الصليبيين مثلًا على مر التاريخ. (18)

لماذا نستعمل كلمة صوفي ولا نكتفي بكلمة مؤمن؟

الصوفية حركة فكرية وفلسفية ظهرت لتزكية النفس، ومساعدتها للوصول إلى الرضا الذي هو أهم عنصر للسعادة، وهذا لا يحدث إلا لو ابتعدنا قليلًا، وتأملنا أنفسنا، وعرفناها أكثر، كما سينصحنا أبو حامد الغزالي في هذا الكتاب.

أن نسمي الصوفي مؤمنًا أو محسنًا أو إنسانًا يتقي الله، فكلها مسميات للظاهرة نفسها.

فالمسمى ليس هو أهم عنصر كما قال شكسبير، فلو أطلقت على الوردة أي اسم آخر ستشم رائحتها كما هي. فيمكن أن نقول إن الصوفية هي مقام (درجة) الإيمان والإحسان، وهما أعلى من الإسلام، ويمكن القول إن الصوفية هي العبودية أي الخضوع التام لله في كل شيء من علم وعمل. ويمكن أن نقول إن الصوفية هي الالتزام بأخلاق النبي وسنته. ويمكن أن نستعمل مسمى آخر لحركة ظهرت وأثرت في الأمة الإسلامية، بل أدت إلى دخول الكثير في الإسلام سواء في أفريقيا أو آسيا: الفكر الصوفي، نحن نتكلم هنا عن حركة فكرية أخرجت لنا بعضًا من أهم المفكرين في العالم، وليس فقط في الإسلام. فأبو حامد الغزالي تربع على عرش الفلسفة الإسلامية مع أنه كان يهاجم الفلسفة، ويعتبر بالنسبة لكثيرين من علماء العالم المتخصصين في الفلسفة، ليس فقط مجددًا إسلاميًا، وشيخًا مهمًا، ولكن أيضًا من أعظم مفكري الإنسانية. والشيء نفسه عن ابن عربي الذي ترك لنا إرثًا إنسانيًا، وفكرًا مستنيرًا، فلم يزل يرشف منه العلماء على مستوى العالم. فكتاب مثل «الفتوحات المكية» الذي يباع حاليًا في تسعة مجلدات لابن عربي، أو كتاب

مثل «المنقذ من الضلال»، و«إحياء علوم الدين» للغزالي وغيرها من الكتب، كلها كتب تعتبر إرثًا إنسانيًا وليس فقط إرثًا إسلاميًا. أفكارها تتطرق للإنسانية في أسمى معانيها.

لاحظ أن العلماء الصوفيين يرتكزون على الشريعة باعتبارها أول طريق الوصول إلى القرب من الله، ولكنها بالنسبة إليهم ليست نهاية الطريق. وليست كافية بل إن القلب السليم وعبادة الله كأنك تراه هما الهدف الأسمى. وهذا الفكر سيتضح في مقالات أبي حامد الغزالي في هذا الكتاب. لذا فرق الصوفية بين الشريعة والحقيقة. اتباع الشرع واجب، ولكن لا بد أن يكون بإخلاص وقلب سليم، وليس فقط بحركات، أو كثرة صوم، أو صلاة بلا تعمق وفهم، كما سيوضح لنا ابن عطاء الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفرق بين الفكر الصوفي، والطرق والطوائف الصوفية

نجد مثلًا أن أبا حامد الغزالي في رحلته مع الفكر الصوفي يقرأ كتبًا، ويتأرجح بين الشك واليقين إلى أن يجد الطريق الصوفي، ويغوص بداخله. فيمكن النظر إلى الصوفية على أنها طريق يتخذه الإنسان، لا يعتمد فيه سوى على نفسه ومجاهدتها. فها هو الغزالي يرشده كلام شيوخ الصوفية الذي قرأه ودرسه أعوامًا، ويرشده أيضًا خلوته، وعلمه، وعمله بهذا العلم. ما تركه لنا الغزالي هو فكر صوفي، أو طريق صوفي، وليس طريقة بعينها. ونجد الآن طرقًا صوفية متعددة في العالم مثل الطريقة الشاذلية، أو النقشبندية، أو الدمرداشية، أو الخلوتية...إلخ. وداخل الطريقة الشاذلية نفسها هناك عدة طوائف مختلفة مثلًا الصديقية الشاذلية أو القادرية الشاذلية...إلخ. هذه الطوائف تحتاج لكتاب آخر. ولكن هذا الكتاب سيتكلم عن الفكر كما قلنا. ولكن أحيانًا يكون الفكر هو النواة لظهور طريقة صوفية، ثم طائفة بعينها. فمثلًا فكر الشاذلي كان النواة لظهور الطريقة الشاذلية بعد ذلك بطوائفها المتعددة. ونحن في هذا الكتاب سنتطرق لفكر الشاذلي، وكيفية وصوله إلى الطريق الصوفي، والأفكار الأساسية في طريقته دون الدخول في أية تفاصيل اجتماعية، أو ممارسات للطرق الشاذلية المتعددة.

الفكر هو المبادئ الأساسية التي يذكرها الصوفيون مثل أبو حامد الغزالي في كتابه «أيها الولد مثلًا. هو يعطي ركائز أساسية لتزكية النفس. هذا هو الفكر. وهناك أفكار مرتبطة بعلماء بعينهم مثل الشاذلي الذي أكد على فهم مختلف للزهد، فأوضح لنا أن الزهد ليس بترك المال ولبس الصوف، بل بمعرفة الله وعبادته بيقين، وبالثبات والنظر إلى الدنيا على أنها فانية. إذن هناك أفكار ومبادئ، وهناك طوائف وطرق يتبعها أفراد يلتقون مثلًا كل أسبوع، ويذكرون الله، ويستعملون صيغًا معينة للدعاء والذكر. هؤلاء الأفراد ربما يتبعون شيخًا يستمد فكره من الفكر الأساسي للصوفية. يمكن للإنسان أن يتبع الطريق الشاذلي، أي الفكر والركائز التي اعتمد عليها الشاذلي وتلاميذه، دون أن ينتمي لأي طائفة بعينها.

يفرق الدكتورعبد الحليم محمود في كتابه «قطبا المغرب» بين الطريق والطريقة، فيقول عن الشيخ ابن مشيش والشيخ الشاذلي «إن (عبد السلام بن مشيش) رضي الله عنه له طريق، وليس له طـريقـة، فقد كان مبتعدًا عن الناس، لا يعطي عهودًا، ولا يكلف أورادًا، ولا أحزابًا، فلم يؤسس طريقة، وإنما كان يرسم في كل لحظة من لحظات حياته الطريق، وطريقه هو الطريق

الشرعي. وجوهر هذا الطريق، هو الصلاة على الرسول بعد الانتهاء عما نهى الله عنه، والقيام بما فرض الله تعالى». (19)

هذا هو كلام الشيخ عبد الحليم محمود عن ابن مشيش، ولا بد من التأكيد أن الطرق الصوفية التي نعرفها حاليًا نشأت في مرحلة متأخرة ولم تكن موجودة في بداية الصوفية، فرابعة العدوية، وبشر الحافي، وأبو حامد الغزالي لم يكن لديهم طريقة، ولم يعطوا عهودًا ولا أحزابًا ولا أورادًا. وهذا لا يعني أن الطرق ليست مهمة، ولكن هذا موضوع آخر لا يتطرق إليه هذا الكتاب.

أزعم أني في رحلتي في هذه الحياة قد قابلت من يمكن أن نطلق عليهم صوفيين دون أن ينضموا إلى أي طائفة، ولكني رأيت الصفاء والصدق في أفعالهم وأخلاقهم، والسمو والطمأنينة والرضا في تعاملهم مع مصائب الدنيا. هو طريق إلى الله، والطريق إلى الله دومًا سهل ومتسع للجميع، وكما قال ابن عربي: «غايات الطرق كلها إلى الله، والله غايتها، فكلها صراط مستقيم». (20)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الصراع واضطهاد المتصوفين

الصوفية والشريعة يكمل بعضهما البعض، فلا يمكن الوصول إلى الحقيقة، وهي هدف الصوفي، إلا باتباع الشريعة. ويتفق كل علماء الصوفية على هذا. ولكنهم يرون في الصوفية درجة أسمى لأنها اتباع الشريعة بقلبك وبنيتك، وليس فقط بجوارحك.

عانى الصوفيون من الاضطهاد في عصور مختلفة. يقول ابن الطيب و»قد بلغ اضطهادهم أقصاه في محنة الصوفيّة المعروفة بمحنة «غلام الخليل»، وهي المحنة التي اتّهم فيها نحو سبعين صوفيًا من بينهم «الجنيد» شيخ الطائفة ببغداد، وتمت محاكمتهم، وحكم عليهم بالإعدام، ثمّ أفرج عنهم» (21) وفي منتصف القرن التاسع الميلادي، ازداد اضطهاد الصوفيين حتى كان مقتل الحلاج عام 922 م.

لماذا يخاف البعض من كلمة الصوفية؟

نريد أن نتطرق في البداية لبعض الأفكار التي رسخت في ذهن البعض عن الصوفية، وهي عارية عن الحقيقة. ولكن أريد التوضيح أن ممارسات البعض التي يطلقون عليها تصوفًا لا تعني أن هذا هو التصوف الحق بأي شكل من الأشكال. بل نجد أن جلال الدين السيوطي الذي ينتمي هو نفسه للطريقة الشاذلية، وقد انتقد بشدة ممارسات البعض الذين يطلقون على أنفسهم لقب صوفية، فيقول في كتابه (تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية):

«وقد دفعنا لوقت ظهر فيه اللغط، وكثر فيه الغلط، واشتهر في أفعال أهله الشطط، ولا سيما من أجرى عليه من الصلحاء رسم التصوف، واسم الفقراء، فإن هذا الاسم من أعز الأسماء، والمتصف بصفة أهله عظيم قدره عند رب السماء، لكن تلك النعوت المعهودة تبدلت بضدها، والأخلاق المحمودة منهم عادت ذميمة، فهم كما قال القائل شعرًا:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها

ظنوا أن الفقر والتصوف أذكار مشهورة، ومنامات مستورة، وخيالات مذكورة، فتقيدت بهم أذهان محصورة، وأفكار مأسورة لم تصحب فحول الرجال، فقد سمعت والدي أبا العباس القسطلاني يقول، سمعت أبا عبد الله القرشي يقول: لو لم ألق من المشايخ من لقيت لتوهمت أن الطريق ما عليه الناس اليوم، وما عند الناس من الطريق إلا الاسم إلا من سلك منهم على التحقيق، فإذا قال هذا في عصره فما ظنك بهذا العصر، هذا كله كلام القطب القسطلاني». (22)

ينتقد السيوطي ممارسات الصوفية في عصره، فيقول إنهم يدعون الفقر، ويذكرون اسم الله، ويهتمون فقط بالأذكار المشهورة، ولكن ذهنهم مقيد بصور الدنيا، لا تركوها، ولا صدقوا في زهدهم. حتى إن أحد شيوخ الصوفية القسطلاني يقول لولا ما أعرفه عن الشيوخ القدامى لظننت أن هذه هي حقيقة الصوفية. هذه الكلمات مفتاح التحامل ضد الصوفية، فربما يرى البعض ممارسات خاطئة لبعض مدعي التصوف، فيظنون أن هذا هو التصوف، ولكن الكتاب سيوضح أن التصوف أسمى، وأعمق، وأعظم من هذا كله.

وفي أبيات الشعر التي اختارها السيوطي مفتاح فهم الاختلاف، فيقول إنك ربما ترى من يبدو صوفيًا كما نرى أحيانا من يبدو مسلمًا شكليا في أفعاله الظاهرية، ولكن في أفعاله الأخرى هو مختلف كل الاختلاف. فدخلت بدع وخرافات للصوفية، واتخذ اسم الصوفي الكثير من الأناس، وهم ليسوا أهلًا لذلك، ولكن السيوطي يعطي بعض العلامات في كتابه للمتصوف الحق. لن نتكلم عنها الآن، ولكنها ستظهر في مقال الأخلاق.





هل كان للفكر الصوفي أحزاب معينة أو أوراد؟

الأوراد والأحزاب هي أدعية منظمة لله تعالى، وصلاة على النبي، يرددها المنتمون إلى الطوائف الصوفية. ولكن هل استعمل الصوفيون الأوائل صيغًا معينة للدعاء؟ بالطبع استعمال صيغ للدعاء والذكر شيء حسن لو جاء من القلب. ولكنه لم يكن موجودًا في الفكر الصوفي الأول. بل سنأخذ بعض الأمثلة المهمة من كلمات أبي حامد الغزالي والشاذلي عن أهمية الصدق والإخلاص في الدعاء، وتقوى الله أولًا، ثم الزيادة في العبادات.

ويعطي الغزالي هذا المثل «سئل أبو يزيد البسطامي عن اسم الله الأعظم، فقال: فرغ قلبك من غيره، وادعه بأي أسمائه شئت». (23)

ذكر الله ودعاؤه دومًا جميل. ولكن ذكر الله، والورد، والأحزاب، ليست سوى وسيلة للهدف الأسمى. لو أخلصت لله في دعائك، فأي صيغة وأي اسم ستستعمل فسوف تصل إلى الله. فهل لو عرفنا الاسم الأعظم سنكون أكثر حكمة وأكثر إيمانًا؟ لا، بل لو فرغنا قلبنا مما سوى الله، كما قال البسطامي.

ولذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: «عليك بورد واحد، وهو إسقاط الهوى ومحبة المولى، أبت المحبة أن تستعمل محبًا إلا فيما يوافق محبوبه» (24) أوصانا بها الشاذلي «عليك بورد واحد... إسقاط الهوى» فهل تجاهد نفسك أيها القارئ؟ وهل تحاول؟ هذا ليس بالطريق السهل. الوصول إلى السعادة لن يكون بترديد كلمات معينة. نحتاج إلى ما هو أصعب. نحتاج إلى جهد، وعناء، واستغناء، ومجاهدة. وأهم شيء هو حب مخلص لله. فالمحب يطيع محبوبه عن طيب خاطر.

هل ترك لنا الشيخ الأكبر ابن عربي أورادًا أو أحزابًا؟ يبدو من القراءة أن هذا لم يحدث، والله أعلم. يقول محمود غراب عن ابن عربي: «وأما صيغ الأذكار الواردة في كتاب «جامع الأصول» وفي كتاب «النور المظهر» مع الأعداد، فإنني لم أجد في كتب الشيخ ما يؤكدها، ولو ثبتت عنه لأوردها في كتابه «مواقع النجوم» الذي يقول عنه في الفتوحات المكية، وما نصه: «هو كتاب شريف يغني عن الشيخ في تربية المريد، وهو كتاب يقوم للطالب مقام الشيخ، يأخذ بيده كلما عثر المريد، ويهديه إلى المعرفة إذا هو ضل». (25)

إذن ابن عربي ليس له صيغة محددة للأذكار، والشيء نفسه بالنسبة للغزالي.

هل يدعي أهل التصوف أن لهم معجزات أو كرامات؟

يقول ابن عطاء الله السكندري ناصحًا المريد سالك طريق التصوف:

«كن طالـب الاستقامة، ولا تكـن طـالـب الكـرامـة.. فـإن نفسك تهزك لطلب الكرامة.. ومـولاك يطالبك بالاستقامة». (26)

أي أن الله يطلب منك أن تتبع الطريق الصحيح، ولا تظلم، ولا تسرق... إلى آخره. وهذا هو ما يجب أن تتمناه، وتطلبه من ربك.

وقد قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه «وليس الشأن من تطوى له الأرض فإذا هو بمكة أو حـيـث شـاء من الـبلاد، إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه فإذا هو عند ربه». (27)

أن تستقيم لله، وتكف نفسك عن الهوى هما أكبر المعجزات. أما أن تقول إنك وصلت إلى مكة في ساعة أو غيره من الكلام عن المعجزات فلم يؤثر في الصوفيين الأوائل، ولم يكن شيئًا يفتخر به أيّ منهم. بل نجد عندهم أن تقوى الله والقلب الصافي هما أكبر كرامة ومعجزة. إذن فمن يرى عيوبه ويجاهدها أفضل مِنْ مَنْ يدعي أنه يشفي المريض أو يخترق البلاد.

«وقيل لأبي محمد المرتعش، رحمه الله: إن فلانًا يمشى على الماء، فقال: عندي من مكنه الله من مخالفة هواه، فهو أعظم من المشي على الماء والهوى». انتهى.

وقيل لأبي يزيد رضي الله عنه: إن فلانًا يمشى على الماء، قال: الحوت أعجب من ذلك إذ هو شأنه، وقيل له: إن فلانًا يطير في الهواء قال: الطير أعجب من ذلك إذ هو حاله، وقيل له: إن فلانًا يعنى إلى مكة، ويرجع من يومه قال إبليس يطوف الأرض كلها في لحظة، وهو في لعنة الله». (28)

ويقول ابن عربي في الباب الرابع والثمانين ومائة: في معرفة مقام الكرامات.

«الكرامة من الحق من اسمه «البر»، ولا تكون إلا للأبرار جزاء وفاقًا، والمعنوية (أي الكرامة المعنوية) لا يعرفها إلا الخواص، وهي حفظ آداب الشريعة ومكارم الأخلاق، والمسارعة إلى الخيرات، وإزالة الحسد والحقد وسوء الظن من الصدر، وطهارة القلب ومراعاة الأنفاس مع الله، وهذه الكرامات لا يدخلها مكر ولا استدراج». (29)

مرة أخرى يؤكد ابن عربي أن الكرامات المعنوية هي الأصل، وهي الأهم، وهي خروج الحسد والغيرة والكبر من القلب.

ويؤكد ابن عربي أن الفتح من الله معجزة. هب أن الله فتح عليك، فكتبت كتابًا مفيدًا للبشرية، هذا فتح ورزق من الله. وهب أن الله فتح عليك فأدركت معاني كانت غائبة عنك، هذا أيضًا فتح. وليس من المصادفة أن تكون كلمة فتح موجودة في أكثر من كتاب لعلماء الصوفية. فنجد كتاب «فتوح الغيب»

لعبد القادر الجيلاني، وبالطبع كتاب «الفتوحات المكية» لابن عربي. إذن الفتح هو رزق من الله للعبد الصالح لينفع به عباد الله. الإدراك فتح، والكتابة المفيدة فتح. الخشوع فتح، والقرب من الله فتح وهدوء وطمأنينة، بل الاطمئنان والرضا فتح ومعجزة.

هل يمكن أن يحدث الفتح بلا شيخ مُرَبٍ؟ وهل يمكن أن ندخل في طريق الصوفية بلا شيخ؟

وجود شيخ مُرَبٍ مهم في الطوائف الصوفية، ولكن الوصول بلا شيخ جائز وموجود في الفكر الصوفي. ولكن هذا يحتاج إلى تعلم، ومعرفة، وقراءة، ومجاهدة بالطبع.

يقول الشيخ السيوطي في كتابه عن أهل التصوف «ورأوا طلب العلم أفضل الأعمال (30)« وطلب العلم ليس مقتصرًا على علوم الشريعة، ولكنه يضم كل العلوم. كما أكد السيوطي بناءً على كلام بعض شيوخ الصوفية البارزين أن هناك مَنْ يفتح الله عليه للطريق الصوفي بلا شيخ، وهناك مَنْ يصل إلى أن يصبح من أولياء الله بلا شيخ». (31)

أما ابن عطاء الله السكندري، تلميذ الشيخ أبو العباس المرسي، وهو من نقل لنا الطريقة الشاذلية فيقول في كتابه لطائف المنن: «وقد يجذب الله العبد إليه فلا يجعل عليه منة لأستاذ، وقد يجمع شمله برسول الله فيكون آخذًا عنه، وكفى بهذا منة. ولقد قال لي الشيخ مكين الدين الأسمر: «أنا ما رباني إلا رسول الله ». وذكر عن الشيخ عبد الرحيم القناوي أنه كان يقول: «أنا لا منة لأحد عليّ إلا لرسول الله »، وإذا أراد الله أن يتفضل على عبد يغنيه عن الأستاذين حتى لا يكون له فيه سلف. وقال ملك لبعض جلسائه: إني أريد أن أجعلك وزيرًا. قال: ليس لي في هذا سلف. قال: إني أريد أن أجعلك سلفًا لمن بعدك». (32)

وكلمات ابن عطاء الله واضحة وكفيلة بتوضيح هذا الأمر. أي اذا أراد الله أن يجتبي أحد عباده فإرادته فوق كل شيء. إذن فاتباع الإنسان القرآن والسنة بقلب سليم يكفي عند البعض لأن يصل إلى مقام القرب من الله.

كما «يقول أبو العباس المرسي: لا يلزم أن يكون القطب شريفًا، حسنيًا، بل قد يكون من غير ذلك القبيل» (33) أي أن الولي الصوفي العارف ليس لازمًا أن يكون من سلالة النبي .

بل نجد أن أبا مدين يعرّف «المريد» بأنه من يجد في القرآن كل ما يريد. المعرفة المباشرة إذن مع الله هي مفتاح الفهم الصوفي.

«كان شيخنا أبو مدين يقول المريد من يجد في القرآن كل ما يريد. ولقد صدق في قوله الشيخ العارف لأن الله يقول {وَمَا مِن دَآبَّ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام: 38]. (34)

وجود الشيخ المربي مهم، ولكنه لم يكن في بداية الفكر الصوفي من الضرورات.

لنعد إلى كلام الشيوخ القدامى عن الشيخ المربي، وصفاته، وكيفية التعامل معه إن وجد.

نجد أن الشيخ الأكبر ابن عربي لم يكن مريدًا لأحد من المشايخ الذين عاصرهم وصاحبهم، فقد كان يتردد في الوقت الواحد على أكثر من شيخ، وكان له معهم «صحبة، لا التزام المريد بشيخه»، لذلك نراه يقول عن اجتماعه بالإمام الأدنى: «نهاني عن الانتماء إلى من لقيت من الشيوخ، وقال لي: لا تنتم إلا لله، فليس لأحد ممن لقيته عليك يد مما أنت فيه، بل الله تولاك بعنايته، فاذكر فضل من لقيت إن شئت، ولا تنتسب إليهم، وانتسب إلى ربك». (35)

بل نجد حكايات عن ابن عربي، وهو لا يتبع الشيوخ بلا تفكير، بل يتناقش مع الشيخين، ويحاول الفهم والجدال بالتي هي أحسن. ونجد أن كل شيخ قد نصحه على طريقته، وهو اتبع ما وجد فيه مصلحته.

وعلى الإنسان أن يستمع إلى القول، ويتبع أحسنه. ويفرق ويفكر في الكلام، ولا يطيع أحدًا بلا تفكير وقراءة وتعلم.

فكرة الشيخ المربي تشبه إلى حد كبير مشرف بحث الدكتوراه، هو شخص تختاره من أجل علمه وخلقه، وتتعلم منه. لا يوجد إجبار في هذه العلاقة. هي علاقة تلميذ وأستاذ.

ويقول الإمام أبو القاسم عبد الكريم القشيري «ولا ينبغي للمريد أن يعتقد في المشايخ العصمة، بل الواجب أن يذرهم وأحوالهم؛ فيحسن بهم الظن، ويراعي مع الله تعالى حدّه فيما يتوجه عليه من الأمر. والعلم كافيه في التفرقة بين ما هو محمود وما هو معلول». (36)

وهذا دومًا يؤكد أن الطريق لكل سالك، وليس لمن يتبع الشيخ فقط. الطريق إلى الله ليس محصورًا على أحد، والتقرب لله متاح لكل البشر. فالله يختص برحمته من يشاء.

«وهذا لا ينفي أن الله تعالى يختص برحمته من يشاء، ولو عن غير سلوك الطريق المعهودة». (37)

سئل جنيد: «بم نلت ما نلت؟ فقال: بجلوسي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة. وقال أبو يزيد: أخذتم علمكم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت». (38)

أي أننا نأخذ علمنا من الله وكتابه، ولا نعتمد على بشر.

لاحظ أن القرآن الكريم هو الركن الأساسي للصوفية، والأخذ من كلمات الله هو الأصل كما يقول جنيد. هو لا يأخذ من ميت، أي من شيخ أو ولي، ولكن من الله الحي الذي لا يموت.

هذه وصية ابن عربي للسالك والمريد (طالب العلم في الصوفية) الذي يبحث عن الشيخ:

«واعلم أن الشيوخ على حالين: شيوخ عارفون بالكتاب والسنة، قائلون بها في ظواهرهم، متحققون بها في سرائرهم يراعون حدود الله، ويوفون بعهد الله، قائمون بمراسم الشريعة، لا يتأولون في الورع، آخذون بالاحتياط، مجانبون لأهل التخليط، مشفقون على الأمة. لا يمقتون أحدًا من العصاة، يحبون ما أحب الله، ويبغضون ما أبغض الله ببغض الله، لا تأخذهم في الله لومة لائم: {يُؤْمِنُونَ بِ للَّهِ وَ لْيَوْمِ لْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِ لْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ لْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى لْخَيْرَٰتِ وَأُ لَـٰٓئِكَ مِنَ لصَّـٰلِحِينَ}[آل عمران: 114]، ويعفون عن الناس، يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويميطون الأذى عن طريق الله وطريق الناس، يؤدون الحقوق إلى أهلها، يبرون إخوانهم بل الناس أجمعهم، لا يقتصرون بالجود على معارفهم، جودهم مطلق، الكبير لهم أب، والمثل لهم أخ و كفؤ، والصغير لهم ابن، وجميع الخلق لهم عائلة، يتفقدون حوائجهم». (39)

وكما هو واضح فالوصف الذي يعطيه ابن عربي للشيخ قليل الوجود. فلا بد للشيخ من التواضع، والجود، ورحمة البشر أجمعين، وعدم الحكم على الآخر، ولا التمييز بين البشر فيكون كرمه مطلقًا للكل. كما قال أبو حامد الغزالي من النادر في زماننا، أي زمن الغزالي أن تجد الشيخ الذي يصلح ليكون شيخًا مريدًا. ومن اللافت أيضًا التواضع الشديد للشيخ، فمثلًا يوضح لنا السيوطي أن الشيخ الصوفي لا بد أن يجلس جلسة كلها تواضع بين تلاميذه، وليس في أي مكان أعلى منهم.

كما يصف لنا ابن عربي طائفة أخرى من الشيوخ:

«وطائفة أخرى من الشيوخ أصحاب أحوال، عندهم تبديد، ليس لهم في الظاهر ذلك التحفظ، تسلم لهم أحوالهم، ولا يصحبون، ولو ظهر عليهم من خرق العوائد ما عسى أن يظهر، لا يعول عليه مع وجود سوء أدب مع الشرع،

فإنه لا طريق لنا إلى الله إلا ما شرعه، فمن قال بأن ثمة طريقًا إلى الله خلاف ما شرع فقوله زور، فلا يقتدى بشيخ لا أدب له، وإن كان صادقًا في حاله، ولكن يحترم». (40)

يؤكد ابن عربي على أهمية الشرع أولًا، ويضع اتباع الشرع والاستقامة في مقام أفضل من الكرامات و المعجزات، فحتى لو وجدت شيخًا يخرق العادات فلا تتبعه، إلا لو تأكد لك أنه يتبع الشرع في كلامه وعمله ويملك كل الصفات المذكورة.

بل يؤكد ابن عربي أن الشيخ لا بد أن يستفيد من تلميذه أيضًا.

«قد يستفيد الأستاذ من التلميذ أشياء من مواهب الحق تعالى، لم يقض الله للأستاذ أن ينالها إلا من هذا التلميذ». (41)

مرة أخرى يوضح لنا ابن عربي أن الشيخ ليس العالم المعصوم أبدًا، ولكنه قد يتعلم من تلميذه.

ويقول جلال الدين السيوطي عن طريقة جلوس الشيخ: «وقد كان من هدى أهل العلم في قعودهم أن يجتمع في قعوده، وينصب ركبتيه، ومنهم من كان يقعد على قدميه، ويضع مرفقيه على ركبتيه، كذلك كانت شمائل كل من تكلم في هذا العلم إلى وقت أبي القاسم الجنيد، ولذلك روى عن رسول الله أنه كان يقعد القرفصاء، ويحتبي بيديه، وأول من قعد على كرسي يحيى بن معاذ الرازي». (42)

مرة أخرى يؤكد جلال الدين السيوطي أن كيفية جلوس الشيخ تعكس إخلاصه وتواضعه.

ويقول ابن عربي «اعلم - وفقنا الله وإياك - أنك إذا أردت الدخول إلى حضرة الحق، والأخذ منه بترك الوسائط، والأنس به، أنه لا يصح لك ذلك وفي قلبك ربانية لغيره، فإنك لمن حكم عليك سلطانه، هذا لا شك فيه، فلا بد لك من العزلة عن الناس، وإيثار الخلوة على الملأ، فإنه على قدر بعدك من الخلق يكون قربك من الحق ظاهرًا وباطنًا..

فأول ما يجب عليك، طلب العلم الذي به تقيم طهارتك، وصلاتك، وصيامك، وتقواك، وما يفرض عليك طلبه خاصة، لا تزيد على ذلك، وهو أول باب السلوك، ثم العمل به، ثم الورع، ثم الزهد، ثم التوكل». (43)

يوضح ابن عربي أن المريد طريقه إلى معرفة نفسه وربه طريق يسلكه وحده بلا وساطة، ولا بد في الخلوة أن يكون خاطرك مع الله وليس مع أي انسان.

ويصف لنا الغزالي في كتابه «أيها الولد» الشيخ المربي فيقول: «الشيخ المربي يعرض عن حب الدنيا والجاه، ولكن وجود مثله نادر، أعز من الكبريت الأحمر». (44)

فالشيخ إذن إن وجدت به الصفات المذكورة فاتباعه بالمعروف ممكن، ولكن الاعتماد يكون على الله. ولكن يؤكد بعض الصوفيون القدامى أن عدم وجود شيخ أيضًا ممكن.

ويضيف ابن عطاء الله في ندرة الشيخ: «إن طلبتَ قارئًا وجدت ما لا يحصى، وإن طلبت طبيبًا وجدتَ كثيرًا، وإن طلبتَ فقيهًا وجدتَ مثل ذلك، وإن طلبتَ من يدلُّك على الله تعالى ويعرِّفك عيوب نفسك لم تجد إلا قليلًا، فإن ظفرتَ به فأمسكه بكلتا يديك». (45)

حقيقة الصوفية تختلف عما يردده الناس عنها، وربما تختلف أحيانًا عن ما يظنه تابعوها مع أن لكل فرد الأحقية في عبادة الله كما يريد، وبطريقته الخاصة التي تريحه وتوصله إلى طاعة الله والتسليم له.

ولكن هذا لا يعني أن المريد أو السالك لا يحتاج إلى أن يجاهد نفسه، ويؤدبها، أو أن يتعلم. ولكن هناك من يستطيع أن يقرأ، ويعلم نفسه. لسنا جميعًا كالشيخ أبي حامد الغزالي الذي استطاع أن يتقن الفلسفة في أقل من عامين، ولكن العلم والقراءة من أهم ما يتميز به الصوفي والمسلم. حتى أن ابن عربي يقول عن كتابه مواقع النجوم «هو كتاب شريف يغني عن الشيخ في تربية المريد، وهو كتاب يقوم للطالب مقام الشيخ، يأخذ بيده كلما عثر المريد، ويهديه إلى المعرفة إذا هو ضل». (46)

اذا بالنسبة لابن عربي التعلم والقراءة جزء لا يتجزأ من الطريق.

يلخص لنا ابن عطاء الله القرب من الله قائلًا «واترك من لا يستطيع أن ينفع غيره. اقطع يأسك من الخلق، ووجِّه رجاءك إلى الملك الحق». (47)

وكلام ابن عطاء الله يؤكد ان لا وساطة بين العبد وربه ولا نفع ولا ضر إلا من الله.

فَلِمَ يخاف البعض من كلمة صوفية؟ لأنه قد أقحمت عليها بدع، كما دخل عليها شيوخ ليسوا أهلًا لها. ولأن البعض لا يعرف بالضبط ما هي الصوفية. هي الإحسان، وهو أعلى درجة من الإيمان.

نختم هذا الجزء بكلمات جلال الدين السيوطي:

«علمت أيضًا أنه قد كثر فيه الدخيل من قوم تشبهوا بأهله، وليسوا منهم فأدخلوا عليه فيه ما ليس منه». (48)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الهدف من الكتاب

في هذا الكتاب سنتبع طريقًا غير مألوف إلى حد ما لنتكلم على مفهوم السعادة المرتبطة بالرضا. سوف نركز على الحالة الإنسانية للمفكر الصوفي ورحلته إلى الوصول إلى مقام الرضا، وهو أعلى مقام عند كثير من الصوفيين. وللوصول إلى هذا المقام، يحتاج أي شخص إلى جهاد نفس قوي ومستمر. وهذا الكتاب هو دليل على كيفية تحقيق هذا. الوصول إلى الرضا مثل الوصول إلى الحرية في دنيا تعتبر، إلى حد كبير، سجنًا لأنها محدودة المدة والمكان. والرضا هو التحرر القليل من هذا السجن، وهذا لا يحدث سوى بمعرفة الله والقرب منه. هو قريب منا، ولكن نحن أحيانًا نختار أن نبتعد. الكشف هو القرب الشديد من الله، وهذا القرب يحرر النفس، فتحلق أحيانًا في سماء السعادة. ومقام الرضا الوصول إليه يحتاج أولًا إلى الوصول إلى مقامات أخرى. فلنشبه هذا المقام مثلًا ببلاد بعيدة تسافر إليها خلال عام، وكل شهر تتوقف في بلد، وتتعرف أهله أكثر وأكثر، وعندما تشعر بالراحة في هذا البلد يمكنك أن تتركه، وتذهب للبلد التالي. ولكن لا تذهب إلى البلد التالي حتى تشعر بالراحة والثبات في البلد التي زرته. فمثلًا يمكنك أن تنتقل من مقام العبادة المخلصة إلى مقام التوكل على الله، وعندما تجد الراحة في هذا المقام، تنتقل إلى مقام الصبر، والشكر، والثبات في السراء والضراء، وعندما تستقر في هذا المقام تنتقل إلى مقام الحب، وهذا من أعلى المقامات، فيصبح حبك لله أهم شيء في حياتك الدنيا، ومن هذا المقام تنتقل إلى مقام أعلى وهو مقام الرضا، ومقام الرضا مقام به نفحات من الجنة لأن النفس المطمئنة من صفات نفوس دخلت الجنة فعلًا. ولكن لتصل إلى أي من هذه المقامات تحتاج إلى المجاهدة والعلم، وأهم شيء تحتاج إلى معرفة الله.

سنقوم بالسياحة عبر الصفحات، والرياضة عبر الأمثلة. ولكن كيف يحدث الرضا بعد البلاء؟ كيف نرضى ونحن نتعرض لظلم، أو فقد، أو فقر، أو مرض؟ ما هو سر السعادة؟ نحتاج إلى أن نقرأ عن الصبر والبلاء عند علماء الصوفية، لنتذكر كلماتهم وقت البلاء ووقت العفو. ونطلب معهم من الله دومًا العفو والعافية، ونفهم معنى هذا الدعاء. سنتكلم عن الخلق العظيم الذي يؤدي إلى التحرر في الدنيا. ثم يترككم الكتاب مع رسالة خاصة لك أيها القارئ. هذا الكتاب هو نظرة تأملية في الحياة الدنيا، والرضا، والسعادة. لعل هذا الكتاب يعين البعض. والله أعلم.

ولنختم هذا المقال بكلمات إبراهيم بن أدهم، أحد أوائل المفكرين الصوفيين، فقد قال:

«نحن في سعادة لو علمها الملوك لجادلونا عليها بالسيوف». (49)

ولكن كيف وصل الصوفي إلى هذه السعادة؟ يقول إبراهيم بن أدهم «من عرف الله لا يكون له غم». (50)

وكان الشبلي رضي الله عنه يقول: «قلوب أهل الحق طائرة إليه بأجنحة المعرفة، ومستبشرة إليه بموالاة المحبة!». (51)

بِمَ طلب الله منا في كتابه أن نفرح؟ وما هي الحياة الطيبة التي وعدنا بها؟ وما هي البشرى؟ لعل الإجابة تكون في هذا الكتاب.

هل تعرف؟

هل تدرك أيها القارئ أنك تستخدم مصطلحات صوفية في حياتك اليومية طوال الوقت.

هذه بعض الكلمات التي تستعملها: واصل...

عندما تصف إنسانًا بأن له نفوذًا في العامية المصرية تقول «ده واصل»... وأصلها تقال على شيوخ الصوفية الذين اقتربوا من الله، فوصلوا إلى درجة عالية.

دعاء: «ربنا يفتح عليك يا شيخ... أو ربنا يفتح عليك».

الفتح كلمة مهمة في الصوفية، وتعني الخير الذي يأتي بالقرب من الله سواء هذا الخير هو فراسة وإحساس مرهف، أو كتابة، أو حب الناس، أو شيء من أمور الدنيا أو أمور الآخرة. لذا وجدنا عناوين كتبهم كما قلنا لا تخلو من كلمة فتح ومشتقاتها.

«كل شيخ وله طريقة».

مصطلح نستعمله في العامية المصرية لنعبر عن اختلاف طريقة أي فرد في الحياة، في تربية الأولاد، في الزواج... إلى آخره. وهو يؤكد الفكرة التي يتبعها الصوفيون أن الطرق تتعدد، ولكن الوصول يكون إلى الهدف نفسه دومًا. كما يقول ابن عجيبة «لا يلزم من اختلاف المسالك اختلاف المقاصد». (52)

ومصطلح آخر نستعمله عندما يتوقع أحدنا شيئًا، ويحدث، أو عندما يملك أحدنا فراسة فنقول: «إنت مكشوف عنك الحجاب».

أي أن لا حجاب بينك وبين الله. والحجاب بالنسبة للصوفية هو بعد العبد عن ربه، ورفع الحجاب هو قرب العبد من ربه، وهذا القرب يجعل نفسه شفافة حساسة.

ومضة نور

«التصوف ضبط حواسك، ومراعاة أنفاسك» (53) -أبو بكر الشبلي.

«أنه لم يوجد في أمة من الأمم مَن يضاهي الصوفية في علم الأخلاق، وتربية النفوس، وأنه بضعف هذه الطبقة فقدنا الدين» (54) - محمد عبده (أحد رواد الإصلاح الديني في العصر الحديث).

«الإيمان نصفه صبر، ونصفه شكر» (55) -ابن عربي.

«وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها، فقطع العلائق الجاذبة هو المراد». (56)

أبو حامد الغزالي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



رابعة العدوية رائدة التصوف والعشق الإلهي

«أقول الصدق لأني أحبه.. لا أخاف النار.. ولا أطمع في الجنة»

رابعة العدوية

وجدت رابعة العدوية السعادة في الدنيا والآخرة بحبها لله حب المخلص الصادق. ولكن من هي رابعة؟

ما نعرفه عن حياة رابعة العدوية مثل ما نعرفه عن الكثير من أقطاب الصوفية، هو قليل. السبب هو أن الصوفي لا يكتب عن إنجازاته بقدر ما يكتب عن صراعه ومجاهدته لنفسه وأطماعه، فتأتي التجربة الصوفية تجربة وصول إلى النجاة عن طريق إدراك العجز الكامل أمام قدرة الله، والانتصار الجزئي على النفس الأمارة بالسوء. فمثلًا كم زوجة لابن عربي؟ لا نعرف. هل تزوجت رابعة العدوية؟ لا نعرف. هل عاشت في بداية حياتها حياة مجون أو فساد؟ لا نعرف. يتفق الكثيرون أنها رابع الأبناء لأحد سكان العراق، وأنها بيعت كجارية وكانت تعزف على الناي في الغالب، وأن سيدها عندما علم بورعها وتقواها قرر أن يخيرها بين البقاء معه أو تركه، وقررت أن تتركه وتتفرغ للعبادة. في الغالب ولدت رابعة في عام 718 ميلاديًا، أو نهاية أول قرن في التقويم الإسلامي، أي أنها من أوائل الصوفيين. نشأت في العصر الأموي، ولا نعرف تحديدًا لو عاصرت حسن البصري أو ذا النون المصري. لأننا أيضًا نعرف أقوال حسن البصري، وذي النون المصري، ولا ندرك الكثير عن حياتهما.

أهمية رابعة العدوية في التصوف الإسلامي ترجع لعدة أسباب، أهمها أنها أثبتت أن المرأة تستطيع أن تصل إلى القطبية. وقد كتب ابن عربي في «الفتوحات المكية» أن المرأة والرجل متساويان في العبادة والإنسانية، لذا فلدى رابعة القدرة لتصل إلى أعلى مراتب الصوفية مثلها مثل الرجل، ويمكنها الوصول إلى القطبية كما قال ابن عربي في الفتوحات المكية.

منزلة رابعة العدوية الكبيرة كإحدى مؤسسي التصوف الإسلامي لا تقف عند كونها ربما من أوائل المتصوفة الذين ذكروا في الكتب التراثية حتى قبل الجنيد بأعوام، ولكن لكونها شكلت من خلال كلماتها الفكر الصوفي الذي سيتبعه بقية المتصوفة على مر الزمان. وقد وضعها العلماء منهم ابن عربي في رتبة عبد القادر الجيلاني. (57) ويقول ابن تغري بردي: رابعة، البصرية الزاهدة العابدة توفيت سنة 135 هـ. (58) يعتبر الجاحظ في عام (163-255هـ) هو أول من كتب عن رابعة. وهي في الغالب من آل عتيك بني عدوة، لذا سميت عدوية.

في طريقها للبحث عن السعادة اكتشفت رابعة الحب ووجدت فيه المراد والغاية. وأول ما شكلت رابعة العدوية هي فكرة حب الله من أجل كونه الله، وليس طمعًا في جنة أو خوفًا من نار. فكرة العبادة من أجل العبادة هي فكرة المحسنين الذين تكلم القرآن عنهم. يعبدون الله كأنهم يرونه، فهو معهم أينما كانوا. نحب الله لكونه خلق هذا الكون، ولذا يُنسب إليه كل ما هو جميل فيه، وكل ما تتعلق به النفس من زينة سواء أطفال أو مال أو رياسة (أية سلطة)، هي فكرة في أصل الصوفية. يبقى الله هو الغاية، وكل ما دونه وسائل وصور تفنى وتنتهي بعد وقت قصير أو طويل. فنجد قصصًا في هذا المقال تبرهن على ذلك.

الحب عند رابعة سر السعادة

حب الله عند رابعة هو أمر طبيعي لأنه هو الخالق والرازق، وهو الوحيد الباقي، فحبها له حب طبيعي. كما يصف ابن عربي، الحب الطبيعي له مظاهر مثل الشوق، والشغل به عمن سواه، والرغبة في لقائه، والابتعاد عن كل ما يغضبه. وهذه عناصر وأعراض الحب الطبيعي، وهو أيضًا حب روحاني (بالنسبة لابن عربي) لأنه حب يتعدى الرؤية، فهي تتذوق من رضاه، ووجوده معها حتى لو لم تره رأي العين. وهي لا تحتاج إلى الحس لتعرفه. وهنا نأتي لمصطلح «الذوق» الذي يستعمله الصوفية بمعنى إحساس داخل النفس يصعب وصفه، إحساس بالله، وبوجوده، وقربنا منه. وهي من أهم مفردات الصوفية المرتبطة بالحواس الخمس، ولكنها تتعدى قدراتهم لأنها ممزوجة بالخيال، والقدرة على تعدي العالم الفاني للتفكر في أمر الخالق. فتبقى رؤية الله مجازية في الدنيا، وأملًا في الآخرة. ويبقى استعمال اللغة هو سر فهم المفردات الصوفية ومعانيها.

وتنبع من الحب الإلهي كل القدرة على جهاد النفس، وكل الإدراك أن الانسان عاجز أمام قضائه، وأن إدراكه عجزه هو أول الطريق إلى الكشف والقربى. الحب ممزوج بالرضا، والرضا شعور عند رابعة متبادل بين الله والعبد. فلا بد للعبد أن يرضى أولًا عن الله وقضائه حتى يرضى الله عنه. المحب يرضى، ويتبع من يحب، ولا يسخط منه، ولا يسأم أوامره. لذا اشترطت رابعة رضا العبد قبل أن يرضى عنه الله.

والمحب أيضًا يدرك أن حبه للخالق ليس حبًا بين روحين متساويين، بل هو حب العاجز للقادر. لذا القوة لا تأتي إلا منه، والصبر منبعه هو، والإنسان يردد «لا حول ولا قوة الا بالله» لأنه يعرف أن القدرة من الله. ويبقى على الإنسان حينها أن يدرك فناءه وضعفه أمام قوة الله. لذا نجد قصة من يدعو أن يتوب، فتجيب رابعة: بل ادعُ أن يتوب عليك الله، فتتوب. وهذه أيضًا فكرة قريبة جدًا من فكر ابن عربي في التوبة والصبر، فيقول ابن عربي إن الانسان عليه

بدعوة الله أن يعطيه الصبر، لأنه لا يستطيع أن يصبر بقوته هو، بل بقوة الله، لذا لديه مقام في «ترك الصبر» وهو يقصد بهذا ترك الصبر من نفسك، وإدراكك عجزك أمام قدرته، والاستسلام التام له كالغريق الذي لا يحاول أن ينقذ نفسه، لأنه لا يستطيع، بل يترك مصيره في يد خالقه، هو يعطيه الصبر والقوة والإدراك.

وهذا لا يعني أن الصوفية لم يعملوا، أو أنهم تواكلوا وكانوا كسالى، بل سنجد منهم التجار، والعطارين، والمجاهدين في سبيل الله ضد الصليبيين؛ فإدراك العجز أمام القضاء الذي لا يمكن تغيره كالفقد، والمرض المزمن، والرزق لا يعني أننا لا نعمل لمساعدة أنفسنا في القضاء الذي يمكن تغييره.

وحب الله يشغلك عن الدنيا، فتعرف أن الحياة ليست سوى رحلة، وليست وطنًا للبقاء كما قال ابن عربي «موطن الرحلة ليس بموطن». (59)

ولعلنا نعرف أكثر عن فراسة رابعة العدوية، وصراحتها وصدقها اللذين يبدوان أحيانًا صادمين لغيرها. ولكنها تبدو من القصص المتناثرة حولها كإنسانة شديدة الفهم للنفس البشرية، وشديدة الصدق مع كل البشر، وشديدة الحب لله. تخترق رابعة القلوب بفراستها، فترى الضعف والرياء أحيانا.

وفي حبها لله تقول رابعة:

«ما عبدته خوفًا من ناره، ولا حبًا لجنته فأكون كالأجير السوء إن خاف عمل... بل عبدته حبًا له وشوقًا إليه». (60)

ثم تناجي الله قائلة:

«إلهي إذا كنت أعبدك خوفًا من نار فأحرقني بها، أو طمعًا في جنة فحرمها علي، وإذا كنت أعبدك يا إلهي إلا لأجلك، فلا تحرمني من مشاهدة وجهك». (61)

يبقى الأمل الكبير عند الصوفية هو لقاء الله في الآخرة، والقرب منه في الدنيا. والقرب هو بالتذوق لشهوده حولنا، والشعور به معنا. فهو شعور يصعب شرحه، واستعمال اللغة هنا مختلف عن الاستعمال المعروف. فهي تقف مكتوفة الأيدي أمام شرح كم المشاعر بداخلها.

يصف لنا المؤرخون لقاءات متعددة بين الصوفي «الحسن البصري» ورابعة العدوية، لا نعرف مدى صحتها، ولكنها توضح لنا فكر رابعة، وصدقها الشديد. وربما من أهم ما ندركه في هذه اللقاءات هي كون رابعة عالمة كبيرة يتجه إليها أهم الصوفيين طالبين النصيحة، ولا يكترثون لكونها امرأة، حتى إن هناك قصة عن أنها جلست مع الحسن البصري طويلًا تتناقش في أمور الدين، حتى نسي تمامًا كونها امرأة وكونه رجلًا. مرة أخرى ينفي الصوفيون أي تمييز ضد

المرأة كإنسان متساوٍ مع الرجل في الإنسانية وفي عداء إبليس، كما يقول ابن عربي في الفتوحات المكية.

في أحد لقاءات رابعة العدوية مع الحسن البصري (21 هـ / 642 م – 110 هـ / 728 م) يطلب منها أن تصف له حبها لله.

«قال لها: صفي لي المحبة:

فقالت سبحان الله! أنت عارف بها، وتتكلم بلسان المعرفة وتسألني عنها؟ فقال لها: للسائل حق الجواب فأنشدت تقول:

عرَفْتُ الهَوى مُذ عَرَفْتُ هواك

وأغْلَقْتُ قَلْبى عَلى مَنْ عَاداكْ

وقُمْتُ اُناجِيـكَ يا مَن تـَرى

خَفايا القُلُوبِ ولَسْنا نراك

أحِبُكَ حُبَيْنِ حُبَ الهَـوى

وحُبْــاً لأنَكَ أهْـلٌ لِـذَاك

فأما الذى هُوَ حُبُ الهَوى

فَشُغْلِى بذِكْرِكَ عَمَنْ سِـواكْ

وأمّـا الذى أنْتَ أهلٌ لَهُ

فَلَسْتُ أرى

الكَوْنِ حَتى أراكْ

فلا الحَمْدُ فى ذا ولا ذاكَ لي

ولكنْ لكَ الحَمْدُ فِى ذا وذاك

يا حبيب القلب ما لي سواك

فارحم اليوم مذنبا قد أتاك

يا رجائي وراحتي وسروري

قد أبى القلب أن يجيب سواكا» (62)

في هذه الأبيات تعبر رابعة عن الحب الروحاني، والحب الطبيعي الذي تحبه لربها. فمن نعوت الحب الشوق للمحبوب وإنشغال الإنسان بمحبوبه عن كل

شيء. هذا هو أول حب وهو حب الهوى. أما حب الله فهي تثبت حبها لله لأنها تراه في كل الكون حولها. تراه في كل ما صنع وما خلق.

جملة «فلست أرى الكون حتى أراك» يشرحها لنا ابن عجيبة بأنها تعني: إنني أراك ببصيرتي، لذا أرى كل الكون حولي. فقد فتحت علي برحمتك، وجعلتني أقترب منك، فأصبحت أرى كل الكون بعين مختلفة. فحبها حب شوق، وذكر له طوال الوقت، وحب قرب وبصيرة تجعلها ترى تفاهة الدنيا وروعة لقاء المحبوب.

وكون رابعة قررت ألا تتزوج فهذا لا يعني أنها تدعو الآخرين للشيء نفسه، بل هو اختيار شخصي لها الحق فيه. وهذا لا يعني أن رابعة تميل إلى الرهبنة لأن الصوفيين المسلمين - كما يقول عبد الحليم محمود في كتابه عن المحاسبي - اعتمدوا في مفرداتهم وأفكارهم على القرآن كالمنبع والمصدر الأول. فنجد مفردات مثل الولي من {أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ للَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: 62]. وكلمات مثل المحسنين، وكلمات مثل المقام. {وَمِنَ لَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَا ا مَّحْمُو ا} [الإسراء: 79]... إلخ. (63)

وعن شغلها بذكر الله عن أي شيء كما قالت في شعرها نذكر هذه القصة:

«وخطبها محمد بن سليمان أمير البصرة على مائة ألف وقال: لي غلة عشرة آلاف في كل شهر أدفعها إليك.

فكتبت إليه: ما يسرني أنك لي عبد، وأن كل ما تملكه لي، وأنك شغلتني عن الله طرفة عين». (64)

جواب رابعة عن طلب الزواج يثبت مقولتها في القصيدة الشهيرة «شغلي بذكرك عن من سواك». فهي لا تريد لإنسان أن يشغلها عن العبادة.

وعن نصحها لغيرها بكيفية الحب نجد هذه القصة: «نظرت إلى رياح القيسي وهو يقبل صبيًا من قومه، ويضمه إليه فقالت: أتحبه يا رياح؟ قال: نعم. قالت: ما كنت أحسب أن في قلبك موضعًا فارغًا لمحبة غيره». (65)

فنجد أن رابعة شغلها حب الله عن حب غيره. هذا لا يعني انها لا تحب البشر ولكن هي تحبهم لأنهم مخلوقات الله. فالحب كله لله.

وهذه قصة أخرى بين الحسن البصري ورابعة لا نعرف صحتها، ولكن يمكننا أن نخرج منها بالكثير من الأفكار المهمة.

«ومما يحكى عن رابعة، أنه بعد وفاة زوجها استأذن الحسن البصري وأصحابه في الدخول عليها، فأذنت لهم وأرخت سترا وجلست وراءه، فتحدثوا إليها،

وطلبوا منها أن تتزوج، فقالت لهم: ولكن من أكثركم علمًا حتى أزوجه نفسي؟ فقالوا: الحسن البصري.

فقالت: إن أجبتني في أربع مسائل فأنا لك.

فقال البصري: سلي إن وفقني الله أجبتك.

فقالت: ما تقول لو مت وخرجت من الدنيا أأخرج على الإيمان أم لا؟

فقال: هذا غيب، ولا يعلم الغيب إلا الله.

فقالت: ما تقول لو وضعت في القبر، وسألني منكر ونكير أأقدر على جوابهما أم لا؟

فقال: هذا غيب، ولا يعلم الغيب إلا الله.

فقالت: إذا حشر الناس يوم القيامة، وتطايرت الكتب، أأعطى كتابي بيميني أو بشمالي؟

فقال: هذا غيب، ولا يعلم الغيب إلا الله.

فقالت: إذا نودي للناس.. فريق في الجنة وفريق في السعير، كنت أنا من أي الفريقين؟

فقال: هذا غيب، ولا يعلم الغيب إلا الله.

فقالت: من كان له غم هذه الأربعة كيف يشتغل بالتزويج؟ فبكى الحسن ومن معه». (66)

القصة تؤكد شغل رابعة بالله فقط وبيوم لقائه كأنها تعد له العدة، وترتب لهذا اللقاء المؤجل. ولكن ما يجب أن نلتفت إليه في هذه القصة أيضا هو أن قطبين من أقطاب التصوف، ورجال الدين، وعارفي الشريعة، ودارسي كتاب الله، لأن علم الشريعة يأتي قبل علم الحقيقة أي الصوفية، لذا فالصوفي عليه أن يعلم شرع الله قبل أن يدخل في علم الحقيقة، لا يستطيع أحدهما أن يجيب الآخر عما يحدث للإنسان بعد الموت، ولا يستطيع أن يجزم الحسن البصري بأن رابعة في الجنة أو النار. وهذا متوقع من الصوفي الذي يبذل في حب الله النفس، ويفنيها، فيهرب الكبر من قلبه ونفسه، ولا يبقى له إلا التواضع والعجز والعبودية أمام قدرة الله. لذا لا نجد أي صوفي يكفر غيره، أو يعده بالجنة لأنه لا يجد في نفسه القدرة بأن يتنبأ بالمستقبل، ولا أن يعرف حال الروح بعد الموت. ومع ذلك يبقى الفكر الصوفي أكثر تفاؤلًا وثقة في رحمة الله عن غيره من الفكر. فالخوف من الله ليس هو الهدف. كما يقول فريد الدين العطار «الخلق يخشونك. وأنا أخشى نفسي. فما رأيت منك إلا

الخير، وما رأيت من نفسي إلا كل شر. وَلَتُعِني إذا ما جئت في غير موعدي. فكل من حاز البقاء في حضرتك أصبح سعيدًا». (67)

وفي شرح حال الأولياء للشيخ عز بن عبد السلام أن رابعة سئلت عن المحبة فقالت: «ليس للمحب وحبيبه بين. وإنما هو نطق عن شوق، ووصف عن ذوق، فمن ذاق عرف، ومن وصف فما اتصف. كيف تصف شيئا أنت في حضرته غائب، وبوجوده دائب، وشهوده ذائب، وبصحوك منه سكران، وبفراغك له ملآن، وبسرورك له ولهان». (68)

الحب عند رابعة حال لا يمكن وصفه إلا لمن يعرف المحبة والشوق الى لقاء الله والفناء في وجوده. لأن الله موجود ونحن مجرد مخلوقات تذوب في حضرته وتفنى في الدنيا وتُبعث من الله.

أمَّا ما تروم إليه رابعة فهو القرب من الله في الآخرة.

«إن رابعة سئلت كيف رغبتك في الجنة؟ فقالت: الجار ثم الدار!». (69)

هذه المقولة يستعين بها الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين ليوضح الحب لله. فهناك بعض الناس لا تهتم بالثواب والعقاب بقدر اهتمامها بالقرب من الله، لأنه المحبوب الوحيد.

وفكرة أن القلب لا يتسع لحب الدنيا وحب الله موجودة أيضًا في حكم ابن عطاء الله السكندري. فمن أشرق قلبه بنور الله يرَ كل ما في الدنيا متغيرًا فانيًا. يحب مخلوقات الله لأنها مخلوقاته، ولا يتعلق بشيء لأن التعلق قيد وعبودية. لذا يضيف ابن عطاء الله في الحكم أن بعض الناس لا يكون هناك مكان في قلوبهم لربهم لأن صور الأشياء الفانية مطبوعة داخل القلب تحتل كل المكان.

ويروي الحسن البصري أنه بقى ليلة ويومًا في ضيافة رابعة يتناقشان، نسى أنها امرأة، وأنه رجل، ولما انتهيا، شعر الحسن أنه لم يكن في نقاشه إلا فقيرًا، بينما كانت هي غنية بإخلاصها». (70)

«سألها كيف وصلت لهذه الدرجة، قالت بفنائي كليًا». (71)

فكرة الفناء في الحب مهمة عند علماء الصوفية. الحب إخلاص ورضا وطاعة للمحبوب.

وعن رؤية الله ببصيرتها، رؤية من يعبد الله عن علم ومعرفة نجد هذا الحوار.

«وقالوا لها: هل ترين من تتعبدين له؟ فأجابت: لو لم أكن أراه لما عبدته». (72)

والتالي حوار آخر يوضح أن الصوفي يعرف أن العلم بلا عمل لا يكفي. فلا بد أن نطيع الله أولًا قبل أن نقول أحبك في الله.

«قالت امرأة لراب عة: إني أحبك في الله، فقالت لها: أطيعي من أحببتني له». (73)

الحب مقترن بالرضا

يقول الصوفي أبو سليمان الداراني عن الحب «المحبة هي الموافقة له فيما أمر، والانتهاء عما زجر، والرضا بما حكم وقدَّر».

المحبة مقترنة بالرضا بقضاء الله وطاعته.

قيل إن سفيان الثوري (الصوفي الزاهد) قال وهو عند رابعة العدوية: «اللهم ارض عني. فقالت له: أما تستحي أن تطلب رضا مَنْ لست عنه براضٍ«. (74)

تخترق «رابعة العدوية» بفراستها قلب سفيان الثوري وهو رجل صالح، ولكنها ربما ترى بداخله لحظات حزن من بعض الأقدار، فكيف يطلب من الله أن يرضى عنه، وهو لا يرضى بقدره. لذا نجد أن ابن عطاء الله السكندري يشرح لنا الآية الكريمة {يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ. ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً}[الفجر: 27، 28]. فيوضح ابن عطاء الله أن النفس لتطمئن لا بد أن ترضى أولًا بما كتبه الله، ثم يرضيها الله، ويدخلها جنته مع عباده الصالحين. الرضا يولد السعادة. ولنشرح فكرة الرضا سنتجه إلى الأدب:

إن نجيب محفوظ في رواية «اللص والكلاب» ذكر كلمات رابعة عن الرضا على لسان الشيخ، وهو يتكلم مع سعيد مهران بطل الرواية، يأتي سعيد مهران بطل رواية اللص والكلاب بعد خروجه من السجن للشيخ الصوفي وقلبه ممتلئ بالسخط على ابنته وصديقه الخائن وزوجته. فقد اكتشف سعيد مهران أن سبب دخوله السجن هو خيانة صديقه وزوجته وعندما خرج، وجد ابنته لا تعرفه فقرر الانتقام. وقبل أن يشرع في الانتقام يذهب لزيارة الشيخ فيقول سعيد مهران للشيخ:

«كان أبي يقصدك عند الكرب، وجدت نفسي..

فقاطعه بهدوء لا يخرج عنه:

ـ أنت تريد بيتًا ليس إلا..

تضاعف شعوره بأنه يعرفه، وقلق دونما سبب مفهوم، وقال:

ـ ليس بيتًا فحسب، أكثر من ذلك، أود أن أقول: اللهم ارضَ عني..

فقال الشيخ المترنم:

ـ قالت المرأة السماوية: «أما تستحي أن تطلب رضا مَنْ لست عنه براضٍ؟!«. (75)

إن «سعيد مهران» يدعو الله بأن يرضى عنه، وقلبه ممتلئ بالحقد والسخط. فيجيبه الشيخ بكلمات رابعة. ثم يعرف له الشيخ الحب والرضا مستعملًا القرآن الكريم ثم مقولة الراداني الصوفية:

يقول الشيخ لسعيد مهران: «توضأ واقرأ: ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ، واقرأ: ﮔ ﮕ . وردد قول القائل: «المحبة هي الموافقة أي الطاعة له فيما أمر، والانتهاء عما زجر، والرضا بما حكم وقدَّر». (76)

و»سعيد مهران» في رواية اللص والكلاب لا يرضى بقضاء الله، بل يستنكر أن ابنته قد تنكرت له، وهو من أنجبها، فيذكره الشيخ بأنها مثله، ولكن سعيد مهران لا يفهم كلمات الشيخ، ولا يعرف حينها أنه هو أيضًا قد غضب، وسخط على ربه، بل ونَسِيه في غمرة غضبه الشديد من أعدائه، ورغبته في الانتقام.

«وسُئلَت رابعة، متى يكون العبد راضيًا؟، فقالت: إذا سرَّته المصيبة كما سرَّتْهُ النِّعمة». (77)

ربما ما تقصده رابعة هنا هو الثبات الذي تكلم عنه ابن عربي، فقال إن الثبات في الحب هو سر الرضا. كما يقول الله في كتابه {لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَ للَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَا فَخُورٍ} [الحديد: 23].

وعن الرضا نجد هذه القصة أيضا: عندما سئلت عن عبدة بنت أبي كلاب فقالت: هيهات! سبقتنا والله إلى الدرجات العلى!

وسُئلت: بم وقد كنت أنت عند الناس أكثر منها؟ قالت: إنها لم تبالِ على أي حال أصبحت من الدنيا وأمست.

صفات رابعة: اللجوء إلى الله والتواضع

وفي عجز الإنسان عن التوبة دون مساعدة ربه وإدراكه عجزه (78) تقول:

«قيل إن رجلًا قال لرابعة: إني أكثرت من الذنوب والمعاصي، فلو تبت هل يتوب علي؟

فقالت: بل لو تاب عليك لتبت». (79)

«وطلب منها رجل يومًا أن تدعو له، فالتصقت بالحائط وقالت: ومن أنا يرحمك الله! أطع ربك، وادعه فإنه يجيب المضطر!». (80)

هذه القصة مهمة جدًا في توضيح إدراك رابعة ضعفها وتواضعها الشديد مهما بلغت من العلم والعبادة. فهي تستحي أن تدعو للعبد، وتطلب منه أن يقيم علاقة مباشرة بخالقه. وهذه القصة تذكّرنا بقصة البسطامي المذكورة في كتاب الغزالي، والتي سوف نكتب عنها في المقالات القادمة.

وفي قدرتها على الاستغناء، غنى وثراء وقوة. فنجدها لا تحتاج لأحد ولا تطلب من أحد. يذكر عبد المنعم الحفني في كتابه عن رابعة:

«رابعة القيسية قيل لها لو كلمنا رجال عشيرتك فاشتروا لك خادمًا يكفيك مؤونة بيتك؟

فقالت والله إني لأستحي أن أسال الدنيا من يملك الدنيا، فكيف أسالها من لا يملكها!». (81)

أي أنها تخجل من الطلب من الله بعد كل ما أعطاه لها، فكيف تطلب من إنسان عاجز لا يملك شيئًا؟

عن حب الدنيا

كانت رابعة تحذر الناس من الرياء، إذ تقول: «اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم« (82) لأن كل الخير الذي يفعله البشر لا بد أن يأتي من حبهم المخلص لله، وليس لرغبة في إرضاء الناس.

تتضح فراسة رابعة في فهم الضعف البشري الذي يمكن أن يخفى على عامة البشر عندما تجد من يذم الدنيا كما في القصة التالية.

«وقيل إن رياحًا القيس، وصالح بن عبد الجليل وكلابًا دخلوا على رابعة فتذكروا الدنيا، فأقبلوا يذمونها، فقالت رابعة: إني لأرى الدنيا بترابيعها في قلوبكم.

فقالوا: ومن أين توهمت علينا؟

قالت: إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكتمتم فيه!». (83)

ما تقصده رابعة هو أن من لا يهتم بأمر الدنيا أصلا، لا يذمها ولا يفرح بها لأنها بالنسبة إليه لا تساوي أي شيء.

ووصفها سفيان الثوري (716م - 778م): «المؤدبة التي لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها». (84)

وتقول رابعة لسفيان الثوري: إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل، وأنت تعلم، فاعمل». (85)

وعندما سألها سفيان الثوري عن ما يقرب العبد من ربه وقال: «مريني بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل؟ فقالت: عليك بكثرة ذكره». (86)

الكرامة هي الاستقامة

أما في موضوع كرامات الصوفيين فلنا في رابعة العبرة. رابعة مثلها مثل ابن عطاء الله السكندري من بعدها، لا ترى في الكرامات الظاهرة ما يدعو للفخر، بل ترى في الاستقامة والثبات على العبادة والبعد عن الذنوب كل المعجزة، فاستقامة النفس صعبة أصعب من كل المعجزات الظاهرة. فمثلًا الساحر في السيرك يستطيع أن يخدع البصر، هل نعتبر هذه كرامة؟

تقول رابعة عن الكرامات لحسن البصري:

«والمهم أن نبلغ درجة أعلى من هاتين الدرجتين اللتين بلغناهما أنا وأنت!».

ترى رابعة مثل باقي علماء الصوفية أن الثبات على طاعة الله والتوبة المستمرة والاستقامة في الأعمال والنوايا هي الكرامة الحقيقية التي يبغاها العباد. وأن الوصول إلى مقام أعلى من العبودية هو الغاية.

ملخص

«تقول مرجرت سميث إن رابعة أعظم متصوفات الإسلام». (87)

وتقول رابعة عن علاقتها بالله: «فإذا نظرت فلا أرى إلا له وإذا حضرت فلا أرى إلا معه». (88)

هذه هي رابعة بفراستها، وصدقها، وإخلاصها. ربما لا نستطيع أن نتوق إلى قدرتها التي وهبها الله لها، ولكننا نتمنى أن نرى الله وحده في كل عمل نقوم به، وأن نستغفر لذنوبنا بالقلب قبل اللسان، لأن الله ينظر إلى القلب السليم، وليس فقط إلى المراسم والظواهر. القلب السليم يبقى الغاية إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

رابعة العدوية أرست قواعد حب الله المقترن بالرضا وطاعة أوامره لنا. فلا حب بلا عمل، ولا طاعة لمحسن بلا حب. هناك فرق بين الرياء والكلمات وما في القلب. القلب لا يتسع سوى لأنوار الله، فاحذر أن يأتي نور الله فلا يجد في قلبك مكانًا لأنك عبد لأشياء تملكك. ابحث عن الحرية لتسعد.

نختم بمقولة البسطامي عن حب الله ورعايته لنا:

«غلطت في ابتدائي في أربعة أشياء توهمت أني أذكره، وأعرفه، وأحبه، وأطلبه، فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري، ومعرفته سبقت معرفتي، ومحبته أقدم من محبتي، وطلبه لي أولًا حتى طلبته». (89)

ولكن الشك يؤرق، ويعذب، واليقين يدعو إلى الطمأنينة، كيف تصل النفس إلى الطمأنينة؟ هذا هو موضوع المقال القادم.

ومضة نور

«إلهي هدأت الأصوات، وسكنت الحركات، وخلا كل حبيب بحبيبه، وقد خلوت بك أيها المحبوب، فاجعل خلوتي منك في هذه الليلة عتقي من النار». (90)

رابعة العدوية

«رابعة العدوية: سئلت يومًا كيف بلغت هذه المرتبة العالية في الحياة الروحية؟ فقالت: قَولي دائمًا اللهم إني أعوذ بك من كل ما يشغلني عنك، ومن كل حائل يحول بيني وبينك. قال رسول الله: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». (91)

«حبيبٌ غابَ عن بصري وشخصي... ولكن في فؤادي ما يغيبُ». (92)

رابعة العدوية

الطريق من الحيرة إلى الحقيقة: أبو حامد الغزالي

البحث عن معنى للحياة

«مفاتيح القلوب بيد الله يفتحها إذا شاء كما شاء بما شاء»

الغزالي

ربما ما يميز علماء الصوفية هو التعمق في التجربة الإنسانية، والكتابة عن النفس البشرية بصدق غير معهود. يقول الشيخ الأكبر ابن عربي إن الطريق إلى الله يتعدد بتعدد الباحثين. لكل عالم صوفي قصة، ومحنة، ورحلة. كلهم يشبهوننا، يخطئون ويتوبون، يفقدون صبرهم ويستغفرون، يحتارون تارة، ويشكون تارة، ثم يعودون إلى ربهم. هم أولياء الله، ولكن الولاية رحلة بين الفتن والمحن. ما يميز الولي هو صدقه مع نفسه، وهذا صعب لو تعلمون. وأنا أكتب أحببت كل عالم على حِدَةٍ، أحببتهم كبشر، وتعاطفت معهم في ضعفهم وقوتهم. لأنهم مثلنا لا يدّعون المثالية المفرطة، ومن فرط تواضعهم لا يتحدثون كثيرًا عن ورعهم، ولا كراماتهم بقدر ما يتحدثون عن ضعفهم، وحبهم الشديد لله، ورحلة التخلص من التفاصيل التافهة في هذه الدنيا. هم يجتهدون بتواضع العلماء، ويحبون بصدقهم.

ومن أروع التجارب النفسية التي كتب عنها أعلام التصوف هي تجربة الشيخ المجدد الإمام أبي حامد الغزالي (1058-1111م 450-505 هـ)، كما يقول عنه الدكتور عبد الحليم محمود (في كتاب أستاذ السائرين، الحارث بن أسد المحاسبي) هو من أهم علماء وفلاسفة العالم، وليس فقط العالم الإسلامي. وهو من المجددين أيضًا. يصفه عبد الحليم محمود برقة الإحساس، والبعد عن الصراعات العدوانية. ولكن هذا لا يمنع أن أبا حامد الغزالي الذي نشأ يتيم الأبوين في طوس (إيران)، كان يتمتع بقدر وافر من الفراسة والطموح أهّله أن يحصل على مكانة عالية لدى الوزير السلجوقي «نظام الملك» في بغداد. نشأ الغزالي على عكس ابن عربي يتيم الأبوين، أوصى والده صديقًا صوفيًا له أن يحسن تعليم ولديه أحمد وأبي حامد (محمد)، وبعد أن نفد ما ترك الأب من مال، ولم يستطع الصديق الإنفاق عليهما، لجأ إلى وضعهما في مدرسة لطلب تعليم الفقه والشريعة حتى يتسنى لهما الحصول على طعامهما. وقال الغزالي عن طفولته جملته الشهيرة: «تعلمنا العلم لغير الله، فأبى العلم أن يكون إلا لله» (93)، أي أن ظروف الفقر هي التي وضعت به في طريق تعلم الشريعة. وكان الغزالي شافعيًّا ولقب بحجة الإسلام، العالم الأوحد، ومفتى الأمة، وإمام أئمة الدين، وشرف الأئمة.

مع ارتقاء الغزالي وشهرته في عصره، كان الطلاب والساسة يتوقون إلى لقائه والاستماع إلى دروسه، ويحكى أنه كان يرتدي أفخر الملابس، ثم مر بتجربة غيرت مجرى حياته وهو في حوالي الأربعين. ربما تشبه إلى حد كبير تجربة منتصف العمر التي يمر بها كثير من البشر، وبدأ يتساءل عن الهدف مما يفعل، ويحاول أن يجد إجابات عن أسئلة صعبة ليس لها إجابة محددة في كتب الفقه والشريعة.، تسرب الشك إلى نفسه، وبدأ يؤرق نومه. وترك لنا أبو حامد الغزالي كتابًا من أهم الكتب في شرح رحلة النفس عبر العلم والبحث عن معنى للحياة. كتاب «المنقذ من الضلال» وهو أكثر من مجرد سيرة ذاتية، نحن أمام رجل يواجه ضعفه بشجاعة وصدق وإخلاص، ويواجه أحيانًا عجزه أيضًا، ويعلمنا درسًا في الشك واليقين، وفي البحث والصبر، واليأس والأمل. هذا كتاب لا بد من قراءته لمعرفة النفس البشرية أولًا وأخيرًا. في هذا المقال أريد أن ألخص بعض النقاط في الكتاب. في كتبه يعلمنا الغزالي كيفية البحث عن السعادة وماهيتها.

الشيخ أبو حامد الغزالي، كان شخصية فذة في الذكاء، فقد انتهى من دراسة علوم الشريعة والدين في سن الثلاثين، وقرر بعدها أن يتحدى نفسه، وأن يدرس علم الفلسفة، في أقل من سنتين، وبالفعل استطاع أن ينتهي من دراسة علم الفلسفة وقراءة كتب الفلاسفة اليونانيين، وهو أمر صعب على أي شخص. ودرس أيضًا علم الكلام، وعلوم الحساب والمنطق. لكنه في أثناء دراسته ظلت مجموعة من الأسئلة عالقة في ذهنه، وعندما وصل لسن الأربعين بدأت الأسئلة توجعه كما أزعجه الهدف من حياته كلها. وهذا ما يطلق عليه في كتابنا «محنة الغزالي». وجد الغزالي الانحراف ينخر في رجال الدين قبل العامة، كما أصبح يفتقر الى السعادة، حتى مع كل ما حققه. فالشك يساوره في جدوى تحقيق كل النجاحات الدنيوية.

المنقذ من الضلال: أبو حامد الغزالي - حجة الإسلام - الإمام المجدد

مثل المحاسبي من قبله، وجد الغزالي الاختلاف والفساد يأكلان الأمة الإسلامية.

فيقول الغزالي عن عصره «وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن، ويحضر الجماعات والصلوات، ويعظم الشريعة بلسانه، ولكنه مع ذلك: لا يترك شرب الخمر، وأنواعًا من الفسق والفجور». (94) أدرك النفاق الذي يحاصره حتى ممن يدعي التدين.

وقد مر الغزالي بمرحلتين من الشك لن نتكلم عنهما بالتفصيل بل سنشير اليهما سريعا ولكنه وصل الى الحقيقة بعد عناء. في البدء كان يسأل نفسه أسئلة مثل، لماذا يوجد اختلاف بين المذاهب الإسلامية؟ ولم يوجد اختلافات

بين الناس في الملل؟ ولم يولد أولاد المسيحيين مسيحيين، وأولاد اليهود يهودًا، وأولاد المسلمين مسلمين؟ وقال الغزالي إن هدفه من هذه الأسئلة كان العلم.

«مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم». (95)

فبدأ يبحث في العلوم المختلفة عن حقيقة الحياة، والاختلاف بين البشر.

ثم لجأ الغزالي إلى المحسوسات، ففكر في علم الأشياء المحسوسة، ووجد أن العين خادعة بطبعها لأنها ترى الكوكب صغيرًا، في حين أننا نعلم أن الكوكب كبير مثل حجم الأرض أو أكبر، كما أننا قد نرى الظل ثابتًا في حين أنه متحرك، فأدرك وقتها أن العين لا يمكن الاعتماد عليها في المعرفة. إذن الحس لا ثقة به، الحس بلا عقل وتجربة هو حسٌ كاذب.

ووصل إلى نتيجة وهي: «كل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني». (96)

ثم فكر في أنه يمكن أن يعتمد في المعرفة على المنطق والحساب والعقل، أعطى مثالًا ينم عن ذكائه الشديد، وهو أنه ذكر أن من المعروف أن الرقم عشرة أكثر من الرقم ثلاثة، فإذا جاء شخص ما، وقال له إنه يستطيع أن يحول العصى إلى ثعبان، وإن الثلاثة أكثر من العشرة، فحتى لو حول هذا الشخص العصى لثعبان سيقول إنه ساحر، لكنه لن يصدق أن الرقم ثلاثة أكثر من رقم عشرة، لأنها حقيقة واضحة وصريحة، وبناء عليه فإن العقل أو المنطق يمكن أن يوصله إلى ما يريد معرفته، فبدأ الغزالي بدراسة علم المنطق، ولكنه وقف عند الأحلام، وفكر أن العقل وقت النوم يظهر منه أشياء لا تكون واضحة، ولن نستطيع توقع ما الذي يفكر فيه هذا النائم وبماذا سيحلم، فوجد أن المنطق لن يستطيع أن يفسر له الأحلام أو الغيبيات، بل أضاف أن اللا معقول يكون أحيانًا هو الحقيقة نفسها. فمثلًا لو قال لك أحد: هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء هو مقدار حبة يوضع في بلدة، فيأكل تلك البلدة وما فيها، ثم يأكل نفسه في النهاية، ويفنى ولا يبقى هو نفسه؟ ستظن أن هذا خرافة بالتأكيد لأن العقل ربما لا يقبلها، وخيالك لا يتوقعها لو لم ترها، ولكن هذه حقيقة، فالنار تفعل هذا بالضبط. تخيل أنك لم تر النار أبدًا ووصف لك أحدهم هذا، ستظن أنها خرافة بالتأكيد. إذن العقل ربما يزيد الحيرة أحيانًا.

لجأ الغزالي إلى علم الكلام، فوجد أنه لا ينفي الحيرة، وتعدد الآراء حتى ولو كان علمًا له أهميته في الشريعة. إن علم الكلام بالفعل قادرعلى أن يفسر المظاهر الموجودة، لكنه لا يفسر وجود اختلافات بين البشر، ولا يفسر لماذا يكون أولاد الشخص المسيحي مسيحيين، وأولاد اليهودي يهودًا، ولا يفسر أيضًا وجود مذاهب كثيرة في الإسلام، ولا الاختلافات في طريقة فهم كل شخص

للدين، فوجد في النهاية أن علم الكلام لم يساعده في الوصول للإجابات عن أسئلته.

ثم استطاع أن يتقن علم الفلسفة. واعتقد أن من المفترض أن تساعده الفلسفة في الوصول إلى اليقين والحقائق، لكنه اكتشف أن الفلسفة تشكك طوال الوقت، ولن توصله إلى اليقين. وبالتالي وجد أن العلوم مثل علم المنطق، وعلم الحساب، حتى علم الفلسفة، لن تساعده في الوصول لفكرة اليقين أو فهم الاختلاف الموجود.

وصل بعد بحث علمي طويل إلى الآتي:

«أن العقل ليس مستقلًا بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفًا للغطاء عن جميع المعضلات». (97)

بمعنى أن العقل لن يستطيع أن يساعدنا في فهم كل شيء، ولن يستطيع أن يجد لنا حلًا للمشاكل الصعبة والتي لا حل لها، وهذا شيء كلنا تعرضنا له من قبل.

إدراك أهمية العقل يعني أيضًا إدراك حدوده. فلا بد للإنسان أن يؤمن بالغيب، كما يؤمن مثلًا بوجود شيء مثل النار قبل أن يراها، أو بوجود طبيب ناجح يستطيع أن يداويه قبل أن يقابل الطبيب، بمجرد السماع عنه. الغيب هو أعلى منزلاً من العقل وأكثر تعقيدًا. (98)

فالغزالي إذن كان يظن أن كل العلوم التي قام بدراستها طول حياته ليست علومًا يقينية. ووجد أيضًا أن علم الشرع يفسر ظواهر الأمور، وليس باطنها، ومن هنا تبدأ معه أزمته.

أبو حامد الغزالي في هذا الوقت كان أشهر عالم في الدولة الإسلامية، يدرس لاكثر من ثلاثمائة طالب. وكل يوم يقوم فيه بالتدريس للطلاب يجد نفسه غير مرتاح تمامًا، ويفكر كثيرًا ويتساءل عما يفعله؟ وماذا يفعل؟ ومن يستفيد من شرحه؟ وإلى أين يقوده كل هذا في نهاية المطاف؟ ولماذا يفعل ذلك؟

سيبدأ الغزالي في التطلع إلى نفسه، لأنه بالطبع لا يحتاج إلى شيخ يشرح له الشريعة، ويبدأ في قراءة كتب عن الصوفية، سيقرأ للمحاسبي، والبسطامي، والشبلي، وجنيد. وقد وجد أنه كلما قرأ أكثر عن الصوفية فهم ماهية الصوفية، ففكر أن الصوفية مبنية على مبدأين أو أساسين، هما العلم والعمل، وعرّف الصوفية بأنها «قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة. ثم تخلية القلب من غير الله، وتحليته بذكر الله». (99)

وقطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة تعنى مثلًا الحسد، والكره، والطمع، أما الخطوة الثانية هي تفريغ القلب من كل العلائق والتفاصيل سوى

الله. أي نهتم بالدنيا نعم، ولكن نتذكر أن الله هو الهدف الأهم دومًا ونجعله أمامنا فلا نرتكب أي فعل يغضبه. والخطوة الثالثة هي تحلية القلب بذكر الله، كما قال الله تعالى{ لَّذِينَ ءَامَنُو وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ للَّهِ أَلَا بِذِكْرِ للَّهِ تَطْمَئِنُّ لْقُلُوبُ}[الرعد: 28]، فالصوفية بالنسبة للغزالي كما فهمها هي ثلاث خطوات: أن نصفي قلبنا من كل الشوائب ومن كل الشرور بداخله، ثم نتخلى بقلبنا عن كل شيء غير الله، ثم نحلي حياتنا بذكر الله كثيرًا، {يَـٰٓأَيُّهَا لَّذِينَ ءَامَنُو ذْكُرُو للَّهَ ذِكْ ا كَثِي ا} [الأحزاب: 41] والتأمل في خلقه.

ولكن الغزالي إنسان أدرك «أن العلم أيسر علي من العمل» (100)، لأن العمل صعب جدا، فمثلًا إذا انتهينا من قراءة هذا الكتاب وقد فهمنا معنى الصوفية، هل سنستطيع كلنا أن نتخلى عن علائق الدنيا؟ هل سنستطيع أن نحب كل الناس حتى ولو كرهنا أفعالهم؟ نكره أعمالهم لكن لا نكره شخصهم. هل سنعمل كل ما هو صحيح، ونسيطر على الطمع الموجود بداخلنا؟ هذا في حد ذاته يمكن أن يكون شبه مستحيل للكثير منا على هذه الأرض. والغزالي يعلم أنه شيء صعب، وقد اعترف أنه لم يستطع أن يفعل ذلك في البداية، لأنه شخص صادق مع نفسه. ففرق الغزالي بين العلم والعمل. هو الآن في هذه المرحلة مقتنع بالطريق الصوفي، وبما قرأ من الصوفيين من قبله، ولكنه لا يستطيع أن يترك دنياه، وما حققه فيها، ولا يتخلى عن الإطراء من طلابه وجاهه وعزته أمام الحكام. الغزالي إنسان يتكلم عن إنسانيته. ربما في هذه اللحظات يحتاج الإنسان إلى أن يعترف بعجزه، ويطلب القوة من الله.

لاحظ أن البحث داخل النفس وطرح الأسئلة هما أول طريق إلى الصوفية، كما قال ابن عطاء الله السكندري «ما قادك شيء مثل الوهم» (101) لأن الإنسان يوهم نفسه، ويرضى عن أفعاله دومًا حتى ولو كانت خاطئة، أما الصوفي فيحاول أن يحاسب نفسه طوال الوقت.

ولهذا نجد في القرآن الكريم {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِ لْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا. لَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى لْحَيَوٰةِ لدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}[الكهف: 103، 104]. ولذلك نجد أن الغزالي صادق جدًا مع نفسه، وقد ذكر هذا قائلًا أنا علمت، وعرفت العلم، ولم أستطع أن أعمل. هذا بالطبع لأن الإنسان ما زال يحب الدنيا، ويريد أن يرتدى أفضل الملابس، ويتعامل مع الناس، ويرغب في التقدير وسماع كلام الإطراء كلما قام بالتدريس. صدق الغزالي مع نفسه عندما قال إنه احب الجاه والإطراء والتفاف الناس حوله، ولكنها أشياء لم تعطه السعادة التي يتمناها. وازداد حزنه وتعبه. وفي كل مرة يشعر بالتعب يدعو الله أن يقدره على ترك كل الأشياء السابقة، أي علائق الدنيا.

الصراع النفسي الذي عانى منه الغزالي عبّر عنه بصدق، وهو يقول «فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها» (102)شبه حب الدنيا بالقيد، والسفر بعيدًا عنها بالحرية. هذا التشبيه سيتكرر في جميع المقالات. الحرية تعطي السعادة، والتعلق بالأشياء سجن للروح. استمر صراع الغزالي ستة أشهر. قال بصدق إن هناك فرقًا بين أن تعرف الزهد، وأن تكون من الزاهدين.

ثم يقول الغزالي «ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال». (103)

ولكن كيف سهل عليه الله الإعراض عن الدنيا؟ حدث شيء غريب، وهو أنه فقد صوته، ولم يعد قادرًا على التكلم والتدريس، وعندما ذهب إلى بيته لم يأكل، ولم يشرب، ولم يرغب في الحركة. فقد الأشياء التي كانت تعطيه العزة والجاه، فقد كلماته. لم يعد قادرًا على النطق أو الحركة، وكأن جسده أبى أن يستمر عالمًا بلا عمل. وعندما زاره الطبيب قال له إن المرض الذي يعاني منه هو مرض في القلب، وليس في الجسد، وإنه يعاني من حالة نفسية. وها هي محنة الغزالي الكبرى تتفاقم، فالشك أدى إلى البحث عن الطريق، وعند معرفة الطريق لم يتوجه إليه لضعف همته كالبشر، فلجأ إلى الله طالبًا منه القوة، ففقد النطق كليًا، وكأنها لحظة تفاقم الفاقة والقرب الشديد من الله معًا.

وقتها اعتقد الغزالي أن حالته هذه يمكن أن تكون علامة من الله حتى يجتهد للعمل على معنى الصوفية وليس العلم فقط، ففرق أمواله بعد أن ترك لأولاده وزوجته ما يكفيهم للعيش، وخرج، وهنا يجب أن ننوه عن فكرة من أفكار الصوفية وهي فكرة السياحة والسائحين، ومعنى السياحة هنا ليس أن نسافر، ونتبضع ملابس جديدة وغيرها، ولكن فكرة السياحة هي أن أمشي في العالم لأجد في كل ما حولي شهودًا على الله، وأرى معجزات الله في كل ما يحيط بي، وأتعلم من الشيوخ أكثر، وأرى بشرًا مختلفين، وهي تشبه فكرة أن يسافر الطلاب للتعلم بالخارج، فهم يفعلون ذلك حتى يتعرفوا على أشياء جديدة ومختلفة لأن في السفر سبع فوائد. وبالنسبة للصوفيين لا بد للإنسان أن يخرج من محيطه حتى يستطيع الفهم عندما يعود، وسنرى لاحقًا أن الخروج من المحيط يمكن أن يحدث بلا سفر أيضًا. وعندما خرج الغزالي من العراق، سافر إلى دمشق، وقرر أن يعتكف بداخل مئذنة الجامع الأموي هناك، كل يوم صباحًا يجلس في المئذنة، وينزل منها ليلًا لينام بالجامع، واعتكف هناك لمدة سنتين، وفي نهاية السنتين شعر أن هذا غير كاف، فذهب إلى القدس، وعاش بداخل قبة الصخرة، واختلى بنفسه هناك. معنى الاختلاء عند الصوفية أني سأصفي نفسي من كل شيء فيما عدا الله، وسأقضي وقتي

في الذكر والدعاء، وليس معنى الاختلاء بالنفس أن يفكر في مشاكله مثلًا أو المشكلات المادية التي يعاني منها، بل الاختلاء بالنفس كالصلاة، لا بد فيها من جهاد النفس حتى لا نفكر في شيء آخر سوى الله. يخبرنا ابن عربي أن الخلوة مع حملنا لصور الأشياء الدنيوية معنا ليست بخلوة حقيقية، فلو حملت معي صور ما يفرحني في الدنيا، أو ما يحزنني، أو ما أريد أو ما أكره، فما معنى الخلوة؟

وفيما بعد شعر الغزالي أنه يجب عليه أن يعود لزوجته وأولاده، وألا يتركهم أكثر من ذلك، ولكنه استمر في خلوته داخل بيته في طوس بعد أن ترك منصبه في العراق. فقد عاش في الخلوة لمدة أحد عشر عامًا، توقف فيها عن الخوض في الحياة السياسية والعامة واكتفى بالتدريس في زاوية في بلدته وتأليف الكتب. كانت لديه قوة إرادة غير طبيعية لكي يستطيع اعتزال الناس لهذه الفترة الطويلة، ولهذا فقد فصل الغزالي بين العلم والعمل، وعاد الغزالي لحياته وعمله مضطرًا نتيجة لطلب الحاكم منه أن يعود للتدريس، وإلا عاقبه. وعندما عاد للتدريس شعر الطلاب باختلاف شديد في شيخهم الغزالي، فبعد ما كان يلبس الثياب الرائعة الجميلة الغالية أصبح يلبس الصوف، ونجد أن أهم شيء في الصوفية هو التواضع، والتركيز على النفس، ولا يجب الحكم على الآخرين، ولا يجب الحكم على دينهم، ولا ملتهم، ولا نحكم عليهم حتى وإن فعلوا الأخطاء، لأننا لا نعلم قدر هذا الانسان عند الله، والفكرة هنا أن يجاهد الإنسان نفسه، وكل من رأى الغزالي شعر أنه ترك الدنيا، وأصبح زاهدًا في كل شيء. ولكن الغزالي نفسه يخبرنا أن الدنيا كانت تشغله أحيانا ولكنه لا تتملكه. لم يزل يجاهد نفسه ولم يزل يصفي قلبه من ما دون الله. هي رياضة مستمرة».

«وكانت حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعيشة تشوش صفوة الخلوة، وكان لا يصفو لي حال إلا في أوقات متفرقة، ولكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني عنها العوائق، وأعود إليها». (104)

وعندما سألوه هل جاءك اليقين؟ فكان يجيبهم نعم جاءني اليقين، وعندما يطلبون منه أن يصفه لهم، فكان يرد أنه لا يستطيع أن يصف ذلك، فهو شيء لا يوصف. وأعطى الغزالي مثالًا لطبيب يشخص المرض، ولكن عندما يمرض، فهذا شيء آخر. أو رجل لم يسكر من قبل، ولكنه يعرف ما يفعله السكر في إتلاف خلايا المخ، ولكن لو سكر فشعوره مختلف. ولنلاحظ أن معنى السكر عند الصوفية مختلف عن السكر بالخمر، فاستعمال الصوفيين للغة له أسرار. إذن أن تعلم ما هي الصوفية يختلف عن وصولك للكشف والحقيقة. لذا يصبح علم الحقيقة عند الصوفية أكبر من علم الشريعة، فأنت الآن تعبد الله كأنك تراه في كل شيء، تجعله نصب عينيك.

ويذكر الغزالي أن الصوفيين

«أرباب أحوال لا أصحاب أقوال، تعتمد على الذوق وعلى السلوك، وتعتمد أولًا على قطع علاقة القلب بالدنيا، وكف النفس عن الهوى، والإعراض عن المال، والهرب من العلائق والشوارد». (105)

العلائق والشوارد هي الأشياء البسيطة التي نفكر فيها طوال الوقت مثل أي ثياب سأرتدي اليوم، وعندما أذهب للعمل غدًا هل ستكون زميلتي موجودة أم ستغيب، متى أحصل على ترقية؟ متى أشتري سيارة؟ كلها علائق تشغل حيزًا من أفكارنا بتفاصيل تافهة لا طائل منها، لذلك فالغزالي يقول عن نفسه قبل دخوله في الطريق الصوفي «لاحظت حالي فإذا أنا منغمس في العلائق، ولاحظت أعمالي فإذا بي أحصل علومًا غير مهمة، لطلب الجاه والشهرة». (106) إن الغزالي بالفعل صادق مع نفسه، ويقول أيضًا «عزمت على الخروج من بغداد». (107) ثم يبدأ في سرد ما حدث له بعد ذلك.

الغزالي ممن يؤمنون بوجوب عدم التحدث عن المشاهدات، فعندما يحلم الشخص بشيء ما، أو يشعر بإحساس معين لا يجب عليه التحدث عنه، وأيضًا من الكلمات المهمة جدًا للغزالي «فإن كنت تؤمن بالآخرة، ولا تستعد لها، وتبيعها في الدنيا فهذه حماقة، فأنت لا تبيع الاثنين بواحد، فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة؟». (108) ثم أعطى الغزالي بعض النصائح لطلابه لكي يساعدهم في الدخول لطريق الصوفية، أول هذه النصائح هي «إيماني يقيني» وثانيها «التوبة» ثالثها «استرضاء الخصوم» ثم بعد ذلك «تحصيل علوم الشريعة» والكلمة المهمة له، والتي أريد أن أنهي بها الحديث عنه هي «اعمل لدنياك بقدر مقامك فيها، واعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واعمل للنار بقدر صبرك عليها». (109) وهي بالطبع تعتمد على الآية القرآنية {مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوٓا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[النحل:96]. لاحظ الاستعمال اللغوي للمفردات، فالبقاء غير المقام. أنت تقيم في بلدة بعض الوقت، لكن البقاء يعطي معنى الاستمرارية. يعطي الغزالي فكرة الاستقامة أهمية كبرى، استقامة الأخلاق، وألا يكون في القلب أي نوع من أنواع الضغينة حتى لمن آذوه، وهذه فكرة مهمة جدًا عند الصوفية، لأنه لا يتم تصفية القلب إلا عندما يمحى منه كل أنواع الضغينة. ثم يخص الغزالي الحسد بكلمات كثيرة لأن عداوة الحسد من أصعب العداوات. فيخبر تلميذه بأن يبتعد عن الجاهل، ولا يحاول أن يقنعه لأن المجادلة معه ربما تؤدي فقط إلى عداوة بلا فائدة، وأن يبتعد عن الحاسد لأن لا فائدة من إقناعه فهو لن يقتنع. يستشهد الغزالي بالشعر «كل عداوة قد ترجى إزالتها، إلا عداوة من عداك على الحسد». (110)

وأمر الغزالي طلابه بعدم مخالطة الأمراء والسلاطين فقال: «لا تخالط الأمراء ولا السلاطين ولا تقبل عطاياهم، لا تجمع من الدنيا أكثر من كفاية سنة». (111) فهو يدرس لطلابه المقبلين على الطريق الصوفي فكرة الزهد، وبمناسبة الزهد فإن فكرة لبس الصوف لها بعد آخر وهو عدم الاكتراث بحوادث الدنيا والزهد فيها. فأبو الحسن الشاذلي، كان يرى أن الله يريدنا أن نتمتع برزقه في الدنيا طالما أن الآخرة في قلوبنا وأن الدنيا ليست في قلوبنا.

أما بالنسبة لقِصر الدنيا، فهذه الفكرة موجودة عند كل الصوفيين بمن فيهم عبد القادر الجيلاني، وابن عربي، وابن عطاء السكندري، وغيرهم. وهي أننا ضيوف عند ربنا في الدنيا، وهو متكفل بنا في الرزق، ومتكفل بنا في التدبير، وكل ما علينا هو أن نتوكل عليه، ونرضى بقضائه، نحن عبيد وضيوف عنده، فالعبودية من أعلى المقامات التي يجب أن يصل إليها الصوفيون، ومن مقام العبودية أن تترك نفسك لسيدك، وهو سيتكفل بك من مأكل ومشرب، وأن كل ما يحدث لك من حالات فقد أو غيرها فهو له غرض فيها، ولكنك لن تفهمه، وعليك وقتها بالرضا بقضاء الله، وهذا جزء مهم جدًا في التفكير الصوفي. هذا لا يعني التواكل أبدًا، فالعمل والإخلاص فيه من أركان الصوفية، ولكنه يعني عدم القلق على الرزق لأن القلق ربما يتملكنا، فنصبح عبيد القلق على شيء، ولسنا عبيد الله، والعبودية مقتصرة على الله.

في الحقيقة لخص الغزالي معنى السعادة في كتابه «المنقذ من الضلال» عندما قال «وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا... وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق». (112) التقوى هي الخلق القويم، وهي كف النفس عن الهوى. والتقوى أن تعبد الله كأنك تراه. والتقوى هي أن تعامل الناس وأنت تراقب ضميرك ونفسك. التقوى هي مواجهة النفس كل يوم وكل ساعة، ومحاسبتها. والعمل واجب، ولكن اليقين بأن القوة لا تأتي إلا بالله من أهم مبادئ الصوفية.

لجأ الغزالي إلى الله لجوء المضطر. وفي رحلته أيقن الآتي: «ولكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول لي ولا قوة إلا بالله، وأني لم أتحرك لكنه حركني، وأني لم أعمل ولكنه استعملني». (113)

ملخص طريق الغزالي

لم يخبرنا الغزالي بما حدث له بعد أن تمكن من الطريق الصوفي، ولم يصف لنا شعوره لأن الكلمات تقف عاجزة عن وصف هذا الصفاء واليقين. ولكن

الغزالي ترك لنا دررًا من الكتب التي تساعد على تخطي الهموم وفهم الحقائق. ويخبرنا الغزالي في نهاية كتابه بهدفه من الدنيا

«وإنما أبغي أن أصلح نفسي وغيري» (114)

وعن الصوفية قال الغزالي عن تجربة «إني علمت يقينًا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق». (115)

يسمي الغزالي الصوفية بعلاج القلب، ويخبرنا أن الإنسان يلجأ إلى طبيب ليعالج جسده إذا مرض، وعليه أن يعالج قلبه إذا مرض أيضًا بالبحث عن الحقيقة.

تكلمنا حتى الآن عن أحد أعمدة الفكر الصوفي وهو أبو حامد الغزالي، تحدثنا عن تجربته في الحيرة والشك، وكيف دخل الطريق الصوفي، وكيف فرق بين العلم والعمل. استطاع الغزالي أن يصل إلى مقام الرضا كما أخبرنا هو، فالسعادة أو الرضا يحتاجان إلى العلم والعمل كما سنشرح. كيف تعرف الله، وما هو الطريق إلى السعادة؟ في المقالين التاليين سنجيب عن هذه الأسئلة. ولننهي بكلمات الغزالي عن تجربته:

«ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر». (116)

طلب من الله المعونة فأعانه.

لا بد أن تسعى بصدق الى الوصول إلى الله، ثم تطلب منه الإعانة. كما يقول الشيخ ابن عجيبة: «لا تدرك الراحة إلا بالتعب، ولا يحصل الظفر إلا بالطلب». (117) ولكن الطلب وحده لا يكفي لا بد من الإخلاص، وترك الأمر لله، والاقتناع التام أن الأمور كلها بيده.

ومضة نور

«إنما التصوف السعي في إصلاح القلب وتطهيره من الأمراض الخبيثة وتهذيب النفس وتفقد عيوبها» (118)

السيوطي

«إن العبد يسأل غدًا، فيقال له ماذا عملت فيما علمت ولا يقال له فيما عمل السيوطي غيرك». (119)

و «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

رسول الله

«لذة القلب المعرفة. وكلما كانت المعرفة أكبر، كانت اللذة أكبر». (120)

أبو حامد الغزالي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



معرفة الله عند الصوفية

«لا يلزم من اختلاف المسالك اختلاف المقاصد»

ابن عجيبة

في اليقين بالله سعادة لنا. لسنا جميعا بقوة الغزالي ولا نملك هذه الإرادة. ولكن معرفة الله هي أول طرق السعادة.

البحث عن الله

في رحلة البحث لا بد من سؤال يسأله الطالب، ويحاول الإجابة عنه. ومن أجل منهجية البحث ننصح الطلاب بأن يسألوا سؤالًا يستطيعون الإجابة عنه، وليس سؤالًا يستحيل الإجابة عنه. السؤال المستحيل هو، ما هو الله؟ والسؤال الممكن هو من هو الله؟

لذا يقول الشيخ العز بن عبد السلام «ويجوز أن تعرف من هو، ولا يجوز أن تعرف ما هو؛ لأن «ما» هو سؤال عن ماهية ذاته، ولا ماهية لذاته، ومن سؤال عن أسمائه وصفاته». (121)

ربما لتقريب المعنى أريد أن أعطي مثالًا من الأدب، خاصة أدب نجيب محفوظ، وقد ظهر في أدبه الكثير من المعاني الصوفية. سنعطي المثال من شخصية في رواية «الشحاذ» لنجيب محفوظ. وهي شخصية عمر الحمزاوي.

الاسم بالطبع يرمز إلى الآية الكريمة {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ} [فاطر:15]. فعمر الحمزاوي هذا الرجل الذي تسير حياته كما يريد بلا مشاكل مادية، ولا مشاكل في عمله، يجد نفسه غير سعيد، بل يجد نفسه مارًا بأزمة منتصف العمر، ويبدأ في طرح الأسئلة الكثيرة عن الله، وماهيته، ووجوده، وعن الهدف من الدنيا. وربما ما نتوقعه ونراه للأسف في حياتنا أنه وهو في منتصف العمر سيحاول أن يتمسك بالحياة، ويأخذ منها كل ما يستطيع، فيقيم علاقة بإحدى الراقصات ثم علاقة بغيرها، ولكن كل هذه العلاقات التي تشبع جسده، لا تصل إلى روحه، فيبقى فقيرًا يشحذ المعنى من الوجود. بل يصاب بما يشبه الوسواس وهو يطرح الأسئلة على كل من يقابل حتى الراقصة التي عرفها. والغريب أن صديقه القديم يمر بظروف أصعب كثيرًا، فقد قضى أعوامًا في السجن مظلومًا، وخرج من السجن بلا مال، ولا وظيفة، ولا أولاد، ولكنه سعيد مقارنة بعمر الحمزاوي. كأن نجيب محفوظ تأثر بما قرأه للغزالي في كتبه وهو أن السعادة هي معرفة النفس، ثم معرفة الله. السعادة لا تعتمد على الظروف الخارجية بقدر ما تأتي من الداخل. وهذا هو مغزى هذا الكتاب في رحلتنا للبحث عن السعادة نشهد تجربة الآخرين، ونحاول أن نتعلم منها كيفية الوصول إلى السعادة في

هذه الدنيا التي يصفها الصوفيون بالضيق لأنها محدودة المدة والمكان. وهذا الضيق يؤدي بنا إلى البحث عن الحرية، فنهيم حول أنفسنا تارة نريد إعادة الشباب، وتارة نتوجه إلى الانغماس في الملذات الحسية أو المادية، ولكن كما يقول ابن عربي كل هذه الأشياء لا تروي عطشنا للسعادة، فنبحث عن غيرها، ولو أدركنا أننا نتقلب في سجن كبير هو الدنيا، لفهمنا لمَ نتوق دومًا إلى شيء غير موجود، أو ننتظر شيئًا سيحدث في المستقبل. لأن طبيعة الدنيا تقتضي هذا. أما السعادة فمرادفها الرضا، والرضا شعور من الجنة، فكيف يأتي في الأرض المحدودة؟ هذا هو السؤال الذي نود الإجابة عنه. والإجابة ليست سهلة. ولكل منا طريق سيسلكه للبحث داخل نفسه في رحلته.

الشيء الذي يجعل البطل مختلفًا عن كل الروايات التي تتطرق لأزمة منتصف العمر عند الرجال هي أن البطل عمر الحمزاوي لديه تساؤل عن الله طوال الوقت للدرجة التي تجعله يتحدث مع الناس في الطرقات، ويطرح عليهم أسئلة مثل: لماذا نحيا مادمنا سنموت في النهاية؟ ولماذا نحيا مادامت الحياة قصيرة لهذا الحد؟ أين الله؟

يذهب عمر الحمزاوي إلى صاحب الملهى الليلي الذي تعمل فيه الراقصة التي رافقها، ويسأله عن الله، ثم يسأل الراقصة نفسها، ثم صديقه. ها هي بعض المقاطع من الرواية:

«خبرني يا مسيو يزبك ماذا تعني لك الحياه؟ فرفع الرجل حاجبيه الخفيفين في دهشة» وعندما وجد أن عمر الحمزاوي يتحدث بجدية أجابه «الحياة هي الحياة» فسأله سؤالًا آخر قائلًا «أأنت سعيد؟» فرد صاحب الملهى «الحمد لله، أحيانًا يصاب الموسم بالركود، أو يصيب الملهي غرام مفاجئ كغرام وردة، ولكن القافلة تسير» فيسأله «لكنك تعيش حياتك، ثم يأخذها الله؟» فيجيبه صاحب الملهي «هذا مفهوم طبعًا، ولكن بيتي جميل، والمدام عال، ولي ابن وحيد يتعلم الكيمياء في سويسرا وسيعيش هناك» فسأله عمر بصورة فجائية «هل تؤمن بالله؟» فأجاب صاحب الملهى في دهشة «طبعًا، يا له من تحقيق طريف!» فظن عمر الحمزاوي أنه يعرف إجابة سؤاله، فسأله «إذن فقل لي ما هو الله؟» ضحك الرجل عاليًا، ولم يفهم مغزى الأسئلة فقال: «هل يطول غرامك بوردة؟» (122)

لكن صاحب الملهى لم يستطع الإجابة عن سؤاله. أتعرف لماذا؟ لأن سؤال «عمر الحمزاوي» لا يمكن الإجابة عنه في الحقيقة. كيف لبشر ناقص مقيد بدنيا محدودة أن يعرف، ويشرح الله الذي ليس كمثله شيء؟ عندما نسأل بعضنا البعض عن شخص ما مثلًا هل تعرف أحمد؟ نجيب نعم أعرفه هو طويل، أسمر، يبلغ الثلاثين، وهو يعمل في شركة كذا وكذا، والده اسمه كذا، وأخته متزوجة من فلان... إلى آخره. إذن نعرفه بتفاصيله التي ندركها نحن

لأنه مثلنا، وبعلاقاته، ونسبته، أو ما نطلق عليه بالإنجليزية (identification category)، ولكن لو حاولنا تعريف ما لا نستطيع تخيله أو معرفته، كيف نفعل هذا؟ الله أكبر من أن نعرفه نحن، ولكننا نستطيع أن نتكلم عن أفعاله، وهيمنته، وانتسابنا نحن إليه، وليس انتسابه هو إلى شيء.

وظل عمر يسأل الناس السؤال نفسه، وهم يجيبونه بنعم، نؤمن بالله، ولكن بدون أن يجيبوه عن سؤاله الآخر، ما هو الله؟ لماذا لا يجد عمر الحمزاوي السعادة، ولم لا يجيب أحد أسئلته؟

يقول ابن عطاء الله السكندري في الحكم العطائية: «إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك، وإنما احتجب لشدة ظهوره، وخفي عن الأبصار لعظيم نوره». (123)

يقول أبو حامد الغزالي في كتابه «مشكاة الأنوار»: «وإذا قد عرفت هذا، فاعلم أنه كما ظهر كل شيء للبصر بالنور الظاهر، فقد ظهر كل شيء للبصيرة الباطنة بالله، فهو مع كل شيء لا يفارقه، ثم يظهر كل شيء، كما أن النور مع كل شيء وبه يظهر. فلا يبعد أن يخفى، ويكون خفاؤه لشدة جلائه، والغفلة عنه لإشراق ضيائه. فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره، واحتجب عنهم لإشراق نوره. إنه قبل كل شيء، وإنه فوق كل شيء؛ وإنه مظهر كل شيء». (124)

يتفق ابن عطاء الله السكندري مع الغزالي في أن الله موجود ظاهر قريب جدًا، لذا لا نستطيع أن نراه.

ويقول الغزالي ايضا «ولذلك لما قال بعض الأعراب لرسول الله : «ما نسب الإله؟» نزل في جوابه: {قُلْ هُوَ للَّهُ أَحَدٌ . للَّهُ لصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} [الإخلاص: 3،2،1]... إلى آخرها، أي أن التقدم والتنزه عن النسبة نسبته». (125) (الصمد تعني الباقي، قاضي الحوائج الذي لا يفنى.

عمر الحمزاوي يعتبر نفسه مصابًا بمرض لأنه تعيس ويستمر في سؤاله حتى نهاية الرواية. هذه القصة توضح أهمية صياغة السؤال، كما سنناقش في الصفحات التالية.

ما هي المعرفة؟

أريد أن أذكر هنا كلمات جدي الشيخ حسن عبد القادر حفيد الشيخ عبد القادر ابن عبد السلام الشاذلي الطريقة في كتابه «المنح الحسنية في شرح الوظيفة الشاذلية» وهو يشرح دعاء «عرفني إياه» أي عرفني صفات النبي محمد، فيقول « (وعرفني إياه) المعرفة في الأصل هي إدراك الشيء على ما

هو عليه، وليس المراد مطلق المعرفة لأن الكفار يعرفونه كما يعرفون أبناءهم بل المراد المعرفة الحقيقية». (126)

هناك أنواع من المعرفة. هل يعرف أبو جهل الرسول؟ نعم هو يظن أنه يعرفه، ولكنه يعرف فقط شكله، وبعض صفاته، ولا يدرك صفاء نفسه، ولا صدق رسالته. لذا لدينا في مصر المثل الشعبي «أنت تعرف فلان؟» عاشرته، لا؟» أي إنك لا تعرف شخصًا تمام المعرفة إلا إذا قضيت وقتا طويلًا معه، وتعرفت على صفاته. فلنقف هنا عند المعنى هنيهة.

لتعرف الله لا بد أن تفتح قلبك له. لأن معرفة الله درجات. وكلما زاد إدراكك ازدادت معرفتك. ولكي تعرف الله تحتاج إلى أن تقضي وقتًا معه بصحبته وحده مع كلماته أو ذكره. ولتعرف الله لا بد أن يقذف نوره في قلبك، فطلبك معرفة الله لا بد أن يأتي بالله، وليس بنفسك. لذا القول: «عرفت ربي بربي، وجاء محمد فبلغني رسالة ربي لي». (127)وسنشرح هذه الكلمات شرحًا مفصلًا في هذا المقال. ولكننا نتفق أن المعرفة درجات.

هل نحتاج في معرفة الله العقل والقلب؟

يناقش أبو حامد الغزالي فكرة معرفة الله بالعقل، وربما لأنه يرد في كتاباته أحيانًا على الفلاسفة وفكر المعتزلة، سنجد أنه يعتمد على العقل دومًا في الوصول، وعلى المنطق في طريقة إقناعه.

أولًا يعتمد الغزالي في تعريف العقل في كتابه «إحياء علوم الدين» على تعريف المحاسبي إذ يقول: «إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء». (128)

فوظيفة العقل الأولى إذن هي الإدراك، ويوضح أن الإدراك متفاوت بتفاوت البشر. ولكل شخص عقله وقدرته. بل يزيد بأن يقول إن العقل قد يساعد على ترك المعاصي أحيانًا. وهذا مثال سهل، لو تعقل شخص وعرف أن جزاء السرقة السجن مثلًا لن يسرق لأنه يخاف أن يعاقب على فعله. وربما يسرق، ويحاول إخفاء جريمته. في الحالة الأولى ساعده العقل على عدم ارتكاب معصية، ولكنه ساعده بأن أوضح له الضرر الناتج عنها، يقول الغزالي «وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصي من الجاهل لقوة علمه بضرر المعاصي». (129) وجملة الغزالي هذه تفسر إلى حد كبير تقدم البلاد التي ربما لا يبدو عليها مظاهر التدين، لأنها وصلت بالعقل لأهمية الصدق مثلًا أو أهمية الإخلاص وإتقان العمل، وحفظ العهد. المعرفة إذن تساعد صاحبها على الوصول الى ما يفيده حتى ولو عن طريق العقل فقط دون إيمان. ولكن طريق الإيمان الصحيح أقصر، ويعطي الرضا أسرع، ولكنه يحتاج إلى المعرفة. وكما قلنا العقل يتفاوت في فهمه، لذا يختلف الناس في فهم العلوم. (130)

أما الغزالي فيعرف العقل على أنه «عين اليقين، ونور الإيمان» (131)، وهو أيضًا الصفة الباطنة التي يتميز بها بنو آدم عن البهائم. (132) فالإدراك هو استعمال العقل. ولا يرى الغزالي في تعريفه للعقل وكلام الصوفيين اختلافًا جذريًّا، فتعريفه ربما يضع العقل والقلب في الخانة نفسها. ولكنه يعطي أمثلة على القدرة على معرفة الله بالعقل. لن نلخص هنا كل ما قاله الغزالي لأن هذا يحتاج إلى كتاب في ذاته، ولكن سنتطرق سريعًا للنقاط المهمة التي ذكرها.

يناقش الغزالي كيفية معرفة الله بالعقل؟ فيقول إن وجود الحادث أو الشيء يحتاج إلى فاعل، أو محدث، أو سبب للحدوث. مثلا تحريك يدك يحدث عندما يعطي العقل أمرًا للجسد ليتحرك. والكلام يحدث عن طريق تحريك اللسان. فلكل فعل مسبب. ففي خلق كل شيء لا بد من وجود فاعل ومدبر. الكون يفتقر إلى الفاعل والمسبب ويحتاج إليه. (133) بالعقل نعرف أن الحادث يحتاج إلى سبب يحدثه. لذا نعرف أن وجودنا حدث بسبب ممَن أحدثه. ومَن أحدث وجودنا قديمٌ أزلي، ليس لوجوده أولٌ أو آخر. فهو قبل كل ميتٍ وحي. لو لم يكن حادثًا بل مسببًا وكان قديمًا فمن أحدثه؟ ومَن أحدث من أحدثه؟ إذن هو أزلي موجود دومًا لأن أحدًا لم يتسبب في حدوثه. هو أزلي «ولا يمكن أن يفنى، لأن ما ثبت وجوده وقدمه استحال عدمه». (134) لأنه يحتاج إلى من يعدمه، ولا يوجد سواه. وهو أول، وآخر، وظاهر، وباطن. وهو ليس كمثله شيء. فهو لا ينتمي لجهة، ولا يملك حجمًا. لأن من صفاته أنه {هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: 4]، هو محيط بكم عليم. كما أننا لا نستطيع رؤيته بالعين في الدنيا، ولكن بعضنا سينظر إليه في الآخرة: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: 22، 23]. فهو لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار.

ولكن عند حدوث قضاء لا نفهمه لا بد أن نسلم حينها بعجز العقل عن الوصول للمعرفة الكاملة، حتى عند الغزالي. فلو كان الغزالي يناقش قضية معرفة الله بالعقل فهو أيضًا يسلم بأننا ناقصون، لا نستطيع أن نعرف سر القدر، ولا أن نحكم بما هو خير أو شر لنا دائمًا، لعدم معرفتنا بالغيب، ولتفاوت عقول البشر ونسبية حكمهم. فالله هو الصانع العالم القادر، وهو المبدئ المعيد الفعال لما يريد. وقدرته تناسب استعمال الضد في اللغة، فهو الظاهر الباطن. ويقينك بأنه موجود بعقلك يجعلك تسلم بأنه سميع بصير. (135)

«وكما عقل كونه فاعلًا بلا جارحة، وعالمًا بلا قلب ودماغ، فليعقل كونه بصيرًا بلا حدقة، وسميعًا بلا إذن». (136)

ويضيف الغزالي عن قدرة العقل «وهل يجب عند هذا إلا القطع بأن الأمور الإلهية تتعالى بحكم الجلال عن أن توزن بميزان أهل الاعتزال». (137) ميزانك إذن أنت غير ميزان الله، وإدراكك للعدل غير إدراكه، لأنك لست محيطًا بكل شيء علمًا. عند سر القدر يقف العقل عاجزًا. فالله هو العالم بحقيقة الأشياء كلها وحده. ويقول الغزالي: «إن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل، خلافا للمعتزلة». (138) فلو سلمت بوجوده لا تسأل عن أسرار صعب أن تدركها بعقلك، لأن لديك نسبية، ولديه حقيقة. (139)

ولكن رأي ابن عربي والمدرسة الشاذلية يختلف عن رأي الغزالي بعض الشيء، مع أنهما لا يختلفان في جوهر الأشياء، ولكن ربما في المسميات.

فيشرح لنا الشيخ عبد الحليم محمود في كتابه «قضية التصوف» فكرة الوصول إلى الله فيقول إن «العقل والفكر البشري ناقص فلا يمكن أن نقيم عقيدة عليه وحده». (140) فمثلًا وجود الشمس لا نختلف عليه لأننا نراها بأعيننا. فيوضح عبد الحليم محمود مستشهدًا بابن عطاء الله السكندري: «وإذا كان من الكائنات ما هو غني بوضوحه عن إقامة دليل، فالمكون أولى بغناه عن الدليل منها». (141)

يقول ابن عطاء الله الشاذلي الطريقة «كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف، أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده وجود كل شيء». (142)

يوضح عبد الحليم محمود أن الرسول في دعوته لم يبدأ بإثبات وجود الله، وإنما بدأ الرسول بإعطاء الدليل على صدقه هو. وعندما نزل عليه جبريل بالوحي لم يبدأ بإثبات وجود الله، بل بكلمة { قْرَأْ بِ سْمِ رَبِّكَ لَّذِى خَلَقَ} [العلق: 1]. (143)

بل يضيف عبد الحليم محمود أن القرن الأول في الإسلام مضى كله، ولم يتكلم أحد عن إثبات وجود الله حتى معظم القرن الثاني قد مضى قبل أن يبدأ الكلام التاريخي عن هذه الفكرة. فالقرآن الكريم لا يحاول إثبات وجود الله، بل وحدانيته. {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ لسَّمَـٰوَٰتِ وَ لْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ للَّهُ قُلِ لْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [لقمان: 25]. إذن نزل القرآن «لتصحيح الاعتقاد في الله، أو لتصحيح طريق التوحيد. فآيات القرآن تبين عظمة الله وجلاله وهيمنته». (144)

فالمنهج البحثي بالنسبة لعبد الحليم محمود يعتمد على كيفية السؤال نفسه. وهنا نذكر القارئ ببداية هذا المقال.

ويقص علينا عبد الحليم محمود هذه القصة: «سُئل أحد العارفين عن الدليل على الله فقال: الله.

فقيل له: فما العقل؟ فقال: العقل عاجزٌ لا يدل إلا على عاجز مثله». (145)

ويقول ابن عطاء الله في الحِكَم: «إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك. أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك». (146) وهنا نجد سؤالًا سأله فرعون لموسى عليه السلام لا يخضع لمنهج بحثي جائز. يشرح الشيخ زروق سؤال فرعون لموسى، فالسؤال هو أول خطوة في البحث، فلو كان السؤال خطئًا لا يعطي البحث نتيجة سليمة.

يشرح الغزالي قائلا «ولذلك لما قال فرعون لموسى:{ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ} [الشعراء:23] كالطالب لماهيته، لم يجب إلا بتعريفه بأفعاله، إذ كانت الأفعال أظهر عند السائل، فقال:{ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ} [الشعراء: 24]، {قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ} [الشعراء: 25]، كالمنكر عليه في عدوله في جوابه عن طلب الماهية، فقال موسى: {قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ٢٦}[الشعراء: 26]، فنسبه فرعون إلى الجنون إذ كان مطلبه المثال والماهية، وهو يجيب عن الأفعال، فقال: {قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُو} [الشعراء: 27]». (147)

أي أن موسى لم يشرح لفرعون ماهية الله، لأنه رأى نفسه أقل وأنقص من أن يفعل هذا، هو والسائل. فأجاب بما يمكن إثباته وهو وجود السماء، والأرض، والآباء، والأجداد. ونسب الناس كلها إلى عبودية الله.

ولنأتي لمثل أوضح أيضًا وهو مثل سيدنا إبراهيم عندما كان يشرح للملك أفعال الله وليس ماهيته فقال: {أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ} [البقرة: 258].

عرَّف إبراهيم الله بأفعاله، ولكن عقل الملك المحدود لم يفهم أن الله يحيى ويميت، فأعطاه إبراهيم مثالًا آخر لأفعال الله وهو الشروق والغروب. فلم يستطع حينها الرد. عقل الملك محدود إذن، وإدراكه أيضًا محدود. في إدراك العجز إدراك لوجود الله.

وقد عرّف الله علاقته بالعبد في أكثر من آية: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ لدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُو لِى وَلْيُؤْمِنُو بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: 186]...{وَلَقَدْ خَلَقْنَا لْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ لْوَرِيدِ} [ق: 16].

ويقول أبو حامد الغزالي في كتابه مشكاة الأنوار: «وإذا قد عرفت هذا فاعلم أنه كما ظهر كل شيء للبصر بالنور الظاهر، فقد ظهر كل شيء للبصيرة الباطنة بالله، فهو مع كل شيء لا يفارقه، ثم يظهر كل شيء، كما أن النور مع كل شيء، وبه يظهر.

فلا يبعد أن يخفى ويكون خفاؤه لشدة جلائه، والغفلة عنه لإشراق ضيائه. فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره، واحتجب عنهم لإشراق نوره. (إنه قبل كل شيء، وإنه فوق كل شيء؛ وإنه مظهر كل شيء). (148)

يتفق ابن عطاء الله السكندري مع الغزالي في أن الله موجود ظاهر قريب جدًا لذا لا نستطيع أن نراه.

وهنا نرى تشبيه البحر الذي يستعمله ابن عربي ليوضح عجز العقل، وأهميته في الوقت نفسه.

فأنت كبشر كل معلوماتك قطرة في بحر، والعقل يمتلئ قبل أن تدرك ماهية الله، ولكن لو أخذت قطرة تعرف الغاية، ويمكن أن تتكلم بلسان البحر. وإياك أن تنسى أن ما أخذته هو قطرة فقط.

«لو ملأت زجاجة من البحر، ثم قلت أخذت البحر في هذه الزجاجة، لن يصدق أحد. إذ كيف تأخذ البحر الكبير في هذه الزجاجة الصغيرة؟ فهذا العقل هو هذه الزجاجة، وعلوم الإطلاق والروح؛ هذا البحر، لا يستطيع عقلك المحدود أن يأخذ منها إلا بعض قطرات. ثم يمتلئ ولكن؛ فلتكن أنت قطرة من هذا البحر، فتتكلم بلسان البحر كله» (149)

إذن ابن عربي ليس ضد استعمال العقل لمعرفة الله، هو ضد توهم الإنسان أنه استطاع أن يحيط علمًا بكل أمور الله من خلال عقله. فما يعرفه البشر من خلال التفكر والعقل قطرة من قطرات البحر، وهو في زجاجة البحر أعمق بكثير ويصعب الإحاطة به. وهذا لا يمنع أن نتكلم عن البحر لأننا نملك بضع قطرات، ولكن دومًا لا بد أن ندرك عجزنا ونعترف به أمام عمقه وكبره. ثم يوضح ابن عربي معنى «ليس كمثله شيء»:

«فكل ما خطر في سرك، أو تصور في وهمك

أو حاك في صدرك، أو دل عليه عقلك

فالله بخلاف ذلك. فإنه ليس كمثله شيء» (150)

لاحظ أن ابن عربي، ككل علماء الصوفية، استعمل اللغة استعمالًا بديعًا ليعبرعن أهمية معرفة الله من خلال كلمات لها تداعيات، ومعانٍ مختلفة. فقد استعمل ابن عربي الهواء / السفر / البحر / الغرق / القدح، وأخيرًا فكرة الانتساب للتعبير عن علاقة العبد بالله. فكلنا ننتسب لعائلة، أو بلد، أو مكان، هذا جزء من هويتنا. وسوف نتكلم عن كل من هذه الكلمات تباعًا. ولكن نبحث في السؤال المعروف، وهو كيف نعرف الله، هل نعرفه بالعقل أم بالقلب؟

المعرفة تأتي بالقرب

ولكن أولًا نؤكد فكرة أكدها كل علماء الصوفية، وقالها ابن عربي وهي أن صفاء القلب يساعد على قربنا من الله. فالله قريب منا دومًا حتى أننا ربما لا نشعر به، فالقرب يجعلنا لا نرى أشياء أحيانًا، ولكن نحن نبتعد عنه على قدر أهوائنا في الدنيا، فلو اقتربنا نحن منه نراه بصورة مختلفة:

يقول ابن عربي «رؤية القلوب على قدر صفائها ونورها، ورؤية الأبصار على مقدار قلوبها، فالبصر أتم، ولهذا كانت الغاية رؤية البصر، {أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ} [العلق: 14]. بالبصيرة ترى الحق في الدنيا، وبالبصر تراه في الآخرة وأنت تصير إلى الأعلى، فرؤية البصر أعلى». (151)

رؤية الله في الدنيا بصفاء القلوب من الكبر والحسد والنميمة والحقد والكره، ورؤية الله في الآخرة بالبصر لأن في الآخرة يصبح البصر حديدًا {لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: 22]. ولكن ما معنى أن نرى الله بقلوبنا؟ ربما بدا كلام الصوفيين نظريًا أو مجردًا وصعب التحقيق، ومع ذلك يعطي ابن عربي الكثير من الأمثلة مستعملًا المجاز لشرح هذه الفكرة. فهناك الله، وهناك شهوده، الشهود تعني ما خلق وسخر للبشر، ومنهم البشر أنفسهم. وصافي القلب يرى شهود الله، ويفهم العلامات والرموز. فربما شعر بقدرة الله وحبه في شخص آخر، في شجرة، في سفر، في بحر، أو حتى وهو يذكر الله فيطمئن قلبه. ومرة أخرى، لو بدا هذا صعبًا فالسبب هو أننا لا نترك العنان للخيال بعد أن نصفي قلوبنا أولًا، ولو فعلنا سنجد أن الله يبعث لنا الكثير من الرسائل، ويساعدنا في رحلتنا الشاقة إلى المعرفة والعمل.

ويؤكد ابن عربي أن معرفتك بالله تختلف بقدر منزلتك وصفائك.

وما معنى الانتساب إلى الله؟ وما معنى منزلتنا تجاهه؟ الإنسان كما قلنا ينتسب إلى بيئة، أو سكن، أو أهل، ومن ينتسب أولًا وأخيرًا لخالقة خير درجة. ولكن هناك منازل لهذا الانتساب، فهناك من ينتسب إلى الله منتظرًا جزاءً، أو

خوفًا من نار، وهناك من ينتسب إلى الله من أجل حبه له فقط. وهذه أعلى المنازل.

من لم ينتسب إلى الله، انتسب إلى سواه. والنسب إليه تعالى متفاوت: فأقلها أن يحب الذكر ويحلو له، ثم يحب الذكر والمذكور، ثم الدوام على ذلك، ثم الدوام بغير تعلق بجنة ولا نار. (152)

المقصود بالذكر هنا هو ذكر أسماء الله أو قراءة آياته أو استغفاره. رؤيتك لله إذن بقلبك تعتمد على صفائه، وقدر عطائك لله، ورؤيته نصب عينيك. فقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي أن الله يطلب منا العبودية: «من أطاعني في كل شيء بهجرانه لكل شيء أطعته في كل شيء، بأن أنجلى له في كل شيء حتى يراني أقرب إليه من كل شيء». (153)

فلو كانت الغاية من هذا الكتاب تحقيق السعادة في الدنيا، فالسعادة تأتي بالقرب من الله. إذن ما علاقتنا بالشيطان؟ كيف نتخذه عدوًا؟ للصوفيين رأي يبدو موحدًا في هذه العلاقة هو عدم شغلهم بالشيطان لشدة حبهم لله. ويرون في تغلبهم على هوى النفس انتصارًا للإرادة على الشيطان. فقد قال أبو العباس المرسي مثلًا في قوله تعالى: {إِنَّ لشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُ فَ تَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُو مِنْ أَصْحَـٰبِ لسَّعِيرِ} [فاطر: 6]، فقوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان، فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب، وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدو أي وأنا لكم حبيب، فاشتغلوا بمحبته فكفاهم من دونه». إذن الانشغال بحب الله هو أكبر انتصار على الشيطان» (154) وسنجد هذا الفكر نفسه عند رابعة العدوية أيضًا.

«قيل لبعضهم: كيف صنعك مع الشيطان؟ فقال: وما الشيطان، نحن قوم صرفنا همنا إلى الله، فكفانا من دونه» (155)

وعن القرب من الله يوضح ابن عربي أن فكرة المسافة والمكان فكرة إنسانية محدودة. يقول ابن عربي: فما من الله شيء أبعد من شيء، ولا شيء أقرب من شيء، فالقرب هو قرب المراتب، لا المسافات. ويعطي ابن عربي مثالًا رائعًا على ذلك، فيذكر «القميص»، فهو أقرب إليك من ولدك، ولكن ولدك أقرب إلى قلبك من قميصك. الحب لا يعرف المسافات، والله أقرب إليك من كل شيء حتى ولو لم تره رؤية العين»فقميص الملك أقرب إليه من ابنه، ولكن ابنه أحب إليه من قميصه». (156)

ويعطينا ابن عربي هذه القصة العميقة لفهم قربنا من الله.

«سافر أحدهم للحج، فقال: رأيت الكعبة، ولم أر رب الكعبة، وسافر الثاني، فقال: رأيت الكعبة، ورب الكعبة، ثم سافر الثالث، فقال: رأيت رب الكعبة، ولم أر الكعبة». (157)

القرب من الله هو المشاهدة لله في كل شيء وعدم الاهتمام بشيء غيره وغير عبادته.

صفات الله: هو الظاهر والباطن

العمق في معرفة الله، وأهميته تنعكس على القلب السليم.

يشرح ابن عربي فكرته في التفريق بين الجوهر والمظهر، فعندما تشرب شرابًا تحبه هل تقول أنا أحب القدح الذي أشرب فيه الشراب أم أحب الشراب؟ إذن فالجوهر هو الله، هو الذي جمع التضاد، فهو ظاهر في شهوده وكل خلقه، وهو أيضًا باطن، لا يتجلى لبشر وليس كمثله شيء. ولا بد للإنسان أن يدرك هذا التضاد إما بعقله أو بقلبه. ولا بد للإنسان الاهتمام بجوهر الأشياء.

إذن بحب الله تراه بعين روحك، بعمق قلبك، ولا تهتم بالمظهر، ولكن بالجوهر. وتعرف الفرق بين مظهر الناس وجوهرهم، فللمؤمن فراسة وفهم. فكل الصور التي تراها من بشر، وأشياء، ونباتات، وحيوانات، وأموال، وإرث، وبيوت، وسيارات... إلخ، هي صور لا أكثر، هي القدح لا الشراب. كلها صور من خلقه هو جوهرها خلق الله وإبداعه، تذكر هذا حتى لا تجد نفسك تحب القدح، ولا تحب الشراب. كلنا قدح، والله هو الجوهر. كلنا من صنعه هو، ننتسب إليه.

«صور جميع الخلق، مثل الكؤوس. وهذه العلوم والفنون والمعارف، نقوش ورسوم على الكؤوس. ألا ترى كيف أنه عندما تكسر الكأس، لا تعود تلـك النقـوش موجودة، فالقدح، مثل الأسباب. أما الشراب، فهو المقصود» (158)

فما أهمية معرفة ظواهر الله دون النظر إلى الباطن والجوهر؟ لو أحببنا شخصًا ما، أو مكانًا ما، أو قصرًا، أو بيتًا، ولم ندرك أنه أحد الشهود على إبداع الخالق، وأن الغاية منه هي الوصول إلى الله أولًا وأخيرًا، فنحن نرتبط بالقدح وليس بالمحتوى. ولطالما حدث هذا لمحبي الدنيا من محبي الثراء، والجاه، والولد، والمناصب دون البحث عن المعنى الأعمق الباطن لكل الوجود.

ويشرح ابن عربي أن شهادة لا إله إلا الله غير اعتقاد أنه لا إله إلا الله. والصلاة ليست مجرد كلمات وحركات، بل هي «استغراق» تام في الوجود مع الله. ومع معرفتنا أننا لا نستطيع رؤية الله بغير حجاب في هذه الدنيا، لا بد أن ندرك أيضًا أنه ظاهر في كل شيء حولنا. وكلما اقتربنا منه كما طلب منا {كَلَّا

لَا تُطِعْهُ وَ سْجُدْ وَ قْتَرِب} [العلق: 19]، تجلى لنا أكثر وأكثر. وربما هذه هي أكبر كرامة أن نشعر به حولنا دومًا، ونرى علاماته وشهوده وصوره، وندرك مقصده، أو بعضًا منه.

تذكر أيها الإنسان أن العبادات وسيلة وليست غاية، الصوم هدفه أن تقترب من ربك، فلو وقفت مع الصوم فقط، فأنت تنظر إلى القدح ولم تهتم بما بداخله. العبادة عمق، وإدراك، وشعور، وذوق أي تذوق القرب من الله، وهذا التذوق يصعب شرحه.

ونعود لفكرة القرب والمسافة. قرب الشيء منك إذن لا يعني أن يتبدى لك بصورته لأن هذا مستحيل، فالله ليس كمثله شيء، ولكنه سيظهر لك على قدر معرفتك به في مخلوقاته.

ويقول ابن عطاء الله: «إنما حجب الحق عنك، شدة قربه منك». (159)

الله هو الظاهر الباطن، يشير ابن عربي في رسالة الأنوار أن الله حُجِب لشدة ظهوره.

«فكل هو وبه ومنه وإليه، ولو احتجب عن العالم طرفة عين لفني العالم دفعة واحدة، فبقاؤه بحفظه ونظره إليه، غير أنه من اشتد ظهوره في نوره بحيث إن تضعف الإدراكات عنه فيسمى ذلك الظهور حجابًا». (160) ثم يوضح هذا المعنى في رسالة إلى الإمام الرازي «لا تدرك الأبصار الهواء لكونها سابحة فيه، فمن كان في قبضة شيء فإنه لا يدرك ذلك الشيء». (161) نحن لا نرى الهواء، ولكننا نحيا به، ونسبح فيه. ثم يعطي مثالًا آخر للماء فيقول «يريد البصر أن يدرك لون الماء، والشفافة الغالبة في الصفاء، فلا يدركها، فإنه لو أدركها لقيدها. وذلك لأنها أشبهته في الصفاء والإدراك، لا يدرك نفسه لأنه في نفسه». (162)

هنا لا بد أن نوضح أن هناك كلمتين يستعملهما الصوفية بعمق شديد، وهما كلمتا «القيد والحرية» خيالنا مقيد، عقلنا مقيد. خيالنا مقيد بما رآه وتخيله، ولكنه لا يستطيع أن يتخيل شيئًا لم ير مثله. فعندما نكتب قصص خيال علمي، ونتخيل شخصًا من الفضاء نعطيه صفة واحدة على الأقل من الصفات التي نعرفها، إذ لا يمكن لنا أن نؤلف إبداعًا مطلقًا. إبداعنا مقيد. معرفتنا مقيدة. استعمالنا للغة مقيد. وحتى الأشياء التي نحبها فهي قيد في حد ذاتها. الحرية تأتي للإنسان بمعرفة الخالق. الإنسان يتوق إلى الحرية، وكثيرًا ما لا يدرك كيف يصل إليها، فهي معنى أعمق من مجرد السير في الطرقات أو الطير في الهواء، فالعالم كله قيد محدود، والحرية لا حدود لها. وكل شيء موجود فهو محدود ومقيد. والله ليس شيئًا، وليس كمثله شيء. البصر مقيد، ويتمنى أن يقيد الأشياء فيحدد الماء وأشكاله مثلًا. إذن لأنك مقيد بخيالك وعقلك لا بد

من معونة الله لك في معرفة المطلق الذي ليس كمثله شيء، هو الله. فيقول ابن عربي «تعرفه به، وبقوته، وليس بقوتك أنت» (163) «بالحق تجد الحق، فلا تطلبه بك، فإنك ما تجد سواك أيها الطالب» (164) وهذا سبب دعائنا إلى الله أن يهدينا إلى الصراط المستقيم. لأننا نحتاج دومًا إلى معونته. إدراك عجزنا، وقدرتنا مهم، وإدراك أننا أيضًا مكرمون منه مهم، وهذا معنى به بعض التضاد. والتضاد دومًا صعب على العقل تقبله. أنت تحتاج إلى الله، وتفتقر لوجوده وخيره.

«أيها العبد بما ليس لك تعتز على مثلك لم لا تكون كما قال الكليم: {فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى لظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} [القصص: 24]». (165)

إذن فالخير بيد الله، وليس بيدنا، فنحن الفقراء لخيره ورزقه.

وعن رحلة البحث عن الله يوضح ابن عربي أن البحث عن الله لا بد أن يكون بالله وبمساعدته لنا.

من رسالة الانتصار يقول ابن عربي «ووجه الجمع بينهما بالاستفضال، وذلك أنا نقول قال رسول الله : «من - طلب الله وجده» هذا صحيح لكن قوله : «من طلب الله» بالله أو بغيره، إن كان بالله فضرورة أن يجده، ومن طلبه بغيره كيف يصح أن يجده». (166)

أنت تطلب الله بالله وليس بنفسك. لأنك فقير إلى وجوده وخيره.

تذكر أن الطريق إلى الله يحتاج إلى جهاد النفس والصبر على الفتن والبلايا، هذه الحقائق يتفق فيها كل الصوفيين. عندما تدرك قدرة الله؛ تدرك أيضا أن نفسك موجودة من أجل عبادته وأنها تحت قبضته فنفسك تفنى في الله. ولذا فناء النفس، لا يحصل بمجرد الكلام والعلم، ولكن له مجاهـدة عظيمـة، وطريق طويل صعب» قال تعالى: {وَلَا تَدْعُ مَعَ للَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ لْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[القصص: 88]. وكل هالك: وهم». (167)

كيف تقترب من الله؟

في رسالة القسم الإلهي يشرح لنا ابن عربي صفاء الإيمان ويعطينا مثالا على الإخلاص في العبادة لوجه الله وليس لمصلحة في الدنيا:

«ومن شرط قوة الإيمان وتحصيله ألا ننتظر حكم من آمنا به، بل نحكّمه علينا ابتداءً منا تثبيتًا لإيماننا، ونرضى بقضائه فينا ولا نبالي بما حكم علينا بما يهون علينا حمله أو ما لا يهون، فإذا قضى بما قضى به علينا مما تعظم مشقته ويصعب حمله، طابت به نفوسنا، وعظمت اللذة بذلك في قلوبنا، وزال عن

النفس ما كان شجر بينها وبين خصمها، وانقادت بحكم الله علينا سهلة ذلولة، ومتى لم نجد ذلك في نفوسنا، فليس عندنا رائحة من حقيقة الإيمان في جميع حكمه كله علينا، كما اتفق لبعض المحققين، وكان قد تحقق باحترام الشرع، والانقياد إليه في كل حال، متلذذًا بذلك، مستبشرًا به، خفيفًا عليه ستين سنة. فلما كان يومًا قالت له والدته: اسقني شربة ماء. فبادر إلى ذلك ووجد في نفسه ثقلًا لذلك الأمر، فقال: يا ويلاه ويا أسفاه، مضى العمر باطلًا، أنا أدعي أن حكم الله علي خفيف للذتي به وبري بأمي من حكم الله، فلم ثقل علي هذا الأمر، هذا أول دليل على أن كل ما التذذت به من حكم الشريعة كان للنفس فيه غرض، ولو كنت مع الحاكم لا مع الحكم لم يثقل علي أن أسوق الماء إلى الوالدة». (168)

القصة التي يعطيها لنا ابن عربي مهمة لأنها توضح معنى الإخلاص بالضبط، فربما نقوم بكل الواجبات إقامة ظاهرية، ولكن الإيمان يحتاج إلى إخلاص. فهذا الرجل يصلي ويصوم ويقيم الشرع في حياته ستون عامًا ثم يثقل عليه بر والدته ولو مرة، فيدرك حينها أن إخلاصه لم يكن كافيًا. هكذا يحاسب الصوفية أنفسهم، وهكذا يواجهون أي خطأ ولو بالنية. ولكن ما يُسَهِّلُ صفاء النية هو إدراك ماهية الدنيا.

الدنيا رحلة والرحلة ليست وطن

فحياتنا على الأرض سفر، وليست وطنًا. نحن في ضيافة الملك »الله» ثلاثة أيام كما يقول لنا ابن عربي، واليوم عند الله بآلاف السنين. وبما أننا في ضيافته فلا بد ألا نقلق على رزق، وبما أننا في ضيافته فلا بد أن نفعل ما طلبه منا، وهو عبادته بكل أنفسنا.

يقول في رسالة الأنوار «فالواجب على كل عاقل أن يعلم أن السفر مبني على المشقة، وشظف العيش، والمحن والبلايات وركوب الأخطار والأهوال العظام، فمن المحال أن يصح فيه نعيم أو أمان أو لذة، فإن المياه مختلفة الطعم، والأهوية مختلفة التصريف، وأهل كل منهلة يخالف طبع أهل المنهلة الأخرى، فيحتاج المسافر لما يصلح بتلقي كل عالم في منزله، فإنه عندهم صاحب ليلة أو ساعة وينصرف». (169)

ويقول ابن عربي جملته المعبرة عن كل رحلتنا في هذه الدنيا القصيرة في رسائله

«إشارة: موطن الرحلة ليس بموطن». (170)

وتذكر أننا هنا في هذه الدنيا أولًا وأخيرًا لعبادة الله. هذا هو عملنا الأول، وإعمار الأرض، ونشر السلام والرحمة. ولكننا في هذه الرحلة قد نفقد

الهدف.

يقول ابن عربي «مثل ملك أرسل أحد عبيده من أجل عمل معين، فذهب، فأدى مائة عمل آخر، إلا ذلك العمل، فهو في الحقيقة ما عمل شيئًا، واستحق سخط الملك. وهكـذا الإنسان، جاء إلى العالم من أجل عمل معين بعينه، فإن لم يفعله، فإنه لا يكـون فعل شيئًا: {وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦}[الذاريات: 56]. انظر إلى السموات - ولاحظ أن أعمالًا كثيرة، ومنافعًا جسيمة، تأتى منها، وكـذا الأرض، وكـذا الجبال، وكذا كل المخلوقات سوى الإنسان، ولكنّ هناك عمل أوحد لا يأتي إلا من الإنسان، ولا يأتي من غيره: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء: 70]، ولم يقـل كـرمنــا السماء والأرض». (171)

فالله كرم الإنسان وكلفه بأشياء محددة، أراد بها أن يعلمه ويجهزه لمكانة كبيرة. ولا بد أن نعرف أن الله لم يخلقنا ليعاقبنا على ما فعل آدم، ولكن ليعلمنا، ويثقل تجربتنا، فندخل الجنة ونحن أكثر معرفة وأكثر دراية. قال الشيخ أبو العباس: «كنت مع الشيخ (الشاذلي) في السفر، ونحن قاصدون الإسكندرية حين مجيئنا من الغرب، فأخذني ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله، فأتيت إلى الشيخ أبي الحسن، فلما أحس بي قال: أحمد. قلت: نعم يا سيدى، قال: آدم خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، ثم نزل به إلى الأرض؛ والله ما أنزل الله آدم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله. ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله تعالى: ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ [البقرة: 30]. ما قال في السماء، ولا في الجنة؛ فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة، لا نزول إهانة، فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتعريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفته. وأنت أيضا لك قسط من آدم، كانت بدايتك في سماء الروح في جنة التعريف، ف»أنزلت إلى أرض النفس لتعبده بالتكليف. فإذا توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة» (172)

ما هي العبوديتان؟ أن تعرف الله، ثم تعمل في دنياك وتحقق مراده منك بالتكليف، فقد كلفك بمهام. وعند انتهاء رحلتك تكون قد عرفت الله، ونضجت أيضًا، ووصلت إلى مكانة تجعلك قادرا على استيعاب جمال الجنة، ولقاء ربك.

ملخص

تكلمنا في هذا المقال عن العقل والقلب، وعن ماهية الله، وعن السؤال الصحيح وغير الصحيح. تكلمنا عن صحة الإيمان، وطبيعة القرب من الله، وتكريم بني آدم.

تذكر أيها الإنسان أن الدنيا محدودة، ونحن سجناء لحدود خيالنا وعقلنا. كيف نتحرر؟ بالمعرفة. كلما جلسنا أكثر مع ربنا وخلونا به نعرف أكثر.

يقول الشيخ حسن عبد القادر « (وصولك إلى العلم) به يعني مشاهدته تعالى بعين بصيرتك مشاهدة تغنيك عن الدليل والبرهان» (173)

هذا النوع من الوصول يحتاج إلى صفاء قلب وجلوة، أي يحتاج إلى تنظيف للقلب حتى يلمع كبريق الماس. فتشاهد الله في كل شيء حتى لو لم تشاهده بالعين.

ومضة نور

«العبودية أن تكون عبده في كل حال كما هو ربك في كل حال». (174)

ذو النون المصري

«استتر لشدة ظهوره، وخفي عن الأبصار لعظيم نوره». (175)

ابن عطاء الله السكندري

«الحمد لله فائض الأنوار، وفاتح الأبصار، وكاشف الأسرار، ورافع الأستار». (176)

أبو حامد الغزالي

«لا بد من الحلاوة والمرارة والصلاح والفساد والكدر والصفاء. فإن أردت الصفاء الكلي، ففارق بقلبك الخلق، وواصله بالحق عز وجل. فإذا وجدته، وجدت كل الصفاء عنده». (177)

عبد القادر الجيلاني

«تطلب الراحة في دار الفناء، خاب من يطلب شيئًا لا يكون». (178)

جعفر الصادق

«يا غلام: سلم إليه في مقدوره ثم قم معه بعد ذلك. الأمر يحتاج إلى أساس ثم بناء» (179)

عبد القادر الجيلاني

«ليس الحليم الذي تجني فيهملك، إن الحليم الذي تجني فيمهلك» (180)

ابن عربي

«إذا أدركتني، أدركت نفسك، كلُ يريدك له، وأنا أريدك لك» (181)

ابن عربي

«ما للجنون عامر من هواه غير شكوى البعاد والاغتراب وأنا ضده فإن حبيبي في خيالي فلم أزل في اقتراب». (182)

ابن عربي

«وَأَيُّ الأَرضِ تَخلو مِنكَ حَتّى تَعالَوا يَطلُبونَكَ في السَماءِ تَراهُم يُنظُرونَ إِلَيكَ جَهرًا وَهُم لا يُبصِرونَ مِنَ العَماءِ» (183)

الحلاج

«الخلق يخشونك. وأنا أخشى نفسي. فما رأيت منك إلا كل خير، وما رأيت من نفسي إلا كل شر. فلتكن مرشدي إذا ما ضللت الطريق، ولتعني إذا ما جئت في غير موعدي. فكل من حاز البقاء في حضرتك أصبح فريد الدين العطار سعيدًا» (184)

فريد الدين عطاء

«إن لم تحسن ظنك به لأجل حسن وصفه فحسن ظنك به لأجل معاملته معك فهل عودك إلا حسنًا؟

وهل أسدى إليك إلا منتًا؟» (185)

ابن عطاء الله

«ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك، وخلقتك من أجلي. فلا تنشغل بما هو لك عمن أنت له» (186)

أبو الحسن الشاذلي

«إِن كانَ لا يَرجوكَ إِلّا مُحسِنٌ، فَبِمَن يَلوذُ وَيَستَجيرُ المُجرِمُ» (187)

أبو نواس

«علمتني شهرزاد أن أصدق ما يكذبه منطق الإنسان، وأن أخوض بحرا من المتناقضات، وكلما جاء الليل يتبين لي أني رجل فقير» (188)

نـجيب محفوظ

«لو زال منك «أنا»، لاح لك «مَنْ أنا». (189)

الشيخ داود بن ماخلا

«إشارة من اعتز بالحق سعد، ومن اعتز بغيره شقي وإن نصر في الوقت» (190)

ابن عربي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أبو حامد الغزالي – البحث عن السعادة

«ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح، ولو علم الملك لكان أعظم فرحًا»

أبو حامد الغزالي

السعادة طريق لا بد فيه من الوسطية والثبات، ولا تدخل السعادة قلبًا سقيمًا. هي محصورة على القلب السليم. وبالنسبة لأبي حامد الغزالي، السعادة لا تحدث إلا بمعرفة النفس ومعرفة الله. فلو عرفت نفسك، تسهل معرفتك بربك ولو عرفت ربك، تصل إلى السعادة. هل السعادة مرادف للرضا؟ من الصعب الإجابة عن هذا السؤال. لأن الرضا مقامٌ من أعلى المقامات إن لم يكن أعلاها، وهو مقام لأهل الجنة لا نصل إليه إلا بالمجاهدة.

وللغزالي كتيب عنوانه «كيمياء السعادة»، يقول فيه: «كيمياء السعادة لا تكون إلا في خزائن الله سبحان وتعالى». (191) وسر هذه الكيمياء أن «ترجع من الدنيا إلى الله». (192) »وتبتل إلى الله تبتيلًا» أي تتفرغ لعبادته، كما قال الشاذلي بعد ذلك فيما معناه، اجعل الدنيا في يدك والآخرة في قلبك.

يشبه أبو حامد الغزالي الإنسان بالمدينة، لها ملك، ووزير، ووالٍ، وشحنة (قوات أو عساكر لحفظ الأمان)، والقدرة على التوازن بين كل هؤلاء تؤدي إلى معرفة النفس والله. ومعرفة النفس تأتي بإدراك نواقصها وضعفها وحدودها. ومعرفة الله تأتي بالنفس.

يعطينا الغزالي في كتاباته بعض الخطوات التي تساعد القلب على مقاومة المرض، وتساعد الإنسان على الوصول لمقام الرضا. سنتكلم عن كل خطوة في هذا المقال.

ولكن لاحظ أيها القارئ أن أبا حامد الغزالي يصف لنا الطريق، ولا يعطينا طريقة، وما يميز طريق الصوفية هو التسامح الكامل، وتقبل الآخر، والتأكيد على أن رحمة الله ولطفه يعمان كل شيء. حتى إن ابن عربي يفصل بين الشر داخل الإنسان، والإنسان نفسه، فيطلب منا أن نكره الصفات الشريرة في البشر، ولا نكره شخصًا ولكن نكره صفة فيه. ويعطي ابن عربي مثالًا عن الله فهو لا يحب المتكبرين، أي لا يحب في الشخص صفة التكبر.

قبل أن نبحث معًا عن السعادة والرضا لا بد أن نعرف أولًا أن هناك كلمات كالكنز دومًا مقترنة بالسعادة، وهي الصبر والشكر، مكارم الأخلاق، التوكل، العبودية، التسامح والتواضع. وهذه المعاني العامة يصعب علينا تطبيقها إلا بوجود أمثلة من حياتنا، وطوال هذا الكتاب سنعطي أمثلة، ونشرح كيفية الوصول إلى الهدف وهو السعادة. ولكل مفكر صوفي نظرية في معرفة الله تصب في نفس الاتجاه سنناقشها تباعًا في الكتاب. أول خطوات معرفة

النفس هي أن نعمل بالصفات التي كلفنا بها الله ومنها: العلم والعمل، التوكل والشكر، الصبر، والتسامح.

التكليف: العلم والعمل

ولنبدأ ببعض نصائح أبي حامد الغزالي لأحد تلاميذه في كيفية اتخاذ طريق التصوف.

في كتابه (أيها الولد) كما في كتابه «إحياء علوم الدين» يؤكد الغزالي على أهمية كلمتين، العلم والعمل. يوضح الغزالي أن أي شيء يعمل الإنسان على الوصول إليه في الدنيا والآخرة يحتاج إلى العلم والعمل. مثلًا لو أصيب الإنسان بمرضٍ مؤلم، يمكن للإنسان أن يصبر على هذا البلاء، ولكن هذا لا يكفي. عليه أولًا أن يعرف ما هو المرض ثم يعمل على إزالة الألم ومحاولة الشفاء من المرض. الصبر إذن لا يعني المعرفة فقط، بل يعني السعي إلى التخلص من أي ضرر. فالصبر عند الغزالي يحتاج إلى العلم والعمل. أولًا تعرف تشخيص حالتك كالطبيب، ثم تعمل على اجتياز البلاء سواء كان بلاءً بفقد أو شهوة أو مال أو فتنة أو ظلم أو مرض. وسنتكلم عن فكرة الصبر في مقال منفصل. ولكن الغزالي يضع سر الدنيا في شيئين، علم وعمل؛ فتصبح السعادة أيضًا مرتبطة بهما. كلمتان بمعانٍ وتداعيات مختلفة. فبالعلم تعرف الله، وبالعمل تصل إلى رضاه، وبالعلم تعرف نفسك، وبالعمل تكبح وسواسها. ولو انفصلت كلمة عن أخرى، فوجود أحدهما لا يجدي ولا يساعد. فمثلًا لو علمت كل مساوئ نفسك، ولم تعمل على إصلاحها، فما الفائدة؟ ويعطينا أبو حامد الغزالي مثالًا مهمًا في كتابه «أيها الولد» فيقول لو أنك تملك سيفًا، ودخل عليك أسد، ولكنك لم تستعمل السيف للدفاع عن نفسك، فما فائدة السيف؟ وهكذا هو العلم لو أنك تملكه، ولا تعمل به، فما الفائدة؟ لن يمنع عنك خطورة الأسد، ولن يحميك بلا عمل.

ولا بد للصوفي أن يكون علمه وعمله دومًا، والله نصب عينيه. ومعنى هذا أن الطبيب يعمل بعلمه بإخلاص وضميرٍ لإرضاء الله، والمعلم يعمل بالإخلاص نفسه إرضاء لله، وكل من يعلم شيئًا، ويعمل به لا بد أن يستعمل كلمات الإخلاص والصدق في العمل والعلم. وهذا هو غالبًا ما يقصده الغزالي بأن تسهر وتعمل لوجه الله.

وقد أعطت العجوز نصيحة لذي النون في كتابات ابن عربي عندما قال لها: أعطني نصيحة، فقالت ثلاث كلمات لخصت كل الدنيا: «اجعله نصب عينيك». (193) أي اجعل الله أمامك في كل عمل تقوم به. ويستشهد الغزالي في رسائل الحكم بهذه الأبيات الجميلة:

«سهر العيون لغير وجهك ضائع،

وبكاؤهن لغير فقدك باطل». (194)

وكما قال النبي : «عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به» فيقول الغزالي ناصحًا تلميذه: «أيها الولد: العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون». (195)

ويقول ناصحا تلميذه: «اجعل الهمة في الروح، والهزيمة في النفس، والموت في البدن». (196) أي اعمل بإخلاص واهزم شر نفسك وفجورها، ولا تجعل الفساد يطول قلبك فيميته، وأجل الموت لجسدك فقط يوم ينتقل الإنسان إلى ربه.

نجد في الغزالي مثلًا لأحد الصوفيين الذين علموا ثم عملوا، ثم يحكي الغزالي حكاية فيقول وهو يذكرتلميذه:

«وتأمَّلْ في حكاية أخرى، وهي أن حاتمًا الأصم كان من أصحاب الشقيق البلخي، رحمهما الله تعالى، فسأله يومًا قال: صاحبتني منذ ثلاثين سنة ما حصل لك فيها؟ قال: حصَّلت ثماني فوائد من العلم، وهي تكفيني منه، لأني أرجو خلاصي ونجاتي فيها. فقال شقيق: ما هي؟ قال حاتم الأصم:

الفائدة الأولى: إني نظرت إلى الخلق فرأيت لكل منهم محبوبًا ومعشوقًا يحبه ويعشقه، وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت، وبعضه إلى شفير القبر، ثم يرجع كله ويتركه فريدًا وحيدًا، ولا يدخل معه قبره منهم أحد. فتفكرت وقلت: أفضل محبوب المرء ما يدخل معه في قبره ويؤنسه فيه ويدفع وحشته، فما وجدته إلا الأعمال الصالحة فأخذتها محبوبًا لي لتكون سراجًا لي في قبري، تؤنسني فيه ولا تتركني فريدًا.

والفائدة الثانية: إني رأيت الخلق يقتدون أهوائهم ويبادرون إلى مرادات أنفسهم، فتأملت في قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى لنَّفْسَ عَنِ لْهَوَىٰ.فَإِنَّ لْجَنَّةَ هِيَ لْمَأْوَىٰ}[النازعات:40، 41]. وتيقنت أن القرآن حق صادق، فبادرت إلى خلاف نفسي وتشمرت لمجاهدتها، وما أتبعتها بهواها حتى ارتاضت لطاعة الله سبحانه وتعالى.

الفائدة الثالثة: إني رأيت كل واحد من الناس يسعى فيجمع حطام الدنيا، ثم يمسكه قابضًا يده، فتأملت في قوله تعالى: {مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ للَّهِ بَا وَلَنَجْزِيَنَّ لَّذِينَ صَبَرُوٓ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُو يَعْمَلُونَ} [النحل: 96]، فبذلت محصولي من الدنيا لوجه الله تعالى، ففرقته بين المساكين ليكون ذخرًا لي عند الله تعالى.

والفائدة الرابعة: إني رأيت بعض الخلق ظن شرفه وعزه في كثرة الأقوام والعشائر فاغتر بهم، وزعم آخرون أنه في كثرة الأموال والأولاد فافتخروا بها،

وحسب بعضهم أنه في غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم، واعتقدت طائفة أنه في إتلاف المال وإسرافه وتبذيره، وتأملت في قوله تعالى: {يَـٰٓأَيُّهَا لنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُو ا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ للَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ للَّهَ عَلِيمٌ خَبِي } [الحجرات: 13]. فاخترت التقوى، واعتقدت أن القرآن حق صادق، وظنهم وحسبانهم كله باطل زائل.

والفائدة الخامسة: إني رأيت الناس يذم بعضهم بعضًا، ويغتاب بعضهم بعضًا، فوجدت ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم، فتأملت في قوله تعالى: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى لْحَيَوٰةِ لدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْ دَرَجَـٰ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْ ا سُخْرِ ا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}[الزخرف: 32]، فعلمت أن القسمة كانت من الله تعالى في الأزل، فما حسدت أحدًا ورضيت بقسمة الله.

والفائدة السادسة: إني رأيت الناس يعادي بعضهم بعضًا لغرض وسبب، فتأملت في قوله تعالى {إِنَّ لشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُ فَ تَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُو مِنْ أَصْحَـٰبِ لسَّعِيرِ} [فاطر: 6]، وعلمت أنه لا يجوز عداوة أحد غير الشيطان.

والفائدة السابعة: إني رأيت كل أحد يسعى بجد، ويجتهد بمبالغة لطلب القوت والمعاش، بحيث يقع به في شبهة وحرام، ويذل نفسه وينقص قدره، فتأملت قوله {وَمَا مِن دَآبَّ فِى لْأَرْضِ إِلَّا عَلَى للَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُ فِى كِتَـٰ مُّبِي } [هود: 6]، فعلمت أن رزقي على الله تعالى وقد ضمنه، فاشتغلت بعبادته، وقطعت طمعي عمن سواه.

الثامنة: إني رأيت كل واحدٍ معتمدًا إلى شيء مخلوق، بعضهم إلى الدينار والدرهم، وبعضهم إلى المال والملك، وبعضهم إلى الحرفة والصناعة، فتأملت في قوله تعالى {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى للَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ للَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ للَّهُ لِكُلِّ شَىْ قَدْ ا} [الطلاق: 3]، فتوكلت على الله تعالى فهو حسبي ونعم الوكيل.

فقال شقيق البلخي: وفقك الله تعالى، إني قد نظرت التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فوجدت الكتب الأربعة تدور على هذه الفوائد الثمانية، فمن عمل بها كان عاملًا بهذه الكتب الأربعة». (197)

لاحظ أيها القارئ أن الغزالي وغيره من الصوفيين على دراية بوجود القيم نفسها والمبادئ الصالحة في كتب الأديان الأخرى.

وفي كتاب «منهاج العارفين»، يؤكد الغزالي مرة أخرى على أهمية العلم، وتصفية النية، والتسامح، وذكر الله.

فيقول « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»

ولتعلم أيها القارئ أن العارف بالله يرى الجهل كبيرة، وأن مصطلح العارف بالله مصطلح يطلق على الصوفي؛ لأن معرفة الله تؤدي إلى سعادة القلب والرضا.

فنجد أن أبا الحسن الشاذلي يعتبر الجهل والرضا به من الكبائر، بل يعتبره من أكبر الكبائر ويقول: «لا كبيرة عندنا أكبر من اثنين: حب الدنيا بالإيثار، والـمُقام على الجهل بالرضا. لأن حب الدنيا أساس كل خطيئة. والـمُقام على الجهل أصل كل معصية» (198) وقد اشترط ابن عطاء الله السكندري، والشيخ ياقوت العرش، في قبول الطلاب: ألا يدخل أحد الطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة، وآلاتها بحيث يقطع العلماء في مجالس المناظرة بالحجج الواضحة».

وقد قال تعالى في كتابه:{فَتَعَـٰلَى للَّهُ لْمَلِكُ لْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِ لْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْا} [طه: 114]،{وَمِنَ لنَّاسِ وَ لدَّوَآبِّ وَ لْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى للَّهَ مِنْ عِبَادِهِ لْعُلَمَـٰٓؤُ إِنَّ للَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨}[فاطر28]، {يَـٰٓأَيُّهَا لَّذِينَ ءَامَنُوٓ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُو فِى لْمَجَـٰلِسِ فَ فْسَحُو يَفْسَحِ للَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ نشُزُو فَ نشُزُو يَرْفَعِ للَّهُ لَّذِينَ ءَامَنُو مِنكُمْ وَ لَّذِينَ أُوتُو لْعِلْمَ دَرَجَـٰ وَ للَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِي} [المجادلة: 11].

إذن العمل والعلم هما أول طريق الرضا. ثم يأتي التوكل على الله والصبر.

التكليف: التوكل والصبر

يعرف الغزالي التصوف بأنه طريق الاستقامة و«السكون عن الخلق». (199) ويعرف العبودية بأنها «محافظة أمر الشرع». (200) ثم يصل المريد في هذا الطريق بالعلم والعمل إلى «الرضا بالقضاء والقدر وقسمة الله تعالى». (201)، وعليه أيضًا أن يتوكل على الله. والتوكل عند الغزالي هو أن «تستحكم اعتقادك بالله فيما وعد» (202) وعندما تؤمن بأن رزقك مقسوم، وأن يومك مؤجل وعلمه عنده، ستصل إلى الرضا، وهذا يحتاج إلى المجاهدة.

«يعني تعتقد أن ما قُدِّر لك سيصل إليك لا محالة، وإن اجتهد كلُّ مَن في العالم على صَرْفه عنك. وما لم يُكتب لك لن يصل إليك، وإن ساعدك جميع العالم». (203)

والإخلاص في المجاهدة شرط للوصول إلى أي مقام، وعرف الغزالي الإخلاص بأن «تكون أعمالك كلها لله». (204) والتوكل والرضا والإخلاص والعبودية كلها أمور تحتاج إلى الصبر، والصبر ثلاثة أنواع: صبر على الطاعة، وصبر على الفاقة، وصبر على المعرفة. والصبر على الطاعة هو أن تصبر مثلًا على الصيام أو على العفة، والصبر في الفاقة هو الصبر مع البلاء. أما الصبر على المعرفة فهو أن تتعلم وتصبر حتى تفهم؛ لأن الفهم لا يأتي مباشرة بعد العلم، ولكن يحتاج إلى وقت. وسنتكلم عن أنواع الصبر في مقال منفصل إن شاء الله.

ويقول الغزالي في طريقك للعلم والعمل بإخلاص، لا تكترث للجاهل أو الحاسد. فكلاهما لن يستفيد من كلامك. فالجاهل نقول له سلامًا، والحاسد لا علاج له. فسر في طريقك، وتجاهل الاثنين. وكما قال الغزالي مستشهدًا بقول الشاعر:

«كل العداوة قد ترجى إزالتها

إلا عداوة من عداك عن حسد» (205)

وبعد أن تعلم وتعمل تذكر الآتي:

«لن يدخل الجنة أحد بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته». (206)

رحمة الله، رحمة يمن بها لعباده كما قال ابن عربي في الفتوحات المكية: وهي رحمة واسعة، لا نستطيع تخيلها بعقلنا الضيق.

التكليف: التواضع

ولنتخذ من الغزالي نفسه مثالًا على التواضع الشديد، وترك المناصب كما قلنا من قبل، وعندما طلب منه أحد الشيوخ أن يكتب له رسالة يعظه فيها، قال الغزالي:

«أما الوعظ فلست أرى نفسي أهلًا له، لأن الوعظ زكاة نصابها الاتعاظ، ومن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة؟ وفاقد النور كيف يستنير به غيره؟» (207)

أبى شيخ الإسلام أبو حامد الغزالي أن يضع نفسه فوق أحد، أو يعظ أحدًا لأنه ليس واثقًا أنه انتصر كليًا على كل شهواته.

التكليف: حفظ النية وتذكر الموت

استشهد الغزالي بحديث للنبي قائلًا «وقال النبي تركت فيكم واعظين ناطقًا وصامتًا. فالناطق هو القرآن والصامت هو الموت». (208) وركز

الغزالي على الموت قائلَا جملته المعبرة المهمة الفلسفية العميقة: «كل ما هو آت قريب، والبعيد ما ليس بآت» (209) أي أن الموت قريب. والحر الحكيم يخرج من الدنيا قبل أن يخرج منها. (210) لو فكرنا قليلًا في حياتنا سنجد أننا مثلًا نظن أن بلوغ أولادنا سن الجامعة بعيد، ولكنه يحدث بين عشية وضحاها، أو أن بلوغ أبوينا سن الكبر بعيد ولكنه يحدث أسرع مما نتوقع. إذن كل ما هو آتٍ قريب، أما البعيد فهو الذي لا يأتي أبدًا. لأن إحساسنا بالوقت يتغير ما بين الماضي والحاضر.

كما تحضّر للصيف أو للشتاء الملابس وغيرها، جهز لآخرتك. (211) ثم يتكلم عن نفسه: «نظرت إلى نفسي لِمَ لا تتعظ؛ لأنها تظن أن الموت بعيد». (212)

إحساس الإنسان أن الموت بعيد عنه يجعله يقع في المعاصي أحيانا. قيل لنوح كيف وجدت الدنيا قال «كبيت له بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر» ونوح كان أطول الأنبياء عمرًا. (213)

وربما رحمة الغزالي الواسعة وتسامحه جعلتاه ينهي رسالته الوعظية قائلًا: «إن من كان عنده إيمان صحيح، ليس عليه التبحر في العلوم إلا لو وجد في هذا الطريق ما يروقه». (214)

ليس على كل الأفراد البحث والتفكر طالما يؤمن بلا إله إلا الله محمد رسول الله»كلما حصل في قلبه التصديق بالحق بمجرد الإيمان من غير دليل وبرهان فهو مؤمن». (215)

نعود إلى مفهوم القلب السليم وحديث النبي «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» فيقول الغزالي: وليس شيء على المريد أصعب من حفظ النية. (216)

وذكر الله يساعد على حفظ النية. فربما لا نبدي الكبر مثلًا لغيرنا، ولكن الكبر لم يزل بداخلنا. وربما نبدي الحب، ونتعامل بالخير مع الغير، ولكن الحسد لم يزل بداخلنا. تصفية النية إلى الله تحتاج إلى مراعاة النفس، وملاحظتها ودومًا السيطرة عليها.

وعامل الناس بصفاء النفس، تذكر وأنت تتوضأ أن الهدف من الوضوء الطهارة. يقول الغزالي «ولتكن صفوتك مع الله كصفوة الماء، فاغسل وجه قلبك عن النظر إلى غير الله، واغسل يدك عن الامتداد إلى غيره، وامسح رأسك عن الافتخار بغيره، واغسل رجليك عن السعي لغيره، واحمد الله على ما ألهمك من دينه». (217)

التكليف: التسامح

ويؤكد الغزالي على التسامح، فيقول تذكر أن الله يحب ستر عباده؛ فلا تفضح أحدًا من خلقه بعيب تعلمه منه، واشتغل بعيب نفسك، فاستره بدوام الاضطرار إلى الله تعالى في تطهيره. وتطهير الثياب في تطهير النفس من الإثم والرياء والكبر. (218)

تذكر أن الله يطلب منك «الاعتبار بخلقه برهم وفاجرهم» وأفش السلام مبتدئًا ومجيبًا. (219).

وتذكر أن الله «يرحم عبده، ويكرم ضيفه، ويعطي سائله، ويبر المُعرض عنه، فكيف المقبل إليه؟» (220)

أيها الإنسان واجبك على الأرض هو إعمارها، وليس الحكم على الآخرين، أو القسوة على خلق الله. فإذا كان الله يرحم عبده العاصي فما بالك بعبده الطائع؟

«وارحم من لا يرحم نفسه، فإن الخلق بين فتن ومحن، إما مبتلى بالنعمة ليظهر شكره، وإما مبتلى بالشدة ليظهر صبره». (221)

معرفة النفس أول خطوة في طريق السعادة

ونؤكد مرة أخرى أن الطريق إلى السعادة هو بمعرفة الله، يقول الغزالي:

«اعلم أن مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس، كما قال سبحانه وتعالى: {سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: 53]، وقال النبي : «مَن عرف نفسه فقد عرف ربه» وليس هناك شيء أقرب إليك من نفسك، فإذا لم تعرف نفسك،«فكيف تعرف ربك؟». (222)

ويجب أن نعرف الله أولًا، ثم نحبه. استنكر السيوطي على بعض مدعي الدخول في الطريق الصوفي أنهم يرددون حبهم لله، ولا يعرفون الله قائلًا: فيدعي حب الله قبل معرفته. (223)

معرفة الله تتطلب معرفة ما يحب وما يكره والقواعد التي وضعها لنا وتتطلب التأمل في ما صنع ومحاولة فهم كلماته لنا. وأول مفتاح في الطريق الصوفي هو مواجهه النفس بصدق ومحاسبتها. وهذا عسير، أولًا لاختلاط الأمور علينا أحيانًا، فربما يقودنا الوهم فنظن أننا نعمل خيرًا، ونحن في الحقيقة نظلم ونفعل الشر. {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا . ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: 103، 104]، لأنهم لم يحاسبوا أنفسهم، ولم تتبد لهم الحقائق واضحة. وهذه مشكلة لا يوجد حل لها سوى المجاهدة والرياضة والسياحة. فربما نكره شخصًا، ونتصيد له الأخطاء، ولا نواجه أنفسنا أن هذا الكره نبعه غيرة وحسد، وربما نظلم

شخصًا، ونحن نقنع أنفسنا أننا على صواب. فلا بد من مواجهة قاسية وحاسمة مع النفس، كأول درجة في الطريق. معرفة النفس تحتاج إلى صبر، وهناك صبر على المعرفة. فالكثير من الأمور لا تتبدى لنا في الحال، ولكن تحتاج إلى قلب سليم، وعقل واعٍ، ووقت طويل من الاجتهاد للفهم.

كما قلنا من قبل «لتعرف ربك، لا بد أن تعرف نفسك» تعرف نفسك الظاهرة، ولكن حاول أن تعرف نفسك الباطنة. فقد خلقها الله لتسيطر عليها، لا لتسيطر هي عليك بما بها من مشاعر غضب وشهوة مثلًا. (224)الدين هو المجاهدة {وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ} [العنكبوت: 39].

وكما ذكرنا في بداية المقال يشبه الغزالي النفس بالمدينة.

«النفس كالمدينة، الأعضاء ضياعها، والقوة الشهوانية واليها، والقوة الغضبية شحنتها (أي جيشها ومؤنتها)، والقلب ملكها، والعقل وزيرها». (225) فماذا تفعل؟ تقتل الوالي والشحنة؟ لا. ولكن إذا أعطيتهم سلطة أكبر من سلطتهم، مكنتهم من السيطرة على كل المدينة. سيطر عليهم وحجمهم حتى لا يطغوا. ولكنك تحتاج إلى الشهوة لتتزوج وتعيش، وتحتاج إلى الغضب لتدفع الأعداء، وتأخذ حق المظلوم، وإلا فقدت النخوة. لا بد للقلب أن يأخذ رأي وزيره العقل في كل شيء، وأن يصبح كلٌّ من الغضب والشهوة تحت حكمه. الثبات هو مفتاح الوصول إلى السعادة. الثبات عند الغضب، وعند الفاقة، وعند النعمة.

إذا التوازن النفسي داخل الإنسان مع صفاء القلب والعمل بالصفات التي كلفنا الله بها تؤدي إلى السعادة. والسعادة تأتي بمعرفة الله.

والسؤال هو كيف تعرف ربك وتدخل عالمه؟ تقول اسم «الله» بقلبك، تحجم الغضب والشهوة، والأخلاق القبيحة تعطل الحواس عن المعصية، (226) طريق الصوفية هو تطهير القلب، والابتهال إلى الله، والانقطاع عن غيره. هذا لا يحدث فقط بالتعليم بل بالذوق. يقول تعالى {فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا}[الكهف: 65]، (227) وهذا هو العلم اللدني الذي يقصده الغزالي. و»من لم يبصر لم يصدق» (228) الصوفية بكلمات السر التي ترتكز عليها من علم وعمل وإخلاص ومجاهدة وتوكل ورضا تقوم بعملية إجلاء مستمر للصدأ في القلب. وعندما يتم إجلاء القلب، تنعكس فيه الحقيقة، أي يشعر الإنسان بقربه من الله، ويجد علامات تظهر له، ويبصر ما لم يبصر من قبل، ويتذوق حلاوة جديدة عليه صعب شرحها. لذا فطريق الرضا طريق ذوقي، والشعور بالرضا شعور ذوقي يصعب شرحه بالكلمات. مرة أخرى تقف الكلمات عاجزة عن الوصف. يذكرنا

الغزالي أن «كل من زرع حصد، ومن مشى وصل، ومن طلب وجد» (229) والطلب لا يحصل إلا بالمجاهدة. (230)

وعندما تعرف نفسك، تقرب من الله. فالله قريب، ولكنك أنت المبتعد.

يعطي الغزالي هذه النصيحة: «واركع ركوع خاشع لله بقلبه، خاضع بجوارحه، واستوف ركوعك، وانحط عن همتك في القيام بأمره، فإنك لا تقدر على أداء فرضه إلا بعونه، ولا تبلغ دار رضوانه إلا برحمته، ولا تستطيع الامتناع عن معصيته إلا بعصمته، ولا تنجو من عذابه إلا بعفوه» (231)

وتذكر أن السجود سبب القرب، {كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَ سْجُدْ وَ قْتَرِب} [العلق: 19]. لأنك لو اقتربت منه، بعدت عن كل شيء غيره. (232) عندما تعرف نفسك، فالخطوة القادمة هي الاقتراب منه. وليكن سجودك إليه تسليمًا كاملًا لإرادته، وتوكلًا وتواضعًا وتسامحًا وصبرًا.

مفتاح السعادة: المعرفة والجمال

ولنفكر كما فكر الغزالي في كتابه «كيمياء السعادة» في الأشياء التي تعطي لنا السعادة، سنجد أن هناك شيئين مهمين هما المعرفة والجمال. الوجود في مكان جميل يريح القلب، مثلًا حديقة زاهرة، أو قصر كله تحف، أو شاطئ من الرمال البيضاء والمياه الصافية، كل هذا الجمال يطلبه الإنسان طوال الوقت. فيريد شراء أجمل سيارة، وأجمل ثياب، وأجمل بيت، ويعمل جاهدًا ليقضى إجازة على شاطئ بديع، أو يسكن في حي راق... إلى آخره. ثم يتباهى الشخص بمعرفته الأشخاص أو الأشياء. فالتاجر يتباهى بمعرفة فنون التجارة، والأستاذ والطبيب، كل منهما يتباهى بمعرفته، ويفرح بها، وتزداد فرحة الناس لو عرفوا أو قابلوا أشخاصًا مهمة كوزير أو رئيس، فيأخذون الصور معهم. وكل هذا يعطي للقلب سعادة أليس كذلك؟ إذن كما يقول الغزالي «لذة العين في الصورة الحسنة، ولذة الأذن في الأصوات الجميلة، وكذلك سائر الجوارح» (233) ولنأتي لأهم لذة وأجمل لذة وهي لذة القلب. يقول الغزالي «ولذة القلب معرفة الله» (234) المعرفة تؤدي إلى الفرح كما قلنا، فمثلًا لو أتقنت لعبة الشطرنج ستفرح وتتباهى، ولو تعلمت ركوب العجل ستفرح، وكذلك معرفة الله هي أكبر لذة وأهم لذة. أما جمال الله فلا يضاهيه جمال، فمعرفته هي معرفة الجمال والاستمتاع به. يقول ابن الفارض واصفا الجمال الذي أبهره وهاله حتى عجزت الكلمات عن وصفه، وهو جمال شهود الخالق والقرب منه والشعور به:

«وإن اكتفى غَيري بطَيفِ خياله فأنا الّذي بوِصالِهِ لا أكتَفي» (235)

«لو أسمعوا يعقوب ذكر ملاحة في وجهه نسي الجمال اليوسفي،

أو لو رآه عائدًا أيوب في سنة الكرى قدما من البلوى شفي» (236)

يطمع ابن الفارض في وصال مستمر مع حبيبه، ويدرك أن حبيبه هو خالق جمال يوسف، وجمال النور في الشمس والقمر، وأن حبيبه جماله يشفي المريض ويزيح البلاء. بالتقرب من الله يزيل عنا كل ألم.

وربما لخص الغزالي في الجملة الآتية سر الحياة:

«ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح، ولو علم الملك لكان أعظم فرحًا» (237) إذن تذكَّر أيها العبد وأنت تفتخر بصورتك مع وزير مهم أنك ستفتخر أكثر بمعرفة الملك الحقيقي القادر على كل شيء، وستتباهى أكثر وأكثر مع نفسك بالاقتراب منه، لأن وجودك معه يعطيك قوة، وجمالًا، وبهاءً.

يقول الغزالي «وكل عجائب العالم آثار صنعته، فلا معرفة أعز من معرفته، ولا لذة أعظم من لذة معرفته، وليس منظر أحسن من منظر حضرته» (238)

«كل لذات الشهوات متعلقة بالنفس تبطل بالموت، ومعرفة الربوبية متعلقة بالقلب فلا تبطل بالموت» (239)

ومن جمال الله خلقه كل الجمال، والطيبات لنا، ومن جمال الله رحمته التي وسعت كل شيء.

ولنتذكر أن رحمة الله ولطفه كما قال الغزالي «لطفه ورحمته وعنايته متعلقة بالأشياء كلها، وأنها لا نهاية لها، لما ترى في النبات والحيوان والمعادن من سعة القدرة وحسن الصور والألوان» (240) وهذا قمة الجمال والجلال؛ فقد أعطى الله الرحمة للخضر قبل العلم، ورحمة الله من جماله.

إذن فمعرفة الله وجماله تشرح الصدر والقلب. ولكن ما هي الركائز التي يبني بها الإنسان معرفته بالله؟ في كتابه «منهاج العارفين» يعطي الغزالي ثلاث ركائز تُبنى عليها علاقة الفرد بربه: «الخوف والرجاء والحب» (241) والخوف ليس خوفًا من الله، بل من المعاصي. أما الحب فهو لله.

عن العلاقة بالله: (242)

يقول الغزالي الخوف ينبثق من العلم، والرجاء من اليقين، والحب من المعرفة. (243)

فلتخف من المعاصي، ولتهرب منها. ولترجُ رحمته لأنك على يقين من أنك لو طلبته سيجيب، ولتحب الله ومن يحب يضع محبوبه قبل هوى نفسه.

يقول الغزالي «اعلم أن لا ملجأ من الله إلا إليه، كما أنه لا وصول إليه إلا به» (244) وهذه جملة مهمة جدًا. فلكي تحدث معرفة الله، لا بد أن تحدث عن

طريق الله بدعائنا له، بأن ينعم علينا بمعرفته وقربه.

كيف تدعو الله لتصل إلى الرضا؟

إذا كان كل شيء بيد الله، فتوبتنا لن تحدث سوى لو تاب علينا، وصبرنا لن يصح سوى لو أفرغ علينا صبرًا، وعملنا لن يصلح إلا لو ساعدنا فيه ورفعه له. هو القادر على كل شيء. فكيف ندعوه لنصل إلى الرضا؟ ادعه بإخلاص. ادعه بكُليتك، بقلبك، لا بلسانك فقط.

أما عن الدعاء لله، فنحن نجد الكثير من الطرق المكتوبة لكيفية الدعاء، بينما يؤكد الفكر الصوفي أن الدعاء المخلص يصل إلى الله بأي شكل وليس بورد معين أو كلمات معينة وأن القرب من الله أبسط من كلمات منمقة ومحفوظة. فيقول الغزالي «والدعاء استجابة الكل منك للحق، وإن لم تأت بشرط الدعاء فلا تشترط الإجابة» (245) لا بد أن تستجيب بكلك إليه، أي إخلاصك في دعائك أهم من أن تعتمد على مراسم معينة، وكلمات معينة وضعها شيخ.

ويعطي الغزالي هذا المثل «سئل أبو يزيد البسطامي عن اسم الله الأعظم، فقال: فرغ قلبك من غيره، وادعه بأي أسمائه شئت» (246)

«وادع دعاء مستجير، لا دعاء مشير، إما أنه سيجيب، أو سيؤجل و سيصرف عنك الهلاك» (247) أي ادعُ الله وأنت مفتقر إلى خيره، ترجوه كعبد وليس كمتكبر جبار.

ولا بد من الإشارة هنا إلى الشاذلي وتلميذه أبي العباس المرسي، عندما قرر أبو العباس أن يلبس الصوف فقال له الشاذلي كلماته الشهيرة «يا أبا العباس: اعرف الله وكن كيف شئت، ومن عرف الله، فلا عليه أيضًا إن أكل هنيئًا وشرب مريئًا» (248) أي أن الدين إخلاص، وعلم، وعمل، وعبادة، وتوكل، ورضا، وليس مجرد مراسم، وطريقة ملبس، ومأكل، وأدعية محفوظة، وكلمات رتبها شيخ، معرفة الله أهم من لبس الصوف، ولم يلبس الشاذلي الصوف، بل نجد الكثير من الأمثلة أن الصوفي الحق ربما يكون من الأغنياء، ويتقن عمله لأن هذا فرض، ولكنه يعرف الله، يضعه نصب عينيه، وهذا أهم من أي شيء.

ملخص

يقول ابن عطاء الله عن السعيد: «والسعيد من أعطاه الله قلبًا مفكرًا، وبصرًا معتبرًا، وأذنًا تسمع من الله، ونفسًا ناشطة إلى خدمة الله، وأحق ما يفتقد العباد من حقوق الله سبحانه الشكر له، والشكر له ظاهر وباطن، فظاهره

الموافقة، وباطنه شهود النعمة، فما شكره من لم يمتثل أوامره وحدوده، وما حفظه من ضيع عهوده، فعليكم رحمكم الله بالشكر لنعمه فيكم» (249)

تكلمنا في هذا المقال عن خطوات للوصول إلى السعادة، لتعلم أيها القارئ أن الدنيا ضيقة، والحرية بها لا تأتي سوى بمعرفة الله. وأول الخطوات في الوصول هي الصبر، والصبر ثلاثة أنواع: صبر عند الابتلاء، وصبر على الطاعات، وصبر على المعرفة. ولتعلم أن المعرفة دون عمل لن تساعدك، فالعلم والعمل من ركائز المجاهدة للوصول للرضا، ثم التواضع، وتذكر الموت والاعتماد على مبادئ القرآن، والتسامح، ومعرفة النفس وتحجيمها، والثبات على الحب لله في السراء والضراء. واعلم أن ما يعطي القلب السعادة هما الجمال والمعرفة، فلا يوجد أبدع من البديع، ولا يوجد شيء أكبر من معرفته والأنس به.

ومضة نور

«من استأنس بالله، استوحش من غيره» (250)

أبو حامد الغزالي

«وكل ما هو آت قريب، والبعيد ما ليس بآت» (251)

أبو حامد الغزالي

«إياك أن تظن أن طلب التوبة أو التردد إلى الصالحين، وطلب الدعاء منهم توبة، كلا، بل التوبة أن تربط في قلبك أن لا تعود إلى ما كنت عليه»

من كلام ابن عطاء الله لتلاميذه

«الله يختص برحمته من يشاء، ولو عن غير سلوك الطريق المعهودة» (252)

ابن عربي

«العلم فوق الإيمان، والذوق فوق العلم، فالذوق وجدان والعلم قياس» (253)

أبو حامد الغزالي

«ارحم من لا يرحم نفسه؛ فإن الخلق بين فتن ومحن» (254)

أبو حامد الغزالي

«ربِّ خذ بيدي، وارحم قلةَ صبري، وضعف جَلَدي، ربِّ إني أشكو إليك بَثِّي وحزني وكمدي، يا مَن هو غوثي وملجئي، ومولاي وسندي،... ربِّ فأطلقني من سجنِ الحجاب، ومُنَّ عليَّ بما مننت به على الأولياء الأحباب، وطهِّر قلبي من الشكِّ والشرك والارتياب، وثبتني دائمًا أبدًا في الحياة، وعند الممات على

السنَّة والكتاب، وفهِّمني، وعلّمني، وذكّرني، ووفِّقني، واجعلني من أولي الفهم في الخطاب، وكن لي بلطفك ورحمتك، وحنانك، ورأفتك فيما بَقيَ من عمري، وعند حضور أجلي، ويوم يقوم الحساب» (255)

داود بن ماخلا

«وتم له أعظم نصر، وهو نصره على نفسه» (256)

نجيب محفوظ، الحرافيش

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الشاذلي: رحلة الإنسان إلى باب الرضا

«ألق بنفسك على باب الرضا، وانخلع عن عزائمك وإرادتك» (257)

الشاذلي

هناك رواية للكاتب البرتغالي باولو كويلو، تعتبر من أشهر الروايات وأهمها، تدعى «الخيميائي». تحكي الرواية عن راعي غنم شاب في إسبانيا يلتقي بعدد من الشخصيات التي تترك أثرًا في حياته، منها ساحر وغجرية وملك، وكلما قابل شخصية عرف شيئًا عن كنز قديم مخبأ في مكان ما في الكرة الأرضية، وكل شخص يقابله الفتى في رحلته يرشده إلى حل لغز مكان الكنز. فينتقل بحثًا عن الكنز بين البلاد، من إسبانيا يصل إلى مصر، وتحت سفح الهرم يبغي مراده وهو الكنز؛ فقد أوصلته كل الدلائل إلى أن الكنز في مصر عند الأهرامات، لذا أخذ على عاتقه أن يسافر إليها ليجد الكنز هناك، وخلال رحلته يتعلم الكثير من الدروس، ويتعرض للكثير من العقبات. وأخيرًا يصل إلى مكان الكنز بعد سفره الطويل عند سفح الهرم. ولكنه لا يجد الكنز، بل يجد دليلًا أخيرًا على مكانه. يقابل لصًا يريد سرقته، وبينما يحاول اللص سرقته يخبره بلا قصد أنه يبحث عن كنز، وأنه عرف وتيقن أن الكنز هناك، في الكنيسة في إسبانيا موطن الفتى، والمكان الذي بدأ منه رحلته. فيعود الفتى مسرعًا إلى حيث نشأ ليجد أن الكنز هناك في انتظاره حقًا في الكنيسة التي تركها. ولكن كان لا بد له من الرحلة ليجد الكنز، وكان لا بد أن يصل إلى الأهرامات، ويقابل اللص الذي ساعده بلا قصدٍ منه، ويقابل كل من قابل في رحلته. فلولا رحلة الفتى ما شعر بأهمية الوطن، ولولا رحلة الفتى ما استطاع أن يقدر الكنز ويجده. في كل خطوة، كان هناك دليل، ولكن ليفهم الدليل كان لا بد أن يفتح قلبه وعقله، وأن يكون يقظًا لمعاني الكلمات والدلائل. ترى لو لم يسافر الفتى في رحلة البحث، هل كان هناك من يرشده لمكان الكنز الذي كان طوال الوقت تحت قدميه؟ لا. فالمكتوب له أن يستعد للكنز كما يتأهل له الكنز. والمكتوب له أن يعرف ويفهم قبل أي شيء. وأحيانًا لا يتسنى لنا الفهم إلا لو ابتعدنا، فرأينا ما حولنا بصورة أوسع وأشمل. للرواية الكثير من المعاني ولرحلة راعي الغنم نهاية سعيدة، فقد وجد الكنز. ولكن الكنز ليس دومًا مالًا فقط أو ذهبًا، ولكنه فهم ومعرفة. وجد الفتى الذهب والمعرفة في رحلته، وفي الرحلة التي سنتكلم عنها الآن سيجد الفتى أكثر من الذهب وأهم من المال.

هل تأثر باولو كويلو في كتابة روايته بقصة حياة أبي الحسن الشاذلي؟ من المؤكد أن باولو كويلو قد تأثر بالصوفية عامة، وربما لم يعرف بالتفصيل حياة أحد أهم أقطاب الصوفية، أبو الحسن الشاذلي. ولكن عندما نحكي قصة

الشاذلي سنعرف أوجه الشبه بين حياته وحياة الشخصية المتخيلة راعي الغنم الشاب في رواية الخيميائي. وقبل أن نحكي عن الشاذلي، نريد أن نطرح بعض الأسئلة المهمة.

الطريقة الشاذلية لها الكثير من الفرق في مصر والعالم العربي والإسلامي عامة. لا يوجد طريقة شاذلية موحدة وإن كان هناك طريق واحد للشاذلي في رحلته. وهنا لا بد أن نفرق بين الطريق والطريقة كما فعل د. عبد الحليم محمود في كتابه «قطبا المغرب». فالطريق أهم وأجل وربما هو المغزى من هذا الكتاب، فهذا الكتاب لا يتبع طريقة صوفية بعينها، وإنما يقدم الفكر الصوفي للقارئ. والطريق إلى الله الذي سار فيه أبو الحسن الشاذلي في بدايته لم يكن طريقه، ولا كان شيخه صاحب طريقة (ابن مشيش)، ولكن أنشأ الشاذلي نفسه طريقًا وطريقة. الطريق هو الكيف، أي كيف يتجرد المريد، ويتبع المنهج الصوفي من القرب والعبادة والزهد مع التعفف والتوكل والصبر والرضا واتباع الشريعة والعبودية. أما الطريقة الشاذلية فهي نتاج الفكر الشاذلي والتجربة الإنسانية للشاذلي وأتباعه من بعده.

نتكلم في هذا المقال عن أبي الحسن الشاذلي الإنسان. هذا الإنسان الذي لم يترك لنا أي كتاب على عكس ابن عربي أو أبي حامد الغزالي. وعندما سأله الناس لم لا تكتب كتابًا يا شيخ، قال «أصحابي هم كتبي» (258)

ولد عام (1196 م) في المغرب، وتوفي في حوالي (1258 م) في مصر، عاصر نهاية العصر الأيوبي في مصر وبداية العصر المملوكي. ولكن أفكاره وكلماته جمعها بعد ذلك الفقيه الصوفي ابن عطاء الله السكندري (1260-1309) في أعماله، وخاصة في كتابه «لطائف المنن»، بعد حوالي أربعين عامًا من وفاة الشاذلي. وكتب لنا عن الشاذلي، ولولا كتابات ابن عطاء الله ما عرفنا الكثير عن هذا الشخص المؤثر.

ما يميز الشاذلي إذا وصفناه، هو قربه منا كلنا باعتبارنا بشرًا، فهو يخطئ ويصيب، يعمل ويتعبد، يرتدي الجميل من الثياب، ويملك المزارع والماشية، ولكنه يضع الدنيا في يده وليس في قلبه. هو يعيش، يتزوج وينجب، ويشترك في الحروب، ولكنه دومًا يتجه إلى الله مفتقرًا إلى خيره. الشاذلي كما يمكن أن نطلق عليه «واحد من الناس» فليس عجبًا أن يحظى بهذا القدر من الحب، بل العشق من الكثيرين حتى أن مكان موته في حميثرة أصبح مسجدًا ومزارًا يأتي إليه الناس من شتى أنحاء العالم ليصلوا بجانب شيخ رأوا إنسانيته قبل ورعه وتواضعه، قبل صفائه وصراعه مع نفسه، قبل وصوله إلى مقام جليل. هو الإنسان..»علي»... أو هو أبو الحسن الشاذلي. ولأنه الإنسان فسوف أتكلم عليه وأطلق عليه الاسم الذي كان يحكي به عن نفسه لتلاميذه، والذي استعمله ابن عطاء الله عندما كان يقص هذه الحكايات «علي» اسمه

الأقرب للقلب. نشأ «علي» نشأة رجل غني، ويبدو أنه كان جميل الوجه، ويجيد علوم الدين، وركوب الخيل، نشأ فارسًا. فهو فارس يعرف دينه، ويريد أن يتقنه، ويبحث عن طريق يقربه إلى الله.

بعد أن تعلم علوم الشرع وحفظ كتاب الله، فكر في أمره، ويبدو لنا أنه كان شخصًا مستقلًا في تفكيره، يقرر هو الخطوة التي سيتخذها رغم صغر سنه. وأول خطوة قرر الإقدام عليها هو الفهم الأعمق للفكر الصوفي الذي استهواه من البداية. ربما في هذا الصدد يشبه «علي» أبا حامد الغزالي وابن عربي في رحلتهما للبحث عن الحقيقة والقرب من الله. ولكنه سيتخذ طريقًا مختلفًا. وكما قال ابن عربي «فالهوية واحدة والجوارح مختلفة.. كالماء حقيقة واحدة مختلف في الطعم باختلاف البقاع، فمنه عذب فرات ومنه ملح أجاج، وهو ماء في جميع الأحوال لا يتغير عن حقيقته وإن اختلفت طعومه» (259)

قرر كما قلنا أن يبحث لنفسه عن شيخ يتعلم على يده. وعندما فكر في الأمر، قرر أن يسافر إلى العراق أولًا لأن السياحة ستفيده وتعلمه، ولأنه كان حينئذ مقتنعًا أن القطب (أهم ولي من أولياء الله في الصوفية) لا بد أن يكون في العراق لأنها في المشرق، وهناك يكمن أهل العلم. ذهب علي باحثًا عن القطب الصوفي، وغايته أن يتعلم على يديه، ووصل إلى العراق، وقابل هناك العلماء، وتعلم منهم ولكنه لم يرتوِ. وكان هدفه أن يجد القطب. فقرر أن يسعى ليقابل أهم شيخ حينها في الصوفية في العراق، هو أبو الفتح الواسطي. وتقابل معه، وتعلم في طريقه، ووجد الدلائل، ولكنه لم يجد ما يبحث عنه، لم يجد القطب، أو ربما كما كتب باولو في روايته عن راعي الغنم لم يجد الكنز الذي يبحث عنه في أسفاره مع أنه ترك بلاده المغرب باحثًا عن الكنز أو القطب ليتعلم، والعلم كنز. وبينما هو في حيرة من أمره يشعر أنه لم يصل إلى ما يبحث عنه في العراق، قابل أحد أولياء الله فأعطاه آخر دليل يبحث عنه للوصول إلى الكنز، قال له «إنك تبحث عن القطب في العراق، مع أن القطب ببلادك، ارجع إلى بلادك تجده» (260)

وها هي قصة الشاذلي أصل قصة باولوا كويلو عن راعي الغنم، أو ربما هو توارد أفكار، ولكن الأكيد أنه تأثر بالفكر الصوفي. فنجد أن الشاذلي احتاج إلى السفر في سياحاته، ليكتشف أن ما يبحث عنه لم يترك بلاده هو. واضطر أن يرحل ليعود، واضطر أن يبحث ليجد، واضطر أن يطهر نفسه ليدرك ما سنرى.

السؤال هو عما كان يبحث الشاذلي؟ هذا الشاب الفارس الغني ماذا أراد؟ ولِمَ لم يرتوِ من كل معلميه؟ هو واحد من الناس يبحث عن معلم يحرك وجدانه، فكم من معلم مر علينا ولم يحرك قلوبنا بنشوى المعرفة؟ وربما كان بعضنا محظوظًا، فقد قابل معلمًا، أو مدرسًا في مدرسته غيّر مجرى حياته،

جعله يشعر بالشغف في طلب العلم آيا كان، الشاذلي يبحث عن الشغف، عن ارتواء الروح والنفس. تفكيره أعمق من الشباب في عصره وعمره. يحتاج إلى أن يرتوي، فيرحل في سياحته باحثًا عن هذا الارتواء.

عاد الشاذلي إلى موطنه المغرب، وقد أدرك أن القطب ما هو إلا رجل زاهد لا يبحث عن رياسة ولا سلطان، رجل كرس كل حياته لعبادة الله، والبعد عن الذنوب، «عبد السلام بن مشيش» الذي قضى كل عمره معتزلًا في مغارة في جبال المغرب. أخذ «علي» يسأل الناس عن القطب، ولو أنهم سمعوا عنه في هذه الأنحاء كما دله الولي في العراق، وبعد بحث، أخيرًا وصل إلى مغارة «الشيخ عبد السلام ابن مشيش» أعلى الجبل. فهمّ بالدخول عليه في حماس وكأنه وضع يده على الكنز الذي يبحث عنه منذ بدأ أسفاره. استأذنه «علي» في الدخول، فجاء صوت الشيخ من داخل المغارة بكلمتين فقط: اذهب فاغتسل.

ومن حسن حظه أنه وجد مكانًا للوضوء بجانب المغارة، فاغتسل، وتوضأ، وعاد يستأذن الشيخ عبد السلام بن مشيش في الدخول فقال له «اذهب فاغتسل» (261) فذهب »علي» مرة أخرى ليغتسل، والحيرة تسيطر عليه، وعاد يستأذن الشيخ فقال له لثالث مرة: اذهب فاغتسل.

وفكر «أبو الحسن» في الأمر، وركز انتباهه في الموضوع، وتبين له في وضوح أنه يعتز بعلمه، ويعتد بعبادته.

كان «أبو الحسن» إذ ذاك فتى فيه طموح إلى العلم، وقد تزود منه بقدر كبير، وكان فيه شغف بالعبادة، فكان يقوم ليله، يصوم نهاره، وكان فرحًا بعلمه، مسرورًا بعبادته، فكان في نفسه شيء من آثار ذلك. عزة بالعلم، اعتداد بالعبادة. ولما فكر فيما يجول بشعوره، ووضح له الأمر، غمره نوع من الخجل، فتاب وأناب، واغتسل من عزته بعلمه، ومن اعتداده بعبادته، ووطن نفسه على أن يلتقي بالأستاذ وهو على طهارة من كل ما يتصل بالفخر والخيلاء.

أول درس تعلمه «علي» في رحلته للطريق هو التواضع وهو درس جليل لو تعلمون. فلم يعتز «علي» بالمال، بل بالعلم، ولم يثق في نفسه من أجل جاه وولد ورياسة، بل من أجل صحة دينه، وورعه، وإيمانه، وصومه، وصلاته، ومع ذلك كان لا بد أن يتطهر من هذا الكبر والفخر. وأن يتواضع لله. فكما يقول الشيخ عبد الحليم محمود في كتابه «قطبا المغرب»: إن النبي موسى نفسه تواضع، وإن آدم عليه السلام تواضع. يعطي عبد الحليم محمود مثالًا لكلمات موسى عليه السلام للخضر، فموسى يقول للخضر: {قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}[الكهف: 66].

وكالعادة سر الكلمات هو مفتاح الفهم. موسى لم يطلب، ولم يأمر الخضر، بل سأله. وفي السؤال كما نعرف نحن في علم اللغويات تواضع أكبر من تواضع الطالب. فالسؤال عدم يقين بأن الإجابة ستكون نعم، وفي السؤال تجرد من الإرادة، فموسى لم يقل أنا أريد أن أتعلم منك، بل قال هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدًا.

يقول عبد الحليم محمد: إن كلمة «هل» نفت كل ذلك، ونفت الإنية، وجردت موسى عليه السلام من تصميم المعتزين، ومن إرادة المعتدين. وتَلت كلمة «هل» كلمة أخرى، تثبت التواضع، وتنفي الكبر، وهي: أتبعك. إذ إن موسى عليه السلام لم يقل أرافقك، أو أزاملك أو أصاحبك، وإنما: أتبعك. أي أن موسى مع أنه نبي فهو يعلم جيدًا افتقاره إلى العلم والمعرفة، ولذا لجأ لعبد من عباد الله، أتاه الله رحمة أولًا، ثم علمًا من عنده. وسأل هذا العبد أن يتبعه، ولم يسأل العبد أن يشرح له، ولا أن يعلمه، بل أراد أن يتعلم من متابعة العبد الذي لديه علم لم يؤت لموسى.

مرة أخرى تداعيات المعاني والكلمات واللغة مهمة جدًا في الفهم. يعرف عبد الحليم محمود الاغتسال بالآتي: «والاغتسال كما يكون من خلجات النفس، ومن همسات الشعور، يكون ومن باب أولى من المعصية. والاغتسال من المعصية، إنما يكون بالعودة إلى الله في تواضع، وفي تضرع، وفي عبودية تلجأ إلى الله تعالى طالبًا العفو والمغفرة. فإذا اغتسل الإنسان واتجه إلى الله في صدق قائلاً: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ} [الأعراف: 23]، فإن الله تعالى يقبله في عباده، ويصبح بذلك في جو الرضا الإلهي، أما إذا لم يغتسل، فليس له إلا الطرد من رحمة الله» (262)

ويلفت الدكتور عبد الحليم محمود نظرنا في كتابه إلى حقيقة أخرى، وهي أن الشيخ وهو يحث مريده على التوبة يتوب هو أيضًا معه، أي أن علاقة الشيخ والمريد ليست علاقة بها فائدة للمريد فقط، بل يستفيد منها الشيخ في تجديد توبته أيضًا.

«وهذا الطهر من المعصية، هو أول ما يلقنه الشيخ للمريد، بل إن الشيخ في تلقينه التوبة للمريد يتوب هو الآخر معه، ويستغفر مع مريده» (263)

وبعد أن تطهر «علي» من الكبر والثقة في دينه وورعه وعلمه، دخل على الشيخ عبد السلام بن مشيش، وبعد أن تعلم أول درس كان لا بد أن يذهب إلى الدرس التالي.

التردد والحيرة مشاعر إنسانية

في مفترق الطرق دومًا نأخذ قرارات مهمة دنيوية في معظم الحالات. قرار زواج، هجرة، عمل جديد، ترك عمل، فتح مشروع، إلى آخره. وقف «علي» الإنسان حائرًا مثلنا أيضًا، يفكر في القرار القادم.

«ويقول أبو الحسن أيضًا عن سياحاته في مبدأ أمره: كنت في سياحتي في مبدأ أمري، حصل لي تردد: هل ألزم البراري والقفار، للتفرغ للطاعة والأذكار؟ أم أرجع إلى المدائن والديار: لصحبة العلماء والأخيار؟ فوصف لي «ولي» هنالك، وكان برأس جبل، فصعدت إليه، فما وصلت إليه إلا ليلاً، فقلت في نفسي: لا أدخل عليه في هذا الوقت، فسمعته يقول: من داخل المغارة: «اللهم إن قومًا سألوك أن تسخر لهم خلقك، فسخرت لهم خلقك، فرضوا منك بذلك، اللهم وإني أسألك اعوجاج الخلق علي، حتى لا يكون ملجئي إلا إليك. قال: فالتفت إلى نفسي وقلت: يا نفسي انظري من أي بحر يغترف هذا الشيخ، فلما أصبحت دخلت إليه، فأرعبت من هيبته. فقلت له: ياسيدي كيف حالك؟ فقال: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم، كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار. فقلت ياسيدي أما شكواي من حر التدبير والاختيار، فقد ذقته وأنا الآن فيه، وأما شكواك من برد الرضا والتسليم، فلماذا؟

فقال: أخاف أن تشغلني حلاوتهما عن الله قلت: ياسيدى سمعتك البارحة تقول: اللهم إن قومًا سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك، فرضوا منك بذلك، اللهم وإني أسألك اعوجاج الخلق علي حتى لا يكون ملجئي إلا إليك، فتبسم ثم قال: يا بني عوض ما تقول سخر لي خلقك، قل: يارب كن لى، أترى إذا كان لك، أيفوتك شيء، فما هذه الجبانة؟ (أي مقبرة، فهذه الدنيا للزوال) (264)

مرة أخرى تلعب اللغة دورًا كبيرًا في حياة الصوفي، وهو دور متناقض كالظاهر والباطن، وكالحياة الدنيا والآخرة، فهي عاجزة عن وصف لذة القرب من الله، وهي أيضًا تعبر من خلال حروفها وكلماتها عن مكنون النفس في دقة متناهية ويصبح كل حرف جر أو حرف عطف له أهمية قصوى في تغيير المعاني. فنجد الشاذلي يتعلم من شيخه أن الدعاء يمكن أن يكون لأشياء دنيوية، نهايتها الفناء مثل حب الناس أو الغنى أو الرياسة أو الولد والزوجة، ويمكن أن يشمل الدنيا جميعها ويتعدها. فلو لخصت كل طلبك في أربع كلمات بليغة «يا رب كن لي» فقد طلبت منه أن يكون معك في كل خطواتك، هو يحميك وهو يعينك وهو يعطيك القوة على كل عبيده، وهو ينصرك بإلهامك الصبر على الظلم، أو دفعه بعيدًا عنك، وهو يشفي قلبك من الخوف والحسد والغل. فلو كان معك فلن تحتاج إلى شيء فانٍ.

في اللجوء إلى الله، والسكون له، والقرب، والتوكل راحة من الحيرة. يسعى نعم، ويجتهد نعم، ولكنه لا يقلق على اختياره.

«وقال رضي الله عنه: اجتمعت برجل في سياحتي، فقال: ليس شيء من الأقوال أعون على الأفعال من: لا حول ولا قوة إلا بالله، والاعتصام بالله. ففروا إلى الله، واعتصموا بالله، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم. ثم قال: باسم الله، فررت إلى الله، واعتصمت بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومن يغفر الذنوب إلا الله، رب إني أعوذ بك من عمل الشيطان، إنه عدو مضل مبين» (265)

استعمال ألفاظ القرآن في دعاء الشاذلي ما هو إلا استعارة كلمات الله التي ليس كمثلها شيء. فلو قلنا لا حول ولا قوة الا بالله فنحن ندرك أن لا أحد يستحق أن نخافه أو نتهيبه، وأن كل شيء هو قادر عليه، وهذه الجملة تحديدًا كتب عنها كثير من الصوفية في كتبهم منهم ابن عربي في الفتوحات المكية.

أما الفرار إلى الله فهو حتمي، إذ ليس هناك سواه. كما يقول كتاب الله {وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ} [التوبة: 118]. (266)

يقول الشاذلي: «إن أردت أن تكون مرتبطًا بالحق، فتبرأ من نفسك، واخرج من حولك وقوتك» (267)

إذن عليك أن تدرك حجمك، وأن تترك الزمام له هو، رحلة الشاذلي إلى الحقيقة لم تكن سهلة، فكما قال الدكتور عبد الحليم محمود «لقد كان يريد أن يشهد الله (ببصيرته): أن يشهده متجليًا على أنحاء شتى، والله سبحانه يتجلى للإنسان على قدر صفائه، وأراد أبو الحسن أن يصل في الصفاء إلى أقصى ما يصل إليه السالكون. لقد اعتكف في جبل زغوان. وسافر من قبل ذلك بحثًا عن القطب، وسهر الليالي قائمًا متبتلًا في البوادي والوهاد والوديان» (268)

متى يستجيب الله للأماني؟ ومتى يفتح علينا؟

كم مرة انتظرنا حدوث شيء، وسيطر على كل أفكارنا، ولكنه لم يحدث؟ وكم مرة حاولنا أن ننسى شيئًا، ثم حدث بعد أن نسينا أو تلاهينا عنه؟ هل هناك وقت لاستجابة الله؟ وهل نعبده لأننا ننتظر شيئًا منه؟ أسئلة تعبث بالعقول دومًا، ولكنها لحظة التفويض المخلصة التي تتحقق فيها الأحلام ونصل فيها لأسمى الأماني. نعبد الله، ولا ننتظر منه أن يفتح علينا بعلامة على قربه، فسوف يعطي العلامة في الوقت الذي يريده، ليس في الوقت الذي نريده. نعبد الله، ولا ننتظر كرامة ومعجزة، أو إلهامًا وخيرًا. نعبده لأنه يستحق العبادة ولأننا جئنا لعبادته، وليس فقط من أجل الأماني. فلنطلب منه ولنتمنى، وهو

يسمع دعاءنا، ولكن لا ننتظر الرد اللحظي والفوري. هكذا تعلم «علي»، وهكذا تعلمنا معه نحن أيضًا.

تعلم «علي أبو الحسن الشاذلي» أننا لو طلبنا الحقيقة ليس بالضرورة أن نصل إلا لو شاء الله. فلو انتظرنا أن «يفتح الله علينا» وللفتح معان كثيرة ككل كلمات الصوفية، لا بد أن ندرك في غمرة الانتظار أن الفتح بيده وليس بيدنا، وأن الفتح لا يأتي لمجرد طلبه، وفهمي أنا للفتح يعني السكينة والإدراك والقرب، وربما في بعض الأحيان قدرة من عند الله، قدرة على الكتابة والإبداع، قدرة على سبر أغوار النفس، قدرة على الفهم، قدرة على المغفرة، قدرة على الصبر والتوكل والرضا. للفتح معانٍ كثيرة، ولكن للوصول إلى الفتح بعض الشروط، أولها ألا تغلق قلبك، وثانيها أن تترك الله يحدد الوقت والوسيلة، تتوكل وتصبر وترضى. وكما قالت لي إحدى الشخصيات التي أنعم الله عليها بالرضا وقت فقد شديد: «هي مياه تصب في الفنجان الفارغ، ولكن لو وضعت يدك على الفنجان، لن تصل إليه المياه، لا بد أن تبعد يدك، وتترك المياه تصل إلى الفنجان» (م.م) وربما هذا هو معنى شرح الصدر الذي لولاه لما كان هناك هداية. وهذه هي قصة الشاذلي مع الفتح، مرة أخرى يصبح إنسانًا مثلنا يطلب شيئًا ويريده بسرعة، بل ينتظره ويدعو به. ويتعلم في أثناء ذلك الصبر.

الفتح

«وقال الشيخ أبو الحسن: كنت أنا وصاحب لي قد آوينا إلى مغارة، نطلب الوصول إلى الله، فكنا نقول غدًا يفتح لنا، بعد غد يفتح لنا» (269)

ولكن لم يفتح لهما، ثم «فدخل علينا رجل له هيبة، فقلنا له: من أنت؟ فقال: [أنا] عبد الملك، فعلمنا أنه من أولياء الله، فقلنا له: كيف حالك؟ فقال: كيف حال من يقول غدًا يفتح لي، بعد غد يفتح لي؟ فلا ولاية ولا فلاح، يا نفس لم لا تعبدين الله لله؟! قال: فتفطنا من أين دخل علينا، فتُبنا إلى الله واستغفرنا، ففتح لنا» (270)

الولي جاء ليقول لهم إن عبادتك لله لا بد ألا تكون مشروطة بشيء. تعبده لأنه الله، وليس لأنك تريد منه أي شيء، حتى أن يشرح صدرك أو يرفع مقامك»يا نفس لما لا تعبدين الله لله؟!» يا لها من جملة تلخص كل معاني الصوفية. جملة قالتها رابعة العدوية بأسلوب مختلف، وقالها الغزالي، وقالها ابن عربي وغيرهم. أن تعبد الله من أجل عظمته، من أجله هو، وليس من أجل تجارة، ولا ولد ولا زوجة، ولا طمع في دنيا، ولا حتى طمع في الجنة. فتح الله على الشاذلي عندما أدرك عمق هذه الجملة.

مرة أخرى يكون الشاذلي إنسانا، مرة يصبه الكبر وهو لا يدري فيستغفر ويتطهر، ومرة يدعو الله بأشياء متعلقة بالبشر، فيدرك أن الدعاء يكون بما هو أهم وأشمل، ومرة ينتظر مثلما ننتظر جميعًا فتح الله عليه وهو يعبده كأنه يعبده من أجل شيء ما. ويدرك أن عبادته تكون لذاته وليس لأي شيء. ها هو الشاذلي يرتقي ويرتفع في المقام، يخطئ ويصيب، يتعلم، يخاف تارة، ويطمئن تارة، يصارع نفسه أحيانًا، ويجد الطريق في النهاية.

الخوف والظلم.. كيف تعامل معهما الشاذلي؟

الاضطهاد صاحب الصوفية قرونًا من الزمن، يتوقعه الصوفي، ويتعامل معه أحيانًا بالصمت وأحيانًا بالدعاء. ولكنه يتحمله كأحد ابتلاءات الدنيا الفانية. وقد تعرض الشاذلي للاضطهاد، وهُدد بالسجن مثل غيره من علماء الصوفية، وخاصة عندما بزغ نجمه، وكثر أتباعه، ودخل الحسد قلوب منافسيه. وعندما طلبه السلطان يومًا كان يعرف أن مصيره إما القتل أو السجن. يصف إلينا الشاذلي تجربته الإنسانية، وهو عند السلطان ينتظر هذا المصير.

يحكي عبد الحليم محمود، «وجلس الشيخ هادئًا، ساكن النفس، مطمئن القلب، وطلب ماءً وسجادة فتوضأ، وأخذ في الصلاة، وهم أن يدعو على السلطان فنودي في سره؛ إن الله لا يرضى لك أن تدعو بالجزع من مخلوق. وبدل الدعاء ألهمه الله أن يقول: (يا من){ للَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لْحَىُّ لْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَ وَلَا نَوْ لَّهُ مَا فِى لسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى لْأَرْضِ مَن ذَا لَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ لسَّمَـٰوَٰتِ وَ لْأَرْضَ وَلَا يَـُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ لْعَلِىُّ لْعَظِيمُ} [البقرة: 255]، أسألك الإيمان بحفظك إيمانًا يسكن به قلبي من هم الرزق، وخوف الخلق وأقرب مني (أي قرب مني قوتك) بقدرتك قربًا تمحق به عني كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك فلم يحتج لجبريل رسولك، ولا لسؤاله منك وحجبته بذلك من نار عدوك، وكيف لا يحجب عن مضرة الأعداء من غيبته عن منفعة الأحباء، كلا، إني أسألك أن تغيبني بقربك مني حتى لا أرى ولا أحس بقرب شيء ولا ببعده عني، إنك على كل شيء قدير) هذه الكلمات الإلهامية دخلت، فيما بعد، في بعض أحزابه. ها هو ذا الشيخ يصلي ويدعو، ويلجأ إلى مولاه طالبًا الرضا والقرب وأن يغيبه بالقرب في القرب. وبينما هو مستغرق في دعائه وتبتله إذا بالمقادير ترتب الأمر على وضع غير متوقع. هل في العالم مصادفات؟ أيحدث في الكون أمر من الأمور اتفاقًا واعتباطًا؟» (271)

يفوز الشاذلي بالنجاة من سخط السلطان بعد أن تموت جارية السلطان المفضلة، فيشعر حينها أن هذه علامة من الله له أن يترك الشاذلي. ولكن ما يهمنا هنا ليس مصير الشاذلي بقدر رحلته مع نفسه من الخوف إلى الإدراك.

فما هو أول شيء نفعله لو ظلمنا أحد أو جار علينا؟ ندعو عليه. وما هو أول شيء نفعله لو خفنا من بطش من يبدو أقوى مننا؟ ندعو عليه.

ولكن الشاذلي ارتقى بمكانته من أن يلتفت إلى إنسان، فاهتمامه بإنسان ضد مبادئه؛ أدرك عن طريق الفتح و الإلهام أن خوفه من البشر أو حنقه على أحدهم ليس بأخلاق الصوفي العابد، وبدل من أن يدعو على أحد، قرر أن يدعو الله أن «يسكن قلبه» يغنيه عمّن سواه. دعا الله أن يقربه كما قرب إبراهيم عليه السلام عندما ألقي في النار فجاءه جبريل سائلًا: ألك حاجة؟ فقـال: (أما إليك، فلا) «فهذا أدب عظيم»، إذ أثبت إبراهيم عليه السلام حاجته وفاقته، ولكن إلى الله تعالى دون غيره. فطلب منه جبريل أن يطلب النجاة من الله تعالى، فكان الجواب الثاني أعجب وأغرب، حيـث قـال (علمه بحالي يغني عن سؤالي). فهذا إسلام ناتج عن علم بأنه تعالى بصيرٌ نصيرٌ، قريبٌ مجيبٌ.

(علي)، أبو الحسن الشاذلي إنسان، يفكر في الدعاء على من ظلمه، ثم يعدل عن ذلك، ويطلب من الله الحول والقوة التي لا تأتي سوى من الله فينقذه ربه، هل جربت أن تدعو الله أن يغنيك عمن سواه، بدلًا من أن تدعو على من ظلمك؟ هل جربت أن تطلب منه القوة والصبر والنصر.

يرتقي الشاذلي مع الأزمات، ويرتقي مع الخلوة، ويرتقي بفضل الله أولًا وأخيرًا.

يأتي النصر من حيث لا نتوقع

«وقال الشيخ أبو الحسن: كنت في بعض سياحاتي قد آويت إلى مغارة بالقرب من مدينة للمسلمين، فمكثت ثلاثة أيام لم أذق طعامًا، فبعد الأيام الثلاثة دخل علي ناس من الروم، كانت قد أرست سفنهم هناك، فلما رأوني قالوا: هو قسيس من المسلمين. ووضعوا عندي طعامًا وإدامًا كثيرًا، فعجبت كيف رزقت على أيدي الكافرين، ومنعت ذلك من المسلمين، فإذا «علي» يقول لي: ليس الرجل من نصر بأحبائه، إنما الرجل من نصر بأعدائه» (272)

هل حدث لك هذا يومًا؟ هل استفدت من عدو أكثر من استفادتك من صديق، ربما حثك عدو أن تنجح أكثر. ربما علمك درسًا، وربما سخره الله لك ليفيدك دون أن تدري، يعطينا علي الشاذلي درسًا آخر من دروس الدنيا، الرزق يأتي من حيث لا نحتسب ولا نتوقع، والرزق ليس فقط مالًا، بل هو إدراك وقلب سليم، وقوة، وصبر، وتسليم.

القوة والثبات بالله

«وقال الشيخ أبو الحسن: نمت ليلة في سياحتي على رابية من الأرض، فجاءت السباع فطافت بي، وأقامت إلى الصباح، فما وجدت أنسًا كأنس وجدته [في] تلك الليلة، فلما أصبحت، خطر لي أنه قد حصل لي من مقام الأنس بالله شيء، فهبطت واديًا، وكان هنالك طيور حجل لم أرها، فلما أحست بي طارت بمرة، فخفق قلبي رعبًا، فإذا علي يقول لي: أيا من كان البارحة يأنس بالسباع، مالك توجل من خفقان الحجل؟ ولكنك البارحة بنا، والآن أنت بنفسك» (273)

«ولكنك البارحة بنا. والآن أنت بنفسك» هذا هو الفرق بين من يأنس بالسباع ويخاف الطيور. وهذا هو الفرق بين من يفزع من شح رزقه من المال، ومن يطمئن والبلايا تحاصره، وهذا هو الفرق بين من لم يطلب شفاعة جبريل وهو في النار، فنجا منها بقدرة الله، ومن يخاف من توقف رزق على يد عباد الله.

«وقال: رأيت الصديق في المنام، فقال لي: أتدري ما علامة خروج حب الدنيا من القلب؟ قال: قلت: لا أدري. قال: علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجد، ووجود الراحة منها عند الفقد» (274)

هذا هو الصوفي وعلاقته بالدنيا. عندما تعطيه تستمر في يده، وليس في قلبه، وعندما تفقده وتقسو عليه يستريح ولا يأبه بها، الثبات هو كلمة السر عند الصوفي. تكلم عنها ابن عربي، وعلمنا معنى الودود وهو الثبات في الحب. أليس من الأفضل أن نحاول أن نثبت في حبنا لله، وألا نعبده على حرف؟ أليس من الأفضل أن ننظر إلى الدنيا كأنها سجن المؤمن كما قال الرسول ؟ فلا نأبه بما تأخذ وما تعطي، نشكر ونصبر في كل الحالات.

الفتح والنعم وخصوصية الإنسان

«وقال الشيخ أبو الحسن - قلتُ يومًا وأنا في مغارة في سياحتي: إلهي، متى أكون لك عبدًا شكورًا؟ فإذا «علي» يقول لي: إذا لم تر منعمًا عليه غيرك. فقلت: إلهي، كيف لا أرى منعمًا عليه غيري، وقد أنعمت على الأنبياء، وقد أنعمت على العلماء، وقد أنعمت على الملوك؟ فإذا علي يقول لي: لولا الأنبياء لما اهتديت، ولولا العلماء لما اقتديت، ولولا الملوك لما أمنت، فالكل نعمة مني عليك» (275)

إذن يا إنسان فلتر أنك شخص شديد الأهمية عند ربك، سخر لك كل الكون، الأشجار والأمطار، وهداك بالأنبياء والكتاب، اعرف قدرك عند ربك وحبه لك قبل أن تحبه أنت، وعندما تفعل ستطمئن.

ولكن نور القلب والفتح ليس بالأمر الهين. واستمراره أصعب شيء.

وقال: «استنار قلبي يومًا، فكنت أشهد ملكوت السماوات السبع والأرضين السبع، فوقعت مني هفوة، فحجبت عن شهود ذلك، فتعجبت كيف حجبني هذا الأمر الصغير عن هذا الأمر الكبير، فإذا علي يقول لي البصيرة كالبصر، أدنى شيء يحل فيها يعطل النظر» (276)

أكبر عقاب للعابد أن يحجب عن الله، هذا أقسى من النار والعذاب، والقرب من الله يحتاج إلى مجاهدة مستمرة، والقرب من الله يتأثر بأقل الأخطاء لأنه هبة وفتح. (الشاذلي) أو علي الإنسان يحكي لنا أنه أخطأ خطأ صغيرًا فحجب، وأدرك أيضًا أن القرب من الله ورؤية شهوده مثل البصر، أي ذرة رمال تؤثر فيه. لذا مثلًا عندما يغتب بعضنا بعضًا، أو لا نراعي حق الصحبة، أو نسيء الظن بالناس، أو يسيطر علينا الكبر، كل هذه الأخطاء تؤثر في الرؤية والحجب.

ولنتذكر أن القرب من الله هو قربنا نحن منه، أما هو فدومًا قريب.

وصايا المعلم

هل تتذكر وصايا معلمك عن الأخلاق والمعاملة؟ ولكل منا شخص أثر فيه، يشعر ناحيته بالامتنان لأنه علمه الأخلاق الحميدة، سواء كان أبًا، أمًا، أو معلمًا.

تعلم الشاذلي من بن مشيش ووصاياه. ولكن لأن بن مشيش اعتزل الناس لم نعلم عنه الكثير، ولم يكن له الكثير من الطلاب مثل علي أبي الحسن الشاذلي، أما الشاذلي فلم يعتزل الناس، ولكنه أدرك عجزهم وعلّم وتعلم، وكان يتوسط للناس في الخير، بل يشترك في المعارك أيضًا كما سنعرف لاحقًا.

ومن وصايا بن مشيش للشاذلي: «قال علي له يومًا ما: «أوصني: قال: اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم، فإن شرهم يصيبك في بدنك، وخيرهم يصيبك في قلبك، ولأن تصاب في بدنك خير من أن تصاب في قلبك» (277)

ما يقصده ابن مشيش هنا، والله أعلم، أن شعور الإنسان بالامتنان للشخص لأنه قضى إحدى حاجاته ربما يزيد عن حده، فينسى الإنسان أن قاضي الحاجات هو الله، وأن هذا الشخص كان وسيلة ووسيطًا لقضاء الحاجة، فيفتن الشخص في دينه بسبب شعوره بالامتنان. ولكن هذا لا يعني ألا نشعر بالامتنان لمن يساعدنا، بل لا بد أن نمتن له، ونقدر كل خلق الله، ولكننا ندرك دومًا أن وراء كل حاجة قضيناها وجود الله، وأن الغاية من حب البشر والتعلق بأي شيء هو الله، لأنه هو الباقي وكل ما دونه فناء.

«أبو الحسن» حينما أوشك على فراق أستاذه قال له: يا سيدي أوصني؟ فقال: «يا علي، الله الله، والناس الناس. نزه لسانك عن ذكرهم، وقلبك عن التماثيل من قبلهم، وعليك بحفظ الجوارح، وأداء الفرائض، وقد تمت ولاية الله عندك، ولا تذكرهم إلا بواجب هو لله عليك، وقد تم ورعك، وقل: اللهم أرحني من ذكرهم، ومن العوارض من قبلهم، ونجني من شرهم، وأغنني بخيرك عن خيرهم، وتولني بالخصوصية من سيئهم، إنك على كل شيء قدير» (278)

تذكر أن امتنانك لشخص ربما يدفعك لإرضائه بفعل يغضب الله، وهنا يكمن الشر. وتذكر أن الاحتياج إلى الناس ظنا أنهم هم الغاية، وليس وسيطًا في قضاء الحاجات، هو نوع من أنواع الضلال.

يوضح الدكتور عبد الحليم محمود أن سبب عدم وجود اسم الشيخ «ابن مشيش» في الطبقات يرجع إلى تجنبه للناس»ومن أجل ذلك لم يكتب عنه المؤرخون، وأكثر كتب الطبقات أغفله» (279)

«ويروى الشيخ أبو الحسن (الشاذلي) ما يلي «دخل رجل على أستاذي فقال له: وظف لي وظائف وأورادًا، فغضب الشيخ منه. وقال له: أرسول أنا، أوجب الواجبات؟ الفرائض معلومة، والمعاصي مشهورة، فكن للفرائض حافظًا، وللمعاصي رافضًا، واحفظ قلبك من إرادة الدنيا، وحب النساء، وحب الجاه، وإيثار الشهوات، واقنع من ذلك كله بما قسم الله لك، إذا خرج لك مخرج الرضا فكن لله فيه شاكرًا، وإذا خرج لك مخرج السخط فكن عنه صابرًا» (280)

إذن فابن مشيش لا يتكلم بلغة سحرية، ولا يفتح أسرارًا بأدعية خاصة أو ورد معين، بل يطلب من المريد أن يتبع شرع الله ليتصف بالورع، ويبتعد عن الحرام. يطلب منه أن يصبر ويشكر.

الكرامة هي الاستقامة

يتفق علماء الصوفية الأوائل على أن أكبر معجزة للولي هي أن يستقيم، ويتبع كلام الله في كل أعماله، فلو استطاع تجنب الأخطاء فهذه معجزة؛ لذا جاء رجلٌ يسأل الشاذلي يومًا لو كان الولي يرتكب أخطاء مثل بقية البشر، فقال له الشاذلي نعم يخطئ؛ لأنه إنسان، ولا يوجد معصوم من الخطأ. ولكن لو استطاع الولي أن يستغفر الله، وينيب إليه، وأن يقلل من أخطائه، ويسيطرعلى نفسه وأهوائها بأعلى قدر ممكن، فقد استطاع أن يصل إلى أعلى الكرامات.

ويضيف الشاذلي:

«إذا عارض كشفك الكتاب والسنة، فتمسك بالكتاب والسنة، ودع الكشف وقل لنفسك: إن الله تعالى قد ضمن العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لى في جانب الكشف ولا الإلهام، ولا المشاهدة» (281) يوضح الشاذلي أن أصل الصوفية هو القرآن والسنة. أما الفتح فلا بد ألا يعارضهما وإلا لم يكن حقيقة.

رزق الله للشاذلي

«يقول الشيخ أبو العباس، رضي الله عنه: كنت مع الشيخ أبي الحسن في القيروان. وكان شهر رمضان، وكانت ليلة جمعة، وكانت ليلة سبع وعشرين. فذهب الشيخ إلى الجامع، وذهبت معه. فلما دخل الجامع، وأحرم، رأيت الأولياء يتساقطون عليه، كما يتساقط الذباب على العسل، فلما أصبحنا وخرجنا من الجامع قال الشيخ: ما كانت البارحة إلا ليلة عظيمة، وكانت ليلة القدر، ورأيت الرسول وهو يقول: يا علي طهر ثيابك من الدنس، تحظ بمدد الله في كل نفس. قلت يا رسول الله، وما ثيابي؟ قال: اعلم أن الله قد خلع عليك خمس خلع: خلعة المحبة، وخلعة المعرفة، وخلعة التوحيد، وخلعة الإيمان، وخلعة الإسلام. فمن أحب الله هان عليه كل شيء، ومن عرف الله صغر لديه كل شيء، ومن وحد الله لم يشرك به شيئًا، ومن آمن بالله أمن من كل شيء، ومن أسلم لله قل ما يعصيه، وإن عصاه اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره. ففهمت حينئذ معنى قوله عز وجل: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [المدثر: 4]» (282)

يعطينا «علي» من هذه القصة وصفة لدواء يساعدنا على الحياة الطيبة أن نتطهر. والطهارة تحتاج إلى إدراك أن الله قد وهبنا خمسة أنواع من الثياب التي يجب أن نحافظ عليها: ثوب المحبة لأن من أحب الله لم يحب أحدًا إلا لأنه من خلق الله، وكان حب الله هو غايته. وثياب المعرفة لأن من عرف الله أدرك تفاهة كل الأشياء الفانية، وثياب التوحيد لأن من أدرك وحدانية الله لن يضع أي شيء في مرتبة أهم من الله سواء مال أو نجاح أو أولاد أو عائلة أو قبيلة. وثياب الإيمان تحميك من كل الذنوب، وتحميك من الخوف والقلق على الرزق والولد. وثياب الإسلام وهي مختلفة عن ثياب الإيمان لأنك لو أسلمت لله ستسلم له، أي تستسلم لقضائه ومشيئته فتطيع أوامره.

هل تتذكر علي؟ أبو الحسن الشاذلي في أول المقال؟ الذي كان يفرح بعلمه وورعه وهو شاب فطلب منه «ابن مشيش» أن يغتسل ثم يدخل عليه؟ هذا هو علي في مصر، الذي يجلس في مجلس العلماء، ولا ينطق لأن علمه زاد، ومعرفته تكاثرت، وورعه نضج. فنجده في مجلس الشيخ والقاضي العز بن عبد السلام يثني على العلماء، وينسى نفسه. يجلس متواضعًا صامتًا، والشيوخ تتكلم عن رسالة القشيري أمام العز بن عبد السلام.

«فقالوا للشاذلي: يا سيدي نريد أن نسمع منك.

فقال: أنتم سادات الوقت وكبراؤه، وقد تكلمتم.

فقالوا: لا بد أن نسمع منك.

فسكت الشيخ ساعة، ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة، فقام الشيخ الكز بن عبد السلام، وخرج من صدر الخيمة، وفارق موضعه، وقال: اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله» (283)

يقص علينا هذه القصة العالم الصوفي «مكين الدين الأسمر»، ويرويها لنا ابن عطاء الله السكندري في كتابه لطائف المنن.

وهنا إقرار من أحد أهم العلماء في تاريخ الإسلام العز بن عبد السلام بأن الشاذلي رجل دين، يعرف ما يتكلم عنه، متمكن وصادق ومخلص، وأهم من كل ذلك قريب من الله.

في مصر: النعمة والابتلاء

بعد أن أصبح الوقت مناسبًا يأتيه التكليف الضمني أن يرحل إلى مصر.

«ولقد كانت إقامته بمصر مصداقًا لما نودي به حينما دخلها، يقول رضي الله عنه: «لما قدمت الديار المصرية قيل لي: يا على، ذهبت أيام المحن، وأقبلت أيام المنن، عشر بعشر، اقتداء بجدك » (284)

وفي مصر استمر الشاذلي في نشر الدعوة، ومحاولة تذكير الناس، وإرشادهم للطريق حتى كف بصره، ولكنه لم يستسلم ولم يقنط من رحمة الله، فقال لتلميذه أبي العباس: «يا أبا العباس انعكس بصرى على بصيرتي، فصرت كلى مبـصـرًا بالله الذي لا إله إلا هو، مـا أترك في زمـاني أفـضـل من أصحابي وأنت والله أفـضـلهم. قـال كم سنك يا أبا العـبـاس؟ قال يـا سـيـدى يوشك أنه ثلاثون سنة. فقال له: بقيت عليك عشرة أعوام، وترث الصـديقـيـة من بعدي، رضى الله عنهما ونفعنا ببركاتهما آمين» (285)

لا نجد الشيخ الشاذلي يتذمر، أو حتى يطلب من الله إعادة بصره، مع أن هذا لا بأس منه، ولكنه يدرك حينها أن الله لا بد قد أعطاه عوضًا عن ذهاب بصره، ويدرك أن عطاء الله خير. وكلماته تذكرنا بتفاؤل الصوفيين عامة في البأساء والضراء، وتقبلهم كل ما هو آت من الحبيب الله. لا يرى الصوفي أن الشر يسيطر، ولا أن الدنيا دار الآلام لأنها ليست أصلًا بدار، هي رحلة يعطي فيها الله القوة للبشر للتحمل. لذا لا نجد الصوفي يخاف من النار، وعذاب القبر بقدر ما يخاف من الحجب والبعد عن ربه. ولا يتمنى الجنة ونعيمها بقدر ما

يتمنى رؤية حبيبه. يصبح لقاء الله هو أكبر الغايات، وكل ما يحدث خلال الرحلة مكتوب لديه، لدى القادر، فلنتوكل عليه، ونسلم له كما فعل الشاذلي.

في هذا المقال تكلمنا عن علي أبي الحسن الشاذلي، الإنسان، يخاف تارة، يعاني تارة، يصيبه البلاء تارة، يضل ويهتدي، يصارع نفسه ويجاهدها، ويصل، ويعمل، ويشترك في الحروب. فقد رحل بنفسه وقت حرب المنصورة بين الصليبيين والأيوبيين يحث الناس على الجهاد وهو كفيف، ولم يقبع في بيته، ولم يتوكل دون عمل وجهاد.

وقرر الشاذلي الحج، وأخذ معه كفنًا وفأسًا، وعندما سأله تلميذه السبب قال، في «حميثرة سوف ترى»، وعند وصوله إلى منطقة في الصحراء قريبة من البحر الأحمر تدعى حميثرة، مات ليلًا. ودفن في الكفن، فقد أوصى أن يدفن حيث مات، وحيث تكون الأرض طاهرة. وإلى الآن يوجد ضريحه في حميثرة في مصر، وقد تحول إلى جامع كبير فأصبح مزارًا للصوفيين.

هذا هو الإنسان، وفي المقال التالي نتعرف إلى الطريقة الشاذلية.

ملخص

ولكن ما هو الطريق الذي أوصل الشاذلي؟ لقد لخصه في نصيحة لمريده قائلا:

«ألق بنفسك على باب الرضا، وانخلع عن عزائمك وإرادتك حتى عن توبتك بتوبته، قال الله تعالى: {وَعَلَى لثَّلَـٰثَةِ لَّذِينَ خُلِّفُو حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ لْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ للَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓ إِنَّ للَّهَ هُوَ لتَّوَّابُ لرَّحِيمُ} [التوبة: 118]» (286)

التسليم لله والرضا هما المدخل. ألق بنفسك على باب الرضا، وتخلص من الفكرة التي تضلك بأنك تقدر وحدك دون إرادة الله» وما تشاؤون إلا أن يشاء الله». اترك الأمر كله له، واطلب منه أن يلهمك الصبر وقت الفرح عن المعاصي، ويلهمك الصبر وقت الضيق عن التبطر على نعمته، والغضب من أقداره. اصبر واشكر، وحاول أن تصل لمقام الرضا وهو أعلى المقامات.

الشاذلي الإنسان يصاب بالكبر، ويفرح بعلمه مرة، ثم يحتار في قرارات حياتية مرة، ثم يشعر بالخوف والظلم أحيانًا، ثم يعطيه الله من الرزق كثيرًا من فتح وحب الناس له ومال وورع، ويأتي البلاء قرب النهاية فيحيا أكثر من عشر سنوات من عمره وهو كفيف، فلا يتذمر ولا ييأس ولا يشفق على نفسه، بل يشترك في الحروب، ويدعو الناس لمحاربة الفرنسيين في المنصورة، ويسعد بتلاميذه، ويفرح بما استطاع أن يحقق من رضا الله ومعرفته. هل

وصل الشاذلي للسعادة؟ بحث عنها مثلنا؛ نعم، وجدها؟ أعتقد نعم. فقد رضى، وتعلم، وعلم. عرف ماهية الدنيا وفناءها، وعاش بها، وتزوج، وأنجب، وهاجر، ولكنه أبدًا لم ينس رسالته ولا ربه. ألقى بنفسه على باب الرضا، فرَضِي.

علمنا الشاذلي أدب الدعاء، والعبادة. اعبد الله لله، وادعه قائلًا: يا رب كن لي. في تشبيه الثياب الكثير من الدروس. هذا هو «علي» الذي طلب منه الشيخ أن يغتسل في بداية عمره. وهذا هو علي الذي جاءه نبي الله يعيد عليه كلمات القرآن: ﯖ ﯗ [المدثر: 4]. وما بين الحدثين عمر قضاه «علي» في الفهم، والعمل، والعلم.

ومضة نور

من دعاء الشاذلي

«اللهم اجعلها في أيدينا، ولا تجعلها في قلوبنا. اللهم وسع عليّ رزقي في دنياي، ولا تحجبني بها عن أخراي» (287)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الطريقة الشاذلية في الفكر الصوفي: محاولة للسعادة

«اعرف الله وكن كيف شئت»

الشاذلي

ربما ما يميز المدرسة الشاذلية هو الفهم الأكثر مرونة للزهد والفقر. فكما قلنا في المقال السابق، الشاذلي لم يكن فقيرًا، ولم يلبس الصوف، بل امتلك الخيل والماشية والمزارع. وشرح فكره لأكثر من تلميذ من تلاميذه، فهو لم يكن رجل مظاهر بقدر ما فهم أن صلب الدين هو النوايا وأعماق القلوب، وليس المظهر فقط. فنجده تارة يقول لأحد تلاميذه الذي لَبِس لُبْسَ الفقراء أن ملبسه ربما يعطي إيحاء للناس أنه يحتاج، وأنه من الأفضل أن يظهر الاكتفاء. كما أوضح في أكثر من موقف أن دخول الدنيا في القلب ليس بالفقر والغنى، ولا بالمظاهر، وإنما بالأعمال والنوايا. فربما كان هناك من يستغنى عن المال ويعيش حياة الفقراء، ولكنه يفكر طوال الوقت فيه، وربما كان من يأكل مثل الزهاد، ويفكر في الطعام طوال الوقت، وربما هناك إنسان يملك المال، ولكنه يضع الدنيا في يده، والآخرة في قلبه، ويبذله في سبيل الله، وفي تحقيق أركان الإسلام الخمسة كالزكاة والحج (انظر كتاب عبد الحليم محمود). وكان الشاذلي يشرب الماء باردًا، ولا يجد أن فكرة العناء لها علاقة بالزهد، بل الزهد شعور في القلب، والقلق على الدنيا ومغانمها لا علاقة له بأكل الطعام الجيد والاستمتاع بما حلل الله. وربما من الجمل التي تلخص الطريقة الشاذلية هي الجملة التي قالها لتلميذه أبي العباس المرسي عندما بدأ في لبس الصوف: يا أحمد اعرف الله، وكن كيف شئت.

اعرف الله، من أصعب الجمل وأكثرها عمقًا. فأن تعرف الله يعني أن تخاف أن تغضبه لأنك تحبه، وأن تعرف الله يعني أن يكون هو غايتك من هذه الرحلة، وأن تعرف الله يعني أن تدرك أنه لا يعاقبك، بل يحبك ويرعاك، وحبه كما قال ابن عربي حب عناية لأنه أحبك قبل أن تحبه، وقبل أن تولد. وأن تعرف الله يعني أن ترضى بقضائه وتتوكل عليه، وأن تعرف الله يعني أن تبتعد عن النميمة، وسوء النية، والحسد، والظلم، وكل ما يغضبه، وأن تعرف الله يعني أن تسلم له وتثق به ثقة عمياء. فلو كنت تثق في طبيب بالكاد تعرفه عندما يضع لك دواء، كيف لا تثق فيمن خلقك أنت والطبيب؟ الطريقة الشاذلية ليست مجرد أوراد وأحزاب بل تكمن بها معان عميقة عن التفاؤل والعمل والاستمتاع بالدنيا دون أن تستعبدنا أو تملكنا. هي بسيطة بساطة الدين وسهولته، ولكن أن تعرف الله لا يعني أن تقرأ وردًا معينًا وحزبًا معينًا فقط، ولا أن تصلي وتصوم فقط، معرفة الله أعمق من هذا وأشمل، أن تعرف الله

يعني ألّا تجزع قط، وأن تثبت في الحب، وأن ترعى حقوق الناس، وأن تبجل كل ما خلق. ابن عربي والغزالي والشاذلي ومن بعده ابن عطاء الله السكندري كلهم يدعون للحقيقة نفسها بطرق مختلفة وكلمات مختلفة، ولكنهم جميعًا يصلون إلى النتيجة نفسها وهي معرفة الله.

في السطور التالية سنتكلم عن الشاذلي ونظرته للصوفية.

الإنسان مكرم في الدنيا، لم يخرج من الجنة كعقاب

أولًا لا بد أن نعرف أن الله لم يخلقنا ليعاقبنا على ما فعل آدم، ولكن ليعلمنا، ويثقل تجربتنا، فندخل الجنة ونحن أكثر معرفة، وأكثر دراية»قال الشيخ أبو العباس: كنت مع الشيخ في السفر، ونحن قاصدون الإسكندرية حين مجيئنا من الغرب، فأخذني ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله، فأتيت إلى الشيخ أبي الحسن، فلما أحس بي قال: أحمد. قلت: نعم يا سيدي، قال: آدم خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، ثم نزل به إلى الأرض؛ والله ما أنزل الله آدم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله. ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 30]. ما قال في السماء، ولا في الجنة؛ فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة، لا نزول إهانة، فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتعريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفته. وأنت أيضا لك قسط من آدم، كانت بدايتك في سماء الروح في جنة التعريف، فأنزلت إلى أرض النفس لتعبده بالتكليف. فإذا توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة، وزال ضيق أبي العباس، وانشرح صدره» (288) ويشير الشاذلي هنا لقصة سيدنا إبراهيم عندما ألقوه في النار، ولم يطلب من جبريل مساعدته. وقد ذكرنا القصة في المقال السابق. وكأن الله يشهد ملائكته على ورع خليله إبراهيم رضي الله عنه. فالله يعرف أن من عباده من سيعبده على معرفة وحب وافتقار. يقول الشيخ أبو الحسن: «كأن الحق سبحانه وتعالى يقول لهم: يا من قال: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 30]، كيف تركتم عبادي؟ فكان مراد الحق سبحانه وتعالى بإرسال جبريل عليه السلام إظهار رتبة الخليل عند ملائكته، وتبيينًا لشرف قدره وفخامة أمره». (289)

إذن لو نظرنا لوجودنا في الأرض على أننا هنا بتكليف من الله، وأن لنا دورًا مهمًا لا بد أن نقوم به، ولا بد أن يكون دورًا به الخير الذي يعم على غيرنا،

فسوف نبعد عن اليأس وسوء الظن بالقدر لأن كلٌ من عند الله. ولكن ماذا على ابن آدم أن يفعل حتى تكتمل مهمته؟

عليه أن يعرف الله. فمعرفته بالله هي كيمياء السعادة عند الغزالي، ولب الطريق عند الشاذلي.

معرفة الله تكريم وتكليف

قالها لتلميذه عندما بدأ في لبس الصوف والزهد: «يا أبا العباس: اعرف الله وكن كيف شئت. ومن عرف الله، فلا عليه أيضًا إن أكل هنيئًا وشرب مريئًا. وما كان أبو الحسن لا يتعمد قط أن يأكل الغليظ من الطعام، أو يقتصر على غير الزلال البارد من الشراب. إنه يقول: «يا بني برد الماء، فإنك إذا شربت الماء الساخن فقلت الحمد لله، تقولها بكزازة، وإذا شربت الماء البارد، فقلت الحمد الله استجاب كل عضو منك بالحمد الله«

ويشير عبد الحليم محمود هنا الى أن النبي موسى بعد أن ساعد الفتاتين، بحث عن الظل ليخفف عن نفسه العناء وهو يشكر ربه، ولم يعذب نفسه بالوقوف في حرارة الشمس.

والأصل في هذا قول الله سبحانه حكاية عن موسى عليه السلام: {فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى لظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْ فَقِي } [القصص: 24].. ألا ترى كيف تولى إلى الظل قصداً لشكر الله تعالى على ما ناله من النعمة؟ وعن ذلك، وبيانًا لنهج الطريقة الشاذلية، الذي رسمه أبو الحسن، يقول ابن عطاء الله: «وأما لبس اللباس اللين، وأكل الطعام الشهي، وشرب الماء البارد، فليس القصد إليه بالذي يوجب العتب من الله، إذا كان معه الشكر لله». وهذا كله طبعًا يتمشى مع قوله تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ للَّهِ لَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ لطَّيِّبَـٰتِ مِنَ لرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُو فِى لْحَيَوٰةِ لدُّنْيَا خَالِصَ يَوْمَ لْقِيَـٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ لْـَٔايَـٰتِ لِقَوْ يَعْلَمُونَ ٣٢} [الأعراف:32]» (290)

لا يجد الشاذلي غضاضة في الاستمتاع بالحياة الرغدة مادام لم تتوغل الدنيا إلى قلوبنا، وهذه هي المعادلة الصعبة، والثبات الذي يدعو له كل عالم صوفي بطريقته. فالله خلقنا في الأرض لا ليعاقبنا أو يعذبنا، ولكن ليعلمنا، فعند وصول المعرفة إلى القلب تأتي السعادة في الدنيا والآخرة. فقد قال تعالى {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى لْبَرِّ وَ لْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ لطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِي مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِي ا}[الإسراء: 70]. خلقنا الله له هو. وسخر لنا كل شيء. فلنتذكر أننا هنا ضيوف بالدنيا لنعبده، هذه رسالتنا وهذا هو هدفنا. ولنعبده، لا بد أن نبجل كل مخلوقاته، وأن نرحم، ونعطف، ونكرم، ونتقي الله، ونبعد عن محرماته.

«ويقول الأستاذ علي سالم عمار: «كان الشاذلي يلبس الفاخر من الثياب، ويركب الفـاره من الدواب، ويتخذ الخيل الجياد» ومهما يكن من شيء، فإن أبا الحسن كان ينصح دائمًا بالاعتدال، ويعلن للمريدين قائلًا: «لا تسرف بترك الدنيا، فتغشاك ظلمتها، أو تنحل أعضاؤك لها، فترجع لمعانقتها، بعد الخروج منها، بالهمة أو بالفكرة أو بالإرادة أو بالحركة» والقاعدة العامة على كل حال: «اعرف الله وكن كيف شئت» وذلك لأن من عرف الله تعلق قلبه به، وامتلأ بحبه فلا يتأتى منه إلا الفضيلة .... وما كان الشاذلي من الذين يسعون وراء الشهرة الزائفة أو غير الزائفة ... من كل ذلك نرى أبا الحسن في الجانب المادي البشري غير متزمت، وهو الذي يقول: «ليس هذا الطريق بالرهبانية، ولا بأكل الشعير» (291)

ويقول الشاذلي: «ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك. وخلقتك من أجلي. فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له» (292)

أصول الطريق الشاذلي:

يقول رضي الله عنه، مما يجب على المريد:

1- أن يتقرب إلى الله تعالى بما شرعه وسنه رسول الله .

2 – أن تكون عبادته لوجه الله تعالى مخلصًا في قوله وعمله، دون رياء، مكتفيًا بعلم الله فيه، وإياه وحب الظهور فإنه يقصم الظهور.

3 – أن يحفظ جوارحه عن المحرمات، وليدع الفضول في الأقوال والأفعال، والتدخل فيما لا يعنيه، وأن يطهر قلبه من الرذائل والخواطر النفسية، وألا يشغل نفسه بهم الرزق وخوف الخلق، فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

4 - ألا يعترض على الخلق، وألا يركن إلى دنيا أو جاه، وإنما يعتمد على الله وحده، وأن يفوض الله تعالى في جميع أموره، ويرضى عنه في السراء والضراء.

5- أن يكون عفوًّا صفوحًا عن زلات أخيه ناصحًا إن أمكن، وألا يهجر أخاه فوق ثلاث، وأن يبدأه بالسلام إذا التقى.

6- أن يتحلى بالصدق في الأقوال والأفعال، وأن يتجمل بالصبر في كل أموره.

7- أن تلازمه مراقبة الله تعالى في السر والعلن.

8- أن يحسن الظن بربه والناس.

9- أن يكثر من الصدقات فإنها أقرب الطرق الموصلة إلى الله تعالى.

10- أن يجدد التوبة كلما وقع في هفوة أو شهوة أو غفلة.

11- أن يديم الاستغفار، ويكثر من الصلاة على الرسول الأعظم » (293)

هذا هو الطريق الذي رسمه الشاذلي لتلاميذه ولم يكتب كتابًا قط، ولم يترك لنا سوى تلاميذ بقلوب نقية وعقول واعية مثل أبى العباس المرسي، ومن بعده ابن عطاء الله السكندري، وبعد أعوام سيأتي جلال الدين السيوطي، ويكتب كتابه عن الطريقة الشاذلية (تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية). وتستمر الطريقة من أهم الطرق في مصر والعالم. وكلام الشاذلي ونصائحه لا تختلف كثيرًا عن كلام الغزالي أو ابن عربي أو عبد القادر الجيلاني أو غيرهم من علماء التصوف. فهو يطلب منا التوكل والرضا والصبر، ويطلب تصفية النية، وعدم الغلو في الغضب، ويطلب عدم اللهاث وراء المناصب، والرياسة، والجاه، ويطلب مراعاة حقوق الله في كل عمل. ولنتذكر عندما سأل ذو النون المصري السيدة الصالحة أن تنصحه، قالت: «اجعله نصب عينيك» (294) تعني بالطبع الله، واكتفت بهذه النصيحة البسيطة، لا وظفت أورادا ولا أدعية، ولكنها لخصت ما يطلبه الله منا جميعًا.

««اعلم» أيدك الله بنور البصيرة، وصفاء السريرة، أن رسول الله قيل له: مَن أولياء الله يا رسول الله؟ قال الذين إذا رُؤوا ذكر الله. فافهم معنى قوله إذا رُؤوا» (295)

الرؤية عند البشر تعطي اليقين في أكثر الأحوال. فأولياء الله لا يتخيلون، بل يرون الله بالبصيرة. اليقين هو المفتاح.

ولكن البصيرة يمكن أن يتلفها العمل السيء والقلب المريض. »وقال رحمه الله: البصيرة كالبصر أدنى شيء يقع فيه تعطل النظر وإن لم ينته الأمر به إلى العمى، فالخطرة من الشر تشوش النظر وتكدر الفكر» (296)

يشرح لنا كيف يمكن تشويش البصيرة بأي ذنب كان أو بحب الدنيا ونسيان الدين، ويؤكد لنا أن الدين ليس مجرد مظاهر ولا مراسم وأشكال، ولكنّه تقوى، وصفاء، وحب لله ورسوله ولقائه وعباده الصالحين.

العلم والذوق والعبادة

لا يختلف الشاذلي عن الغزالي أو ابن عربي في رأيه في العلم والذوق. العلم هو بداية الطريق. المعرفة والعلم هما واجب وفرض في الإسلام، ومع العلم لا بد من «إجلاء البصيرة وتذكية النفس» وعندما نذكي أنفسنا، نتذوق الحقيقة. إذن الحقيقة أعلى مرتبة من العلم، ولا يمكن شرحها، هي ذوقية نشعر بها، ولا نعرف كيف نعبر عنها باللغة. يتوقف اللسان صامتًا عند شرحها.

توقف لسان الغزالي وغيره عن شرح هذا الشعور لأنه أكبر من الكلمات. (297)

يقول الدكتور عبد الحليم محمود شارحًا الطريق الشاذلي والتصوف بوجه عام:

«إن للعبادة أثرًا لا ينكره أحد في تصفية النفس، وتزكية الروح، ولكنها إذا كانت تهدف من وراء ذلك إلى دخول الجنة ونيل الأجر والثواب. بقيت عبادة مشكورة مأجورًا صاحبها، مثابًا عند الله سبحانه، ولا يتجاوز للقائم بها -على هذا الوضع وبهذه الصورة - وصف العابد إلى وصف الصوفي ووصف العابد من غير شك منزلة عظمى. ولكن العبادة على هذا النمط كأنها معاملة ما. والعابد على هذا الوضع «كأنه يعمل في الدنيا لأجرة يأخذها في الآخرة: هي الأجر والثواب»

أما الصوفي، فإنه «يريد الحق الأول. لا لشيء غيره. ولا يؤثر شيئًا على عرفانه وتعبده له فقط. ولأنه مستحق للعبادة، ولأنها نسبة شريفة إليه، لا لرغبة أو رهبة» وقد عبرت رابعة العدوية عن نفس الفكرة.

«والواقع أن الله سبحانه وتعالى إذا عُبد رغبة في الجنة، أو عُبِد رهبة من النار، فإنه سبحانه لا يكون المطلوب الأول، ولا يكون الغاية التي يسعى إليها العابد. وإنما يكون سبحانه كأنه واسطة بين العابد وما رَغبِه، وهو الجنة، أو رَهِبَه وهو: النار» (298)

مرة أخرى تصبح عبادة الله في الطريق الصوفي من أجل حبه وعظمته وجلاله، وكل ما يتمناه الصوفي هو رؤية الله في الآخرة، رؤية حبيبه الذي تعبد له ورأى شهوده ورسالته في الدنيا. كأنك أحببت أحدًا طوال عمرك تعرف أنه يرعاك، ويبعث لك المدد والمعونة، ويشد من أزرك وقت المحن، وترى أثره في كل شيء، فتصبح كل أمنيتك أن تلتقي بهذا الحبيب، وليس أن يعطيك أجر المحبة، بل أجرك هو اللقاء الذي اشتقت له طوال عمرك الفانى.

يقول عبد الحليم محمود عن العبادة «فتزكية النفس هي صفاؤها وتصفيتها، إنها الوصول بها إلى الصفاء والمنهج محاولة للقرب - ما استطاع الإنسان ذلك سبيلًا - من قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِين.لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: 162، 163]. أما الغاية فإنها: الوصول إلى المشاهدة التي يقول الله تعالى في بيان من حققوها وتحققوا بها: {شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} [آل عمران: 18]،إن الغاية هي الوصول إلى: أشهد أن لا إله إلا الله» (299)

العلم والعبادة وجهاد النفس مرتبطان بوثاق صلب. فيقول الشاذلي ناصحًا: «وإذا أردت جهاد النفس، فاحكم عليها بالعلم في كل حركة، واضربها الخوف عند كل خطرة، واسجنها في قبضة الله أينما كنت، واشك عجزك إلى الله كلما غفلت» (300)

بالنسبة للشاذلي، العلم يساعدك على تجنب المعاصي، وقد عبر الغزالي عن فكرة مشابهة أيضًا. فمن يعرف ويفهم أفضل من الجاهل؛ لأن من يعرف يفكر في عواقب أفعاله. إذن كيف نصل إلى التقوى؟ بأن نفكر ونتعلم وليكن العلم هو الجهاد في كل قرار في حياتنا نتخذه عن علم وليس عن جهل. قبل أن نأخذ عملًا ما، نعرف كل شيء عنه، ونعرف أنه لا يغضب الله. المعرفة تؤدي إلى راحة الضمير، وراحة الضمير تؤدي إلى السعادة. فلتخف في كل خاطر يخطر لك، فلتخف أن تغضب الله. تفكر قبل أن تتهم الغير أو تنطق بما يسيء لغيرك، حتى ولو كان عدوًا، لو فكرت بعلم وخوف من أن تغضبه فيحجب عنك، ثم طلبت منه أن يعينك على الطاعة سوف تصبح المعصية بعيدة عنك.

وقال الشاذلي رضي الله عنه: «اعرف الله، ثم استرزقه من حيث شئت» (301)

إذن أن تطلب الرزق الحلال دون طمع، وأن تعمل بإخلاص، وأن تتوكل عليه، وتطلب الطيبات من الرزق فلا غبار عليك، بل هذا مستحب عند الله لأنك عندما تملك الرزق ستساعد غيرك ونفسك، وربما لا تفكر طوال الوقت في الدنيا. أما إذا أصبح الرزق مصدر طمع واستعباد، وأصبح المال بأهمية الله في قلبك فعصيت ربك لتحصل عليه، فهذا هو الذنب.

معرفة الله تكلمنا عنها في مقال سابق، ولكنها تتضمن أيضًا معرفة ما يحب وما لا يحب، الصفات التي يحبها في عباده والتي لا يحبها. وتتضمن أيضًا معرفة الحدود والشرع، وتتضمن أيضًا أن نتقرب منه، ونتذكره في كل لحظة، وفي كل عمل نقوم به، وكل كلمة ننطق بها. نفكر أولًا هل سيرضى عنا بهذه الكلمات أم لا.

والطريق الصوفي يحتاج إلى وقت ومجاهدة، لذا قال أبو العباس المرسي تلميذ الشاذلي:«نحن إذا أتانا مريد له شيء من الدنيا لا نقول له: اخرج عن دنياك وتعال، ولكن ندعه حتى تترشح فيه أنوار المعرفة، فيكون هو الخارج عن الدنيا بنفسه» (302)

فطريق الصوفية لا يحدث فجأة، ولكن تخرج الدنيا من القلب بالرياضة المستمرة. ويشرحها أبو العباس المرسي بتشبيه بديع قائلًا:

«ومثل ذلك مثل قوم ركبوا سفينة، فقال لهم رئيسها: غدًا تهب ريح شديدة، لا ينجيكم منها إلا أن ترموا بعض أمتعتكم، فارموا بها الآن، فلا يسمع أحد قوله، فإذا هبت العواصف، كان الكيس من يرمي متاعه بنفسه، كذلك إذا هبت عواصف اليقين، يكون المريد هو الخارج عن الدنيا بنفسه» (303)

يذكرنا أبو العباس وأستاذه وقبلهما الغزالي أن لكل شيء ميعادا محدد اليقين لا نصل إليه فجأة ولكن بالتجهيز له وبرحمة الله مع السعي المستمر.

العلم والإخلاص في العمل من أهم مقومات الطريق الصوفي عند الشاذلي كما ناقشنا ذلك في السطور السابقة.

«والإخلاص أساس قبول الأعمال: ومعنى ذلك وجوب الاتجاه بالأعمال إلى الله تعالى وحده، لا شريك له، يقول تعالى: {قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا}[الكهف: 110]»

وعن العلم يقول الله في كتابه {أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ} [الزمر: 9].

{شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} [آل عمران: 18].

ورسول الله ﷺ شعاره. {فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا} [طه: 114].

ويقول ﷺ: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له طريقًا إلى الجنة» (304)

ويضع الشاذلي الجهل عن عمد في مقام الكبيرة. الجهل يمكن أن يحدث عن غير عمد؛ لأن الإنسان لم تتأت له فرصة للتعلم. ولكن لو حدث عن عمد فيعتبرها هو ذنب.

«اشترط تلاميذ الشاذلي «أبو العباس، تاج الدين بن عطاء الله، والشيخ ياقوت العرش« في قبول الطلاب: ألا يدخل أحد الطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة، وآلاتها بحيث يقطع العلماء في مجالس المناظرة بالحجج الواضحة. فإذا لم يتبحر كذلك لا يأخذون عليه العهد. إن العلم عنصر من عناصر شخصية الإمام الشاذلي وهو عنصر من عناصر طريقته أيضًا، وصلى الله على من أُمر أن يقول:{ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا} [طه:

114]. وسبحان القائل:{وَمِنَ لنَّاسِ وَ لدَّوَآبِّ وَ لۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخۡشَى للَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ لۡعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ للَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨}[فاطر: 28]. وتقدس الذي يقول: {يَٰٓأَيُّهَا لَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِى لۡمَجَٰلِسِ فَ فۡسَحُواْ يَفۡسَحِ للَّهُ لَكُمۡ وَإِذَا قِيلَ نشُزُواْ فَ نشُزُواْ يَرۡفَعِ للَّهُ لَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَ لَّذِينَ أُوتُواْ لۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٍ وَ للَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: 11]. ويصل أبو الحسن إلى الذروة حينما يعتبر الجهل والرضا به من الكبائر، بل حينما يعتبره من أكبر الكبائر ويقول: «لا كبيرة عندنا أكبر من اثنين: حب الدنيا بالإيثار، والمقام على الجهل بالرضا» لأن حب الدنيا أساس كل خطيئة. والمقام على الجهل أصل كل معصية» (305)

فيجد الشاذلي أن الجهل يؤدي إلى المعصية، ويا ليته عاش زماننا ليرى بعينه صحة مقولته.

الحب والطريق إلى الله عند الشاذلي

كما قرأنا في مقال رابعة العدوية الحب جزء لا يتجزأ من عبادة الله عند الصوفية، فهدف العالم الصوفي ليس جنة ولا نار في الآخرة، بل رؤية وجه الكريم، والقرب منه، والونس به. فالكرامة عند الشاذلي ليست فقط الاستقامة واتباع الشرع، ولكنها أيضا حب الله. من وضع الله في قلبه الحب فقد أكرمه، ومن استطاع أن يحب غيره فقد بدأ أول الطريق، الخطوة القادمة هي أن يرى أن كل الصور، وكل البشر شهودٌ على خلق البديع الواحد الأحد، وأن من يستحق أن نحبه بكل قلبنا ونفسنا هو الله، وحبنا لمخلوقاته لا بد أن يكون وسيلة وليس هدفًا، ولكن حبنا له هو الهدف عند كل الصوفيين.

ولأبي الحسن كلام جميل عن المحبة، ولا يتأتى أن يخلو كتاب عنه من ذكرها. «قال الشيخ أبو الحسن رضى عنه: من أحب الله، وأحب لله فقد تمت ولايته بالحب» (306)

وقال الشيخ رضى الله عنه: «المحبة آخذة من الله لقلب عبده عن كل شيء» (307)

أي إن المحبة تسيطر على القلب فتغيبه عن كل شيء سوى المحبوب. فليكن حبك له أولًا، ولكن للحب شروط منها أن ترضى عمن تحب، وترضى عن كل أفعاله. فلترض عن ما قدر الله لك حتى يرضى عنك، من يحب، يحب كل قرارات محبوبه ويتبعها. وفي الرضا سعادة.

عن الحب والدعاء، فهل هناك كلمات ذهبية عندما نرددها نصل إلى الحقيقة؟ لو رددناها باللسان فلا، حتى لو رددناها آلاف المرات في اليوم، أما لو رددنا

الكلمات بالقلب والأفعال والمعرفة فهذا شيء آخر.

فهل هناك ورد يساعدنا نحن؟ هل يوظف لنا الشاذلي أورادًا؟ ربما، ولكن هناك ورد يشمل كل الأوراد وكل الأحزاب، وهو حب الله والاستقامة وتطبيق كل ما طلبه الله منا في حياتنا الدنيا. فالسيطرة على هوى النفس هو الورد الأكبر. وحبه والسيطرة على هوى النفس مرتبطان. يذكرنا ابن عطاء الله السكندري في كتابه التنوير في إسقاط التدبير قائلًا «وأهل الله أهل الفهم عنه جعلوا الأوقات كلها وقتًا واحدًا، والعمر كله نهجًا إلى الله قاصدًا، فعلموا أن الوقت كله له، فلم يجعلوا شيئًا منه لغيره. ولذلك قال الشيخ أبو الحسن: عليك بورد واحد، وهو إسقاط الهوى ومحبة المولى، أبت المحبة أن تستعمل محبًا إلا فيما يوافق محبوبه» (308) أوصانا بها الشاذلي «عليك بورد واحد... إسقاط الهوى» فهل تجاهد نفسك أيها القارئ؟ وهل تحاول؟ المحبة توجب إرضاء الحبيب

وعن المحبة التي هي مفتاح الطريق إلى الله، يقول تلميذ الشاذلي وخليفته أبو العباس المرسي شارحًا الآية الكريمة: {إِنَّ لشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُ فَ تَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُو مِنْ أَصْحَـٰبِ لسَّعِيرِ} [فاطر: 6].

«فقوم فهموا من هذا الخطاب أن الله طالبهم بعداوة الشيطان، فصرفوا هممهم إلى عداوته، فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب. وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدو، أي: وأنا لكم حبيب، فاشتغلوا بمحبة الله، فكفاهم من دونه» (309)

ولكم شاهدت من سيطر عليه كره الشيطان فأنساه أن مفتاح معرفة الله هو الحب، ولو عرفنا حب الله وعنايته لنا فسنعرف أن ليس للشيطان قدرة علينا أصلًا ولا حكم»ليس لغير الله قوة ولا حكم» (310) (ابن عطاء الله، التنوير في إسقاط التدبير)

لذا قال أبو العباس يومًا لتلميذه ابن عطاء الله السكندري عندما جاءه مهمومًا من وسواس يسيطر عليه في الطهارة: «هذه طائفة تلعب بالشيطان، لا الشيطان يلعب بها» (311)

فمن يحب الله يقوى به، ويثبت، ويتحكم في الشيطان. هذه هي رسالة هذا الطريق.

الحب والابتلاء

«ويحكي الشاذلي - قلت على مصيبة نزلت: { لَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَ قَالُوٓ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ} [البقرة: 156]. اللهم أجرني في مصيبتي،

وأعقبني خيرًا منها. فألقى في سرى أن أقول: فاغفر لي بسببها. وما كان من توابعها، وما اتصل بها، وما هو محشو بها. وكل شيء كان قبلها، وما يكون بعدها. فقلتها، فهانت على، فلو أن الدنيا كلها كانت لي في ذلك، وأصبت فيها لهانت عليّ، ولكان ما وجدت من برد الرضا والتسليم أحب إلى من ذلك كله» (312)

يدعو الشاذلي ربه راضيًا لاجئًا مفتقرًا إليه. هذا دعاء من القلب، هو دعاء مضطر، والمضطر يستجاب له. تذكر أن الشاذلي فقد بصره وعاش بهذه الحالة أكثر من عشر سنوات ومع ذلك لم يتذمر بل أيقن أن بصيرته طغت على بصره ورأى النور بقلبه ولم يأبه لوهم الدنيا ونورها المتغير.

و»خذ ذلك من قوله تعالى: {أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰـ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيـ ا مَّا تَذَكَّرُونَ} [النمل: 62]. فالمحروم من يدعوه وقلبه مشغول بغيره. فاحذر هذا الباب جدًا» (313)

وعن الرضا حين الابتلاء قال الشاذلي: «وإن ترض عن الله يرض الله عنك» (314)

«وقال رحمه الله: من آمن بالقسمة، حرام عليه أن ينازع في الحكمة»

وقال رحمه الله: كل مصيبة يرجى ثوابها ولا يخاف عقابها فليست بمصيبة، إنما المصيبة ما لا يرجى ثوابها ويخاف عقابها»

«وقال رحمه الله: رأيت في النوم صائحًا يصيح من جو السماء، وإنما تساق لرزقك أو لأجلك، أو لما يقضى الله به عليك، أو بك أو لك وهي خمسة لا سادس لها، فاتقِ الله أينما كنت، ولا تعدل بالتقوى شيئًا، فإن العاقبة للمتقين» (315)

«وقال رحمه الله: يحكى عن أستاذه رحمه الله أنه قال: شيئان قل ما ينفع معهما كثرة الحسنات، سيئتان: السخط لقضاء الله، والظلم لعباد الله. وحسنتان قل ما يضر معهما كثرة السيئات. الرضا بقضاء الله، والصفح عن عباد الله».

«وقال رحمه الله: يا من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير، ولا يجار عليه، أجرني مما أرهقني، فقيل لي لا تهرب إلى الله في الجزع والسخط فيمقتك الله، فقلت ضيق على هذا الأمر، فقالوا نحن قدرنا عليك لنربيك ونعلمك ونريك، ثم قال انف المنافع والمضار عنهم لأنها ليست منهم، واشهدها منى فيهم، وفر إلى منهم بشهود القدر الجاري عليك وعليهم أو لك ولهم، ولا تخفهم خوفًا تغفل به عني وتنسني» (316)

أي لا تلجأ إلى الله فقط حين تخاف أو تحزن، فالحزن والخوف أتيا لحكمة وتربية وتهيئة لك، ليزيد علمك وورعك وتستحق الجنة. لا خوف مع أقدار الله، ولا حزن إلا من ذنب أو فوات طاعة.

ثم يعرف لنا الشاذلي البلاء قائلًا:

«واعلم أن البلاء مجموعه في ثلاث: خوف الخلق، وهم الرزق، والرضا عن النفس. واعلم أن العافية والخيرات مجموعة في ثلاث: الثقة بالله في كل شيء، والرضا عن الله بكل حال، واتقاء شرور الناس، وهي أضـداد الثلاثة المتقدمة، فمن وثق بالله تعالى لم يغتر بغيره في إقبال ولا إدبار، ولا ينظر لسواه في نفع ولا إضرار، ومن رضى عن الله عز وجل لم يحزن على فائت، ولا يفرح بآت، ولا ينظر لمسـتـقـبـل ولا مـاض، ومن استكفى شرور الناس كف شره عنهم» (317)

«واعلم أن الجوع والسهـر ليس المراد بهما الإفراط بحيث يتأذى من ذلك الجـسـم ويـحـصـل بـه الـضـرر، بـل المراد أن يكون الأكل والنوم بمثابة الدواء لا يتعاطاه إلا عند الاحـتـيـاج والـضـرورة إليه» (318)

الصوم أو السهر للعبادة المراد بهما أن يخرج من الدنيا ولو لساعة أن يفكر فقط في حبيبه، وأن يطوع عقله لترك كل شيء بعض الوقت. فحينها تتبدى له حقائق لم يكن يعرفها، ويتذوق حلاوة العبادة. لا يريد الشاذلي بكلماته أن يكلف المريد أكثر من وسعه، ولكن يريده أن يجد أي طريق إلى أن يقطع نفسه عن علائق الدنيا بعض الوقت، وهذا صعب بالطبع.

ولكن الشاذلي إنسان يخاف ويقلق مثل البشر، يحزن ويبكي مثلنا، لم يصف نفسه بأنه كائن خارق، بل بشر، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها. فيحكي لنا أنه في لحظات يخطر على باله خوف من الفقر أو الحاجة، مثلنا جميعًا، فهل يحجبه هذا الخوف اللحظي عن الله؟

فقد سمع «الحديث المروي عن رسول الله : من سكن خوف الفقر قلبه قل ما يرفع له عمل، فمكثت سنة أظن أنه لا يرفع لي عمل، أقول: ومن يسلم من هذا، فرأيت رسول الله ، في المنام وهو يقول لي: «يا مبارك أهلكت نفسك فرق بين خطر وسكن» (319)

إذن أن يخطر على بالنا حزن أو خوف، فهذا طبيعي. أما أن يسكن ويبقى الخوف داخلنا، فهذا هو ما لا يجب ولا يكون مع يقين الإيمان.

المعاملة مع الناس عند الشاذلي

يريدنا الشاذلي ألا نشعر بالامتنان للأشخاص، فيحجبنا هذا عن الله، ونظن وهمًا أن أي شخص بيده رزقنا أو الخير لنا. فلنشكر من أعطانا، ولكن لنتذكر

أن العطاء بيد الله، وأن البشر بين يديه يطوعهم كيفما شاء.

يخص الشاذلي الولي، ويشرح له نوع الابتلاء الذي قد يصيبه، وهو ابتلاء عداوة الناس له في بداية الطريق أو حب الناس له، ورفع منزلته بعد ذلك. وفي الاثنين ابتلاء. فلو كرهك الناس وآذوك، تذكر أن الأذى يقربك من الله، ولو أحبوك لا تفتن بنفسك، وتظن أنك تستحق الثناء، فهذه أكبر فتنة. ويخبرنا ابن عربي في الفتوحات المكية أن أكبر فتنة للولي هي حب الرياسة، أي السلطة والجاه والتفاف الخلق حوله والمناصب. وعلى الولي أن يتخلص من هذا ولو اضطر إلى قبول منصب ليتذكر أن هذا ابتلاء شديد، وعليه محاسبة نفسه ومعرفة قدره، كما قلنا في الأسطر السابقة. ولكن الغزالي يطلب من الولي أن يرفض أي منصب أيًا كان، ويبتعد كل الابتعاد عن السلاطين والأمراء وجمع المال.

وإخلاص الشاذلي في عمله يتبدى أيضًا في نصائحه لأبي العباس المرسي عندما قال:

«وقال: دخلت يومًا على الشيخ أبي الحسن علي، فقال لي: إن أردت أن تكون من أصحابي فلا تسأل أحدًا شيئًا، وإن أتاك شيء من غير مسألة فلا تقبله. فقلت في نفسي: كان النبي يقبل الهدية، (قال الشاذلي) كأنك تقول كان النبي يقبل الهدية، وقال: «ما أتاك من غير مسألة فخذه» (320) النبي قال الله في حقه: {وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ} [الأنبياء: 45]، متى أوحى الله إليك؟! إن كنت مقتديًا به في الأخذ، فكن مقتديًا به كيف يأخذ، كان لا يأخذ شيئًا إلا ليثيب من يعطيه ويعرضه عليه، فإن تطهرت نفسك وتقدست هكذا، فاقبل وإلا فلا» (321)

أي إن استطعت أن ترد الهدية، وتعطي مثلها وأكثر، فاقبلها وإلّا فلا، وتذكر أنك لست النبي، ولم ترق ولن ترقى لمستواه، فالهدية ربما تفتنك أنت مرة أخرى، يؤكد الفكر الصوفي البعد عن الرياء والنفاق والشهرة والجاه والزهد في الناس، وما يعطون، وما يقولون.

أهمية العقل عند الطريقة الشاذلية تشبه إلى حد كبير أهميته عند الغزالي، فبدون العقل لا وصول إلى الراحة، بالعقل نعرف أن الله معنا طوال الوقت، ولكن بالقلب والروح نهدأ ونحب.

قال عن العقل: «كذلك لما خلق الله النفس، اضطربت فأرساها بجبال العقل، فأي عبد توفر عقله، واتسع نوره، نزلت عليه السكينة من ربه، فسكنت نفسه عن الاضطراب، ووثقت بولي الأسباب، فكانت مطمئنة أي ساكنة لأقداره، ممدودة بتأييده وأنواره، حائدة عن التدبير والمنازعة للمقادير، اطمأنت لمولاها لعلمها أنه يراها، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد، فاستحقت

أن يقال لها: {يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ . ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى . وَٱدْخُلِى جَنَّتِى} [الفجر: 27، 28، 29، 30]» (322)

مثل باقي علماء الصوفية يجد الشاذلي أن الطاعة التي تولد الكبر والغرور لا تثمر وأن الندم على معصية يولد الافتقار إلى الله واللجوء إليه يوصل إلى الطريق.

«وقـال رحـمـه الله: كل شـهـرة تـدعـوك إلى الرغبة في مثلها فهي عـدة للشيطان وسلاحه، وكل شـهـرة تـدعـوك إلى الطاعة لله، والرغبة في سـبـيـل الخيرات محمود، وكل حسنة لا تثمر نورًا وعلمًا في الوقت فلا تعد لها أجرًا، وكل سيئة أثمرت خوفًا وهربًا إلى الله تعالى ورجوعًا إليه فلا تعد لها وزرًا» (323)

أما عن تسامحه فيقول ناصحًا تلميذه:

«وقال: قال الشيخ أبو الحسن: يا أبا العباس، إذا قال أحد فيك ما ليس فيك، فقل: الله يعلم مني ما يعلم، وإلى الله عاقبة الأمور» (324)

ويقول الشاذلي في التسامح: «فقد قال عليه الصلاة والسلام واتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» (325)

الأخلاق، والتسامح، والعفو عن الناس من سبل الخير.

وعن قصة سيدنا نوح وقومه يقول الشاذلي:

لو علم نوح عليه السلام، أن في أصلاب قومه من يأتي يوحد الله، عز وجل، ما دعا عليهم. ولكان قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» كما قال رسول الله ، فكل منهما على علم وبينة من الله تعالى.

فيرى الشاذلي أن الصبر، والتمهل، والتسامح من أهم سمات الطريق. وقبل أن تدعو على أحد تذكر أنه ربما سيتوب يومًا، تذكر رحمة ربك!

العلاقة المباشرة بالله مفتاح الطريق

يقص علينا الشاذلي هذا الحلم المهم لنتعلم ونفكر:

«قرأت ليلة قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ}[الجاثية: 18، 19]. فنمت، فرأيت رسول الله ، وهو يقول: «أنا ممن يعلم، ولا أغني عنك من الله شيئًا»

حتى رسول الله لن يغني عن الإنسان شيئًا، فلا يرحم الإنسان إلا برحمة الله. الثبات مفتاح المحبة. اثبت أمام نفسك وأمام الناس، وتذكر لا أحد يضرك أو ينفعك إلا بإذن الله. فلا معطي ولا مانع إلا الله.

«وقال رحمه الله: يستقر في قلبك أنه لا ضـار ولا نافع إلا الله، ولا معطى ولا مانع إلا الله ثم لا تضطرب ولا تسكن ولا تنسب إلى الخلق شـيـئـًا ولو قرضت بالمقاريض ونشرت بالمناشير» (326)

«وقـال رحـمـه الله: رأيت كأني في المحل الأعلى، فقلت إلهي أي الأحـوال أحب إليك، وأي الأقـوال أصـدق لديك؟ وأي الأعـمـال أدل على مـحـبـتك؟ فوفقني واهدني، فـقـيـل لي: أحب الأحوال إلى الله تعالى الرضا بالمشاهدة، وأصدق الأقوال لديّ قول لا إله إلا الله على النظافة، وأدل الأعمال على محبتي بغض الدنيا، واليأس من أهلها مع الموافقة» (327)

يحب الله أن نرضى عنه، وبه، ونراه في كل الصور حولنا، وقول لا إله إلا الله على نظافة كلمة مهمة، فربما قلناها وعقلنا يفكر في مخلوق نظن به أنه ينفعنا أو يضرنا، النظافة هي تصفية النية، أما بغض الدنيا فلا يعني أن تكره الحياة الدنيا، ولكن نتذكر أنها مرحلة، وليست بوطن، ولا دار بقاء، ولا نتوقع منها الكثير، ولا نتوقع من أهلها النفع والضرر، فنيأس من نفعهم لنا، فالله هو النافع والضار وحده.

يلخص الشاذلي السعادة في معادلة: لنفهم هذه المعادلة، من اتقى، فهم أن الدنيا فانية، ومن فهم أن الدنيا فانية لا تستحق أن نعصي الله من أجلها، هو من عرف نفسه، وعرف مواطن ضعفها وقوتها. ولا يعرف نفسه سوى من عرف الله، ومعرفة الله لا تأتي إلا بالحب. فحب الله هو الذي يساعدنا أن نراه ونعرفه، حتى ولو لم تكن رؤية العين في هذه الدنيا. ولكن الله هو الذي يقدرك لتعرفه وتعرف نفسك، فادعه أن يعطيك القوة، ويفتح عليك لتعرف؛ لأنك لست قويًا سوى به، ولست قادرًا على جمح هواك سوى به.

قال الشاذلي «ولا هدى إلا لمن اتقى، ولا تـقـوى إلا لمن أعرض عن الدنيا، ولا يعرض عن الدنيا إلا من هانت عليه نفسه، ولا تهون النفس إلا عند من عرفها، ولا يعرفها إلا من عرف الله، ولا يعرف الله إلا من أحبه، ولا يحب الله إلا من اصطفاه الله واجتباه، وحال بينه وبين نـفـسـه وهـواه» (328)

يدعو الشاذلي تلاميذه إلى التوجه إلى الله بأسمائه الحسنى وبكلمات القرآن الكريم.

ولكن إذا كانت علاقتك مباشرة مع الله، هل تعتزل كل خلق الله؟ لا؛ لأن الصحبة الصالحة تعطيك الراحة، وتذكرك بما طلب الله منك.

«ويؤيد ذلك قوله «والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» (329)

المرء يصاحب من تلتقي روحه بروحه، ومن هو على شاكلته، وربما يجد في صاحبه مرآة له يرى فيها أفعاله الطيبة والذميمة، فيساعده هذا على تحسين نفسه. ومن الطبيعي أن تصاحب من هم على شاكلتك، يعملون نفس عملك، أو يتوافقون معك في نظرتهم إلى الدنيا وأحوالها. فهو أمر طبيعي عند البشر. هذا الطريق لا يدعو إلى العزلة عن الناس دومًا، ولكن العزلة أحيانًا لتصفية النفس وإجلائها، ثم اصطحاب العباد الصالحين على شاكلتك أنت.

هل هناك طريق سحري لسرعة الوصول؟ كلمات أو أوراد أو أحزاب؟

ذكر الله ودعاؤه دومًا جميل. ولكن ذكر الله والورد والأحزاب ليست سوى وسيلة للهدف الأسمى. لذا نجد أننا في هذا الكتاب أعطينا ثلاثة أمثال من الطريقة الشاذلية على أهمية كف هوى النفس أولًا، وعلى أهمية الفهم والتعقل للكلمات وليس فقط ترديدها. الطريق ليس مجرد ترديد كلمات في أوقات معينة كل يوم. الطريق عند الشاذلي هو طريقة حياة يصبح فيها الله نصب أعيننا دومًا. طريقة حياة تعتمد على حب الله، والجهاد الأكبر وهو جهاد النفس. فيقص لنا الشاذلي قصة شيخه عندما طلب منه التلميذ أن يعطيه أورادًا فوبخه، وأخبره أنه ليس بنبي، ثم أعطاه نصائح لحياته أهمها محاربة هوى النفس. أما الشاذلي نفسه فقد أخبرنا أن الورد الأهم هو كف هوى النفس ومحبة الله. فمن يحب، يطيع من يحب ولا يفارقه. وأخيرًا عندما لاح الشاذلي بخاطره يومًا، وفكّر، وتساءل عن اسم الله الأعظم، رد عليه ابن شيخه قائلًا: «يا أبا الحسن، ليس الشأن من يعلم الاسم الأعظم، وإنما الشأن من يكون هو عين الاسم. فقال الشيخ أصاب، وتفرس فيك ولدي» (330)

فلو فكرت في أسماء الله «الكريم» كن أنت كريمًا مع غيرك، ولو فكرت في اسمه «الرحيم» كن أنت رحميًا مع غيرك. أما أن تردد الاسم، وتظن أن هذا كفيل بأن يقربك، فهذا ليس كافيًا في هذا الطريق.

ليست كلمات تنقذ الإنسان، ولكنها كلمات تذكره. فلو قرأت الآية ألف مرة ولم تذكرك أو تعلمك، فما الفائدة؟

ملخص

«وإن أبا الحسن هو الذي يقول في تأكيد يؤيده التاريخ كله:

«اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا، فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلاً تصحبه لطائف رحمتك، وكل وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقدًا تصحبه أنوار محبتك« (331)

الشاذلي لا يريد سوى القرب من الله، فلو كان هذا القرب لن يأتي إلا بالفقد أو البلاء فلا بأس.

وعن الشاذلي يقول د. عبد الحليم محمود:

«يقول صاحب لطائف المنن عن أبي الحسن: «له السياحات الكثيرة، والمنازلات الجليلة» وهذه الكلمة الصادقة هي التي تصور لنا الجانب الأصلي في شخصية الشاذلي: لقد كان أبو الحسن عابدًا متبتلًا، ومن أجل عبادته ساح سياحات كثيرة: لقد ساح ليخلو إلى الله، وساح لتصفو نفسه، وساح ليتمكن من التركيز والتجمع فيلقي بنفسه كلية وبكيانه كله، في الرحاب الإلهي مستسلمًا، مسلمًا، عبدًا أسلم القيادات كلها: جسمًا ونفسًا، وعقلًا، وروحًا، وقلبًا إلى من بيده الأمر، أسلمها اختيارًا راضيًا، أسلمها إسلام المحب المغتبط الذي يتفانى دائمًا في إسلام الكيان كله حتى لا يرى ولا يسمع ولا يحس ولا يشم أو يذوق إلا من أسلم إليه كيانه. ولقد كان يسيح ليصل إلى ما يطلبه في حزبه الكبير قائلًا:

وها هو دعاء الشاذلي لله أن يستغرقه حب الله فلا يأبه بأي شيء حوله» إني أسألك أن تغيبني بقربك مني حتى لا أرى، ولا أحس بقرب شيء، ولا ببعده عني، إنك على كل شيء قدير» (332)

وعن شرح معنى الغيبة عن من سوى الله يقول الشيخ حسن عبد القادر «إن العبد متى غاب عن الخلق بشهود الحق سبحانه وتعالى فهو منصور على الجميع لأنه لا يشعر بهم ولا يحتاج إليهم ولا يرى لغير الله وجودًا ولا فعلًا ولا حركة ولا سكوتًا» (333)

هذا هو الإنسان الذي لاقت طريقته رواجًا شديدًا في كل أنحاء العالم، ربما لأنه مثلنا أو على الأقل بدأ الحياة مثلنا، وربما لتواضعه الشديد، وربما لتسامحه وصبره، وربما لسحره وبساطة كلماته. ولكنه يذكرنا دومًا أن طريق مباشر بيننا وبين ربنا، وهو طريق مجاهدة ومثابرة وصبر. ولنتذكر أربع كلمات لخص بهم كل الدنيا »لا حجاب إلا الوقت» (334) فطوبي لمن سيفتح الله له الباب في الوقت الذي يريد، وبالطريقة التي يريدها.

ومضة نور

«عمى البصيرة في ثلاثة أشياء: إرسال الجوارح في معاصي الله، والتصنع بطاعة الله، والطمع في خلق الله، فمن ادعى البـصـيـرة مع واحدة من هذه، فقلبه هدف لظنون النفس، ووساوس الشيطان» (335)

الشاذلي

«خير العلوم ما أصلحك. خير العمل ما صحبه الإخلاص. خير إخوانك من واساك، وخير منه من كفاك. خير من صاحبته ذو العلم والحلم. خير من شاورت ذو النهى والعقل، وأولو التجارب والحزم، خير الاجتهاد ما قارنه التوفيق، خير الناس من أخرج الحرص من قلبه، وخالف هواه في طاعة ربه» (336)

أبو الحسن الشاذلي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



ابن عطاء الله السكندري: قصة الفقيه الصوفي

«النعيم: وإن تنوعت مظاهره، إنما هو لشهوده واقترابه، والعذاب: وإن تنوعت مظاهره، إنما هو لوجود حجابه، فسبب العذاب وجود الحجاب، وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم» (337)

الرندي

ابن عطاء الله السكندري هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن الحسين بن عطاء الله الجذامي السكندري، ولد في الإسكندرية سنة 1260 أي في بداية عصر المماليك البحرية في عصر الظاهر بيبرس البندقداري، وتوفي في القاهرة حيث يوجد ضريحه فيها عام 1309 وهو لم يصل إلى الخمسين من عمره. ومع ذلك فقد ترك لنا هذا العالم الجليل باقة من أعظم الكتب الصوفية على الإطلاق. فالشيخ عبد الحليم محمود يقول عن الحكم العطائية إنها ربما أعظم كتاب يكتبه بشر. وفي الحقيقة لولا ابن عطاء الله، أو أحمد، وهذا هو اسمه الأول، ما كنا عرفنا إلا القليل عن أبي الحسن الشاذلي وتلميذه أبي العباس المرسي. فلم يترك أبو الحسن أي كتاب، ولم يترك أبو العباس المرسي أي كتاب، ولكن عندما تعرف ابن عطاء الله على أبي العباس المرسي بدأ يستمع منه عن شيخه الشاذلي، ويكتب عنه قصة أبي الحسن الشاذلي بالتفصيل. وكأن هناك تكليفًا لهذا الرجل الذي اتبع الطريق أن يكتب ما تركه الشاذلي ولم يكتبه. ابن عطاء الله في رأيي من أعظم المفكرين أيضًا، وككل علماء الصوفية القدامى يتكلم بصدق، وبتواضع، وذكاء، وفراسة مثله مثل رابعة العدوية وأبي حامد الغزالي والجيلاني وابن عربي والشاذلي. وحكاية ابن عطاء الله مهمة جدًا لأنه كان فقيهًا في الشريعة الإسلامية، وترك تلاميذ لهم إسهامات معروفة مثل تقي الدين السبكي. ورث أحمد ابن عطاء الله علوم الشريعة عن جده في الإسكندرية وتفقه في الدين، وكان ينكر الصوفية ويهاجمها حتى كان اللقاء مع أبي العباس المرسي تلميذ الشاذلي، هذا اللقاء المصيري الذي سيغير أفكاره.

أحمد أو ابن عطاء الله إنسان يحكي لنا بصدق مثل أبي الحسن الشاذلي عن نقاط ضعفه، وعن حكمه السريع على الفكر الصوفي دون التحقق من آرائهم. أحمد الشاب كان يعاني من وسواس في الطهارة، ومن صداع نصفي. وسواس الطهارة يأتي ربما لكل منا أحيانًا بأن نشعر أن الوضوء يحتاج إلى إعادة، أو أننا نسينا أحد أركان الوضوء. والوسواس من الشيطان لأنه يمكن أن يسيطر علينا فننسى الغرض الأساسي من الطهارة، ونركز على الشكل فقطـ فتصبح الصلاة عبئًا لأننا نبقى طوال الوقت نفكر في صحة الوضوء. أما الصداع النصفي فهو يأتي في الغالب من طريقة الحياة والضغط النفسي. فلو

شعر الإنسان بالاطمئنان وانتظم في النوم، يقل الصداع إلى حد كبير. أحمد الإنسان ساعدته الصوفية على الشفاء من الوسواس، ومن الصداع بأن اطمأن، وفهم المعاني العميقة لكل مراسم العبادة. ساعده أبو العباس المرسي كما سنرى. وكان لقاؤه الأول بأبي العباس لقاءً يستحق الحكي.

ولا أجد الكلمات لقص هذا اللقاء، فسأترك ابن عطاء الله السكندري يقص علينا قصته مع الطريق الصوفي:

حكاية ابن عطاء الله مع المرسي أبي العباس

يحكي ابن عطاء الله «وكنت أنا لأمره من المنكرين، وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه، ولا لشيء صح نقله عنه، حتى جرت بيني وبين بعض أصحابه مجاولة، وذلك قبل صحبتي إياه، وقلت لذلك الرجل: ليس إلا أهل العلم الظاهر، وهؤلاء القوم يدعون أمورًا عظمى، وظاهر الشريعة يأباها» (338)

لنفهم كلمات أحمد بن عطاء الله، ونتعرف على الرجل أكثر، يقول إنه قد أنكر على الصوفيين فكرة المعنى الباطن، أي تفسيرهم للغة واستعمالهم لها. مرة أخرى تلعب اللغة دورًا كبيرًا في الفكر الصوفي. بل يعترف أحمد هنا أنه لم يكن يعرف عنهم الكثير سوى ما يسمعه عن عادات غريبة وادعاءات تبدو بالنسبة إليه خارجة عن الدين، كون أحمد فقيهًا وعالمًا في الشريعة فهذه حقيقة مهمة في تطور الفكر الصوفي على يديه، لذا كان لا بد أن نكتب عنه أكثر من مقال، في بداية الأمر يتشاجر أحمد مع أحد أصحاب أبي العباس المرسي في الإسكندرية، وأبو العباس المرسي هو تلميذ الشاذلي وخليفته.

في رأيي الوسواس والصداع قد يكونان علامة على علاقته بالله المبنية في ذلك الوقت على الخوف والقلق، وليس على الحب والتوكل والأمان حتى مع كل علمه وقدره.

بعد أن تشاجر أحمد مع صاحب أبي العباس المرسي، عاد إلى بيته ولكنه لم يعد كما كان، عاد مهمومًا، فأحمد عالم وفقيه. والعالم لا يكره دون أن يعرف. فعندما عاد أحمد إلى بيته بعد شجاره، شعر بالهم وربما بعض الحيرة وحب الاستطلاع، فوجد أنه يكره الرجل دون أن يعرفه أو يستمع إليه، وهذا ليس من صفات العلماء. فقرر أن يقابل أبا العباس بنفسه، ويستمع إليه، ويحكم هو، ولا يترك التحامل يأكل قلبه. يقول لنا أحمد بن عطاء الله:

«وكان سبب اجتماعي به أن قلت في نفسي، بعد أن جرت المخاصمة بيني وبين ذلك الرجل: دعني أذهب أرى هذا الرجل فصاحب الحق له أمارات لا يخفى شأنه، فأتيت إلى مجلسه، فوجدته يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارع

بها، فقال: الأول: إسلام، والثاني: إيمان، والثالث: إحسان، وإن شئت قلت: الأول: عبادة، والثاني: عبودية، والثالث: عبودة. وإن شئت قلت: الأول: شريعة، والثاني: حقيقة، والثالث: تحقق، أو نحو هذا، فما زال يقول: «وإن شئت قلت، وإن شئت قلت» إلى أن بهر عقلي، وعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر إلهي، ومدد رباني، فأذهب الله ما كان عندي، ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل، فلم أجد فيّ شيئًا يقبل الاجتماع بالأهل على عادتي، ووجدت معنى غريبًا لا أدري ما هو، فانفردت في مكان، أنظر إلى السماء، وإلى كواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى، فأتيت إليه، فاستؤذن لي، فلما دخلت عليه قام قائمًا، وتلقاني ببشاشة، وإقبال حتى دهشت خجلًا، واستصغرت نفسي أن أكون أهلًا لذلك، فكان أول ما قلتُ له: يا سيدي، أنا والله أحبك. فقال: أحبك الله كما أحببتني» (339)

في لقاء أبي العباس المرسي وابن عطاء الله دلالات ودرس لنا جميعًا في التواضع والتسامح. فأبو العباس المرسي في هذا الوقت كان وريث الشاذلي، أي قطب زمانه، وكان في حوالي الستين من عمره، أما ابن عطاء فكان في أوائل العشرينات. فيدخل الشاب على الشيخ الشهير الولي الذي كان ينكر عليه الشاب، وهو يعرف ذلك. وماذا يفعل الولي؟ يقوم للشاب، ويتلقاه بحماس، و«بشاشة» (340) وكلمة بشاشة كلمة لها تداعيات عدة. فهو لم يلقه كمن جاء يطلب منه شيئًا، وسوف يعطيه له على مضض أو بتعال. وهو لم ير نفسه أفضل أو أعظم من أن يقوم هو للشاب، ويقف ويفرح بوجوده. هذا اللقاء الأول أثر في ابن عطاء الله، وكان أول درس له في تواضع العالم وصفاء سريرته.

ويقول ابن عطاء الله «ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان، فقال: أحوال العبد أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية، فإن كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر، وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر، وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود منته عليك، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار. فقمت من عنده، وكأنما كانت الهموم ثوبًا نزعته، ثم سألني بعد ذلك بمدة ليست ببعيدة. كيف حالك؟ فقلت له أفتش عن الهم فما أجده فقال: ... الزم. فوالله لئن لزمت لتكونن مفتيًا في المذهبين في علوم الظاهر وحقائق الباطن» (341)

ابن عطاء الله الذي كان يعاني رغم إيمانه، أصبح سعيدا في هذه الدنيا عندما فهم أن أحوال العبد تتغير ففي كل حال لا بد من مراعاة حق الله علينا.

وقال أبو العباس محدثًا أحمد بن عطاء الله:

«شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه» (342)

أي أن الصوفي لا بد أن يكون ملمًا بعلوم الشريعة، ثم يتجه بعدها لعلم الحقيقة، وهو الفكر الصوفي، أما الفقيه فيتوقف عند علم الشريعة. وهذا ما قاله أيضًا أبو حامد الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال». ما طمح أبو العباس فيه هو أن يصبح هذا الفقيه مفتيًا ومتكلمًا في الشريعة والصوفية، وتحققت له أمنيته فأصبح أحمد ابن عطاء الله فقيهًا يفتي في الشريعة والصوفية. وعندما جاء ابن عطاء وقد قرر أن يترك العمل كفقيه ويتفرغ للصوفية نصحه أبو العباس بألا يفعل هذا لأن الله أقامه كفقيه أولًا، فليكمل هذا التكليف من الله، وليزد عليه الصوفية. وقد كان هذا هو منهج أبي العباس والشاذلي من قبله، ينصحان تلاميذهما بألا يتركوا عملهم أبدًا، بل يزيدون عليه الصوفية.

ويكمل ابن عطاء الله عن لسان الشيخ جمال الدين بن أبي العباس:

«وأخبرني سيدي جمال الدين ولد الشيخ قال: قلت للشيخ: هم يريدون أن يصدروا ابن عطاء الله في الفقه، فقال الشيخ (أي أبو العباس): هم يصدرونه في الفقه، وأنا أصدره في التصوف. ودخلت أنا عليه فقال لي: إذا عوفي الفقيه ناصر الدين نجلسك في موضع جدك، ويجلس الفقيه من ناحية وأنت من ناحية، وتتكلم إن شاء الله في العَلَمين، فكان ما أخبر به» (343)

إذن أصبح ابن عطاء الله فقيهًا صوفيًا مثل الغزالي والعز ابن عبد السلام من قبله، والسيوطي من بعده، وآخرين.

ويكمل ابن عطاء الله الكلام عن شيخه فيقول »وأخبرني بعض أصحابه قال: قال الشيخ يومًا: إذا جاء ابن عطاء الله فقيه الإسكندرية، فأعلموني به، فلما أتيت أعلمنا الشيخ بك، فقال: تقدم. فقدمك بين يديه، ثم قال: جاء جبريل إلى رسول الله ومعه ملك الجبال حين كذبته قريش، فقال له جبريل: هذا ملك الجبال أمره الله أن يطيع أمرك في قريش. فسلم عليه ملك الجبال وقال: يا محمد، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين فعلتُ، فقال رسول الله: لا، ولكن أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يوحد الله ولا يشرك به شيئًا، فصبر عليهم رسول الله رجاء من يخرج من أصلابهم، كذلك صبرنا على جد هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه» (344)

وهذه القصة تلخص مرة أخرى أسلوب الصوفيين في الحياة، فهم يصبرون على الأذى، وعلى تحمل الآخرين، وعند الصبر يكافئهم الله، ونجد أن أبا العباس وجد فيّ أحمد بن عطاء الله رزقًا ومكافأة، وأوصى أن يخلفه في الطريق، وحدث هذا فعلًا.

ويتكلم ابن عطاء الله عن الوسواس بكل صراحة فيقول:

«وكنتُ كثيرًا ما يطرأ عليّ الوسواس في الطهارة، فبلغ ذلك الشيخ، فقال: بلغني أن بك وسواسًا في الوضوء. قلت: نعم. فقال: هذه الطائفة تلعب بالشيطان، لا الشيطان يلعب بها. ثم مكثت أيامًا، ودخلت عليه، فقال: ما حال هذا الوسواس؟ فقلتُ: على حاله، فقال: إن كنت لا تترك هذه الوسوسة لا تعد تأتينا. فشق ذلك علي، وقطع الله الوسواس عني» (345)

تأمل كلمات أبي العباس «هذه الطائفة تلعب بالشيطان، لا الشيطان يلعب بها» هذه الثقة في قدرة النفس على مواجهة الشيطان مهمة جدًا. إذن الشعور بالطمأنينة لأن الله قريب، وحبه غالب من أهم المعتقدات عند الصوفية عامة. بعدها يخبرنا ابن عطاء الله أنه شفي من مرضين مرض الوسواس ومرض الصداع النصفي.

الأفكار الأساسية التي تكلم عنها ابن عطاء الله السكندري في كتبه:

الإسلام والإيمان والتصوف والحب

مرة أخرى يفرق ابن عطاء الله مثل غيره من الصوفيين بين الظاهر والباطن. أن تؤمن لا بد أن تتذوق، وتشعر وتصفي قلبك. ولكن المعنى الظاهر للإيمان ليس كافيًا بالنسبة له، فلا نكتفي بالصلاة والصوم والابتعاد عن المعاصي، بل نصفي القلب من كل ما يعكر صفو القرب من الله من حقد، وحسد، وغيرة، وتكبر.

يقول ابن عطاء الله إن دين المرء رأس ماله «يا عبد الله، دينك هو رأس مالك، فإن ضيعته ضيعت رأس مالك، فاشغل لسانك بذكره، وقلبك بمحبته، وجوارحك بخدمته، واحرث وجودك بالمحارث حتى يجيء البذر فينبت» (346)

ولا بد أن توقن من وجود الله بقلبك فتصبح كأنك تراه ببصرك، وهذا هو اليقين الراسخ.

يرى ابن عطاء الله أن الله خلق الإنسان عزيزًا عليه، يحبه قبل أن يراه كما قال ابن عربي من قبل، لذا هو يعتني به ويرعاه، ولو نظر الإنسان بداخله لرأى الكنز المختبئ في الباطن. أما لو لم يبحث داخل نفسه عن الجمال، فلن يعرف شيئًا. وسوف نتطرق لهذا الموضوع بالتفصيل في حكم ابن عطاء الله.

يقول «جعلك الله في العالم من ملكه وملكوته، ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته، وأنك جوهرة انطوى عليها صدف مكنوناته» (347)

يعرف ابن عطاء الله الصوفى في كتابه لطائف المنن بقوله: «هو الذي يكون دائم التصفية، فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه.. قال الله تعالى:

{يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: 8]. وهذه القوامية لله على النفس، هي التحقيق بالتصوف» (348)

إذن التصوف هو كف النفس عن الهوى بالإرادة واللجوء إلى الله طالبًا القوة.

ويقول في موضع آخر: «والصوفى يضع الأشياء مواضعها، ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم، يقيم الخلق مقامهم، ويقيم أمر الحق مقامه. ويستر ما ينبغي أن يستر، ويظهر ما ينبغي أن يظهر. ويأتي بالأمور في مواضعها، بحضور عقل، وصحة توحيد، وكمال معرفة، ورعاية صدق وإخلاص» (349)

فهناك الصوفي الذي تراه، وتعرفه، والذي لا تعرفه. لا يفرق معهم لو ساد الفساد في أمة، فهم دومًا أصفياء القلوب، ولو أذنبوا تابوا قبل أن تتلوث قلوبهم. في السراء هم يشكرون، وفي الضراء يشكرون ثابتون مع تغير الأحوال والنفوس من حولهم.

«وقال بعض العارفين: إن لله عبادًا كلما اشتدت ظلمة الوقت قويت أنوار قلوبهم، فهم كالكواكب، كلما قويت ظلمة الليل قوى إشراقها، وأين نور الكواكب من أنوار قلوب أوليائه. أنوار الكواكب تتكدر، وأنوار قلوب أوليائه لا انكدار لها، وأنوار الكواكب تهدى في الدنيا إلى الدنيا، وأنوار قلوب أوليائه تهدى إلى الله تعالى» (350)

الثبات والشكر واليقين بأن الله يرى ويعرف يجعل الولي مطمئنًا في الظلمات والنور في وقت المحن، ووقت الفتن، وهذا يعطيه السعادة في الدنيا بالرضا وفي الآخرة بلقاء ربه.

الحب عند المدرسة الشاذلية مدخل ومفتاح إلى معرفة الله والتعامل مع عباده. يقول ابن عطاء الله: «وقال سبحانه: {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا}[مريم: 96]. فحلاهم بحلية الهيبة ليحبهم العباد، فيجرهم حبهم إلى حب الله، والحب في الله يوجب المحبة من الله، لقوله ﷺ حاكيًا عن الله: «وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ» (351)

والود عند ابن عربي هو ثبات المحبة. وقد وصف الله نفسه بالودود لأن الود ثابت لا يتغير.

يقول ابن عطاء الله عن المحبة «اعلم أن المحبة هي من أجلِّ مقامات اليقين، حتى اختلف أهل الله أيهما أتم: مقام المحبة أو مقام الرضا؟ وإن كان الذي نقول به: إن مقام الرضا أتم؛ لأن المحبة ربما حكم سلطانها على المحب، وقوى عليه وجود الشغف، فأداه ذلك إلى طلب شهود ما لا يليق بمقامه، ألا ترى أن المحب يريد دوام شهود الحبيب، والراضي عن الله راض عنه أشهده أم حجبه؟ والمحب يحب دوام الوصلة، والراضي عن الله راض عنه وصله أو قطعه إذ ليس هو مع ما يريد لنفسه، بل إنما هو مع ما يريد الله له، المحب طالب لدوام مراسلة الحبيب والراضي لا طلب له» (352)

إذن بالنسبة لابن عطاء الله الرضا أعلى من المحبة. لأنك مع الرضا لا تطلب من الله رؤيته، وأنت تعلم أنها غير ممكنة في الدنيا، فالمحبة تجعل المحبوب يطلب رؤية محبوبه طوال الوقت، ويلح في الطلب، ولكن الرضا يجعل الإنسان يرضى سواء رأى محبوبه أو لا. هذا المعنى مختلف عند ابن عربي الذي يرى أن الحب يتطلب أن تطيع محبوبك وترضى عنه في كل الأوقات، ولا تطلب منه سوى ما يريد هو.

ويعطينا ابن عطاء الله هذه الأبيات ليثبت نظريته، «ولنا في هذا المعنى:

وكنت قديمًا أطلب الوصل منهم فلما أتاني العلم وارتفع الجهـل، تيقنت أن العبد لا طلب له فإن قربوا فضل وإن بعدوا عدل» (353)

«وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: المحبة آخذه من الله لقلب عبده عن كل شيء سواه، فترى النفس ماثلة لطاعته، والعقل متحصنًا بمعرفته، والروح مأخوذة في حضرته، والسر مغمورًا في مشاهدته، والعبد يستزيد فيزاد، ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته» (354)

كيف تحاسب نفسك وتعرف قربك؟ ليس بكثرة الصلاة والصوم فقط، بل بثقتك بالله، الثقة بالله هي الكلمة السحرية، ومفتاح السعادة الأبدية دنيا وآخرة. لا تشغل بالك بتدبير ما سيدبره هو. فلو وجدت ثقتك به عن يقين، فقد اجتباك الله، وحسن حظك في الدنيا والآخرة.

ويقول أيضًا ابن عطاء الله: «لا تتفقد الوقت بظهور الواردات، ولا بكثرة الطاعات، ولكن انظر إلى ثقتك بالله، وإجلالك لأوامر الله، وترك الاختيار مع الله، فإن وجدت ذلك عندك ولا يوجد واحد منها إلا وجد بقيتها فاعلم أن لله بك عناية أيدها، وودائع أخفاها، واشكره على ما أسدى، واحمده على ما أهدى» (355)

يعطي ابن عطاء الله نصائح للمؤمن، ويذكره أن لا ينتظر من الزمن العطايا وألا يكون عبدا للوقت وللدنيا.

يقول ابن عطاء الله: «العاقل بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى، قد أشرق نوره، وظهرت تباشيره فصرف عن هذه الدار موليًا، وأعرض عنها مغضبًا أعرض عنها موليا فلم يتخذها وطنًا» (356)

فكرة الوطن والدنيا مهمة عند الصوفية الدنيا ليست وطن ولا دار استقرار. ففي يوم القيامة كل من عليها فان، لا ينفع حينها التعلق بالدنيا ولا المال ولا البنون، والعاقل يفرح بالباقيات وليس بما يختفي ويفنى.

«وافهم ها هنا قوله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَا وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْٓ سَلِيِ . وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ . وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ . وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ . فَكُبْكِبُو فِيهَا هُمْ وَ ٱلْغَاوُ نَ . وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ . قَالُو وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ . تَ للَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰ مُّبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ} [الشعراء:88، 98]، والقلب السليم هو الذي لا تعلق له بشيء دون الله.

وقوله: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [الأنعام: 94]، يفهم منه أنه لا يصلح مجيئك إلى الله، ولا الوصول إليه إلا إذا كنت فردًا مما سواه. وقوله تعالى: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيِ ا فَـَٔاوَىٰ} [الضحى:6]، يفهم منه أيضًا أنه لا يأويك إليه إلا إذا صح يتمك مما سواه» (357)

فإذا كنت له بكل قلبك، فلا تطلب سوى منه، ولا تعط همتك إلا في عمل مخلص له، وعلم ينتفع به، الجأ إليه بنفسك وحدك.

يقول ابن عطاء الله «وقبيح بالمؤمن أن ينزل حاجته بغير مولاه مع علمه بوحدانيته وانفراده بربوبيته، وهو يسمع قول الله:{لَّهُ مَقَالِيدُ لسَّمَـٰوَٰتِ وَ لْأَرْضِ وَ لَّذِينَ كَفَرُو بِـَٔايَـٰتِ للَّهِ أُ لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ} [الزمر:63]، وليذكر قوله تعالى: {يَـٰٓأَيُّهَا لَّذِينَ ءَامَنُوٓ أَوْفُو بِ ٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى لصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ للَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة:1]» (358)

ومن العقود التي عاقدته عليها ألا ترفع حوائجك إلا إليه، ولا تتوكل إلا عليه.

لا بد من التوكل على الله وعدم الاعتماد على الخلق. ويفسر لنا ابن عطاء الله معنى التقوى التي تصفى بها القلوب.

«واعلم أن مطلوب الله منك أن تكون مؤمنًا به ومؤمنًا له، وإيمانك له فرع عن إيمانك به، لأن إيمانك به أن تؤمن بألوهيته ووحدانيته، وبما يجب له

سبحانه ويستحيل عليه، وإيمانك له قبول ما يرد منه، وطاعته، والانقياد لحكمه» (359)

فالإيمان لله بالتوحيد والاعتقاد، والإيمان له بالثقة في حكمه وتدبيره.

التقوى والقلب

ابن عربي قبل ابن عطاء الله شرح معنى التقوى بأنها تتطلب من الله الوقاية من المعاصي، وتتخذ الله واقيًا لك من الأخطاء. إذن لتفعل الصواب فأنت تحتاج إلى الهمة من الله. ولنا في قصة سيدنا يوسف أسوة حسنة عندما طلب من الله أن يذهب إلى السجن ليبتعد عن الهوى والمعصية. إذن يوسف عليه السلام لجأ إلى الله عندما قال {قَالَ رَبِّ لسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ لْجَـٰهِلِينَ} [يوسف: 33]. أما ابن عطاء الله فيقول عن التقوى إنها مفتاح القلب السليم.

ألم يعدنا الله بقوله: «{فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُو وَأَشْهِدُو ذَوَىْ عَدْ مِّنكُمْ وَأَقِيمُو لشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِ للَّهِ وَ لْيَوْمِ لْـَٔاخِرِ وَمَن يَتَّقِ للَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَ ا}[الطلاق: 2].. ولا يصح التوكل إلا لمتق. ولا تتم التقوى إلا لمتوكل. فدققوا النظر في البواعث والأصول والثمار، والله يحب الصابرين» (360)

يؤكد ابن عطاء الله أن شرط التقوى التوكل على الله، أن تخلص تقواك إلى الله وترجع إليه، فكيف يكون ذلك؟ يشرح ابن عطاء الله ما يقصد بالتقوى فيقول:

«التقوى هي ترك معصية الله حيث لا يراك أحد» (361)

يعطينا ابن عطاء الله مثالًا صادمًا إلى حد ما لو لم نع أهميته، ولو تفكرنا فيه لتذكرنا ذنوبًا فعلناها في صلاة الجماعة من حكم على الآخرين، أو غيبة، أو حتى غضب، وتزاحم، أو كلمة خبيثة، أو غير طيبة. يقول عن الصالحين أن بعضهم فضل الصلاة وحده حتى لا يرتكب المعاصي:

«كان بعضهم لا يخرج لصلاة الجماعة لما يعرض له في طريقه، منهم مالك بن أنس، لأن الجماعة ربح، والربح بعد رأس المال، أتحسب السباع في البرية؟ بل السباع في الأسواق والطريق، وهي التي تنهش القلوب نهشًا، مثال من يكثر الذنوب والاستغفار، كمن يكثر شرب السم، ويكثر الترياق، فيقال له: قد لا تصل إلى الترياق مرة، فيهجم عليك الموت قبل الوصول إليه» (362)

يقول ابن عطاء الله «من مرض قلبه منع أن يلبس لباس التقوى، فلو صح قلبك من مرض الهوى والشهوة، تحملت أثقال التقوى، فمن لم يجد حلاوة

الطاعة، دل على مرض قلبه من الشهوة، وقد سمى الله الشهوة مرضًا بقوله: {يَـٰنِسَآءَ لنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَ مِّنَ لنِّسَآءِ إِنِ تَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِ لْقَوْلِ فَيَطْمَعَ لَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَ وَقُلْنَ قَوْ ا مَّعْرُو ا} [الأحزاب: 32]، فعليك بحسن العمل لا بكثرته» (363)

إذن لو عصيت فتب، ولكن لا تكثر المعصية والتوبة، فربما مرة تعصى، ولا تجد الوقت للتوبة، ولو أطعت الله وتكبرت وفرحت بالطاعة، فقد أذنبت مرة أخرى، أما لو أذنبت، وانكسرت نفسك، وندمت ربما كنت أفضل مِن مَن يفرح ويزهو بطاعته فيفتن بنفسه، وأهم من كثرة الطاعات الإخلاص فيها.

يفرق ابن عطاء الله بين أهل الغفلة، وأهل الزهد، وأهل المعرفة فيقول: «أهل الغفلة إذا أصبحوا تفقدوا أموالهم؛ وأهل الزهد والعبادة تفقدوا أعمالهم؛ وأهل المعرفة يتفقدون قلوبهم مع الله تعالى، ما من نفس يبديه الله تعالى فيك من طاعة أو حرص أو فاقة إلا وهو يريد أن يختبرك بذلك» (364)

فأهل المعرفة يكشفون عن قلبهم كل ساعة، وكل دقيقة، وكل ثانية ليتأكدوا من خلوه مما يغضب الله، ويعرفون أن كل فعل وكل قضاء وكل مصيبة إنما هي بأمره، ولها هدف يعرفه هو.

التدبير المحمود

يقول ابن عطاء الله: «والتدبير المحمود هو ما كان تدبيرًا لما يقربك إلى الله سبحانه وتعالى، كالتدبير في براءة الذمة من حقوق المخلوقين، ولذلك قال رسول الله : «فكرة ساعة خير من عبادة سبعين سنة» (365)

فكونك تمنع نفسك عن الهوى فقد اخترت لنفسك، ودبرت لها خيرًا، وكونك تؤدي عملك بصدق، وتصدق القول وتخلص لعائلتك وأولادك وزوجك فهذا تدبير محمود، وكونك تعطي الناس حقوقها بضمير فهذا تدبير محمود.

«فقد تبين من هذا أن ليس كل طالب للدنيا مذمومًا، بل المذموم من طلبها لنفسه لا لربه، ولدنياه لا لآخرته، فالناس إذن على قسمين: عبد طلب الدنيا للدنيا، وعبد طلب الدنيا للآخرة» (366)

ويقول:

«وخلف عمرو بن العاص ثلاث مائة ألف دينار، وبلغ مال الزبير بن العوام خمسين ألف دينار، وترك ألف فرس وألف مملوك، وغنى عبد الرحمن بن عوف أشهر من أن يذكر، وكانت الدنيا في أكفهم لا في قلوبهم، صبروا عنها حين فقدت، وشكروا الله حين وجدت» (367)

أن تكون غنيًا ليس ذنبًا مادامت الدنيا في كفك، وليس في قلبك، ومالك حلال، والصدق والإخلاص من صفاتك.

هذه الجملة تلخص معنى التوكل على الله.

«ويحك! أنت محمول فلا تكن حاملًا، أردنا راحتك فلا تكن متعبًا لنفسك» (368)

أي لِمَ تحمل هموم الدنيا إذا كان يحملها عنك القوي الناصر البصير؟

هل ثرائك ذنب؟ لا، هل عملك ونجاحك ذنب؟ لا، بل عبادة لأنك ستشكر، وتعطي المحتاج، وتكون من عباد الله الصالحين. ولنا في هذه القصة موعظة. نفهم منها أن الولي لا يرتدي دومًا زي الولي. بل قد يرتدي زيًا يحجب عنك معرفته. فربما نحن نعيش حول الصالحين الزاهدين في الدنيا ولا ندري. ما سيظهر لنا الولي هو أفعاله، ورد فعله في المواقف المختلفة، وثباته في السراء والضراء.

يحكي لنا ابن عطاء الله قصة توضح أن الولي ليس بالضرورة فقير فيقول: «وقال بعض المشايخ كان بالمغرب رجل من الزاهدين في الدنيا، ومن أهل الجد والاجتهاد، وكان عيشه مما يصيده من البحر، وكان الذي يصيده يتصدق ببعضه، ويتقوت ببعضه، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب، فقال له هذا الشيخ: إذا دخلت إلى بلد كذا، فاذهب إلى أخي فلان، فأقرئه مني السلام، وتطلب الدعاء منه لي، فإنه ولي من أولياء الله تعالى.

قال: فسافرت حتى قدمت تلك البلدة، فسألت عن ذلك الرجل، فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك، فتعجبت من ذلك وطلبته، فقيل لي: هو عند السلطان»

«فازداد تعجبي، فبعد ساعة وإذا هو قد أتى في أفخر ملبس ومركب، وكأنما هو ملك في موكبه، قال: فازداد تعجبي أكثر من الأول، قال: فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به، ثم قلت: لا يمكنني مخالفة الشيخ، فاستأذنت فأذن لي، فلما دخلت رأيت ما هالني من العبيد والخدم والشارة الحسنة، فقلت له: أخوك فلان يسلم عليك. قال: جئت من عنده؟ قلت: نعم. قال: إذا رجعت إليه فقل له: إلى كم اشتغالك بالدنيا؟ وإلى كم إقبالك عليها؟ وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها؟ فقلت: هذا والله أعجب من الأول!

فلما رجعت إلى الشيخ قال: اجتمعت بأخي فلان؟ قلت: نعم. قال: فما الذي قال لك؟ قلت: لا شيء. قال: لا بد أن تقول لي. فأعدت عليه ما قال، فبكى

طويلًا وقال: صدق أخي فلان! هو غسل الله قلبه من الدنيا، وجعلها في يده وعلى ظاهره، وأنا أخذها من يدي وعندي إليها بقايا التطلع» (369)

المظاهر عكس الحقائق، والله يحاسب على القلب، وليس المظهر فقط.

فتح الله، والأنس به، وصحبته

يقول ابن عطاء الله: «لو فتح لك باب الكمال لما رجعت إلى الرذائل، أرأيت من فتح له باب القصر أيرجع إلى المزابل؟! لو فتح لك باب الأنس بينك وبينه ما طلبت من تأنس به. لو اختارك لربوبيته ما قطعك عنه» (370)

«ولا تكون معصية إلا والذل معها، أفتعصيه ويعزك؟! كلا، فقد ربط العز مع الطاعة، والذل مع المعصية، فصار في طاعته نورٌ وعزٌ وكشف حجاب، وضدها معصيةٌ وظلمةٌ وذلٌّ وحجابٌ بينك وبينه، ولكن ما منعك من الشهود إلا عدم وقوفك مع الحدود، واشتغالك بهذا الوجود» (371)

إذا أردت العزة فاترك المعاصي. وتذكر أن الله عندما يقيمك في مقام عالٍ فقد أكرمك، فلا تعد إلى مقام قبيح بعد أن جلست في مقام عالي.

وعن كيفية صحبة الله يقول ابن عطاء الله: «فالعجب كل العجب من عبد يقبل على نفسه، ولا يأتيه الشر إلا منها، ويترك صحبة الله، ولا يأتيه الخير إلا منه» (372)

أن تتبع أوامر الله وتطيعه وتحبه فهذا هو حسن الصحبة.

الأنس برسول الله في الصلاة:

«في الصلاة تكليم لرسول الله ، إذا دخلت في الصلاة فإنك تناجي الله، وتكلم رسول الله ، لأنك تقول: السلام عليك أيها النبي، ولا يقال: «أيها الرجل» عند العرب إلا لمن يكون حاضرًا» (373)

يحلل ابن عطاء الله استعمال المنادى «أيها»، ويخبرنا أن استعماله دومًا لمن هو أمامنا، فعندما نقولها في الصلاة فنحن نخاطب النبي مباشرة، وكأنه يستمع إلينا ويرانا.

المعصية، والتوبة، والسخرية من خلق الله

«أيها العبد، اطلب من الله التوبة في كل وقت؛ فإن أردت التوبة فينبغي لك أن لا تخلو من التفكر طول عمرك، فتفكر فيما صنعت في نهارك، فإن وجدت طاعة فاشكر الله تعالى عليها، وإن وجدت معصية فوبخ نفسك على ذلك، واستغفر الله وتب إليه» (374)

وعندما تطلب التوبة تذكر كيف تتعامل مع العاصي. هل تسب وتفضح؟ لا. يقول ابن عطاء الله «وإذا عصى ولدك فأدبه بالشرع ولا تقطعه، بل قابله بالعبوسية ليكف عن المعصية، وأكثر ما يدخل على المؤمن الدخل إذا كان عاصيًا فإما أن يفضحوه، وإما أن يستهزءوا به، فإذا فعلوا ذلك فقد أخطأوا الطريق. إذا عصى المؤمن فقد وقع في وحلة عظيمة، وطريقه أن تفعل معه كما فعلت مع ولدك إذا عصى تعرض عنه في الظاهر، وتكون راحمًا له في الباطن، وتطلب له الدعاء بالغيب» (375)

وما أجمل كلمات ابن عطاء الله كأنه يصف زماننا، هو زمان أصبحت فيه السخرية من الناس وفضحهم يحدث كل يوم وكل دقيقة. كأن ابن عطاء الله يعرفنا وتنبأ بأخطائنا. فتذكر يا إنسان ألا تحقر أي شيء خلقه الله حتى ولو كان من تحقر ارتكب معصية، فليس من واجبك أو شأنك أن تحقره، كما سترك الله يوم عصيت، وكلنا عصينا، فاستر خلقه، وكما أمرك الله بالرحمة ارحم كل خلقه، فلا تسخر من العاصي ولا تستهزئ به، ولكن عامله كأنه بضعة منك، وارحمه حتى ولو أعرضت عنه.

«حقيقة الرجل ليس الرجل من صاح بين الناس في المجلس، إنما الرجل من صاح على نفسه، وردها إلى الله تعالى» (376)

«كما أمرت أن تعرض عن المعصية، أمرت أن تُعرض عمّن عصى، وتدعو له في الغيبة، والناس اليوم على العكس، وما عسى أن ينفعك صومك وصلاتك، وأنت تقع في عرض أخيك المسلم» (377)

وعن الاشتغال بعيوب الناس عن عيوبنا، يقول ابن عطاء الله: «كفى بك جهلًا نظرك إلى صغر إساءة غيرك، وتعاميك عن كبير إساءتك. لا تنتقد على الناس بظاهر الشرع، ولا تنكر عليهم، فلو خوطب الناس اليوم بما كانت عليه الصحابة والسلف الصالح لم يستطيعوا؛ لأن أولئك حجج الله على خلقه» (378)

أن تتأمل في مخلوقاته وتحترم كل ما خلق ولا تحقر من شأن أحد أو شيء فهذا من الصحبة، لأن ذنب إبليس أنه حقر آدم، وظن أنه أقل منه.

«فأول من هلك بذلك إبليس، فإياك وهذا ولو كان أعرج أحدب، فلا تحقره لحرمة لا إله إلا الله في قلبه، وحسن ظنك بكل أحد تفلح» (379)

إذن تحقير البشر بعضهم لبعض من رذائل إبليس التي عوقب عليها باللعنة من الله، فقد قال {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَ خَيْ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّا وَخَلَقْتَهُ مِن طِي } [الأعراف: 12]. فلا تحقر أي من عباد الله مهما كان.

المعصية ترخص صاحبها

من يظلم نفسه بالمعصية وبخيانة عهده مع الله أو مع الخلق فقد رخص ثمنه، وهانت عليه نفسه فهان على الناس وأصبح لا يساوي شيئًا. مرة أخرى يذكرنا ابن عطاء الله بالفرق بين من يأكل في القصر، ومن يأكل من المزابل.

«المتنجس القدم لا يصلح للمحاضرة، فكيف بمن تنجس فمه؟! من خان هان، قيمة اليد خمسمئة دينار، فإذا خانت قطعت في ربع دينار، ومن تجاسر على صغيرة وقع في كبيرة»

معنى كلمات ابن عطاء الله الآتى، لو دخلت المسجد لتخطب في الناس، وقدمك متسخة تذهب أولًا لتتطهر وتتوضأ فماذا عن من يدخل المسجد وفمه متسخ بالغيبة والسخرية وفضح الناس؟ ثم يوضح مثالًا باليد. اليد غالية على صاحبها لا تقدر بثمن، ولكن عندما يسرق الشخص، ويقرر القاضي قطع يده، فكم يدفع القاضي لقطع يد السارق؟ إنه ثمن بخس. إذن أصبحت هذه اليد الغالية لا شيء. فلا ترتكب المعاصي، فتهُن على نفسك وعلى غيرك. مرة أخرى تلخص كلمته حياتنا «من خان هان» هان على نفسه وهان على غيره. وهان نفسه لأنه جعلها رخيصة. ابن عطاء الله السكندري لخص الدنيا في ثلاث كلمات. تحت عنوان الإهانة جزاء الخيانة في كتابه تاج العروس.

كيف يتعامل المؤمن مع الظلم؟

يقول ابن عطاء الله في الاستعانة بالله على الظالم: «إذا ظلمك القوي فارجع إلى القوي» (380)

لو طغى عليك من كنت تظن أنه أقوى منك فاستعن بمن هو أقوى منك ومنه، استعن بالله. وتذكر أن هذا الإنسان لا يستطيع لك شيئا إلا بإذن الله. ولك أن تغفر، أو تدعو عليه، أو تمنع الظلم عنك لو استطعت، ولكن بلا ارتكاب سيئة.

«مثال من يشهد الإضرار من المخلوقين كمن ضرب بحجر، فأقبل الكلب على الحجر فعضه، ولا يعرف أن الحجر ليس بفاعل، فيكون هو والكلب سواء. ومثال من يشهد الإحسان من المخلوقين كالدابة إذا رأت سائسها بصبصت بعينها، ويدنو إليها مالكها، فلا تلقي إليه بالًا، فإذا كنت عاقلا فاشهد الأشياء كلها من الله عز وجل، ولا تشهدها من غيره» (381)

ولكن الله لا يريد بك الضرر، وله حكمة وسر في القدر ربما تعرفه مع الوقت، وربما لا تعرفه.

ويقول ابن عطاء الله أن أولياء الله يختلفون في المعاملة مع الظلم فمنهم من يدعو على الظالم ومنهم من يعفو.

«ثم أولياء الله إذا ظلموا على طبقات: داع يدعو على من ظلمه، استثار الأذى منه القرح، واستخرج منه الاضطرار، فهذا الذي لا يرد دعاؤه، ومنه قوله: «واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» (382)

ويعطينا أيضًا ابن عطاء الله مثالًا لأبي العباس المرسي الذي تعرض للأذى الشديد على يد شخص، ثم جاء والي وفضح ونكل بالرجل الذي أذى أبو العباس المرسي فذهب ابن عطاء الله لشيخه يخبره فكان رد أبى العباس «أنا ما أتشفى من أحد» (383) هذه اخلاق الاولياء.

عن معنى الغنى والعافية

تذكر أن الله عندما قال لنبيه {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ} [الضحى: 6]، أي وجدك له فرفع مقامك. يشرح ابن عطاء الله المعنى الباطن لبقية السورة فيقول: «وإن رأيتهم من حيث الحق رأيت الأوصاف التي زينهم بها فظاهرهم الفقر، وباطنهم الغنى، تخلقًا بأخلاق رسول الله ، قال تعالى: {وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ}. أفتراه أغناه بالمال؟ كلا، وقد شد الحجر على بطنه من شدة الجوع، وأطعم الجيش كله من صاع، وخرج من مكة على قدميه ليس معه شيء يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال» (384)

الغنى الذي أعطاه الله لرسوله لم يكن غنى مال أو رياسة، بل كان كفاية عن غيره. غناه في الاستغناء عن كل البشر، واللجوء إلى الواحد القهار.

هذا معنى مهم جدًا. تكلمتُ عنه في مقال أبي حامد الغزالي، ما هو الغنى، وما هي العافية؟ هل الغنى مال، والعافية صحة؟ هذا المعنى الظاهر ربما، ولكن للفكر الصوفي معنى باطن أعمق وأعم. الغنى هو الاستغناء عن غير الله. والعافية هي اليقين والثقة بالله. ترى لو استغنيت عن كل الناس والأشياء ألست بغني؟ وكم من غني يسرق لأنه يريد المزيد مع أن لديه المال؟ وكم من غني يذل نفسه، ويطلب لأنه يريد المزيد. فالغنى شعور بالكفاية. أما العافية فليست الصحة. فكم من صحيح وقلبه مريض. العافية هي عافية القلب وسلامته. فعندما تسأل الله العافية المرة القادمة، تذكر أنك لست معصوما من البلاء، ولكن الله يمكنه أن يعطيك القدرة، والثقة التي تجعل تحمل البلاء ممكنًا.

ملخص

تكلمنا في هذا المقال عن التدبير المحمود والقرب من الله كوسيلة للسعادة وعن آداب المسلم في تعامله مع غيره. سوف نتطرق بالتفصيل للتوكل والصبر والذكر والرحمة في المقال القادم.

فدرجة الإيمان تصل إليها بمحو ما دون الله وإثبات إرادته هو، والتوكل عليه هو، وتزكية النفس، فهو يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء. أما إذا تهت في السبل ولم تدرك أنه سبيل واحد حتى لو تعددت الطرق إليه فأنت تائه؛ لأنك لجأت لغيره. يقول ابن عطاء الله عن التائه عن السبيل: «ليس التائه من تاه في برية، بل التائه من تاه عن سبيل الهدى. من يطلب العز من الناس، ولا يطلبه من الله تعالى، فقد أخطأ الطريق. ومن أخطأ الطريق لم يزده سيده إلا بعدًا، فهذا هو التائه حقًا» (385)

ومضة نور

مناجاة: ذو النون عن ابن عربي وبالإسناد:

وسمعته يقول: «إلهي، من ذا الذي ذاق طعم حلاوة مناجاتك فألهاه شيء من طاعتك ومرضاتك؟!

أم من ذا الذي ضمنت له النصر في دنياه وآخرته فاستنصر بمن هو مثله في عجزه وفاقته؟!

أم من ذا الذي تكفلت له بالرزق في سقمه وصحته فاسترزق غيرك بمعصيتك في طاعته؟!

أم من ذا الذي عرف دنياه وآخرته فآثر الفاني على الباقي بحمقه وجهالته؟!» (386)

«إلهي. كيف أسترزق من لا يرزقني إلا منك؟ أم كيف أستنصر من لا ينصرني إلا بك؟ أم كيف أسخط من رضا من لا يقدر على ضري إلا بتمكينك؟ فيا من أسأله إيناسًا به، وإيحاشًا بخلقه. ويا من ألجأ في شدتي وروحاتي. ارحم غربتي، وهب لي من المعرفة ما أزداد به يقينًا. ولا تكلني إلى نفسي الأمارة بالسوء طرفة عين» (387)

«إنما الله هو المجري للأرزاق على يد من يشاء كيف يشاء» (388)

جلال الدين السيوطي

«ورزقك ليس ينقصه التأني وليس يزيد في الرزق العناء، ولا حزن يدوم ولا سرور ولا بؤس عليك ولا رخاء إذا ما كنت ذا قلب قنوع، فأنت ومالك الدنيا سواء» (389)

الإمام الشافعي

«ما يقع في الوجود إلا ما يريده الله لا ما يريده الخلق...فالأولى أن لا يريد إلا ما يريده الحق كان ما كان على الإجمال، فمتى وقع تلقيته بالقبول والرضا»

(390)

ابن عربي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الحِكم العطائية: تلخيص لماهية الدنيا والآخرة

«مـن عـرف الله لا يكون عليه غم أبدًا» (391)

أبو بكر الشبلي

حكم بن عطاء الله السكندري ستبقى من أهم الكتب على الإطلاق حتى أن الدكتور عبد الحليم محمود يشير إلى أن أحد كبار العلماء قال عنها أنها منهاج للدراسة والبحث. ويضيف عبد الحليم محمود «لقد حمل ابن عطاء الله المشعل فأنار به من حوله واستنار به من بعده، وبقى النور للآن في كتبه يضيء الطريق للسالكين» (392) لا يمكننا أن نلخص حكم ابن عطاء الله في مقال أو حتى كتاب لأن معانيها تحتاج إلى مجلدات، وعمرٍ كاملٍ من الدراسة. ولكننا في هذا المقال سنتكلم عن بعض الأفكار التي يتطرق إليها هذا الكتاب، والتي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بطريق السعادة الذي نبحث عنه. بالنسبة لابن عطاء الله، معرفة الله هي الطريق إلى الحرية، والحرية هي الطريق إلى السعادة. الإنسان بطبعه يتوق إلى الحرية، ولا يجدها لأنه مسجون داخل جسده ونفسه. الجسد والنفس محدودان، أما الروح فهذا العالم لا يكفيها، تريد أن تحلق إلى عالم ربها مطمئنة وراضية. فرحلة البحث عن السعادة هي رحلة البحث عن الحرية. وكيف نصل إلى الحرية؟ بمعرفة الله أولًا، ثم الاقتراب منه، ثم اتباع كلامه. وكيف نعرف الله؟ لنعرف الله لا بد أن نتذكر حدود عقلنا وبصرنا وخيالنا. في إدراك عجزنا معرفة لقوته، وفي إدراك ضيق خيالنا اعتراف بأنه ليس كمثله شيء. ولكنه قريب منا لا يفصلنا عنه سوى النفس الأمارة بالسوء. فلو مررنا في طريق النفس الوعر سنجد أنه أقرب إلينا من أي شيء. ما يقف حائلًا بيننا وبينه هي الأشياء التي تسيطر على نفوسنا. الأشياء الدنيوية من حب المال، وحب الخلق، وحب الجاه والقوة. كل ما نحبه نصبح مقيدين به. لو أدركنا أن كل ما في الكون خلق من أجلنا لن نصبح عبيدًا لمال أو مكان أو ولاية. لأننا خلقنا من أجل الله، والعالم كله طوع لإرادته هو. ما يفرق بيننا وبين الله، وما يجعل النفس مشوشة هو وجود أشياء داخل القلب مع الله. كما قال ابن عربي عن حب الله القلب لا يتسع إلا لمحب واحد. نحن نحب الله فقط، أما المخلوقات كلها فنحبها لأنه هو خلقها. ولكننا دومًا نراه ونشاهده في كل شيء. فاليقين يعطي السعادة. واليقين يأتي في الدنيا برؤية الله، ولكن بالبصيرة لأنه لا رؤية لله في الدنيا. فمشاهدة الأولياء ومعاينتهم ويقينهم لأن نفسهم صفت صفاء تامًا فأصبحوا يرونه ببصيرتهم في كل شيء. وهذا لا يحدث بطلبنا بل بنور يقذفه الله في قلوبٍ الأصفياء،أي أن من يسعى بصدق يعطيه الله الخير من عنده. لذا فالبلاء مثلًا والألم لا يحدث لأن الله يعاقبنا بل لأنه يصفي أولياءه، ويحبهم، ويريدهم أن يعاينوه ويعرفوه. معرفة الله أول طرق السعادة وقربه غاية المنى. سنتكلم

عن معرفة الله في هذا المقال، وعن البلاء، والرحمة، والتوكل على الله، وعن السجن، والحرية.

وهذا المقال يحلل أيضًا استعمال اللغة لدى ابن عطاء الله. حكم ابن عطاء الله أحيانًا تمتاز بالغموض، ودومًا بالإيجاز، ولكن طريقة كتابة الحكم سهلة مباشرة تخاطبك أنت بضمير المخاطب. كأنه يعرفك أنت، بل يعرف نقاط ضعفك ونقاط قوتك. أما اختياره للألفاظ، ولحروف الجر، والعطف فكلها مهمة ومقصودة. معاني الحكم بديعة، ولكن لغة الحكم العطائية في حد ذاتها تحتاج إلى دراسة مستفيضة.

حكم عن معرفة الله

أولًا ماهية الله تكلم عنها ابن عطاء الله كثيرًا في كتبه »يقول ابن عطاء الله السكندري معبرًا عن رأي المدرسة الشاذلية: وإذا كان من الكائنات ما هو غنى بوضوحه عن إقامة دليل، فالمكون أولي بغناه عن الدليل منها، ويقول: وكيف تكون الكائنات مظهرة له، وهو الذي أظهرها، أو معرفة له وهو الذي عرفها» (393)

بالنسبة لابن عطاء الله، فهو يتساءل كيف للعقل الناقص الذي خلقه الله أن يثبت وجود الله. أي كيف لشيء محدود أن يثبت اللا محدود؟ بالنسبة لابن عطاء الله وجود الله يعرف بالقلب، فهو شعور، وذوق، ويقين. (انظر مقال معرفة الله)

وجود الله بالنسبة للبشر منقذ. يبعث على الطمأنينة. يقول ابن عطاء الله:

ثم يقولون: إنه أقرب إليك أم الدليل منك؟ وهو إليك أقرب! ثم يقولون: أليس وجودك غنيًا عن إقامته دليلًا يدل عليه أو أثرًا يوصل إليه؟ فيقال: بلى. فيقال: أفيكون وجودك غنيًا عن الدليل، ولا يكون وجوده غنيًا عن الدليل؟! إلى غير ذلك» (394)

ما يقوله ابن عطاء الله هو كيف تستدل على وجود الله إذا كان الله أقرب شيء إليك، وفي الغالب عندما تستدل على وجود حاجة يكون دليلك أقرب إليك مما تستدل عليه. فمثلًا لو قلت أريد أن أستدل على وجود كوكب ما، فخرج لك رجل بالتليسكوب يريك الكوكب تستدل على وجود الكوكب بالتليسكوب، فيصبح التليسكوب أقرب اليك من الكوكب فهو الوسيط بينك وبين الكوكب، ولكن الله أقرب إليك من أي شيء فلا يمكن أن تستدل عليه بشيء هو خلقه. هذا ما يعنيه ابن عطاء الله، والله أعلم. وعندما توقن أنه أقرب إليك، وأنه موجود معك كيف تخاف؟ وكيف تتوكل على غيره؟ وكيف

تريد غيره؟ من الطبيعي لو أيقنت هذا، وثبت عندك هذا اليقين، ستجد نفسك زاهدًا في الدنيا، ثابتًا في البأساء والضراء.

وكتب عن هذه الأفكار بإيجاز المبدع الذي رزقه الله المدد في الكتابة والفتح، وقال عن فكرة إعطاء الدليل على وجود الله:

حكمة 29: «شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله، فأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه»

مرة أخرى يؤكد ابن عطاء الله أن الله لا يمكن أن تثبت أنت الناقص وجوده، لأنه لا يغيب، ولا يبعد، هو من يدلك، ليس أنت من تشرح لنفسك وجوده.

وإذا كنا لا نستطيع أن نتكلم عن ماهية الله بعقلنا الضيق، فنحن أيضًا لا نستطيع أن نراه. فالبصر ضعيف، والخيال ضيق والنفس أمارة بالسوء، كون الله لا يظهر لنا فهذا لشدة قربه منا كالهواء مثلًا، وكونه لا يظهر لنا فهذا لأن نظرنا ضعيف لا يستطيع تحمل نوره.

حكمة 33: «الحق ليس بمحجوب، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه، إذ لو حجبه شيءٌ لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر، وهو القاهر فوق عباده»

لا حدود لله ولا ساتر له. كل ما لا ترى نقص منك أنت لحدود جسدك الضيق وعقلك، فلو حررت عقلك ولجأت اليه تتسع رؤيتك، إذن لو عرفت الله، لن ترى سواه، وستراه في الأكوان كلها.

حكمة 163: «من عرف الحق شهده في كل شيء، ومن فنى به غاب عن كل شيء، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيء»

أنت تتوهم أن هناك شيء غير الله ولكن كل الوجود له ومن خلقه.

حكمة 14:«الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده، فقد أعوزه وجود الأنوار»

أي تذكر أن كل شيء من الله الرزق والنعم والبلاء، وكل ما في الكون من صنع المكون أي الله، فلو لم تدرك هذا في كل ما يحدث لك، فأنت تحتاج إلى نور البصيرة.

حكمة 137: «ما حجبك عن الله وجود موجود معه إذ لا شيء معه، وإنما حجبك عنه توهم موجود معه»

نعود إلى الآية التي يعيد الصوفي شرحها طوال الوقت {وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[القصص: 88]، الله موجود، وما في الوجود غيره، عندما تدرك هذا تقترب منه، وترى شهوده. وليس في الوجود سواه لأنه باق، وكل شيء فان.

حكمة 55: «الأنوار مطايا القلوب والأسرار»

هذه الحكمة مهم أن نفهم مغزاها. يشرحها ابن عجيبة قائلًا تذكر أن الله في كتابه قال إن الله «لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه» (395) فلكل منا قلب واحد، وهذا القلب إما مظلم أو منير. هل يمكن أن يجتمع الظلام والنور في المكان نفسه؟ هذا محال، فومضة النور تنفي الظلام. كيف يظلم الإنسان قلبه وكيف ينيره؟ ينير قلبه بالإخلاص والتوحيد. فلو وضعت مخلوقًا في مرتبة ربك في قلبك، فقد طمست على قلبك فأصبح مظلمًا. ولو لجأت إلى مخلوق طالبًا نفعًا أو ضررًا، ومعتقدًا أن بيده نفعك وضرك فقلبك في ظلام دامس. لو أخلصت لربك ووحدته بقلبك فقلت لا إله إلا الله على نظافة، كما يقول علماء الصوفية، فقد أصبح قلبك يعكس الضوء مثل المرآه، ونور الله ليس كمثله نور، فهناك أشخاص قلبهم كله نور، وهناك آخرون قلوبهم مظلمة، عبيد لمشاعرهم وأهوائهم ومخلوقات الله وزينته. النور إذن ينعكس على القلب فيصبح مطايا القلوب. والسر هو كل حديث بينك وبين الله لا يعرفه غيره. فلو قلت لا إله إلا الله لا بد أن يصبح كل ما تفعله لوجه الله، لا رياء ولا طلب مال وسلطة. فلو استقرت الأكوان في قلبك أي صور الناس والأشياء التي تريدها أصبح قلبك مظلمًا، ولو نزعت كل حب للأشياء، وأحببت الأشياء من أجل خالقها تسرب النور إلى قلبك، ومعه دخل الله والخير كله.

معرفة الله والحرية التي تؤدي إلى السعادة

نوضح طوال هذا الكتاب أن الإنسان يبحث عن السعادة، ويدرك ضيق الدنيا على روحه، وفي أثناء رحلته كثيرًا ما يضل في بحثه، فيصبح عبدًا للموجودات أي الأشياء بدلًا من أن يتحرر من سجنه، يكبل داخل سجنه المظلم. يحتاج الإنسان للنور ليشرق قلبه باليقين. قلبك لا بد أن يخلو من كل شيء ماعدا الله حتى يأتي اليقين والنور، فلو جاء النور ووجد أن القلب منشغل بمنصب أو مال أو زوج أو كره أو غيرة لن يسكن ولا يستقر.

حكمة 205: «ربما وردت عليك الأنوار، فوجدت القلب محشوًا بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت»

حكمة 206: «فرغ قلبك من الأغيار، يَمْلَؤه بالمعارف والأسرار»

فلا بد أن يصفو قلبك ويكون الله فيه وحده لتستقبل أنواره، الأغيار هي كل شئون الدنيا.

حكمة 13: «كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله، وهو مكبل بشهواته؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله، وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار، وهو لم يتب من هفواته؟»

فلو ظننت أن النفع والضر بيد البشر فقد أصبحت عبدًا لهم، ولو أحببت الأشياء والمخلوقات الفانية فقد وضعت على نظرك كثافة الضلال فعبدت المخلوقات وأصبحت محبوبها، ولو اشتهيت الدنيا، ونسيت الآخرة حيث حرية روحك فقد كبلتك شهوتك.

«ويذكر أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: «أن حذر قومك من الشهوات، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها محجوبة عنى» (396)

«وقال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا لَّذِينَ ءَامَنُوٓ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَ مُّسَ ى فَ كْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِ بِ لْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ للَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ لَّذِى عَلَيْهِ لْحَقُّ وَلْيَتَّقِ للَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْ ا فَإِن كَانَ لَّذِى عَلَيْهِ لْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِ لْعَدْلِ وَ سْتَشْهِدُو شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُ وَ مْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ لشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا لْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ لشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُو وَلَا تَسْـَٔمُوٓ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ للَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَ تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِ وَلَا شَهِي وَإِن تَفْعَلُو فَإِنَّهُ فُسُو بِكُمْ وَ تَّقُو للَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ للَّهُ وَ للَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِي } [البقرة: 282]، فجعل التقوى بساط العلم». أي التقوى توصل إلى العلم.

«قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: «إذا عـقـدت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت» (397)

التوحيد بالله المجرد من كل شيء، وتحرير الروح من كل الشهوات والموجودات هما الغاية للقرب من الله.

حكمة 248: «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوّن، فإذا شهدته كانت الأكوان معك»

تذكر أن كل شيء خلق من أجلك لو عرفت هذا، وعرفت أن من خلق كل شيء هو الله، وأن الأكوان هي مخلوقات الله ستصبح قويًا لأنك قريب من الخالق، وسيسخر لك كل شيء، لا تلهث وراء الأشياء، الأكوان وتترك خالقها. قربك من الله قوة لك.

حكمة 42: «لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى يسير، والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون» {وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ} [النجم: 42]

أي لا تترك مخلوقًا في الدنيا، وتذهب تحب مخلوقًا آخر أو شيئًا آخر فتترك المال من أجل منصب مثلًا، ولكن ارحل من المخلوقات إلى الله تعالى.

«وانظر إلى قوله : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله».

«قلت: يعني واعمل على ذلك بأن تهاجر إلى الله ورسوله، فلا تتوجه إلى غيره» (398)

أي لا تكن رحلتك في الدنيا باحثًا عما هو مفقود وفانٍ من ذهب، وولد، وجاه، وامرأة، وحتى ثواب وعقاب، اجعل هدفك هو الله في هذه الرحلة، وتذكر أن نهايتك إليه هو، وليس إلى أي شيء آخر.

وتذكر في رحلتك القصيرة في الدنيا أن الزهد ليس بلبس الصوف، ولا بتحريم زينة الله والطيبات من الرزق، ولكن الزهد هو أيضًا نوع من أنواع التوكل على الله، وهو أن تدرك أنَّ ما في يدك رخيص، وما معه هو غالٍ، وقربه غاية، ورزقه مكتوب، وقدره حاصل.

يقول الشيخ زروق: «ليس الزهد بتحريم الحلال... ولا بإضاعة المال... إنما الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك» (399)

وتذكر أيها الإنسان أن الدنيا سجن، والتحرر منها هو أن تمتطي روحك إلى ما هو أسمى، فتنطلق حرًا بعد أن تتجرد من الطمع والخوف.

حكمة 54: «أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك»

الوارد هو المعرفة والوصال بالله ونفحات رضاه. لو وصلت لك هذه العلامات فاعرف أن الحرية ليست عنك ببعيدة. فأحيانًا يزعجك شيء من استغراقك في الدنيا ليذكرك أنك مسجون بمحيطاتك.

«قلت: وذلك أنك مسجون بمحيطاتك، ومحصور في هيكل ذاتك ما لم تفتح لك ميادين الغيوم، ومتى طلع عليك نور الوارد لاح لك من حقائق الوجود ما تعرف به الدنيا والآخرة وغيرهما» (400)

حكمة 62: «أنت حر مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت له طامع»

ما لا تريده فقد تحررت منه، وكل ما تطلبه أنت عبده. آيس تعني غير طالب له أو محتقر له.

«لأن ما أنت له طامع مستقر في قلبك، فأنت له بكلك، وما أنت عنه آيس أنت عنه معرض بقلبك، فليس له شيء من وجودك» (401)

والحرية تأتي باليقين. يقول الشيخ زروق: «فاليقيـن إذا أشـرق كشـف عـن الدنيـا والآخـرة» (402)

حكمة 136: «لو أشرق نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها»

لنتذكر هنا كلمات الغزالي: كل ما هو آت قريب. فالآخرة قريبة منا، هذا يقين.

«وقال حارثة رضى الله عنه لرسول الله لما سأله كيف أصبحت يا حارثة؟ قال أصبحت مؤمنًا حقًا، فقال رسول الله : لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال كأني بعرش ربي قد نصب، وبأهل الجنة في الجنة يتنعمون، وبأهل النار في النار يتعاوون، فقال رسول الله عرفت فالزم، عبد نور الله قلبه... (الحديث)، وقال عليه السلام: «إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح، قيل: يا رسول الله، وهل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله» (403)

الانشراح والسعادة يأتيان عندما يقذف الله نوره في القلوب.

حكمة 244: «لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين، إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك، ولا قطيعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك»

أنت في رحلة داخل نفسك وهي رحلة صعبة، لو تهت وضللت بالغرور والكبر لن تصل ولو سرت داخل نفسك وفهمتها أدركت قربه، فلا مسافة تفصله عنك سوى طرقات نفسك.

قال بعض العارفين »لا يمكن الخروج من النفس بالنفس، وإنما يكون الخروج من النفس بالله، ثم يشتغل بمراعاة حدود الشريعة والطريقة في ظاهره وباطنه، والتزام آدابها» (404)

ما يقف حائلًا بينك وبين ربك ليس مسافة، ولكن نفسك، وشوارعها، وطرقاتها الوعرة.

من يعرف الله لا يستوحش أي حدث في الدنيا، ولا أي فقد.

فقد قال الله في كتابه {إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ للَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ لَّذِينَ كَفَرُو ثَانِىَ ثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى لْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ للَّهَ

مَعَنَا فَأَنزَلَ للَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُو لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ لَّذِينَ كَفَرُو لسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ للَّهِ هِىَ لْعُلْيَا وَ للَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: 40]، «فالمعية المذكورة لا يجتمع معها حزن ولا هم» (405) هذه المعية هي درجة اليقين، ثم تليها درجة العيان أو المشاهدة،. وهي الشعور بالله بالبصيرة، ورؤيته في كل شيء حولنا.

«ليقل ما تفرح به يقل ما تحزن عليه» (406)

العبد يكون في كفاية لو لم يفرح بموجودات فانية »لو مال إلى الدنيا سلبه الراحة فظل يبحث عن المزيد«

فمثلًا كونك تحصل على منصب كبير، وتفرح به، وتتطلع إلى منصب أكبر، كل هذا ممكن لو أدركت ماهية الدنيا فلا فرحت بنفسك، ولا ظننت أنك تستحق، فكل شيء من عند الله.

حكمة 227:«وإن أردت أن لا تعزل فلا تتول ولاية لا تدوم»

الولاية الدائمة هي أن تكون وليًا لله، وأحد عباده المحسنين الذين يعبدونه عن يقين ومعرفة »وإلا ستحزن من العزل» (407)

حكمة 247: «الكائن في الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته ومحصور في هيكل ذاته»

فتذكر أن جهنم ضيقة، وهذا الضيق عقاب من الله، وأن روح المؤمن حرة تطوق إلى السعادة مع الله، والمعية هي عين السعادة، لأن روحك أكبر من الكون فلا بد أن تتعلق بصانع الكون، وجود روحك داخل جسدك الضعيف قيد، لو تقربت من ربك، فإن روحك تتغلب على جوارحك، فتحلق في سماء ربها.

النفس ومحاربة الهوى

تذكر أيها القارئ أن النفس تحتاج دومًا إلى أن ننظفها من كل المشاعر القميئة أو الذنوب. وهذا جهاد مستمر. فمثلًا لو مدحك أحد لأنك ساعدته في شيء أو لأنه رأى منك صفة حميدة، تذكر صفاتك السيئة التي لا يراها الناس وذنوبك التي سترها الله عن العيون. فلكل إنسان فعل يندم عليه أو بخل أو قسوة عامل بها المخلوقات قاصدًا أو بغير قصد. أول طرق محاربة النفس هي مواجهتها بالحقائق. فلو مدحك أحد تذكر ما ستره الله عن هذا الشخص من أفعالك فلا تغتر.

حكمة 142:«الناس يمدحونك بما يظنون فيك، فكن أنت ذامًا لنفسك لما تعلمه منها»

ثم نأتي لأحد أهم حكم ابن عطاء الله وأبلغها:

حكمة 61: «ما قادك شيء مثل الوهم»

نحن دومًا نوهم أنفسنا بأننا نفعل الصواب، أو نوهم أنفسنا بأن ما نريده من أطماع حق لنا ونستحقه، وكل أوهامنا تسيطر علينا، فتجعل للهوى سلطانًا على النفس فتقيدها وتقودها. نحن عبيد لما نريد، ألم تر أمامك رجالًا تملك المال مثلًا، ولكنها تريد المزيد؟ وتبخل وتطمع وتجرح كرامتها أو ترتشي وتتغاضى عن الأخطاء مخافة ترك منصب؟ لماذا يفعل أحد هذا؟ هل يقول لنفسه إنه مذنب؟ بالطبع لا. بل يوهم نفسه أنه على صواب، بل يقود نفسه إلى المعصية. وهناك من يصبح عبدًا لمخلوقات الله أو أكوانه أي للأشياء الفانية التي خلقها مثل المال أو السلطة أو الزوجة... إلى آخره. الإنسان دومًا يبرر لنفسه الخطأ فيستمر أسيرًا مقيدًا بأطماعه. ولو تأملت نفسك أو الناس من حولك فستجد الكثير من الأمثلة، تأمل نفسك واستعد ذاكرتك، ماذا يقودك؟ متى أوهمت نفسك أنك على صواب؟ وهل سعدت حقًا بما حققت وأنت تتبع الوهم؟ وهي يمكن أن نبني السعادة على الوهم؟

يقول الشيخ زروق «إذن إنما يدعو إلى الطمع توهم النفع من المطموع فيه، وبذلك تحصل العبودية له؛ فمن غلب الوهم عليه نسى ما ينتهي إليه الطمع من النقص والدناءة، ومن ضعف لديه الوهم ذكر ذلك فانتفى عنه الطمع» (408)

حكمة 35: «أصل كل معصية وشهوة وغفلة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهلًا لا يرضى عن نفسه، خير لك من أن تصحب عالمًا يرضى عن نفسه»

الرضا عن النفس أصل كل الآفات. فلو لم تحاسب نفسك كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة، ولو لم تلُمها ستوهم نفسك أنك على صواب، وستغرق في الضلال.

وقال أبو الحسن الشاذلي «عمى البصيرة في ثلاث: إرسال الجوارح في معاصي الله... والطمع في خلق الله... والتصنع بطاعة الله» (409)

فلو أوهمت نفسك أنك تطيع ربك ومع ذلك تطمع في ما لأحد غيرك من مال أو زوجة أو أي شيء، ثم ترتكب المعاصي فقد حكمت على بصيرتك بالظلام. وابتعدت عن الله.

وهنا نأتي لأحد أبلغ شرح لحكمة ابن عطاء الله عن الوهم والهوى بالنسبة إلى:

قال بعضهم: «نحت الجبال بالأظافر أيسر من زوال الهوى إذا تمكن» (410)

وهذه حقيقة فلو تمكن منك هوى النفس ورغبتك أو شهوتك أو شغفك وعشقك لشيء أو شخص، يصعب بعدها أن تمحو هوى النفس أو تعدل مع غيرك أو نفسك. ستكون حينها عبدا لهواك. ولا يوجد عبد سعيد بعبوديته.

حكمة 210: «ما أحببت شيئا إلا كنت له عبدًا، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدًا»

كما قال ابن الفارض في قصيدته:«أنتَ القَتِيْلُ بأيّ مَنْ أحبَبْتَهُ فاختر لنَفْسِكَ في الهوى من تصطفي»

الحب مقترن بالطاعة فأنت تطيع من تحب فلا تحب سوى الله وأحب مخلوقاته لكونها مخلوقاته.

حكمة 211: «لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك، وإنما أمرك بهذه، ونهاك عن هذه لما يعود عليك»

أي أن الله لا يحتاج إلى طاعتك، هو في غنى عنك فما يطلبه منك لمصلحتك أولًا وأخيرًا.

حكمة 222: «تطلعك إلى بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له، واستيحاشك لفقدان ما سواه دليل على عدم وصلتك به»

«قلت: لأنك لو وجدته هان عليك كل شيء سواه، ولو وصلت إليه كان يكفيك الأنس به عن استحياش غيره، بل يكون ذكر الغير عندك مصيبة ونقصًا، ولذلك قيل: «لا وحشة مع الله ولا راحة مع غير الله» (411)

ما تريده من الدنيا يمكن أن يبعدك عن الله. اسع إلى الله، فمع الله لا تخاف خداعًا أو خيانة. ولا تحزن من أي فقد فهو موجود معك وهذا يكفي.

ونأتي لحكمة تعكس أيامنا هذه وتتكلم عن ظاهرة نراها حولنا للأسف، وهي كثرة القيام بالنوافل مع عدم القيام بالفرائض. يقول ابن عطاء الله في حكمته البالغة:

حكمة 193: «من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات، والتكاسل عن القيام بالواجبات»

فمثلًا لو ظلم رجل أخاه وأخذ ميراثه أو ظلم أبنته أو زوجته، وظن أنه تاب بأن أكثر الصيام والصلاة، أو لو لم يتب، ولكن اعتقد أنه على صواب وأكثر من الصلاة والصيام، فهو إنسان لم يقم بفرائض الله، وفريضة الله في هذه الحالة هي رد الظلم عن المظلوم أولًا. والانشغال بتحسين النفس وترقيتها بمواجهتها بالإثم والعصيان الذي فعلته، فلو واجه نفسه بحقيقتها، وعمل على رد الحقوق لأصحابها لن يجد وقتًا للنوافل. أحيانًا تكون النوافل هي الصلوات

والصيام الزائد وتمثل نوعًا من الهروب أو الاختفاء من الحقيقة، ومن الذنب، ومن النفس. فمعظمنا يختبيء وراء نافلة، يذهب إلى عمرة مرات ومرات أو إلى حج أو يصلي أو يصوم في أيام كثيرة، وهو لم يجلس مع نفسه ليعطي حقوق الناس، ويخلص في عمله، ويرعى عهده.

ويشرح الشيخ الرندي كلام ابن عطاء الله قائلًا «لا همة لمن ينوي التوبة الا الصيام والقيام وتكرار المشي إلى بيت الله الحرام. النوافل. وهو غير مدرك لما فرط فيه من الواجبات والظلامات والتبعات على ضميره. وما ذاك إلا لأنهم لم يشتغلوا برياضة نفوسهم التي خدعتهم، ولم يحفلوا بمجاهدة أهوائهم التي استرقتهم وملكتهم، ولو أخذوا في ذلك لكان لهم فيه أعظم شغل، ولم يجدوا فسحة لشيء من التطوعات والنفل قال بعض العلماء: من كانت الفضائل أهم إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع» (412)

«وقال محمد بن أبي الورد رضي الله عنه: هـلاك الناس في حرفـتين: اشتـغـال بنافلة وتضييع فريضة، وعمل بالجوارح بلا مواطأة القلب عليه، وإنما حرموا الوصول بتضييعهم الأصول» (413)

يقول الرندي «وقال الخواص رضي الله عنه: انقطع الخلق عن الله بخصلتين إحداهما: أنهم طلبوا النوافل وضيعوا الفرائض، والثانية أنهم عملوا أعمالا بالظاهر، ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها، وأبى الله أن يقبل من عامل عملًا إلا بالصدق وإصابة الحق» (414)

«ليس يدل على فهم العبد كثرة عمله، ولا مداومته على ورده، وإنما يدل على نوره وفهمه غناه بربه، وانحيازه إليه بقلبه، وتحرره من رق الطمع وتحليه بحلية الورع، وبذلك تحسن الأعمال، وتزكو الأحوال. فحسن الأعمال إنما هو بالفهم عن الله، الاغتناء بالله والاكتفاء به، والاعتماد عليه، ورفع الحوائج إليه» (415)

التوكل والصبر والبلاء في حكم ابن عطاء الله

لا يمكن الكلام عن ابن عطاء الله دون ذكر كتابه المهم التنوير في إسقاط التدبير. لاحظ أولًا عنوان الكتاب. التنوير لأن الفهم نور، والإيمان نور، والمعرفة ضوء، والضلال ظلام. وعندما تدرك معية الله تسقط عنك التدبير فيما لا تستطيع تدبيره، وتدبر لدنياك بالحلال ما تستطيع أن تدبر. وسوف نشرح قصد ابن عطاء الله في الصفحات القادمة.

في كتابه التنوير في إسقاط التدبير يشرح ابن عطاء الله أو أحمد أن الصبر يكون أسهل لأنه بالله، ولأنه ثقة بالله أولًا وأخيرًا. فمن يثق بالله لا يخاف شيئًا، ولا يحزن لعلمه أن الله لطيف.

«أثقال التكليف ورود أسرار التصريف. وإن شئت قلت: وإنما صبرهم على أقداره علمهم بما أودع فيها من لطفه وأبراره» (416)

تصبر على أقدار الله لأنك تعرف لطفه وتوقن رحمته. ويعطينا ابن عطاء الله أسباب توجب علينا الصبر في الضراء. وأولها أن ما أعاننا على حمل البلاء هو أن البلاء مقترن بالعطاء والقرب من الله.

«إنما يعينهم على حمل الأقدار ورود الأنوار، وذلك أن الأنوار إذا وردت كشفت للعبد عن قرب الحق سبحانه وتعالى منه، وأن هذه الأحكام لم تكن إلا عنه، فكان علمه بأن الأحكام إنما هي من سيده سلوة له، وسببًا لوجود صبره. ألم تسمع لما قال الله سبحانه لنبيه {وَ صْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ}[الطور: 48]» (417)

وربما نعطي مثالًا آخر لنظهر ما يقصده ابن عطاء الله، لو كنت في غرفة مظلمة، ثم دفعك أحد بشده فوقعت على الأرض فكسرت ذراعك، وتألمت، وصرخت، واستنكرت كسر ذراعك، ثم عندما أضأت شمعة وجدت أن من دفعك هو والدك يحميك من عقرب كاد أن يفتك بك مثلًا. إذن لو وثقت بالله فمهما أصبت من ألم ستعرف أنه رحيم بك لأنه قريب منك، ويحبك حب عناية {وَ صْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ}[الطور: 48]. وابن عطاء الله مثلنا يدرك أن هذا القول أسهل في الكلام عن الفعل، فأحيانًا يكون الألم قويًا، والفقد كبيرًا، فيعطي ابن عطاء الله أمثلة أكثر، وشرحًا مستفيضًا لتقبل أقدار الله وعدم اللجوء لسواه.

«إنما يعينهم على حمل الأحكام فتح باب الإفهام؛ إذا أورد الله تعالى على عبده حكمًا، وفتح له باب الفهم عنه في ذلك الحكم، فاعلم أنه أراد سبحانه أن يحمله عنه» (418)

فربما يفتح الله لك باب الفهم لو تركت أنت صدرك مفتوحًا لتفهم، وعندها ستدرك أن قدره خير.

«وإن شئت قلت، وإنما صبرهم على ما جرى علمهم بأنه يرى» (419)

الثقة بالله تعطي الصبر ليقينك بالآية {أَلَيْسَ للَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِ لَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ للَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَا } [الزمر: 36]. يعطينا ابن عطاء الله بعض الأسباب والأوجه للصبر على البلاء.

«وهو قوله: إنما يعينهم على حمل البلايا واردات العطايا» (420)

أي تذكر عطاء الله لك في الماضي ستعرف حينها أن ما حدث لك من مصيبة لا تعني غضبه، أو تركه لك لأنه رعاك من قبل.

«وقد يقترن بالبلايا في حين ورودها ما يخففها على العباد المقربين، من ذلك أن يكشف لهم عن عظيم الأجر الذي ادخره لهم في تلك البلية. ومنها ما ينزل على قلوبهم من التثبيت والسكينة، ومنها ما يورده عليهم من دقائق اللطف، وتنزُلات المنن، وحتى قال بعض العارفين: لقد مرضت مرضة فأحببت أن لا تزول، لما ورد علي فيها من أمداد الله تعالى، وانكشف فيها من وجود غيبه» (421)

ربما مع وقوع بلاء مؤلم عليك تشعر بمدد الله لك، وكيف ساعدك على القيام مرة أخرى، وكيف قربك إليه، وهذا الشعور ثمين لا يأتي للمرء كل يوم، هو رزق من الله لعباده الصابرين.

وتذكر حدود معلوماتك الضيقة عن الغيب «عدم علمك بعواقب الأمور، فربما دبرت أمرًا ظننت أنه لك، فكان عليك، وربما أتت الفوائد من وجوه الشدائد، والشدائد من وجوه الفوائد، والأضرار من وجوه المسار، والمسار من وجوه الأضرار؛ وربما كمنت المنن في المحن، والمحن في المنن. وربما انتفعت على أيدي الأعداء، وأذيت على أيدي الأحباب. فإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن لعاقلٍ أن يدبر مع الله، ولا يدري المسار فيأتيها ولا المضار فيتقيها؟

ولذلك قال الشيخ أبو الحسن الله: «اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا، من حيث نعلم بما نعلم، فكيف لا نعجز من حيث لا نعلم، بما لا نعلم. ويكفيك قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ لْقِتَالُ وَهُوَ كُرْ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُو شَيْ ا وَهُوَ خَيْ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّو شَيْ ا وَهُوَ شَ لَّكُمْ وَ للَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 216]» (422)

إذن لا تتوقع أنك تعرف ما سيسعدك في الدنيا، فهو أعلم وهو من يدبر لك. اسع نعم، واعمل نعم، وحاول النجاح نعم، ولكن لا تكتب أنت وحدك كل مستقبلك؛ لأنك لن تستطيع، أدرك عجزك وافتقارك إليه. واطمئن لاختياره حتى ولو كان مؤلمًا. حاول أن تدفع عن نفسك الألم ما استطعت، ولكن اشكر الله على القضاء.

لا بأس بأن تريد وتطلب وتعمل ما تستطيع، ثم تفوض أمرك إلي الله وأنت تعلم أنه القادر على كل شيء. وعندما تسعى، اسع وأنت تعرف أنك لن تلجأ إلا إليه، وأن من يساعدونك هم إشارات منه. هذا لا يعني ألا تشكرهم وتشعر ناحيتهم بالامتنان، ولكن تذكر أن ما في الوجود غيره، واستقم، واعمل بصدق وإخلاص، واترك نفسك له كي يدخلك المدخل الذي كتبه لك؛ لأنك ستدخله شئت أم أبيت. فاصبر واشكر.

حكمة 4: «ارح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك»

{وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ} [النجم: 39]. لا بد أن تسعى في رزقك، ولو مرضت لا بد أن تسعى للشفاء. ما يطلبه منا ابن عطاء الله هو اليقين والثقة بالله فلا تسع وأنت قلق وخائف فتفسد حياتك. اسع وأنت تسلم له، وتثق في قراره. مثال على ذلك لو طلب منك والدك أن تذهب إلى السوق وتشتري شيئًا. ربما تخاف وأنت طفلٌ من السرقة أو من عدم قدرتك على شراء ما طلب منك، ولكنك تطمئن أنك لو فشلت سيدعمك والدك بالمال والحب مهما حدث، وأنه سيحميك من كل شر قد يقع عليك. اليقين يعطي السعادة، كما تعطي الحرية السعادة.

الله يتكفل برزقك. اعمل من أجل رزقك، ولكن لا تقلق ولا تخف من بطش أحد. وتذكر أن الرزق منه هو. وهذه قصة ذكرها الشيخ الرندي في كتابه عن الصوفي «شقيق البلخي». فقد دعاه رجل هو وخمسين من تلاميذه على مأدبة، «فقال لهم شقيق: إن هذا الرجل يقول من لم يرني صنعت هذا الطعام وإني أقدمه إليه فطعامي عليه حرام

فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابًا.

فقال صاحب المنزل: رحمك الله ما أردت بهذا؟

قال أردت أن أختبر توحيد أصحابي: »أي كلهم يرونه فيما صنع، ولا ينظرون إليه فيما قدم إلا ذلك الرجل وحده» (423)

وكان الشاب حديث العهد بالصوفية ولم يفهم بعد. وهي قصة بسيطة توضح كيف نرى أن الرزق كله من الله. ولكن لا يمكن أن نطلب وننتظر أن يعطينا، ولنتذكر قصة الشاذلي عندما جلس في الكهف ينتظر الفتح فلم يحدث، بل نترك الله يعطينا كيف شاء ومتى شاء.

حكمة 24: «لا تستغرب وقوع الأكدار مادمت في هذه الدار، فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها»

فهذه الدنيا كما قال زروق «عمرها قصير، ومتاعها قليل، وآفاتها غزيرة ()

تطلب الراحة في دار الـفنــاء خاب من يطلب شيئاً لا يكون» (424)

الدنيا ليست دار راحة. وتذكر قول النبي» حفت الجنة بالمكاره». وسوف نستفيض في الحديث عن الدنيا في مقال البلاء والصبر.

حكمة 230:«علم أنك لا تقبل النصح المجرّد، فذوقّك من ذواقها ما يسهّل عليك وجود فراقها»

أي أذاقك الله الطعم الأصلي للدنيا حتى يفارقها قلبك بسهولة، وتصفو نفسك له هو.

حكمة 174: «ورود الفاقات أعياد المريدين»

لاحظ أنه كما قال الشيخ الرندي «يقع مع البلايا خفض النفوس وذلها ومع الذل النصر، قال ابن عطاء الله في التنوير. ٽ ٺ ٺ ٿ ٽ ٿٿ [آل عمران: 123]» (425)

قال بعض العلماء «إذا رأيتك تحبه، ورأيته يبتليك، فاعلم أنه يريد أن يصافيك» (426)

وهذه قصة العالم الصوفي الكبير إبراهيم بن أدهم عندما طلب من الله أن يهدأ شوقه المستمر في الدنيا يقصها علينا الرندي:

«قال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه، وكانت له مقامات في المحبة رفيعة: قلت ذات يوم: يارب، إن كنت أعطيت أحدًا من المحبين لك ما تسكن به قلوبهم قبل لقائك فأعطني ذلك: فقد اضر بي القلق. قال: فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه فقال: يا إبراهيم، أما استحييت مني أن تسألني ما يسكن به قلبك قبل لقائي، وهل يسكن المشتاق دون لقاء حبيبه أم هل يستريح المحب إلى غير معشوقه؟ قال فقلت: يارب تهت في حبك، فلم أدر ما أقول فاغفر لي، وعلمني كيف أقول. فقال: قل اللهم رضّني بقضائك، وصبرني على بلائك، وأوزعني شكر نعمائك» (427)

تذكر أيها القارئ كما سنشرح في مقال البلاء والصبر أن تمكن العبد ويقينه لا يأتي سوى بعد البلاء والصبر، والتمكن هو اليقين وشهود قرب الله أي الإحساس بقربه منك.

يقول ابن عجيبة: «لا تدرك الراحة إلا بعد التعب، ولا يحصل الظفر إلا بالطلب» (428)

فلندع الله بالرضا بالقضاء والصبر على البلاء الذي هو الضرر الواقع علينا من ألم وخلافه والشكر على النعمة. وبالرضا والصبر والشكر نعيش أيامنا القصيرة في هذه الدنيا في سعادة.

ولنتذكر عند وقوع قضاء الله أن حبه لنا سبق حبنا له. يقص علينا الرندي «حكى بعضهم أنه قال: اشتريت جارية فسمعتها في شطر الليل، وهي تقول: إلهي، بحبك إياي إلا غفرت لي. فقلت لها: لا تقولي هكذا، ولكن قولي: بحبي إياك

فقالت: يا سيدي، بمحبته إياي، منّ علي بالإسلام، وأيقظني لعبادته، وكثير من عباده نيام.

وقد كتب الله في كتابه عن قوم يحبهم، ويحبونه، وكان حبه هو سابق حبهم» (429)ولكن تذكر ألا تعبد الله على حرف، ولا تطلب عوضًا منه، فالمحب لا يفعل ذلك.

حكمة 243:«ليس المحب الذي يرجو من محبوبه عوضًا أو يطلب منه غرضًا، فإن المحب من يبذل لك، ليس المحب أن تبذل له»

قال أبو عبد الله القرشي رضي الله تعالى عنه «حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببته حتى لا يبقى لك منك شيء» (430)

أما المنع والعطاء فمن الصعب على عقلنا البشري استيعاب معناه وغرضه.

حكمة 83: «ربمـا أعـطـاك فمنعـك.. وربمـا منعـك فأعطـاك» (431)

ولنا في قصة قارون عبرة فقد أعطاه الله الكثير، ولكنه هلك بماله وكنوزه. وصاحب الجنتين في سورة الكهف أعطاه الله الأشجار والخير، ولكنه جحد بنعمة الله. أما صاحبه فلم يكن لديه لا المال ولا الولد، ولكنه كان من الصالحين. قال المتوهم لصاحبه {وَكَانَ لَهُ ثَمَ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَ أَكْثَرُ مِنكَ مَا ا وَأَعَزُّ نَفَ ا} [الكهف: 34]. ومع ذلك العطاء لم يقربه لله، ولم يرضه، أما من لم يملك كل هذا فقد كان راضيًا مؤمنًا. ضاعت جنته الفانية، ولم يتبق سوى اليقين والرضا عند الفقير الذي لا ملك المال ولا النفر، هذه ليست دعوة للفقر بل للرضا.

حكمة 84: «متى فتح لك باب الفهم في المنع، عاد المنع عين العطاء»

أي منع من الله يوجد به عطاء خفي، لو فهمت وعرفت.

حكمة 94: «إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه»«قلت: لأنك لو فهمت عنه تسليت بما فهمته من لطفه وإبراره في منعه وعطائه؛ إذ الكل رحمة وكرامة ولطف» (432)

«وقال بعض العلماء: ما سطع لي زينة من زخرف الدنيا إلا كشف لى باطنه، فظهـر عنـدى عـزوف عنها» (433)

حكمة 86: «إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى، فلا تستعزنَّ بعز يفنى»

كل عز الدنيا يفنى. وكل ما تفتخر بانتمائك له فان.

وعن العلاقة المباشرة بالله يحكي لنا الشيخ زروق هذه القصة «قال: ودخل إنسان من العارفين على رجل وهو يبكى، فقال: ما شأنك؟ قال: مات أستاذي، فقال ذلك العارف: ولم جعلت أستاذك من يموت؟! ويقال لك إذا اعتززت بغير الله فقدته، أو استندت إلى غيره عدمته، {قَالَ فَ ذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ

فِى ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِ ا لَّن تُخۡلَفَهُ وَ نظَرۡ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِ ا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا . إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىۡءٍ عِلۡ ا}[طه: 97، 98]، انتهى» (434)

وتذكر أن البلاء يصيب القريب من الله (الشيخ زروق) «ومن هنا كان أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل، وقال بعضهم: «إن ما حمل فرعون على أن يقول {فَقَالَ أَنَ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ} [النازعات: 24] طول العوافي والغني لبث أربع مائة سنة، ولم يتصدع رأسه، ولم يحم جسمه، ولم يضرب عليه عرق، فادعى الربوبية، اهـ» فإذا علمت أن كل ما سوى الحق موسوم بالفاقة استوحشت منه» (435)

وعن وقوع البلاء يقول ابن عطاء الله في حكمته:

حكمة 101: «ومتى أوحشك من خلقه، فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به» (436)

فلو ابتعد عنك الخلق الجأ إليه، فهو دومًا معك. ولا تكترث من أذى الناس لك.

حكمة 105: «يخفف ألم البلاء عنك علمك بأنه سبحانه وتعالى هو المبلي لك»

وقد أثبتنا أن الله يحبك قبل أن تحبه، ويعتني بك قبل أن تولد. يقول الشيخ زروق «فإنه جميل، الوصف كريم الفعل، لا يقصد ألم عبده إلا لمصلحة له فضلًا ومنا {فَلۡيَأۡتُو بِحَدِي مِّثۡلِهِ إِن كَانُو صَـٰدِقِينَ} [الطور: 48]، وكما عودك ما تحب فاصبر له على ما يحب» (437)

حكمة 105: «فالذي واجهتك منه الأقدار بما لا تريده من الأمور، هو الذي عودك حسن الاختيار»

ويقول ابن عطاء الله أيضا: حكمة 40: «إن لم تحسن الظن به لأجل وصفه، حسن ظنك به لأجل معاملته معك، فهل عودك إلا حسنًا، وهل أسدى إليك إلا مننًا؟»

تذكر نعم ربك عليك طوال عمرك فأحسن ظنك به وقت البلاء.

حكمة71: «إنما جعل الدار الآخرة مـحـلًا لجزاء عباده المؤمنين، لأن هذه الدار لا تـسع مـا يريد أن يعطيهم، ولأنه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها»

عطاء الله أكبر من أن يكون له حدود وهذه الدنيا محدودة.

وكيف لنا أن نستبشر خيرًا، ونتفاءل لو كانت الدنيا ممتلئة بالفاقات، نستشبر لأن وعد الله واضح لأولياء الله بألا يخافوا، ولا يحزنوا.

قال الشيخ زروق «قلت: ثمرة العمل ما ينشأ عنه من الفوائد الدينية والدنيوية، وذلك يدور على ثلاثة: حصول البشارة بزوال الخوف والحـزن لقوله تعالى: {أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ . لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ} [يونس: 62، 63، 64] والحياة الطيبة بالرضا والقناعة لقوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ}[النحل: 97]» (438)

فالاطمئنان من التوكل والحياة الطيبة منبعها الرضا.

حكمة 73: «إن أردت أن تعرف قدرك عنده، فانظر فيما ذا يُقِيمُك»

فلو جعلك الله في عمل في خدمة مخلوقاته فقد أعطاك فرصة لتطيعه وتدخر من حسناتك عنده. ولو أعطاك عملًا لتعلم الناس فقد أقامك على العلم، وهو من أحب الأشياء إليه، ولو كان عملك الحماية فقد أقامك مقاما حسنا، وكل عمل فيه منفعة هو هبة من الله. وتذكر أن الله لو وجهك إليه هو فقد اجتباك حتى ولو تقربت إليه بعد وقوع الكدر والبلاء.

«وقال عبد الواحد بن أبي زيد رضي الله عنـه: «الرضا باب الله الأعظم ومستراح العابدين وجنة الدنيا» (439)

«الفاقة لا تكون نافعة لصاحبها إلا بتحقيق العبودية» (440)

أي أن البلاء لا منفعة فيه إلا لو صاحبه تقرب من الله. وأدرك عجزه أمامه وسلم لقضائه.

حكمة 176:«الفاقات بسط المواهب»

الفاقات هي المصائب والبلايا، والمواهب هي الهبة والهدية والخير. فالبلاء يخفي بداخله هبة، وأكبر هبة هي التقرب منه. البسط هي المنزلة العالية والسعادة.

أي أنها تدخل العارف إلى ربه وتقربه له. وهذا بتحقيق العبودية والرضا، والقيام بحقوق الناس وواجبتنا، والفرار إلى الله.

وقد طلب منا الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه أن نقول: «يا قوى من للعاجز سواك» (441)

يقول الشيخ زروق «قلت: وذلك أن إقرارك بالعجز والفقر والذل والضعف يرجعك إليـه فـتـصـيـر قـادرًا به، غنيًا به، عزيزًا به، قويًا به، فيعود فقرك غنى، وعجزك قدرة، وضعفك قوة، وذلك عز؛ لأنك في محل الاضطرار، وهو يجيب المضطر إذا دعاه، وفي مقام الرضا والصبر وهو مع الصابرين» (442)

حكمة 190: «لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق حتى ترى أن المعطى فيهم مولاك»

ولكن هذا لا يعني ألا تشكر من خدمك أو من كان الوسيط في وصول الرزق لك. شكر الناس واجب في الشريعة.

حكمة 292:«إن كانت عين القلب تنظر إلى أن الله واحد في منته، فالشريعة تقتضي أنه لا بد من شكر خليقته»

اشكر الناس وأنت تعلم أن الله هو الرازق على أيديهم.

ارتباط الحب بالبلاء موجود في كتابات ابن عربي، والشاذلي، وبالطبع ابن عطاء الله. فالدنيا مكان للمنغصات والبلاءات. ولكن ما يريده الله منا هو الوصول لمقام الحب، ومقام الحب مرتبط ارتباطًا وثيقًا بمقام الرضا. فلنرضى يشرح لنا ابن عطاء الله أن البلاء أولًا ربما لا يكون بلاءً بل نعمة، ونحن لا نعرف، وثانيًا أننا لو وثقنا في الله وأحببناه لتيقنا أنه لا يبتلينا ليعذبنا بل ليصفينا ويقربنا.

الطلب من الله واللجوء إليه وآداب الدعاء

يقول ابن عطاء الله «وهو أن الإجمال في الطلب أن يطلب من الله، ولا يعين قدرًا ولا سببًا ولا وقتًا، فيرزقه الحق ما شاء كيف شاء في أي وقت شاء، وذلك من حسن الأدب في الطلب. ومن طلب وعين قدرًا أو سببًا أو وقتًا، فقد تحكم على ربه، وأحاطت الغفلة بقلبه. ويحكى عن بعضهم أنه كان يقول: وددت لو أني تركت الأسباب، وأعطيتُ كل يوم رغيفين، يريد بذلك أن يستريح من تعب الأسباب. قال: فسجنت، ثم كنت في السجن يؤتى لي كل يوم برغيفين فطال ذلك علي حتى ضجرت، ففكرت يومًا في أمري. فقيل لي: إنك طلبت منا كل يوم رغيفين، ولم تطلب منا العافية، فأعطيناك ما طلبت، فاستغفرت من ذلك ورجعت إلى الله، فإذا بباب السجن يقرع، فتخلصت وخرجت. فتأدب بهذا أيها المؤمن، ولا تطلب أن يخرجك من أمر، ويدخلك فيما سواه إذا كان ما أنت فيه مما يوافق لسان العلم، فإن ذلك من سوء الأدب مع الله. فاصبر لئلا تطلب الخروج بنفسك، فتعطى ما طلبت وتمنع الراحة فيه، فرب تارك سببًا وداخل في غيره ليجد الثروة والراحة فأتعب وقوبل بوجود التعسر عقوبة لوجود الاختيار» (443)

أنت بعقلك المقيد لا تستطيع أن تتخيل رزق الله، فمهما طلبت لنفسك ستطلب رزقًا مقيدًا. لذا قال الله {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى للَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ للَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ للَّهُ لِكُلِّ شَىْ قَدْ ا}]الطلاق: 3[، لأن عطاءه أفضل وأكثر مما تتخيل. فلا تجعل خيالك المقيد يتمنى، {كُتِبَ عَلَيْكُمُ لْقِتَالُ وَهُوَ كُرْ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُو شَيْ ا وَهُوَ خَيْ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّو شَيْ ا وَهُوَ شَ لَّكُمْ وَ للَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 216]. (444)

تذكر وأنت تتوكل على الله الإخلاص والصدق، فمن يدعي أنه لا يعبد إلا الله ثم يتبع الأمراء والأغنياء فأين صدقه؟ يعطي لنا ابن عطاء الله هنا مثالًا مهمًا عن هؤلاء فيقول: «ولقد وسمهم الحق بوسمة كشف بها عوراتهم، وأظهر أخبارهم، فبعد أن كانت نسبته أن لو صدق مع الله أن يقال فيه «عبد الكبير» فأخرج عن هذه النسبة بعدم صدقه، فصار يقال له: «شيخ الأمير» (445)

ويقصد ابن عطاء الله أن من يصدق هو من يأتي البيت من بابه، أي يكون مباشرًا لاجئًا إلى الله، وليس إلى سواه. فالله يسأل الصادقين فما بال الكاذبين؟ سؤالهم سيكون اصعب. أنت في هذه الدنيا لطاعة الله وعبادته.

وعن الصدق والكذب يقول ابن عطاء الله «فإذا وقعت الحملة، ولوا على أعقابهم ناكصين، ألسنتهم منطلقة بالدعاوى، وقلوبهم خالية من التقوى، ألم يسمعوا قوله تعالى: {لِّيَسْـَٔلَ لصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِي ا}[الأحزاب:8]؟! أترى إذا سأل الصادقين أيترك المدعين من غير سؤال؟! ألم يسمعوا قوله تعالى: {قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ للَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى للَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ لْمُؤْمِنُونَ} [التوبة:51]؟! فهم في إظهار زي الصادقين، وعملهم عمل المعرضين، قال الله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُو بِمَآ أَنزَلَ للَّهُ قَالُو نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ لْحَقُّ مُصَدِّ ا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَ بِيَآءَ للَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [البقرة:91]» (446)

«ومثال العبد مع الله كمثل أجير أتى به ملك إلى داره، وأمره أن يعمل له عملًا، فما كان الملك ليأتي بالأجير ويستخدمه في داره، ويتركه من غير تغذية، إذ هو أكرم من ذلك، كذلك العبد مع الله، فالدنيا دار الله، والأجير هو أنت، والعمل هو الطاعة، والأجرة هي الجنة، ولم يكن الله ليأمرك بالعمل ولا يسوق لك ما تستعين عليه» (447)

ولكن هل هذا يعني أن نترك الدنيا، ونترك الرزق، ولا نعمل، بل نلجأ إلى السؤال الناس؟ لا بالعكس الصوفية تدعو للعمل، وتدعو للاستمتاع بزينة الله

والطيبات من الرزق، ولكن لا تنسى أن «تجعله نصب عينيك» (448)

لو طلبت شيئا من صاحب سلطة أو مديرك في عمل تذكر أنك ميت يطلب من ميت. لا تعطه قدرًا لا يملكه، فهو لا يحيي ولا يميت. هو أداة وضعها الله في طريقك ليعطيك شيئًا أو ليمنع عنك شيئًا لا مصلحة فيه. هذا لا يعني ألا تشكر الناس أو تساعدهم. بل شكرهم ومساعدتهم عبادة لله لأنهم مخلوقاته، ولكن ضع كل مخلوق في موضعه.

حكمة 25: «ما توقف مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك»

فلنعطِ هنا مثالًا، فلنفترض أنك بعثت لكل أقاربك رسالة قلت فيها «من منكم يستطيع أن يقرضني مالًا لأغطي تكلفة مصاريف مدرسة أولادي؟ من سيجيب؟ أسرعهم في الإجابة سيكون أكرمهم وأطيبهم، أليس كذلك؟ هل ستحتاج بعد ذلك إلي أن تلجأ لغيره أو تلجأ لأصدقائك؟ لا. الكريم إذن لا يمكن أن تتجاوزه لتطلب من غيره أو تأمل من غيره، لأنه يجيب أسرع من غيره. والكريم هو الله، أما البشر فتذكر عجزهم عن رفع الضر عن أنفسهم، فكيف يرفعونه عنك سوى بإذن الله؟ لذا تأتي هذه الحكمة الهامة

حكمة 38: «لا تتعد نية همتك إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه الآمال»

لا يوجد أكرم من ربك معك فلا تطلب من غيره.

حكمة 39: «لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعًا؟ من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه، فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعًا؟»

لنشرح هذه الحكمة نتذكر دعاء لشاذلي: «اللهم قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم» (449) أي إننا لو علمنا أن هناك ضررًا ما مثل حرب مثلا في الغالب سنقف عاجزين عن أن نوقفها مع أننا نراها تشتعل أمامنا. من يستطيع أن يوقفها هو الله عن طريق عباده ومخلوقاته. فمابالك أيها القارئ بخطر لا تعرفه، هو يعرفه لأنه يعرف الغيب وما خفي عنك؟ إذا كنت لا تستطيع أن تدفع عن نفسك خطرًا تعرفه فمن المؤكد أنك لا تستطيع أن تدفع عن نفسك خطرًا لا تعرفه. الإنسان إذن لا بد أن يدرك عجزه، ويستسلم لله، ويسعى، ولكن بيقين أن الله هو المنجي. فلا تطلب من غيره أن يغير حالك لأن مغير الأحوال هو الله. أما الإنسان فعاجز يطلب من عاجز.

حكمة 6: «لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجبا ليأسك»

مثلًا نجد أن سيدنا نوح طلب من الله أن ينقذ ابنه لأنه من أهله، والله قد وعد بإنقاذ أهل نوح. ولكن نوح لم يفهم المراد بالضبط، فيشرح له الله أنه وعد بالفعل بإنقاذ أهله الصالحين، وليس كل أهله. لأن ابنه عمله غير صالح، لذا لن ينقذه الله. {قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ} [هود: 46]. أي أن تختلط عليك الأمور، فلا تعرف مراد الله بالضبط. إذن حتى النبي قد يقف عاجزا عن فهم وعد الله. يجيب الله الدعاء بطريقته وهو العالم بكل شيء. فقد دعا موسى على آل فرعون، ولكن دعوته استجيبت بعد أربعين عامًا. وعندما قال عمر بن الخطاب للنبي: ألم تخبرنا أن ندخل مكة؟

فقال له: أقلت لك هذا العام؟ كفقال: لا. فقال عليه الصلاة و السلام: إنك داخلها ومطوف بها. (450)

إذن لا تسجن نفسك في دعائك بما تعرف، فمعرفتك محصورة، وعطاؤه غير محصور.

فقد وصف الله نفسه بالحي القيوم. وكلمة قيوم تعني المبالغة والاستمرارية في القيام. فالقائم بأمرك هو الله فلا تخف ضرر أحد، ولا تأمل نفع أحد (451)

عندما قال الله ادعوني أستجب لكم لم يحدد كيف سيستجيب، وقد يمنع عنك شيئا تريده «لكون ذلك المطلب لا يليق بك» (452)

حكمة 6: «فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك، لا فيما تختار لنفسك، وفى الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد»

«قلت: وذلك كله مضمن في قوله تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: 60]، فضمن الإجابة بوعده، وجعلها مطلقة إذ لم يقل بعين ما طلبتم، ولا متى شئتم، ولا كيف شئم» (453)

وعن العلم «قال الواسطي أرحم الناس العلماء لخشيتهم من الله تعالى، وإشفاقهم مما علمهم الله عز وجل» (454)

وقال ابن عطاء الله في كتاب التنوير عن رسول الله «طالب العلم تكفل الله له برزقه» (455)

الرحمة والصراط

يقول ابن عطاء الله «صراط الاستقامة لا يشهد بالأبصار، ولكن تشهده القلوب، قال الله تعالى: {وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}

[الأنعام: 153]، ولم يشر إلى موجود، فمن أضاء له الطريق تبعها، ومن كانت طريقته مظلمة لم يشهدها فيبقى متحيرًا» (456)

فابحث عن الصراط المستقيم لتتبعه، وادع الله أن ينيره إليك.

ويقول ابن عطاء الله عن الرحمة: ثم قال سبحانه {وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الأنعام: 54]. اعلم أن «كتب» يقال بالاشتراك على معان: منها «كتب» بمعنى «فرض»، قال الله عز وجل {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 183]؛ ومنها «كتب» بمعنى «خلق» {لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: 22]؛ ومنها «كتب» بمعنى «قضى « ومنه قوله سبحانه: {كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة: 21] أي قضى الله لأغلبن، ومنه قوله سبحانه: {وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الأنعام: 54].

فإن قلت: فما اختصاص هذا الاسم هنا فقال: «كتب ربكم» ولم يقل: «إلهكم» ولا «خالقكم»؛ فاعلم أن الرب هو المربي بالإحسان، والمغذي لك بالامتنان، فكأنه يقول: الذي رباكم بالإحسان أولًا هو الذي كتب على نفسه الرحمة آخرًا، ليضم الإحسان إلى شكله، وليشفع الامتنان بمثله» (457)

«فإن قلت: فما هي الرحمة المكتوبة؟ فاعلم أن رحمته كما قال: {وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: 156] فلا يحيط بها شيء، بل هي المحيطة بكل شيء، وإليه إشارة في قوله سبحانه حاكيًا عن الملائكة صلوات الله عليهم {ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ} [غافر: 7]. فكما عم علمه، فلم يخرج شيء عن علمه، كذلك عمت رحمته، فلم يخرج شيء عن رحمته، وإليه يشير قوله سبحانه

{ لرَّحْمَـٰنُ عَلَى لْعَرْشِ سْتَوَىٰ} [طه: 5] فاستوى برحمانيته على عرشه الذي هو أعظم مخلوقاته، واندرجت العوالم في طي العرش المندرج في رحمته، إشارة إلى عموم رحمته» (458)

رحمة الله قضاء لنا. هذا المعنى نفسه موجود في شرح ابن عربي لرحمة الله التي تتسع لكل شيء. وفكرة الرب تذكرنا بمن ربانا، وعلمنا، ومن كان حبه لنا حب عناية، وأن هذا الحب وجب معه الرحمة.

قلنا وسنقول إن رحمةَ الله قريبةٌ من المحسنين، وإن رحمته وسعت كل شيء. وما من مفكر صوفي إلا ووصف رحمة الله وعنايته بنا. برحمة الله أصبح المحسن محسنًا.

حكمة 169: «عنايته فيك لا لشيء منك، وأين كنت حين واجهتك عنايته، وقابلتك رعايته؟»

فقد نزلت عناية الله بك قبل أن توجد. أنت لم تفعل ما يجعلك تستحق رحمته ورفقه بك. رفق بك ورحمك قبل أن تولد وبعد ولادتك.

وقد قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُو فِى لْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَ دْعُوهُ خَوْ ا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ للَّهِ قَرِي مِّنَ لْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: 56]

قلت: فجعل الرحمة بساط الإحسان، لأن الإحسان بسبب الرحمة، فمتى وجد الإحسان علمنا أن الرحمة هي الموجبة له» (459)

أنت وصلت لدرجة الإحسان برحمة الله بك. أي أنك يا ابن آدم تعتمد على عملك، ولا تعرف أن اللهَ رحيمٌ، فارجه عندما تقع في المعصية لأن رحمته وسعت كل شيء، وتذكر أن كل الصوفيين دومًا يذكرون حديث النبي أن من يدخل الجنة لن يدخلها بعمله فقط، ولكن برحمة الله.

وتذكر أن ترحم عباد الله، وكل مخلوقاته كما رحمك هو، فأعطاك الإيمان والإحسان.

حكمة 158: «من اطلع على أسرار العباد، ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه، وسببًا لجر الوبال إليه»

فلو اطلعت على أسرار العباد فارحمهم. وإلا سيكون اطلاعك هذا فتنة، ويؤدي بك إلى المعصية »المطلع على السرائر التي تقتضي وجود العيب إذا لم يتخلق صاحبه بالرحمة الإلهية فيرحم المذنبين ويحلم على الظالمين، ويصفح عن الجاهلين، ويحسن إلى المسيئين، ويرأف بعباد الله أجمعين: فإنه يكون ذلك الاطلاع فتنة عليه».

عن رسول الله «ما نزعت الرحمة إلا من قلب شقي» (460)

قصة سيدنا إبراهيم عن قسامة بن زهير رضي الله عنه إنه قال «بلغني أن إبراهيم عليه السلام حدث نفسه أنه أرحم الخلق» (461) وهنا جاء اختبار إبراهيم مع ربه، فرفعه الله تعالى، وجعله ينظر إلى أفعال البشر على الأرض، وعندما أبصر ما يفعلون قال «يارب دمرهم. فقال الله تعالى: أنا أرحم بعبادي منك يا إبراهيم، اهبط إلى الأرض لعلهم يتوبون» (462)

«إذا قسا القلب لم تنفعه موعظة كالأرض إن سبخت لم ينفع المطر» (463)

القسوة من أكثر الصفات المكروهة في الإسلام.

التواضع والإخلاص

ومن أخلاق المحسنين الإخلاص، والصدق في العمل، والتواضع، وعدم الحكم على الآخرين.

حكمة 239: «ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع، ولكن المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع»

تذكر أن العبودية مقامٌ يحتاج إلى الإخلاص، والتوكل، والعمل، والعلم، كما قال الشيخ زروق:«صحح عملـك بالإخلاص.. وصحح إخلاصك بالتبـري مـن الحـول والقـوة» (464)

وعن الإخلاص في العمل:

حكمة 121: «متى طَلَبْتَ عوضًا على عمل، طُلِبْتَ بوجود الصـدق فيه»

وقد تحدثنا عن فكرة الإخلاص، وأهميتها في الصفحات السابقة.

حكمة 232: «خير العلم ما كانت الخشية معه»

الذكر:

يقول عن الذكر «فأصقل مرآة قلبك بالخلوة والذكر حتى تلقى الله تعالى، وليكن ذكرًا واحدًا فتنبع لك الأنوار، ولا تكن كمن يريد أن يحفر بئرًا فيحفر ذراعًا هنا، وذراعًا هنا، فلا ينبع له الماء أصلًا، بل احفر في مكان واحد، فينبع لك الماء» (465)

أي لو تكلمت بكلمات قليلة ولكن فهمت معناها، وداومت على ذكر واحد مثلًا كلمة الله، سيفتح الله لك بها الأبواب من الاطمئنان واليقين والصبر.

حكمة 47: «لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه»

لو اعتدت أن تذكر الله كثيرًا ستحضر معه، وتذكره بكل نفسك أكثر مع الوقت. هذا يحتاج إلى رياضة ومجاهدة.

الطريق الى السعادة:

كيف تساعدنا الحكم العطائية على الوصول إلى السعادة؟

قال الشبلي رضي الله عنه:

«مـن عـرف الله لا يكون عليه غم أبدًا» (466)

لو عرفت الله حق معرفة، تستوي عندك الدنيا بما فيها، وتتحرر من قيد الأشياء، معرفة الله على أنواع كما قلنا في مقال سابق، ولتكن معرفتك به تضم معرفتك بعنايته ورحمته. فقد عودك الصبر عليك لو عصيت، والرحمة بك والستر. فتذكر عنايته، وحبه، وتقرب له. والقرب من الله شعورٌ داخلي كامن في القلب.

حكمة 223: «النعيم وإن تنوعت مظاهره إنما هو بشهوده واقترابه، والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو بوجود حجابه، فسبب العذاب وجود الحجاب، وتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم»

السعادة الحقيقية في القرب من الله واليقين من وجوده حولك أما لو حجبك شيء عن ربك فهذا سيؤدي إلى العذاب في الدنيا. فأن تشهد الله ببصيرتك وتتيقن منه وتعبده على مشاهدة تصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

حكمة 224: «ما تجده القلوب من الهموم والأحزان فلأَجل ما مُنِعْتَ من وجود العيان»

ما هو العيان؟ أن ترى الله قريبًا منك، تشعر به حولك ومعك، تعاينه في كل شيء وفي كل خلقه. فلو لم تر الله وتعاينه معك فسوف تصاب بالغم بالتأكيد.

ولا تجعل أمانيك تقف عائلًا بينك وبين ربك أو راحتك. تذكر أنه يعرف الصالح لك والغيب. وقد يبعد عنك الفتن، لا لأنه لا يثق بك، ولكن كما تبعد الأم أي يد عن ابنها حمايةً له من الأمراض أو العدوى.

حكمة 225: «من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ويمنعك ما يطغيك»

«قلت: يرزقك الكفاية فلا يشوشك بالفـقـد، ويمنعك الزيادة لئلا يشغلك بالوجد، بل تكـون سـالمًا من إقبالها وسالمًا من إدبارها» (467)

حكمة 226: «ليَقلَّ ما تفرح به، يِقِلَّ ما تحزن عليه»

فلو تحررت من الدنيا لن تأسى عليها، كلما امتلك شخص أملاكًا زاد همه وقلقه عليها إلا لو سلم كل شيء لربه.

يحكي زروق هذه القصة «قلت: وليكثر ما تفرح به يكثر ما تحزن عليه، لأن الحزن بالفقدان على قدر الفرح بالوجدان، وقد حكى أن بعض الملوك أهدى إليـه قـدحٌ من فيروزج مرصعٌ بالدر والياقوت، فقال لبعض الحكماء عنده: ما تدري هذا؟ قال: أراه مـصيـبة وفقرًا!! قال: وكيف؟ قال: إن انكسر القدح كان مصيبة لا جبر لها، وإن سرق صرت فقيرًا إليه ولم تجد مثله، وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر. فاتفق أن انكـسـر القدح في بعض الأيام، فعظمت مصيبـة الملك، وقال: صدق الحكيم، ليته لم يحمل إلينا، ومن أعظم ما يفرح وجود الولاية وتحتها مصيبة العزل عنها أو عزلها عنك» (468)

فلتسعد لو اقتربت من الله فلا سعادة تضاهيها.

حكمة 235: «أراد أن يزعجك عن كل شيء، حتى لا يشغلك عنه شيء»

يريد الله أن تشهد على اضطراب الدنيا وأكدارها حتى تلجأ إليه هو وحده ولا تنشغل بها.

أنت مهم في هذا الكون

أنت بين قيد وحرية، كل ما تحبه من الأشياء يقيدك، وكل ما تحبه من صفات ربك يحررك. كلما انطبع في قلبك صورة أشياء مزينة ازداد ظلامه، وكلما رأيت ربك وهو أهم من كل شيء، أنير قلبك. سخر لك الله الأشياء لتعبده، فلا تكن عبدًا لما سخر لك الله.

حكمة 245: «جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته، وأنك جوهرة تنطوي عليـك أصـداف مكوِّناته»

حكمة 246: «إنما وَسِعك الكون من حيث جـسـمـانـيـتـك، ولـم يـسـعك من حيث ثبوت روحـانـيـتك»

وقد تطرقنا إلى فكرة الحرية والسجن في بداية المقال.

ملخص

اخترنا بعض الحكم التي تساعدك أيها القارئ للوصول إلى السعادة. تكلمنا عن معرفة الله، وعن التوكل عليه، والصبر، وعن كيفية الطلب من الله، وكيف يستجيب. وتكلمنا عن العلم والذكر والكرامات، بل تكلمنا عن كون الله قد كرَّمك في هذا الكون، ورفع من شأنك، فلا تكن عبدًا لشيء غيره. وتكلمنا عن السعادة والوصول إليها.

ومضـة نـور

من دعاء ابن عطاء الله السكندري

«إِلهِي، إِنَّ القَضاء وَالقَدَرَ غَلَبَني. وَإِنَّ الهَوى بِوَثائِقِ الشّهْوَةِ آسَرَنِي.. فَكَنْ أَنْتَ النَّصِيرَ لِي حَتَّى تَنْصُرَنِي وَتَنْصُرَ بِي. وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ حَتَّى اسْتَغْنِي بِكَ عَنْ طَلَبِي. أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الأنْوارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ. وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الأَغْيارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِواكَ. وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلى غَيْرِكَ. أَنْتَ المؤنس لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ العَوالِمُ. وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَيْثُ اسْتَبانَتْ لَهُمْ المَعالِمُ. ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ، وَما الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ؟!» (469)

«إلهي أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيرًا في فقري؟ إلهي أنا الجاهل في علمي، فكيف لا أكون جهولًا في جهلي؟ إلهي إن اختلاف تدبيرك، وسرعة حلول مقاديرك منع عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء أو اليأس منك في البلاء» (470) ابن عطاء الله «يا رَبِّ إِن عَظُمَت ذُنوبي كَثرَةً، فَلَقَد عَلِمتُ بِأَنَّ عَفوَكَ أَعظَمُ» (471) الإمام الشافعي «اللهم إنك كنت لنا من قبل أن نكون لأنفسنا، فكن لنا بعد وجودنا كما كنت قبل وجودنا. وألبسنا ملابس لطفك، وأقبل علينا بحنانك وعطفك. وأخرج ظلمات التدبير من قلوبنا، وأشرق نور التفويض في أسرارنا. وأشهدنا حسن اختيارك لنا حتى يكون ما تقتضيه فينا وتختاره لنا أحب إلينا من مختارنا لأنفسنا» (472)

ابن عطاء الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الحب عند ابن عربي

«إنهم يخافون الحب لأنه يخلق عالمًا لا يعرفونه»

جورج أوريل في روايته ألف وتسعمائة واثنين وثمانين

يقول الدكتور عبد الحليم محمود عن الشيخ الأكبر ابن عربي «أما الذي طوع مختلف العلوم، وامتلك ناصية المعرفة على مختلف فروعها، ووصل فيها على القمة: لم يجاره في ذلك فليسوف من فلاسفة الشرق، ولم يجاره في ذلك فليسوف من فلاسفة الغرب فإنه: الشيخ الأكبر محيي الدين، لقد طوع المعرفة لفكره، وطوعها لقلمه، وبلغ فيها القمة، وبحق سمى الشيخ الأكبر، ولقد كان في فتوحاته مفسرًا خيرًا من كثير من المفسرين، وفقيهًا خيرًا من كثير من الفقهاء، وشارحًا للحديث خيرًا من كثير من شراحه، وفتوحاته كنز من المعرفة لا ينفد، ومعين من العلم لا ينضب» (473)

من هو ابن عربي؟ نشأ محمد بن على بن محمد بن عربي في الأندلس، وولد في مرسية وهو المكان نفسه الذي سيولد به أبو العباس المرسي تلميذ الشاذلي بعدها بحوالي ستين عامًا ينسب لابن عربي حوالي سبعمئة كتاب ولقب بالشيخ الأكبر، والكبريت الأحمر، ويقول عنه الشيخ عبد الحليم محمود إنه «بلغ القمة في المجال الصوفي» (474) لن نبالغ إذا قلنا إن محيي الدين بن عربي من أهم المفكرين، ليس في العالم الإسلامي فحسب، وإنما في العالم كله. ولقاؤه الشهير بابن الرشد، ربما يلخص اتجاهه وطريقة تفكيره. نشأ ابن عربي في عائلة ميسورة، ووالده يبدو مقربًا من الأسرة الحاكمة في الأندلس. اتجاهه إلى طريق التصوف كان عن قناعة واختيار في سن صغيرة، ويبدو أنه لم يكن على هوى والده حينها. ولكن يحكي لنا ابن عربي القليل عن حياته الشخصية، وكل ما يصل إلينا معظمها تكهنات. من الواضح أنه كان مرتبطًا بأمه لأن اسمها «نور» قد ورد في كتاباته، كما أخبرنا أنها كانت تأخذه وهو طفل ليحضر دروسًا عند سيدة فاضلة تعلمه القرآن، يبدو أن أول علاقة حب ربطت ابن عربي كانت بأمه، وأنها كانت علاقة وثيقة، وربما كانت سببًا في احترامه الشديد للمرأة في كل كتاباته. بل إنّ ابن عربي قال بصراحة إن المرأة يمكن أن تصل إلى القطبية، وإنها تستطيع أن تصل إلى منازل الرجال. ومن الواضح أيضًا من مسيرة ابن عربي أنه لم يكن يريد أن يصاحب الأمراء والساسة، فبعد موت والده ترك الطريق الصوفي ليزوج أختيه، ورفض مساعدة الأمير حينها. وبعد أن زوج أختيه، بدأ أسفاره وكتاباته المهمة. يقول الكاتب جمال الغيطاني إن الإنسان يحتاج إلى عمر بأكمله لينتهي من قراءة مؤلفات ابن عربي، وهذا كان ردًا على من يكفر ابن عربي دون أن يقرأ له. ومن يقرأ لابن عربي يعرف أنه لم يكن مجرد مفكر أوعالم صوفي، بل كان

فقيهًا متبحرًا في الشريعة، يضع نصب عينيه القرآن والسنة باعتبارهما مصدرين أساسيين لطريقه. ترك لنا إرثًا من الكتب ربما أكثر من التلاميذ، بينما الشاذلي لم يترك أي كتب وترك تلاميذ كثيرين كما قال: «أصحابي هم كتبي» (475)

ربما تعرض ابن عربي للظلم في حياته وبعد مماته، ولكن الصوفية يتوقعون الظلم، ويتعاملون معه كالبلاء بصبر وشكر. وعندما بدأ أسفاره، اتجه الى مصر، وهناك قيل إنه تكلم مع ابن الفارض، ورحب به السلطان الكامل، ولكن اعترض بعض الشيوخ في مصرعلى كلامه، وحاولوا قتله. وربما يكون قد سجن بعض الوقت، لا نعرف بالضبط. خرج من مصر إلى مكة، وكتب أهم كتبه وهي «الفتوحات المكية» الموجود حاليًا في تسعة مجلدات، وسماها «الفتوحات» لأنه شعر أنها فتح من الله عليه. وهذا دومًا شعور الصوفيين، فنجد كتاب عبد القادر الجيلاني الذي جمعه أحد تلاميذه من محاضراته عنوانه «الفتح الرباني والفيض الرحماني» و «فتوح الغيب».

أما عن حياة ابن عربي الشخصية فقد كانت بالطبع ملهمة لأعمال أدبية ودرامية، ومع ذلك لا نستطيع أن نتأكد سوى من القليل منها. فمثلًا تكلم ابن عربي في كتبه عن ابنة تدعى زينب، يحبها، ويرى فيها نبوغًا وصفاء، ماتت صغيرة، ورثاها ابن عربي بقصيدة. كم زوجة تزوج؟ وكم طفلًا أنجب؟ نعرف أن لديه أولادًا اتخذوا طريق العلم والدين، ولا نعرف الكثير عنهم. قصة كتابه «ترجمان الأشواق» من القصص المهمة التي استعملها البعض لتشويه ابن عربي أحيانًا، أو المبالغة في فهمه للحب أحيانًا أخرى. يخبرنا ابن عربي أنه كتب هذه القصائد لبنت تدعى «نظام» قابلها في مكة، ووالدها شيخ صالح. يبدو أنه قابلها وهو في الأربعين من عمره، وقد مكث في مكة حوالي عشر سنوات. ولكن ابن عربي بعد ذلك كتب كتابًا آخر يشرح فيه معاني «ترجمان الأشواق»، وقصده من هذا الكتاب وقال فيه إن كل المعاني والكلمات الواردة في ترجمان الأشواق لا بد أن تؤخذ على سبيل المجاز، وليس الغرض منها التغزل في نظام. على كل حال، لا أحد يعلم بالضبط هل تزوج ابن عربي بنظام؟ هل بادلته المشاعر؟ هل للعلاقة وجود أصلًا؟ لا يمكن التأكد من هذا. كل ما نعرفه أن كتابات ابن عربي كلها تؤكد على أن المحبوب الأكبر والأهم لكل البشر هو الله، وأن الله أحبنا قبل أن نحبه، وأن أي حب يبعدنا عنه فهو ليس حقيقة، وكل حب يقربنا منه فهو له هو، وليس لأي بشر؛ لأن لا وجود إلا له.

ولكي نعرف أكثر عن شخصية الشيخ الأكبر فلنسشتهد بكلماته هو من كتابه الأشهر الفتوحات المكية فقد أوصى فيه بالآتي:

« وعليك بإقامة حدود الله في نفسك، وفيمن تملكه، فإنك مسئول من الله عن ذلك، فإن كنت ذا سلطان تعين عليك إقامة حدود الله فيمن ولاك الله عليه، فكلكم راع و مسئول عن رعيته، وليس سوى إقامة حدود الله فيهم، وأقل الولايات ولايتك على نفسك وجوارحك، فأقم فيها حدود الله، ولا تعرف الخير والشر إلا بتعريف الشرع» (476)

ينصح ابن عربي بإقامة حدود الشرع، ودراسة الشرع لردع النفس عن الفساد. ويستطرد في كتابه بإعطاء نصائح كثيرة عن الصدق في الصلاة، والصوم، والزكاة، وإعطاء كل ذي حق حقه، والوفاء بالعهد، والبعد عن المحارم وكرهها، وطلب معونة الله في الوقاية منها. فهذا رجل وضع الشريعة كأول عنوان لطريقه، ثم تعمق في البحث وهو يجاهد نفسه، ويردعها طوال حياته. لذا سمي «الشيخ الأكبر»، ولذا حظى باحترام وتقدير العلماء. وفي هذا الكتاب سنعرض القليل من وصايا ابن عربي، وأفكاره، ونتمنى من القارئ أن يفتح كتاب الفتوحات يومًا ما عندما يحين الوقت.

أما عن شخصية ابن عربي التي كتب عنها الكثيرون فسوف نلخص طريقته مع الناس في هاتين القصتين من كتاب جلال الدين السيوطي تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي

«وقال الشيخ عبد الغفار القوصي في كتاب «الوحيد في سلوك أهل التوحيد» قال: حدثني الشيخ عبد العزيز المنوفى - خادم الشيخ محيي الدين بن عربي – قال: كان الشيخ يمشي، وإنسان يسبّه، وهو ساكت لا يرد عليه.

فقلت: يا سيدي ما تنظر إلى هذا؟

قال: ولمن يقول؟

قلت: يقول لك.

فقال: ما يسبني أنا.

قلت: كيف؟

قال: هذا تصورت له صفات ذميمة، فهو يسب تلك الصفات وما أنا موصوف بها» (477)

هذه القصة تؤكد أن ابن عربي كان يتبع النصائح التي نصح بها الناس في كتاباته عندما نصح الناس أن ترحم كل مخلوقات الله وأن تكره أفعال الخلق لا الخلق أنفسهم، وأن تصبر على الأذى، وتسبغ علاقتها بالآخرين بالعفو والمغفرة. وها هي قصة أخرى من الكتاب نفسه تدل على ذلك.

«قال (الشيخ عبد الغفار): وحكى الشيخ عبد العزيز: أن شخصًا كان بدمشق فرض على نفسه أن يلعن ابن عربي كل يوم عقب كل صلاة عشر مرات، فاتفق أنه مات، وحضر ابن عربي مع الناس جنازته، ثم رجع وجلس في بيت بعض أصحابه، وتوجه إلى القبلة، فلما جاء وقت الغداء، أحضر إليه الغداء، فلم يأكل، ولم يزل على حاله متوجهًا يصلي الصلوات ويتوجه (يعني يتوجه بالدعاء) - إلى بعد العشاء الآخرة، فالتفت وهو مسرور، وطلب الطعام.

فقيل له في ذلك؟!

فقال: التزمت مع الله ألا آكل، ولا أشرب حتى يغفر لهذا الذي كان يلعنني، فبقيت، كذلك وذكرت له سبعين ألف «لا إله إلا الله»، ورأيته قد غفر له (يعني في غفوة غفاها الشيخ أثناء هذا الوقت أو بالكشف المعروف عندهم) (478)«

فها هو الشيخ الأكبر يطلب المغفرة لمن أساء إليه. ويفعل ذلك لأنه يبجل كل خلق الله ويرحمهم.

دعونا نعود للقاء العباقرة ابن عربي وابن الرشد الذي حكى عنه ابن عربي بالتفصيل.

«دخلتُ يومًا بقرطبة، على قاضيها أبي الوليد بن رشد، وكان يرغب في لقائي لما سمع، وبلغه ما فتح الله عَلَيَّ في خلوتي، وكان يُظهر التعجب مما سمع؛ فبعثني والدي إليه، في حاجة قصدًا منه؛ حتى يجتمع بي، فإنه كان من أصدقائه، وأنا صبي ما بَقَلَ وجهي، ولا طرَّ شاربي، فلما دخلتُ عليه، قام من مكانه إِلَيَّ؛ محبَّةً وإعظامًا، فعانقني وقال لي: نعم؟ فقلت له: نعم؟ فزاد فرحه بي، لفهمي عنه، ثم استشعرتُ بما أفرحه من ذلك، فقلتُ له: لا؟ فانقبض، وتغيَّر لونه، وشكَّ فيما عنده، وقال: كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهي، هل هو ما أعطاه النظر؟ قلت له: نعم ولا، وبين نعم ولا تطير الأرواح؛ فاصفرَّ لونه، وقعد يحوقل، وعرف ما أشرتُ به إليه» (479)

يظهر من القصة أن ابن عربي اتبع الطريق الصوفي، وهو صغير في السن، فهو يقول هنا إنه قابل ابن الرشد وشاربه لم ينضج بعد. أما «نعم ولا» الشهيرة التي تكلم بها ابن عربي مع ابن الرشد، فهي تلخص اختلاف الصوفيين عن الفلاسفة. حتى أن الغزالي نفسه رأى هذا الاختلاف مع أنه استعمل الفلسفة لطرح وجهة نظره، ومع أنه من أهم الفلاسفة المسلمين فإنه كان ضد الفلسفة لعدم قدرتها على الوصول إلى الحقيقة. هذا لا يعني على الإطلاق أن الصوفيين ضد استعمال العقل، بل يعني أنهم يرون في العقل حدودًا، وفي حقيقة الله والوجود لا محدودية، لا يمكن استيعابها إلا بالخيال أو المدد أو الفتح، كلها نعوت لنفس المعنى.

ابن الرشد يرى أن الوصول إلى الله يأتي بالعقل (النظر)، وأن الفلسفة والدين ليسا على النقيض. وهذا صحيح بالنسبة لابن عربي، ولكنه ليس كافيًا. فابن عربي يرى أنه وصل بخلوته وتصوفه لمعنى أعمق وأهم يصعب شرحه بالعقل لأنه ذوقي. إذن العقل ربما يمكنه تفسير بعض الأشياء، ولكن ليس كل الأشياء، لذا جاءت «نعم ولا» ويبدو أنه حدث لقاء آخر بينهما، وكانوا ينوون مقابلة ثالثة، ولكن توفي ابن الرشد بقرطبة. القصة توضح احترام العلماء بعضهم لبعض، واحترام عالم كبير ومهم مثل ابن الرشد لصبي في فترة المراهقة يجادله ولا يتفق معه، بل رغبة ابن الرشد في لقائه، وهذا إن دل على شيء فيدل على قمة الموضوعية والحيادية في العلم.

الحب عند ابن عربي هو سر الوجود وسر السعادة، أحبنا الله فقال كن فيكون. أحبنا فخلقنا، هو من أحبنا، وصبر علينا، وغفر لنا، وراعانا وهو معنا أينما نكون، الحب شاهد على وجود الله، فنجد أن الحب هو ما يجمع الأب بابنه أو ابنته، والأخ بأخته، والزوج بزوجته. نحب بشرًا أحيانًا فنبذل من أجلهم الغالي والثمين، وأحيانا نحب هدفا أو شيئًا. نحب وطنًا نحيا فيه فنضحي من أجله بأنفسنا، وبعضنا يحب المال حبًا جمًا- كما قال الله في كتابه- فيضحي بأخلاقه ونفسه من أجل المال. فالحب يحكم بين البشر والكون. أحيانًا أيضا نكره شخصًا فنعاقبه أو نظلمه، ونكره ظالمًا فنحاربه، ونخاف من شر الشيطان فنكرهه. إذن الحب والكره هما المحرك للكثير من الأشياء. لو اختفى الحب تمامًا من الأرض لأصبحت مخيفة، بل ستصبح كما توقعها الكاتب الأمريكي جورج أوريل في روايته ألف تسعمائة وأربعة وثمانين، ستصبح كلها شرًا وقمعًا وخوفًا. فالحب أول قطرة في طريق القوة والمقاومة. ولو كان الحب صادقًا ومخلصًا يحرر صاحبه بالتأكيد من قيود الدنيا، سواء كانت قيودًا فرضها عليه نظام مثل رواية أوريل أو كانت قيودًا فرضتها عليه الدنيا نفسها. كلنا نبحث عن الحرية، ونرى مفتاح السعادة في الحرية دون أن نفهم ما معنى الحرية. وللصوفي معنى أعمق وأشمل للحرية، في حب الله الحرية المطلقة لأنها تعطيك قوة لا مثيل لها في هذا العالم ولأنها تغنيك عن من سواه فلا تصبح عبدًا لشيء أو لشخص. ولكن هذه المعاني المجردة صعبة دون أمثلة. فنبدأ الحديث عن الحب وهذا حديث طويل فكم من الشعراء عبروا عن الحب، وكم من الروايات تكلمت عنه. ولكننا سنبدأ بقصيدة للشاعر السوداني الهادي آدم، قصيدة غنتها أم كلثوم في منتصف القرن العشرين، يعبر فيها الشاعر عن فرحته بلقاء الحبيب. أي حبيب؟ عبر الشاعر عن الشوق والتوتر الذي يصحب انتظار من يحب، وعبر عن التفاؤل والأمل في اللقاء حتى أن انتظار اللقاء يصبح في حد ذاته متعة مثله مثل اللقاء، وها هي بعض كلمات القصيدة:

«أغدًا ألقاك؟ يا خوف فؤادي من غدِ يالشوقي واحتراقي في انتظار الموعدِ

آه، كم أخشى غدي هذا وأرجوه اقترابا» (480)

لو طلبت من القارئ أن يخرج من هذه القصيدة أحاسيس الشاعر ناحية هذا اللقاء وهذا الحبيب، فإنه سيتكلم عن الخوف، والشوق، والوجد، والتمنى، والأمل. الكثير من الأمل. وهل يجب أن ننظر إلى هذه القصيدة على أنها قصيدة حب بين رجل وامرأة؟ ألا يمكن أن تتمنى أم لقاء ابن غائب؟ أو تتمنى أخت لقاء أخ وعدها بالمجيء بعد أعوام؟ ألا يمكن أن يتمنى المؤمن يومًا لقاء ربه؟ ألم يعد الله عباده المؤمنين بلقائه، فقال في كتابه {وُجُوه يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ} [القيامة: 22]. بل أخبرنا الله في كتابه عن قوم {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى الْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: 77]. البعد إذن عن الله هو قمة العقاب، والقرب منه هو الهدف الأسمى للمحب.

بالنسبة للصوفي الحب هو المحرك. بالحب صنع الله الوجود، وأحبنا قبل أن نحبه.

ما هو الحب؟

يقول ابن عربي:

«قال بعضهم: الحب لا يصح، ومنهم من قال: ما ثم إلا الحب، ومنهم من قال: الحب نعت لا صفة، ومنهم من قال: الحب سر إلهي يعطى في كل ذات على حسب ما يليق بها، ومنهم من قال: كيف تنكر الحب، وما في الوجود إلا هو، ولولا الحب ما ظهر، فمن الحب ما ظهر، وبالحب ظهر، والحب سار فيه، والحب ينقله، ومنهم من قال: لا يصح نكران الحب، فبالحب حرك المحرك، وبالحب تحرك المتحرك وسكن الساكن، وبالحب تكلم المتكلم وصمت الصامت، ومنهم من قال: الحب سلطان يتبعه كل شيء» (481)

فظهور الإنسان كان ثمرة حب الله. وبالحب نعرف الله، وبحب الله نتحرك، ونسكن، ونعيش. ومن لم يجرب الحب مات دون أن يعيش. والحب أولًا لله، ثم لمخلوقاته التي خلقها. فمن حبنا له نحترم مخلوقاته كلها ونقدرها.

ما هي صفات المحب؟

وللحب علامات منها طاعة المحبوب فيما يطلب منا، وحب ما يحبه المحبوب، فاذا أحب المحبوب الطاعات نحب أن نسعده بطاعته، وإذا أحب أن نتصدق نتصدق لنرضيه. ومن علامات الحب أن نكره ما يكره المحبوب من فساد وظلم وتكبر وقسوة.

ويضيف ابن عربي أن الحب مقام إلهي، فمن أسماء الله الحسنى الودود. ولاحظ أن كل المخلوقات تسبح بحمد ربها. وعندما يحب العبد ربه ينعت بصفات المحبين. ومن يحب يقتل نفسه - مجازا - ويفنيها في الحب، فيصبح وجوده مقترنًا بوجود محبوبه ويطيع المحبوب في كل ما يأمر به.

ومن أحب الله، هان عليه ما سواه. ومن نعوت حب الله وأهم صفة لهذا الحب، هي الثبات، وسوف نتكلم عنها لاحقًا. أما المقام الذي يتمناه محب الله هو مقام الخلة، وهو أن يكون خليل الله، مثل سيدنا إبراهيم عليه السلام. وهو عبارة «أن تصاحب الله» هو استعمال مجازي بالطبع، ولكن أن يكون الله هو من يصاحبك، فهذه حقيقة لكل البشر فهو معنا أينما كنا.

فبحب الله نطيعه ونخاف من غضبه؛ لأنه لو غضب نبتعد عنه أما هو فقريب منا دائمًا. والحجب أو عدم الشعور برؤية الله وشهادته حولنا هو أكبر عقاب للصوفي؛ فمحرك الصوفي هو حبه لله فقط. ولأن الله لم يخلق للرجل قلبين في جوفه يصبح حب الله هو الحب الأوحد في القلب، وحب مخلوقاته يأتي كنتيجة لحبه هو. أما لو طغى حب الأشياء أو المخلوقات على حبنا له، فهذا بالنسبة لابن عربي نوع من أنواع الشرك الخفي بالله كما سنرى لاحقا.

وكما قلنا إن من شروط المحبة أن تكره ما يكره المحبوب، وأن تحب ما يحبه المحبوب. وتحب كل ما هو من طرف المحبوب كالأنبياء والصالحين والفقراء والمساكين والسائلين وكل من ذكرهم. تكرم كل من أكرم، وترحم كل من رحم، أي كل ما تحت عرش الرحمن.

بالنسبة لابن عربي للمحب سمات تدل على حبه، منها مثلًا أن المحب يريد صحبة محبوبه، ويريد صحبة محبوبه طوال الوقت وليس بعض الوقت، وليس في الدنيا الفانية فقط، ويتطلع إلى لقاء لا فراق معه، ولا يوجد هذا اللقاء سوى بين الله وعبده، فالله لا يفارق العبد لا في الدنيا أو الآخرة، أما دون الله فهو فانٍ. هذا التطلع إذن إن دل على شيء فهو يدل على حب لله، حتى لو اختلط الأمر على الإنسان فظن أنه حب للموجودات الفانية. ومن صفات المحب أنه يشعر بالرضا والراحة إذا سمع كلام محبوبه وتكلم معه. والإنسان محب الله، لا وجود له لأنه فانٍ، ولكن قيامه بما أمر الله يجعله موجودًا فهو «محو في إثبات». وثباته على حبه لله في السراء والضراء يجعله موجودًا عند الله. والمحب مقتول في حبه يتبع كل ما يطلبه منه محبوبه.

في الحياة الدنيا العبد محو فهو فانٍ، أما عند الله فهو موجود دومًا لأن الله حبه حتى قبل أن يولد، وكل بلاء أو ضرر يقع عليه في ميزان حسناته، وهو غير باقٍ أي سينتهي. ولكن ما يثبت عند العبد القريب من الله هو الحب.

في الحياة الدنيا يعاتب المحبوب نفسه على عدم قدرته على أن يطيع الله في كل أمر، ولكن في الآخرة لا يوجد سوى الحب، سيتلاشى العتاب ويصبح الموت هو بداية الرضا الكامل.

هذه كلمات ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية التي يصف بها حال المحب:

«نعت المحب بأنه يستريح إلى كلام محبوبه وذكره بتلاوة ذكره» (482)

من صفات المحب أن يحب القرب من محبوبه، والكلام معه، وسماعه. فذكر اسم الله على اللسان حب له، وسماع القرآن سماع كلماته لنا. هذه أفعال المحب.

«قال تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا لذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ}[الحجر: 9]، فسمى كلامه ذكرًا» (483)

يقول ابن عربي «فمن هناك استراح المحبون إلى كلام المحبوب، وذكره، والقرآن كلامه، وهو ذكر فلا يؤثرون شيئًا على تلاوته» (484)

يقول ابن عربي: «نعت المحب بأنه راغب في الخروج من الدنيا إلى لقاء محبوبه» (485)

الإنسان يبحث عن السعادة، والصوفي أو المؤمن يدرك أن السعادة الصافية غير موجودة في هذه الدنيا، والمحب يريد أن يقابل محبوبه كما في قصيدة أغدًا ألقاك. ولكن وجوده في الدنيا وهو في انتظار يوم مقابلة محبوبه يمكن أن يعطيه الرضا، والرضا لا يأتي سوى باليقين وترك الاختيار مع المحبوب. تقول القصيدة:« فأت أو لا تأتي أو فافعل في قلبي ما تشاء» (486)

ترك النفس تمامًا في يد المحب هي قمة العشق والشوق

يقول ابن عربي في الفتوحات: «هو لما ذكرناه في هذا الفصل قبله لأن النفس من حقيقتها طلب الاستراحة، والغم تعب، وكمونه أتعب، والدنيا محل الغموم، والذي تختص به هذه المنصة رغبته في لقاء محبوبه وهو لقاء خاص عينه الحق إذ هو المشهود في كل حال، ولكن لما عين ما شاء من المواطن وجعله محلًا للقاء مخصوص رغبنا فيه ولا نناله إلا بالخروج من الدار التي تنافي هذا اللقاء وهي الدار الدنيا. (....) ورد في الخبر أنه من أحب لقاء الله يعني بالموت أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، فلقيه في الموت بما يكرهه، وهو أن حجبه عنه و تجلى لمن أحب لقاه من عباده، ولقاء الحق بالموت له طعم لا يكون في لقائه بالحياة الدنيا» (487)

أي أن رؤية الله لا تحدث في الحياة الدنيا، ولكن تذوق قربه وشهوده ممكنة للمقربين. لقاؤه لا يحدث سوى بالموت، ولا يحدث إلا لمن يريد لقاءه وعمل

للقائه، لا لجنة أو نار فقط. ومن صفات المحب شغله بحبه عمّن سواه كما قالت رابعة العدوية: «فشغلي بذكرك عمّن سواك» (488)

يقول ابن عربي في الفتوحات:

«واعلم أن كل حب لا يحكم على صاحبه بحيث إن يصمه عن كل مسموع سوى ما يسمع من كلام محبوبه، ويعميه عن كل منظور سوى وجه محبوبه، ويخرسه عن كل كلام إلا عن ذكر محبوبه وذكر من يحب محبوبه، ويختم على قلبه فلا يدخل فيه سوى حب محبوبه، ويرمي قفله على خزانة خياله، فلا يتخيل سوى صورة محبوبه، إما عن رؤية تقدمته، وإما عن وصف ينشئ منه الخيال صورة فيكون كما قيل: خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب؟

فيه يسمع، وله يسمع، وبه يبصر، وله يبصر، وبه يتكلم، وله يتكلم» (489)

يصف هنا ابن عربي قمة حب الله التي تسيطر على الإنسان تمامًا، فلا يرى ولا يتكلم سوى ومحبوبه معه.

لاحظ استعمال حروف الجر هنا للدلالة على أن ما في الوجود غير الله هو الغاية والهدف، كل شيء له ويرد له. فقد استعمل ابن عربي حروف: فيه، وبه، وله، إذ هو أصل كل شيء بل هو كل شيء.

الحب الحقيقي حب واحد لله

يقول ابن عربي «وإنما المحبوب يختلف، فالحب والوجد والشوق وجميع نعوت الحب وصف للحب، كان المحبوب ما كان إلا أني اختصصت في هذا الكتاب الحب المتعلق بالله الذي هو المحبوب على الحقيقة، وإن كان غير مشعور به في مواطن عند قوم، ومشعورًا به عند قوم، وهم العارفون فما أحبوا إلا الله مع كونهم يحبون أرواحهم وأهليهم وأصحابهم» (490)

يقول ابن عربي في هذا المقطع إن بعض الناس يدركون أن حبهم لأشخاص أو لأشياء هو في الحقيقة حب لله الذي خلق الأشياء والأشخاص وبعض الناس يحيا حياته متعلقا بالفاني من الأشياء والأشخاص فلا يشعر بالحب الحقيقي وهو حب الله. فحب الله إذن هو الحقيقة الوحيدة. أما حب الأهل، والزوجة أو الزوج، والابن والمال إلى آخره، كلها أشكال لأشياء زينها الله لنا أو خلقها لنا، مصدرها إذن هو الله، كما قلنا في بداية هذا المقال.

ويضيف ابن عربي «واعلم أنه لا يستغرق الحب المحب كله إلا إذا كان محبوبه الحق تعالى فلهذا يستغرق الإنسان الحب، وإذا تعلق بالله وكان الله محبوبه فيفني في حبه في الحق أشد من فنائه في حب أشكاله، فإنه في حب أشكاله فاقد في غيبته ظاهر المحبوب. وإذا كان الحق هو المحبوب، فهو دائم

المشاهدة، ومشاهدة المحبوب كالغذاء للجسم به ينمي ويزيد. فكلما زاد مشاهدة، زاد حبًا. ولهذا الشوق يسكن باللقاء والاشتياق يهيج باللقاء، وهو الذي يجده العشاق عند الاجتماع بالمحبوب لا يشبع من مشاهدته، ولا يأخذ نهمته منا لأنه كلما نظر إليه زاد وجدًا به وشوقًا مع حضوره معه كما قيل: ومن عجب إني أحن إليهم، وأسأل شوقًا عنهم، وهم معي وتبكيهم عيني وهم في سوادها، وتشتاقهم نفسي، وهم بين أضلعي» (491)

نقف عند شرح ابن عربي للحب، وفكرة الشهود والصور. بالنسبة لابن عربي، الله خلق الإنسان على أي صورة ما أراد له أن يكون. فعندما ينظر الإنسان لشخص آخر يرى خلق الله وشهوده، ويرى نفسه أيضًا، فربما يحب هذا الشخص لأنه يذكره بنفسه. ولنأخذ مثلًا مختلفًا تمامًا، ولكنه يشرح مقصد ابن عربي أفضل شرح، هناك قصة متداولة في الغرب وعند الاطفال اسمها «طرزان». طرزان تربى في البرية مع القرود، ولم ير أي إنسان حتى قابل بنتًا تدعى جين، وعندما رآها وجد أن لديها يدين مثله، وقدمين مثل قدميه، وعينين مثل عينيه، وجسدًا يشبه جسده، فأحبها. أحبها لأنها ذكرته بنفسه. فأي نوع من أنواع الحب يكون من هذا النوع، يحب الإنسان شيئًا في الشخص سواء أخلاقه أو شكله أو أي شيء، يجد القبول مع نفسه. ولكن لو توقف الإنسان عند هذا الحد، فهو على ضلال، ولم يفهم الدنيا. بالنسبة لابن عربي، هذا الإنسان أحب الظاهر، ولم يفهم الباطن، لم يبحث عما وراء ما أحب وهو الله. لذا فهو محجوب عن ربه. الحب الذي لا يجد سبيله إلى الله هو حب يسجن صاحبه ولا يحرره. الإنسان يحب نفسه وما يشبه نفسه التي هي من خلق الله، فالإنسان في الحقيقة يحب خلق الله فهو يحب الله.

ولنشرح كلمات ابن عربي، هو يقول من أدرك وعرف أن الله هو المحبوب الحقيقي الوحيد فسوف يحب كل مخلوقات الله ولكنه سيغيب عنها ولن يتقيد بها ولكنه سيشاهد فيها البديع الخالق وجماله.

المحب بطبعه يريد مصاحبة المحبوب، وألا يبتعد عنه، ولكن الفراق يحدث كما قال المتنبي: «نبكي على الدنيا وما من معشر جمعتهم الدنيا ولم يتفرقا» (492) ولكن رغبة الإنسان في اللقاء الذي لا ينقطع لن تحدث إلا إذا عرف أن من يحب هو الله، فالله معنا طوال الوقت. ورغبتنا الملحة في صحبة لا تنقطع هي لأننا في الباطن نريد حب الله لأن أي حب للصور والأشكال نهايته فراق.

ويعرف ابن عربي الحب للأشياء «فنقول إن الحب تعلق خاص من تعلقات الإرادة، فلا تتعلق المحبة إلا بمعدوم غير موجود، في حين التعلق يريد وجود ذلك المحبوب، وقولنا يريد وجود ذلك المحبوب، وأن المحبوب على الحقيقة إنما هو معدوم، فذلك أن المحبوب للمحب هو إرادة أوجبت الاتصال بهذا الشخص المعين كائنًا من كان. إن كان ممن من شأنه أن يعانق فيحب عناقه،

أو ينكح فيحب نكاحه، أو يجالس فيحب مجالسته، فما تعلق حبه إلا بمعدوم في الوقت من هذا الشخص، فيتخيل إن حبه متعلق بالشخص وليس كذلك، وهذا هو الذي يهيجه للقائه ورؤيته، فلو كان يحب شخصه أو وجوده في عينه فهو في شخصيته أو في وجوده فلا فائدة لتعلق الحب به. فإن قلت إنا كنا نحب مجالسة شخص، أو تقبيله، أو عناقه، أو تأنيسه، أو حديثه ثم نرى تحصل ذلك. والحب لا يزول مع وجود العناق والوصال، فإذا متعلق الحب قد لا يكون معدومًا قلنا أنت غالط، إذا عانقت الشخص الذي تعلقت المحبة بعناقه أو مجالسته أو مؤانسته فإن متعلق حبك في تلك حال ما هو بالحاصل، وإنما هو بدوام الحاصل واستمراره، والدوام والاستمرار معدوم ما دخل في الوجود ولا تتناهى مدته، فإذا ما تعلق الحب في حال الوصلة إلا بمعدوم وهو دوامها» (493)

يوضح لنا ابن عربي طابعًا إنسانيًا وهو رغبة الإنسان في استمرارية وجود المحبوب. فمن يحب ابنه يريد لابنه أن يعيش ومن يحب المال يريد أن يستمر المال في التدفق عليه إلخ. ولكن دوام قرب المحبوب الفاني مستحيل. ففراق ما نحب قريب. ولكن لم يلح على الإنسان هذا الشعور مع أنه يرى أمامه الفراق قادم؟ لأنه في الحقيقة يحب الخالق لا المخلوق ودوام الوصال مع الخالق موجود ويمكن أن يحدث في الدنيا والآخرة. دوام الوصل إذن لن يحدث سوى مع الله، أما أي كائن على الأرض فالوصل الدائم به معدوم. فلماذا نتوقع ونريد دوام رؤية من نحب أو الجلوس معه أو معانقته أو تقبيله لو كان زوجًا أو ابنًا أو بنتًا؟ مع أن عقلنا في الحقيقة يدرك أن دوام الحال محال، وأن ما نتمناه من دوام هذا الوصال لن يحدث. فَلِمَ نتوق إلى دوام هذا الوصال؟ لأننا في الأصل لا نحب الشخص بل محرك هذا الشخص، خالق هذا الشخص، والله هو الموجود الوحيد الدائم الوحيد الذي لا يتركنا. فقلبنا يدرك أن ما هناك محبوب دائم سواه، ولكننا نحب الصور والأشكال، وأحيانًا ننسى لما نريد دوامها، وهي لن تدوم. لو تذكرنا أن خالقنا وصانعها هو الله فهمنا من أين يأتي هذا الإحساس، وفهمنا أن الحب الأصلي والوحيد هو الله. وبحبه نحب الأشياء والمخلوقات.

«قوله على لسان نبيه هل واليت لي وليًا أو عاديت فيّ عدوًا، فإذا أحببت الأشياء من أجله وعاديت الأشياء من أجله فهذا معنى حبنا له ليس غير ذلك فقمنا بجميع ما يحبه منا أن نقوم به عن طيب نفس» (494)

ومن صفات المحبين ما قاله ذو النون: «هم عباد ملأ الله قلوبهم من صفاء محبته؛ فهو مؤنس وحشتهم، وطبيب أسقامهم. ذاقوا حلاوة الفهم عن الله؛ فطاب عيشهم، ودام نعيمهم. إلهى!» (495)

عندما تطغي الأشياء والأشخاص على القلب تجعل رؤية الهدف من الحب صعبًا. يستعمل ابن عربي كلمة «كثافة»، الكثافة تحجب الرؤية، والرؤية عند الصوفي بالبصيرة أولًا. لو غلب عليك حب الصور والأشياء تزداد الكثافة على بصرك فتحجب عن رؤية الله. اتصالك بالله اتصالًا معنويًا في الدنيا تراه بعين الخيال والبصيرة. عالم الكثائف هو عالم المحسوسات عند ابن عربي.

«هذا هو الذي يمكن أن يحب الله، فإن غايته في حبه إياه إذا لم يجرده عن التشبيه أن ينزله إلى الخيال وهو قوله «اعبد الله كأنك تراه»، فإذا أحببنا - ونحن بهذه الصفة - موجودًا نحب ظهور محبوبنا فيه من المحسوسات عالم الكثائف نلطفه بأن نرفعه إلى الخيال لنكسوه حسنًا فوق حسنه، ونجعله في حضرة لا يمكنه الهجر معها، ولا الانتقال عنها فلا يزال في اتصال دائم ولنا في ذلك: ما لمجنون عامر من هواه غير شكوى البعاد والاغتراب وأنا ضده فإن حبيبي في خيالي فلم أزل في اقتراب فحبيبي مني وفي وعندي فلماذا أقول ما بي وما بي» (496)

كل محبوب غير الله لا يمكن أن تراه طوال الوقت. أما الله فموجود معك أينما كنت.

يستعمل ابن عربي تشبيهًا آخر وهو تشبيه «السراب» في القرآن. في تشبيه السراب أهمية قصوى. فالظمآن يتوهم وجود الماء، عندما يقترب يعرف أن ما يراه هو السراب فلا يكون لديه أي حل إلا اليأس أو اللجوء إلى الله. فأحيانًا يكون الضيق طريقًا للوصول إلى حب الله، ومعرفته لكي لا نقنط من رحمة الله ولا نيأس. وربما كان تعلقنا في هذه الحياة بمال أو ولد أو زوج إلى آخره هو كالظمآن الذي يبحث عن الماء المحسوس الذي يستطيع أن يلمسه ويراه، بينما لو ترك الجماح لخياله لأدرك أن المحسوس سراب، وأن وراءه الخالق. هذا لا يمنع أن الله ضرب لنا الأمثال التي نفهمها ونعرفها لأننا كما قال الغـزالي في إحياء علوم الدين نعرف الله على قدر عقولنا، وما شهدناه في دنيانا، وليس على قدره هو. وربما هذا هو السبب الذي جعل ابن عربي يضع الخيال في مرتبة أعلى من العقل. هو لا ينفي العقل، ولكن يدرك عجز العقل أحيانًا، وضيق إدراكه، فحينها يصبح الخيال أوسع وأشمل. (497)

لماذا أحببناه؟

أحبنا الله قبل أن نحبه. زرع الحب في قلوبنا قبل الولادة وبعدها. ومنا من وجد الحب مع الحجاب كمن أحب المال أو الولد ولم يدرك ماهية هذا الحب، ومنا من لم يجد الحب لأنه لم يبحث داخل نفسه ولم يعرف ربه، ومنا من وجد حب الله فأحب كل عباده، وكل خلقه، وكل صوره، وشهوده التي صنعها.

الحب لا يأتي بالعقل لأن العقل حدوده معروفة، والحب شعور يصعب شرحه. والحب يأتي بمعرفة ما طلبه الله منا بالقرآن، أي بكتابه وشريعته التي عرفنا منه أنه ليس كمثله شيء، وشرح لنا فيها حبه لنا قال {فَاطِرُ لسَّمَـٰوَٰتِ وَ لْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰ ا وَمِنَ لْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰ ا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْ وَهُوَ لسَّمِيعُ لْبَصِيرُ} [الشورى: 11].

ويؤكد ابن عربي أن العالم يدور حول المحب والمحبوب. فكما قضى الله ألا نعبد غيره، قضى أن يكون حبنا أولًا وأخيرًا له هو.

«فالعالم كله محب ومحبوب وكل ذلك راجع إليه، كما أنه لم يعبد سواه فإنه ما عبد من عبد إلا بتخيل الألوهية فيه، ولولاها ما عبد يقول تعالى {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِ لْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ لْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْ ا كَرِ ا} [الإسراء: 23]، وكذلك الحب ما أحب أحد غير خالقه، ولكن احتجب عنه تعالى بحب زينب، وسعاد، وهند، وليلى، والدنيا، والدراهم، والجاه، وكل محبوب في العالم، فأفنت الشعراء كلامها في الموجودات، وهم لا يعلمون، والعارفون لم يسمعوا شعرًا، و لا غزلًا، ولا مديحًا، ولا تغزلًا إلا فيه من خلف حجاب الصور» (498)

صور الأشياء حجاب عنه، والعارفون لم يحبوا سواه من خلف هذا الحجاب. هذا هو المعنى الباطن للحب. أما المعنى الظاهر فهو حب المال، أو الولد، أو غيره. الشهود والصور وهم، وعدم، والوجود الوحيد هو لله. وهذه الفكرة موجودة عند ابن الفارض وحتى عند الغزالي من قبلهما. فأنت تحب شخصًا، وهذا الشخص سيموت يومًا، ولو أحببت من صنع هذا الشخص ومن هو باقٍ، ومن وضع الحب في قلبك من البداية يكون أفضل لك.

ونحن نحب الله من أجل حبه لنا ومن أجل الجمال الذي خلقه حولنا. يقول ابن عربي «والله جميل يحب الجمال، فيحب نفسه وسببه الآخر الإحسان، وما ثم إحسان إلا من الله ولا محسن إلا الله، فإن أحببت للإحسان فما أحببت إلا الله فإنه المحسن، وإن أحببت للجمال فما أحببت إلا الله تعالى فإنه الجميل، فعلى كل وجه ما متعلق المحبة إلا الله» (499)

أنواع الحب

يفرق ابن عربي بين ثلاثة أو أربعة أنواع من الحب. الحب الإلهي هو حبنا لله، وحب الله لنا. والحب الروحاني يجمع بين حبك لنفسك ولمحبوبك وفي هذا الحب يمكن أن تؤثر المحبوب على نفسك. ربما حب الأم لأبنائها يجمع بعض هذه الصفات أحيانًا. أما الحب الطبيعي فهو الحب الذي تبحث فيه فقط عن

سعادتك أنت وما يريحك أنت، فهو حب أناني إلى حد كبير. والحب العنصري هو حب لشخص واحد، أو هو حب لعنصر واحد، مثلًا كحب قيس لليلى فقط دون كل البشر.

«فاعلم أن الحب منه إلهي، وروحاني، وطبيعي، وما ثم حب غير هذا. فالحب الإلهي هو حب الله لنا وحبنا الله أيضًا قد يطلق عليه أنه إلهي. والحب الروحاني هو الذي يسعى به في مرضاة المحبوب لا يبقى له مع محبوبه غرض ولا إرادة بل هو بحكم ما يراد به خاصة. والحب الطبيعي هو الذي يطلب به جميع نيل أغراضه سواء سر ذلك المحبوب أو لم يسره وعلى هذا أكثر حب الناس اليوم» (500)

يؤكد ابن عربي أن المحبة لا تزول، ولكن الحب الدنيوي الذي يطلق عليه ابن عربي الحب الطبيعي يمكن أن يزول، ولكن فكرة المحبة لا تزول. حب الروح عطاء وحب الجسد والأشياء أنانية وحب الله هو المؤدي الى السعادة الحقيقية.

حب الله لنا

يقول ابن عربي: «قوله: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه مع كونه ما زال من عينه ولا يصح أن يزول عن عينه فإنه ورقيب، ومع هذا فجاء باللقاء في حقه وفي حق عبده، ووصف نفسه بالشوق إلى عباده، وأنه أشد فرحًا ومحبة في توبة عبده» (501)

يقول تعالى «فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه».

فحب الله سبق حبنا له. ولكن الله ليس كمثله شيء، فطبيعة حبه لا نستطيع أن نصفها كما نصف حبنا بالشوق والوجد. الله يقرب لنا المعاني. وكيفية حبه لنا أبعد من أن نفهمها بعقلنا أو نتصورها بخيالنا.

«فلا يصح أن يحب المحب اثنين أصلًا لأن القلب لا يسعهما، فإن قلت هذا يمكن أن يصح في حب المخلوق، وأما في حب الخالق فلا» (502)

فلا يمكن أن يتسع قلبك لحب الخالق والمخلوق بالتساوي حبك للخالق لا بد أن يطغي على كل شيء آخر.

اعتنى بنا الله قبل الولادة وبعدها، وبعث لنا الرسل معلمين لنصل إلى الراحة في الدنيا والآخرة، ووضع أمامنا أدلة على آياته، وأحيانًا يقذف الإيمان في قلوبنا. بحبه لنا أوجدنا أولًا، وبحبه لنا يأخذنا له. الله علمنا، وأكرمنا وصبر علينا، أخبرنا بحبه لنا، وغفر لنا. هذا هو حب الله لنا الذي نعرفه، وهناك مقومات لهذا الحب لا نستطيع أن نصفها بعقلنا المحدود.

يقول ابن عربي: «وأما حبه إيانا لنا فإنه عرفنا بمصالحنا دنيا وآخرة ونصب لنا الأدلة على معرفته حتى نعلمه ولا نجهله، ثم إنه رزقنا، وأنعم علينا مع تفريطنا بعد علمنا به وإقامة الدليل عندنا على أن كل نعمة نتقلب فيها إنما ذلك من خلقه، وراجعة إليه، وأنه ما أوجدها إلا من أجلنا لننعم بها ونقيم بذلك» (503)

الحب: ألقاب ومعان

العشق

العشق «وهو إفراط المحبة، وكنى عنه في القرآن بشدة الحب في قوله { لَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَ قَالُوٓ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ} [البقرة: 165]، وهو قوله {وَقَالَ نِسْوَ فِى لْمَدِينَةِ مْرَأَتُ لْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰ مُّبِي } [يوسف: 30]، أي صار حبها يوسف على قلبها كالشغاف، وهي الجلدة الرقيقة التي تحتوي على القلب، فهي ظرف له محيطة، وقد وصف الحق نفسه في الخبر بشدة الحب غير أنه لا يطلق على الحق اسم العشق والعاشق، والعشق التفاف الحب على المحب حتى خالط جميع أجزائه، واشتمل عليه اشتمال الصماء مشتق من العشقة» (504)

وهو لقب لم يتم استعماله من قبل الله لوصف حبه للعباد، ربما لأن حب الله ثابت دومًا أما العشق للشهود والصور فليس دومًا على ثبات. وحب امرأة العزيز ليوسف يعتبر عشقًا. ولكن هناك أيضا شدة حب لله.

وشدة الحب لله ضرب لها ابن عربي مثلًا بالحلاج عندما قال:

«هكذا حكي عن الحلاج لما قطعت أطرافه، انكتب بدمه في الأرض الله الله حيث وقع، ولذلك قال رحمه الله ما قد لي عضو ولا مفصل إلا وفيه لكم ذكر. فهذا من هذا الباب، وهؤلاء هم العشاق الذين استهلكوا في الحب هذا الاستهلاك وهو الذي يسمى بالغرام» (505)

الهوى والحب والتكليف

إذا كان الله قد زين للناس حب الشهوات من الذهب والفضة والمال والنساء فكيف يطلب منهم أن يكفوا النفس عن الهوى؟ والهوى هو الميل إلى شيء. الهوى أحد نعوت الحب، ولكنه أحيانًا لا يؤدي بالإنسان إلى طاعة الله لذا طلب الله منا أن نكف النفس عن الهوى. ولكن إذا كان عندنا ميل لشيء كيف نكف النفس عنه؟ أليس هذا تكليفًا يصعب علينا، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها؟ في الحقيقة لا. لأن حبنا لله أقوى من الهوى إلى الزينة الفانية. لو أدركنا عمق حبنا لله استطعنا أن نكف النفس عن الهوى. هو لا يطلب منا ما

لا نستطيع، هو يطلب منا أن نتعمق في نفسنا، فندرك أن الموجود الوحيد هو الله، والمحبوب الوحيد هو الله، وكل ما يغضبه لا يمكن الميل له.

أمر الله في كتابه النبي داود عليه السلام {يَـٰدَاوُ دُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَ حْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَا شَدِيـ بِمَا نَسُو يَوْمَ ٱلْحِسَابِ} [ص: 26].

ويطلب منا الله أن نتبع ما يحب هو، وليس ما نهوى نحن «والهوى ميل إلى شيء».

يقول ابن عربي «يعني لا تتبع محابك بل اتبع محابي، وهو الحكم بما رسمته لك، ثم قال {يَـٰدَاوُ دُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَ حْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَا شَدِيـ بِمَا نَسُو يَوْمَ ٱلْحِسَابِ} [ص: 26]، أي يحيرك، ويتلفك، ويعمى عليك السبيل الذي شرعته لك، وطلبت منك المشي عليه، وهو الحكم به، فالهوى هنا محاب الإنسان، فأمره الحق بترك محابه إذا وافق غير الطريق المشروعة له. فإن قلت فقد نهاه عما لا يصح أن ينتهي عنه، فإن الحب الذي هو الهوى سلطانه قوي، ولا وجود لعين العقل معه، قلنا ما كلفه إزالة الهوى فإنه لا يزول، إلا أن الهوى كما قلنا يختلف متعلقه، ويكون في موجودين كثيرين. وقد بينا أن الهوى الذي هو الحب حقيقته حب الاتصال في موجود ما أو كثيرين، فطلب منه تعالى أن يعلقه بالحق الذي شرع له وهو سبيل الله كما يعلقه بسبل كثيرة ما هي سبيل الله فهذا معنى قوله فما كلفه ما لا يطيق، فإن تكليف ما لا يطاق محال على العالم الحكيم أن يشرعه» (506)

يشرح ابن عربي إن تعلق القلب بالله يساعدنا على الانتصار على الهوى.

يقول ابن عربي «وأما الحب فهو أن يتخلص هذا الهوى في تعلقه بسبيل الله دون سائر السبل، فإذا تخلص له وصفًا من كدورات الشركاء من السبل سمي حبًا لصفائه وخلوصه، ومنه سمي الحب الذي يجعل فيه الماء حبًا لكون الماء يصفو فيه، ويروق، وينزل كدرة إلى قعره. وكذلك الحب في المخلوقين إذا تعلق بجناب الحق سبحانه، وتخلص له من علاقته بالأنداد الذين جعلها المشركون شركاء لله في الألوهية، سمي ذلك حبًا بل قال فيه تعالى {وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَا ا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓ أَشَدُّ حُ ا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيـ ا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ} [البقرة: 165]» (507)

فلا بد أن يكون الحب خالصًا إلى الله دون شركاء لأننا لو أشركنا في حبنا الله بحب شيء آخر سنتبعه ربما ونغضب الله. فالله هو الأول والآخر والمبدئ والمعيد.

يشرح هنا ابن عربي لم يطلب منا الله ألا نتبع الهوى، إذا كان الهوى غالبًا ومسيطرًا؟ وإذا كان الهوى منه هو أيضًا؟ فيقول ابن عربي إن حب الله عشقٌ، وليس هوى، فهو حب شديد، وهذا الحب يجعلنا نتبع أمره وننهى النفس عن الهوى. عندما يشتد حب العبد لله، من الطبيعي أن يريد إرضاءه، واتباع أوامره، فيطغي حب الله على هوى النفس، فلا نفعل إلا ما حلله، ونتجنب ما حرمه بما في ذلك الظلم والفساد والضلال والكبر.

اسم الله: الودود

أما أهم لقب للحب، هو لقب الود، وهو من أسماء الله الحسنى. الود عند ابن عربي هو الثبات في الحب.

والثبات من علامات أولياء الله الصالحين، فيقول في كتابه {لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [الحديد: 23].

واسم الله تعالى الودود. لثباته في حب عباده. يوضح ابن عربي: إن دوام الحال من المحال. والود مع الله أن تحب الله في كل حال كما يحبك هو في كل حال. فحب الله لكل عباده ثابت مع اسمه الودود.

«وأما الود فهو ثبات الحب أو العشق أو الهوى، أية حالة كانت من أحوال هذه الصفة، فإذا ثبت صاحبها الموصوف بها عليها ولم يغيره شيء عنها، سمي لذلك ودًا وهو قوله تعالى {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا}[مريم: 96]، أي ثباتًا في المحبة عند الله وفي قلوب عباده، هذا معنى الود» (508)

فالود من أعلى مقامات الحب.

أن تحب الله في كل حال، حتى لو زالت الصورة التي أحببتها في الدنيا. مثلًا إذا كنت تحب ما زين الله لك كالمال والبنون، ثم ذهب المال والبنون، فلا بد أن تتذكر أنهم صور من صنعه هو، فتلجأ لخالق الصور التي تعلقت بها. والإنسان بطبعه لا يترك الجماح لخياله مع أن الخيال مهم للعباده، فنحن لا بد أن نعبد الله كأننا نراه حتى وإن لم نره، ولكننا على يقين أنه معنا في كل حال؛ لأننا نستعمل خيالنا ليرشدنا، ولا نستعمل العقل فقط. ووجود المحسوسات والتعلق بها يضع غبارًا كثيفًا على البصيرة، فلا نشعر حينها

بخالق المحسوسات. أما الشعور بوجوده معنا، فيحتاج إلى رياضة ومجاهدة. ويحتاج إلى أن نتذكر اسمه وهو الودود.

ومن كلامه في الفرق بين الود والحب:

«حدثنا ابن إسماعيل.. سمعت ذا النون يقول: الحب لله عام، والود لله خاص. لأن كل المؤمنين يذوقون حبه، وينالونه وليس كل مؤمن ينال وده، وأنشدنا يقول: ومـن ذاق طـعـم الـوداد آنـس بـرب الـعـبـاد» (509)

الأنس بالله صحبة وحضور وراحة. أما حب الله لنا، فنحن لا نعرف ابعاده. ولا نستطيع أن نتخيله لأن الله ليس كمثله شيء.

مقام الخلة: أعلى المقامات في الحب

لن يصل إنسان إلى مقام الخلة عند الله إلا إذا رحم جميع خلق الله بلا استثناء. والخليل هو الرفيق والصديق في اللغة.

يقول ابن عربي عن رحمة الله: «ثم إن رحمته سبقت غضبه، وإن شقي من شقي، فلا بد من شمول الرحمة والعناية والمحبة الأصلية التي تؤثر في العواقب». (510)

هذه الدار التي نحن بها هي مثل جسر بين الآخرة ووجود آدم في الجنة، وفي أثناء وجودنا على هذا الجسر أحيانا تختلط علينا الأمور، ونبتعد فنحجب عن الله. ولكن حب الله يغمرنا، وعند نهاية الطريق، سيتضح لنا الوحدانية أكثر، ونعرف أن ما في الوجود ما يستحق العناء ولا الحب سوى الله.

يقول ابن عربي «وطالب مقـام الخلـة يجب أن يحسن إلى جميع خلق الله - كافرهم ومؤمنهم، طائعهم وعاصيهم - وأن يقوم في العالم مقام الحق فيهم. وقد عاتب الله سيدنا إبراهيم لما طلب من الرجل الكافر أن يؤمن حتى يكرمه» (511)

ويحكي لنا ابن عربي في الفتوحات حكاية إبراهيم وكيف وصل الى مقام الخلة.

«حكاية:نزل ضيف من غير ملة إبراهيم عليه السلام بإبراهيم فقال له إبراهيم وحد الله حتى أكرمك وأضيفك، فقال يا إبراهيم من أجل لقمة أترك ديني ودين آبائي، فانصرف عنه، فأوحى الله إليه يا إبراهيم صديقك لي سبعون سنة أرزقه، وهو يشرك بي فتريد أنت منه أن يترك دينه ودين آبائه لأجل لقمة فلحقه إبراهيم وسأله الرجوع إليه ليقربه، واعتذر إليه، فقال له المشرك يا إبراهيم ما بدا لك، فقال إن ربي عاتبني فيك، وقال لي أنا أرزقه منذ سبعين سنة على كفره بي وأنت تريد منه أن يترك دينه ودين آبائه لأجل لقمة فقال

المشرك وقد وقع هذا مثل هذا ينبغي أن يعبد فأسلم، ورجع مع إبراهيم إلى منزله، ثم عمت كرامته خلق الله من كل وارد ورد عليه فقيل له في ذلك، فقال تعلمت الكرم من ربي رأيته لا يضيع أعداءه فلا أضيعهم، فأوحى الله إليه أنت خليلي حقا» (512)

فصاحب مقام الخلة به الرحمة الشاملة، يوصل الإحسان إلى الخلق من حيث لا يشعرون، ومن عامل الخلق بهذه الطريقة - وهي طريقة سهلة - صحت له الخلة وقد ذقتها، فما رأيت أسهل منها، وما فوق لذتها لذة، فإن لم يستطع العبد بالظاهر لعدم الموجود، أمدهم بالباطن فدعا لهم بالغيب. والله تعالى يرزق الخلق مع الكفر ويعافيهم، فكيف مع الإيمان؟! والله يعذب العصاة والكافرين ليطهرهم، كأمراض المؤمنين في الدنيا. والحق استوى على العرش باسمه الرحمن؛ فكل ما حواه العرش مرحوم» (513)

الرحمن استوى على العرش فكل ما تحت العرش مرحوم. هذه رحمة الله التي تتسع لكل شيء، وليس فقط للأرض ولا للسماء. وليس لنا أن نقسمها كيفما شئنا فنعطيها لصاحب دين معين دون غيره، وندعي على البعض الكفر وعلى البعض الإيمان. فكل ما تحت العرش مرحوم، والله أعلم بعباده، وجوهر الفكر الصوفي هو عدم الحكم على عباد الله ومخلوقاته، بل الرفق بها ورحمتها لأنها مخلوقاته هو وهو المحبوب. وهذا في جوهر الفكر الصوفي، لذا تتسم الصوفية بلين القلب والتواضع الشديد، فشغلهم الشاغل هو رضاء محبوبهم الأول ورضاء كل من يحبهم الله. يقول ابن عربي «يقول كعادتك فمن كانت عادته في خلق الله ما عودهم الله من لطائف مننه، وأسبغ عليهم من جزيل نعمه وأعطف بعضهم على بعض، فلم يظهر في العالم غضب لا تشوبه رحمة ولا عداوة لا تتخللها مودة فذلك يستحق اسم الخلة لقيامه بحقها واستيفائه شروطها لو لم يكن من عظيم الرجاء في شمول الرحمة إلا قوله ڈ ژ ڑ [طه: 5]، فإذا استقرت الرحمة في العرش الحاوي على جميع أجسام العالم، فكل ما يناقضها أو يريد رفعها من الأسماء والصفات فعوارض لا أصل لها في البقاء؛ لأن الحكم للمستولي وهو الرحمن {وَلِلَّهِ غَيْبُ لسَّمَـٰوَٰتِ وَ لْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ لْأَمْرُ كُلُّهُ فَ عْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [هود: 123]. فابحث على صفات إبراهيم عليه السلام، وقم بها عسى الله أن يرزقك بركته» (514)

كيف نحب الله: الرضا والتوكل والصبر

يقول ابن عربي في كتابه في مناقب ذي النون إن حب الله له علامات وهي:

الرضا في المكروه»

وحسن الظن به في المجهول،

والتحسين في الاختيار في المحدود» (515)

وعن حبه لله يقول ابن عربي:

«خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب» (516)

عند ابن عربي من لم ير ما وراء الأشياء، ومن لم يشعر بحب الله في مخلوقاته فهو كالأنعام.

قال تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ} [محمد: 12]. (517)

العلاقة بين الإنسان والكون كلها تدور حول حب الله. في البداية، يرى الإنسان المظاهر مثل وردة جميلة أو امرأة جميلة أو حديقة خلابة، فيحب المظاهر من امرأة وولد ومال وجاه إلى آخره. ثم على الإنسان الرياضة والمجاهدة حتى يرى الله في شهوده، أي في ما صنع، فكل شيء من عند الله، وكل شيء يوصل إلى الله في النهاية {أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء: 78]. وإذا شهد الإنسان ربه في كل هذه المظاهر، سيأخذه ربه عن المظاهر وعن نفسه وعن محبوبه الفاني، فيذوب في عشق وحب الله، ثم يعود إلى عباد الله ومخلوقاته ليحبها بطريقة مختلفة، يحترمها ويبجلها لأنها من خلق الله. إذا يصبح مركز الحب بالنسبة للبشر الله، ثم كل ما هو شاهد على عظمته.

عندئذ يصل الإنسان إلى الرضا الكامل في الدنيا، فالحب يغيب الإنسان عن الألم والتعب في الدنيا. يقول ابن عربي:

«وثمرة الحب هو الرضا: قال تعالى: {قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ}[المائدة: 119]، وقال تعالى: {وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ}[التوبة: 72] فرفع ذكر الرضا فوق جنات عدن، كما رفع ذكره تعالى على الصلاة، حيث قال: ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ. قال ﷺ: (إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين، فيقول: سلوني، فيقولون:

رضاك)، فسؤالهم الرضا بعد النظر، غاية التفضيل، وذلك آن الرضا هو سبب دوام النظر. ورضا الله ثمرة رضا العبد» (518)

هذا يعني أنه بالرضا نصل إلى رضا الله، وبالرضا نتحمل ألم البلاء. والاستغراق في الحب يساعد على عدم الشعور بالألم.

ويعطي ابن عربي مثالًا للحب الدنيوي فيقول إن شدة العشق تؤدي بالبشر أن يطيعوا المحبوب حتى ولو شعروا بألم، فما بالنا بحب الله الذي لا يحمل إلا الخير.

ومن صفات المحب التي تكلمنا عنها مسبقًا هي أنه يصبر على الألم والابتلاء. فنجد في نسوة يوسف مثالا لمن ذاب في جمال يوسف فلم يشعرن بألم السكين. لو ذبت واستغرقت في حب الله يقل الألم حتى تكاد لا تشعر به لان استغراق قلبك كله مع الجميل المحبوب الوحيد.

«ومجلى نعت المحب بأنه يصبر على الضراء» (519)

إذا كان الله يصبر على عباده وهو القاهر القادر، فما بال العبد المأمور بالصبر المحب لله الواثق في قضائه لا يصبر على أمره؟ وهو يعرف أن الله اعتنى به قبل أن يولد وبعد أن ولد؟

فلِمَ يبتلي الله أولياءه لو كان يحبهم؟ يقول ابن عربي إن البلاء والقضاء مختلفان. البلاء هو الألم الصادر من هذا القضاء أو من الدواء الذي نأخذه للتعامل مع هذا القضاء. أما القضاء نفسه فمن الله، نشكر الله عليه والألم نطلب من الله أن يزيله ونصبر عليه. ولكن لِمَ نصبر ولِمَ نشكر؟ لأننا على يقين أنه يحبنا. وهل يعذب الحبيب حبيبه؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال لا بد أن نجيب عن سؤال آخر. هل يثق الحبيب في محبوبه؟ لو وثقت في محبوبك تدرك أن كل ما يريده خير لك. لو كنت تدعي أن الله هو محبوبك الأول والأخير لا بد أن تثبت هذا الادعاء. وكيف تثبته؟ بالصبر على الألم. ولنعد للسؤال الأول هل يعذب الحبيب حبيبه؟ لا ولكن كما قال النبي قد يبتليه. وكيف نعرف في الابتلاء أن الله لم يزل يحبنا؟ لو أدركنا حجم الصبر الذي أعطاه لنا مع البلاء، ولو أدركنا قدر حبنا له. فقد أحببناه لأنه احبنا. هو وضع الحب في قلوبنا لأنه يحبنا.

البلاء قد يكون بقدر دعوتك، فالله يحبك هذا واضح من كلماته وأفعاله معك. وأنت تدعي أنك تحبه والمحب الحقيقي لا بد أن يثبت صدق دعوته. المحب يثق في المحبوب ويثبت في وده مهما كان في السراء والضراء. فلو كنت تحبه فأثبت هذا بتحملك وصبرك، أما الله فقد رأينا آيات حبه في كل شيء لو فتحنا عقولنا وقلوبنا.

يقول ابن عربي «قد تعرضت هنا مسألة يجب بيانها وهي أن الله أحب أولياءه، والمحب لا يؤلم محبوبه، وليس أحد بأشد ألمًا في الدنيا ولا بلاء من أولياء الله رسلهم وأنبيائهم وأتباعهم المحفوظين المعانين على أتباعهم، فمن أي حقيقة استحقوا هذا البلاء مع كونهم محبوبين فلنقل إن الله قال يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ، والبلاء ان لا يكون أبدًا إلا مع الدعوى، فمن لم يدع أمرا ما لا يبتلى بإقامة الدليل على صدق دعواه فلولا الدعوى ما وقع البلاء ولما أحب الله من أحب من عباده رزقهم محبته من حيث لا يعلمون، فوجدوا في نفوسهم حبًا لله فادعوا أنهم من محبي الله، فابتلاهم الله من كونهم محبين، وأنعم عليهم من كونهم محبوبين، فإنعامه دليل على محبته فيهم، فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ، وابتلاؤه إياهم لما ادعوه من حبهم إياه فلهذا ابتلى الله أحبابه من المخلوقين {مَّا جَعَلَ للَّهُ لِرَجُ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ لَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَ للَّهُ يَقُولُ لْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى لسَّبِيلَ} [الأحزاب: 4]» (520)

ويعطي ابن عربي مثلًا للبلاء وهو فقد الولد، ويطلق على هذا البلاء أعظم بلاء. لأن الولد أو البنت يُذَكِّرُ الإنسان بنفسه، فموته يشعر الإنسان بأنه انتزع نفسه.

يقول ابن عربي «هي من أعظم الفتن وأكبر المحن« (521)

ولو تذكر الإنسان أن هذا قضاء الله فصبر على الألم الصادر من هذا القضاء، وتذكر أيضًا أن الحب الأول لله الذي خلق الولد والنفس، فهذا الإنسان له عند الله خير أجر لأن هذه من أعظم الفتن. راقب فعل الله معك تر كل جميل وراقب ترفقه بك عند حلول البلاء وعنايته لك من حيث لا تشعر.

«وصية: عليك بمراقبة الله عز وجل فيما أخذ منك وفيما أعطاك، فإنه تعالى ما أخذ منك إلا لتصبر فيحبك فإنه يُحِبُّ الصّابِرِينَ، وإذا أحبك عاملك معاملة المحب محبوبه فكان لك حيث تريد إذا اقتضت إرادتك مصلحتك وإذا لم تقتض إرادتك مصلحتك فعل بحبه إياك معك ما تقتضيه المصلحة في حقك، وإن كنت تكره في الحال فعله معك فإنك تحمد بعد ذلك عاقبة أمرك، فإن الله غير متهم في مصالح عبده إذا أحبه، فميزانك في حبه إياك أن تنظر إلى ما رزقك من الصبر على ما أخذه منك.

لكل شيء إذا فارقته عوضٌ وليس لله إن فارقت من عوض. فإنه لا مثل له، وكذلك إذا أعطاك، وأنعم عليك، ومن جملة ما أنعم به عليك وأعطاك الصبر على ما أخذه منك، فأعطاك لتشكر، كما أخذ منك لتصبر، فإنه تعالى يحب الشاكرين، وإذا أحبك حب الشاكرين غفر لك» (522)

ملخص:

تذكر أن الحب الطبيعي والروحاني ربما يجتمعان في الإنسان، فمثلَا الأم تحب ابنتها أو ابنها لنفسها وله. لأنه يذكرها بنفسها، ونفسها من خلق الرحمن، إذن في الأصل الأم تحب خلق الرحمن، فهي تحب الرحمن. كمن يحب مثلًا شعرًا لشاعر معين، هو يحب كاتب الشعر، ولا يحب القلم الذي كتب به، القلم شاهد على الشعر، ولكنه ليس الغاية. والمحبوب يريد الوصال المستمر، وهذه الرغبة يعرف بداخله أنها مستحيلة، ولكن يتغلب عليه الوهم، ويطغي على العقل، وهذا التغلب لأنه في الأصل يحب الله، لذا يبغي وصاله، ولا يحب الصورة الهالكة الفانية. من يحب الله لا يخاف فرقة لأنه في قبضة الرحمن. كما أن الله قد بدأنا بالمحبة. ومن يحب الله لا يخاف ولا يقلق على شيء؛ لأنه يعرف أن الله معه أينما يكون. ومن يحب الله لا يحزن من أجل ضياع أو فقد حتى ولو كان الفقد مؤلمًا فهو يصبر على الألم، ويشكر على القضاء لأنه من حبيبه، وكل ما يأتي من المحب خير.

«فمحب الله لا يخاف فرقة وكيف يفارق الشيء لازمه وهو في قبضته لا يبرح وبحيث يراه محبوبه وهو {وَلَقَدْ خَلَقْنَا لْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ لْوَرِيدِ}[ق: 16]، {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ للَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ للَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِىَ لْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ للَّهَ سَمِيعٌ عَلِيم} [الأنفال: 17]، أين الفراق وما في الكون إلا هو؟» (523)

«يقول الله تعالى من تقرب إلي شبرًا، تقربت منه ذراعًا (الحديث)» (524)

لنختم هذا المقال بنصيحة لابن عربي عن تجنب الشرك الخفي وهو أن تضع أحدا في منزلة الله في قلبك:

«وصية: عليك بأداء الأوجب من حق الله، وهو أن لا تشرك به شيئا من الشرك الخفي الذي هو الاعتماد على الأسباب الموضوعة، والركون إليها بالقلب، والطمأنينة بها، وهي سكون القلب إليها، وعندها فإن ذلك من أعظم رزية دينية في المؤمن، وهو قوله الله أعلم من باب الإشارة {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِ للَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ}[يوسف: 106]، يعني الله أعلم به هذا الشرك الخفي الذي يكون معه الإيمان بوجود الله» (525)

تذكر أن كل شيء بيد الله حتى قلبك وحبك. الجأ إليه وحده عند اليأس والحزن والفرح والغبطة. في صفاء القلب وخلوه من الأحقاد يتسنى لك رؤية علامات ربك ورسائله.

ومضـة نـور

«فأفنت الشعراء كلامها في الموجودات وهم لا يعلمون. أما العارفون، فإنهم لم يسمعوا شعرًا، ولا غزلًا، ولا تمدحًا، إلا فيه. من خلف حجاب الصور» (526) - ابن عربي عن حب الله

«إن ترغب في رؤية جمال الحبيب فاعلم أن القلب هو مرآة طلعته. وللملك طريق صوب كل قلب ولكن لا طريق للقلب الضال صوبه» (527) - منطق الطير فريد الدين العطار.

مَن يحبهـم الله

شرح ابن عربي «فما في الوجود إلا محب ومحبوب« (528)

ابن عربى

يذكرنا ابن عربي بأن الحب سر الوجود، وأن الحب مقام إلهي، الوصول إليه يحتاج إلى جهاد النفس. فمن أسماء الله الحسنى اسم الودود. ومن يحبهم الله هم من يكسيهم الله بعنايته؛ لأنه أحبهم قبل أن يحبوه. والود بالنسبة لابن عربي هو الثبات في الحب. لذا فاسم الله الودود.

وهذه قصة لذي النون عن السيدة المتعلقة بأستار الكعبة تناجي ربها، وتدعو الله بحبه لها، وليس فقط بحبها له.

«كان ثم (وحدثنا) غير واحد منهم ابن أبي الصيف عن عبد الرحمن بن علي قال أخبرنا إبراهيم بن دينار قال حدثنا إسماعيل بن محمد إنا عبد العزيز بن أحمد أخبرني أبو الشيخ عبد الله بن محمد قال سمعت أبا سعيد الثقفي يحكي عن ذي النون قال كنت في الطواف فسمعت صوتًا حزينًا وإذا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول: أنت تدري يا حبيبي حبيبي أنت تدري ونحول الجسم والروح يبوحان بسري يا عزيزي قد كتمت الحب حتى ضاق صدري.

قال ذو النون فشجاني ما سمعت حتى انتحبت وبكيت.

وقالت: إلهي وسيدي ومولاي بحبك لي ألا غفرت لي؟

قال فتعاظمني ذلك، وقلت يا جارية أما يكفيك أن تقولي بحبي لك حتى تقولي بحبك لي، فقالت: إليك يا ذا النون أما علمت إن لله قومًا يحبهم قبل أن يحبوه، أما سمعت الله يقول {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍۢ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۢ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: 54]، فسبقت محبته لهم قبل محبتهم له. فقلت من أين علمت أني ذو النون، فقالت يا بطال جالت القلوب في ميدان الأسرار فعرفتك، ثم قالت انظر من خلفك

فأدرت وجهي، فلا أدري السماء اقتلعتها أم الأرض ابتلعتها، قلت يقرب حديث هذه الجارية من حال موسى عليه السلام مع ربه» (529)

بحب الله تراه في كل ما حولك، وبحب الله ينكشف عنك النور، وترى معيته لكل شيء ولك أنت.

ذكر الله في القرآن الصفات التي يحبها، والصفات التي لا يحبها:

يقول ابن عربي في الفتوحات المكية: «مما أوحى الله به إلى موسى في التوراة يا ابن آدم أنى وحقي لك محب فبحقي عليك كن لي محبًا. وقد وردت المحبة في القرآن والسنة في حق الله وفي حق المخلوقين، وذكر أصناف المحبوبين بصفاتهم، وذكر الصفات التي لا يحبها الله، وذكر الأصناف الذين لا يحبهم الله، فقال تعالى لنبيه آمرًا أن يقول لنا {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَ تَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُو رَّحِي }[آل عمران: 31]» (530)، أي اتبع سنة نبيه في أخلاقه وحلمه وصبره على المكروه ويقينه في فرج الله وغيرها من الصفات. فقد قال «لقد أدبني الله فأحسن تأديبي» فقد اعترف النبي بفضل الله عليه، ولنا في قصته مع الأعمى عبرة ومعنى.

كما قال ابن عربي بعد أن أوضح الله للنبي أن عليه أن يهتم بالضعفاء الفقراء اهتمامه بأولي النفوذ وأكثر بتنزيل سورة عبس، قال تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ. أَن جَآءَهُ لْأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰٓ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ لذِّكْرَىٰٓ} [عبس: 1، 2، 3، 4]، أصبح النبي يجلس مع الضعفاء والمنبوذين في المجتمع حتى يتعب من الجلوس، فيرفقوا بحاله، ويتركوه ومنهم بلال بن رباح. ولنا في النبي أسوة حسنة. فتذكر يا إنسان أن كل ما خلق الله يستحق أن نحترمه من إنسان ونبات وحيوان وجماد.

قال تعالى «{وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ لْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَ ى فَ عْتَزِلُو لنِّسَآءَ فِى لْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ للَّهُ إِنَّ للَّهَ يُحِبُّ لتَّوَّبِينَ وَيُحِبُّ لْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: 222]، و{لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَ ا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى لتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَا يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُو وَ للَّهُ يُحِبُّ لْمُطَّهِّرِينَ}[التوبة: 108]، و{فَبِمَا رَحْمَ مِّنَ للَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ لْقَلْبِ لَ نفَضُّو مِنْ حَوْلِكَ فَ عْفُ عَنْهُمْ وَ سْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى لْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى للَّهِ إِنَّ للَّهَ يُحِبُّ لْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159]، و{وَكَأَيِّن مِّن نَّبِ قَـٰتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِي فَمَا وَهَنُو لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ للَّهِ وَمَا ضَعُفُو وَمَا سْتَكَانُو وَ للَّهُ يُحِبُّ لصَّـٰبِرِينَ}[آل عمران: 146]، ويحب الشاكرين،

ويحب المتصدقين، و{ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَ ٱلضَّرَّآءِ وَ ٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَ ٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَ ٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: 134]» (531)

لاحظ - كما شرح ابن عربي في الفتوحات - أن الله ذكر الصفات التي لا يحبها في عباده، ولم يقل إنه لا يحب عباده، ولكن يتمنى زوال هذه الصفات، وهذه الصفات تزول بعكسها. فالله مثلًا لا يحب الفساد، لذا فهو يحب من يعمر الأرض ويعدل فيها، ولا يحب كل مختال فخور، فهو يحب من يتذكر أن نفسه بيد الله، ويلجأ لله بعبودية صادقة، ويضع نصب عينيه الحديث الشريف: «عن الضحاك ابن سفيان رضي الله عنه أن رسول الله قال: يا ضحاك ما طعامك؟ قال يا رسول الله اللحم واللبن، قال: ثم يصير إلى ماذا؟ قال: إلى ما قد علمت. قال: فإن الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلًا للدنيا».

فالدنيا لا تستحق التفاخر ولا الفجور. وهذا لا يعني ألا نكد ونعمل ونحلم بحياة أفضل، ولكن يعني أن نضع نصب أعيننا قدر الدنيا وفناءها. ولا نغتر بما في أيدينا، ولا نأسى على ما لم ننل.

يقول ابن عربي إن «عين ترك الفساد الصلاح. فقال {وَ ٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ} [القصص: 77]، و{وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَ ٱلنَّسْلَ وَ ٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ} [البقرة: 205]. و{إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوٓأُ بِ ٱلْعُصْبَةِ أُ لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ} [القصص: 76]،و {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَا فَخُو }[لقمان: 18]، و{وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُو وَعَمِلُو ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ ٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ} [آل عمران: 57]، و {يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُو زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِ وَكُلُو وَ ٱشْرَبُو وَلَا تُسْرِفُوٓ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: 31]،و{ قُلْ أَطِيعُو ٱللَّهَ وَ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ٣٢} [آل عمران: 32]، و {لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِ ٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا} [النساء: 148]، و{وَقَـٰتِلُو فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ} [البقرة: 190]» (532)

الفرح المقصود هنا هو الاغترار بالدنيا. ولكن الله يحب التوبة. {وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَ ى فَ ٱعْتَزِلُو ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: 222]: لأن الله يحبهم حب

عناية، يريد منهم الرجوع إليه بإخلاص وصدق، والصدق والإخلاص من أحب الصفات إلى الله. (533). تذكر أن هذا حب عناية، كما تحب الأم ابنها قبل أن تراه. حب عناية لأنه يحبهم أولًا، ثم يحبونه.

الحب: مطلق ومقيد

لاحظ أن الله زين إلينا أشياء وحبب إلينا أشياء. يقول ابن عربي إن هناك حبًا مطلقًا، فحب الإيمان بالله حب مطلق قال تعالى: {وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ} [الحجرات: 7]. (534)

ولكن حب الزينة ليس حبًا مطلقًا لأن الزينة دومًا ليس لها وجود مطلق وقال {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ} [آل عمران: 14]. وهذا ما نطلق عليه حبًا مقيدًا لأنه إلى حد كبير يقيدنا، ويربطنا بالدنيا. فلو تذكرنا الصورة المكررة في الفكر الصوفي للسجن والحرية نجد أن كل حب مقيد يضيف إلى أسرنا وسجننا ويقويه، وكل حب مطلق يضيف إلى تحررنا، فحب الله حب يحرر ولا يسجن. وهذا لا يعني ألا نحب زينة الدنيا، ولكن نحبها مع علمنا أنها ليست دائمة وأنها تربطنا وأحيانًا تجعلنا أسرى لرغباتنا كحب المال مثلًا. فلنستمتع بزينة الله والطيبات من الرزق، ولكن لا نتركها تسيطر علينا؛ لأنها زينة وليست دائمة.

من يحبهـم الله

الله يحب «المفتن التواب» وهي هنا لها أكثر من معني كما ذكر ابن عربي. فالإنسان يفتن بما زين له من الشهوات من النساء مثلًا والولد والمال وحب الرياسة. فأما النساء، فلو رجعنا إلى ماهية حب العبد للشهود التي هي في الأصل من صنع الله لاستخدمنا حب الزوجة والزوج في سبيل الله وحبًا في الله وفناء في وجودنا الذي هو عدم. فمثلًا من يرى زوجته فيتذكر قدرة الله وخلقه يتعبد إلى الله وليس إلى الزوجة. أما المشرك فهو من يضع إنسانًا فانيًا في منزلة الله فيشرك بالله. أما حب الولد، فهو حب الشخص لنفسه كما ذكرنا من قبل. ما دام الشخص يتذكر نفسه بولده أو ابنته، فمن الأولى أن يتذكر من خلق هذه النفس، وألهمها الفجور والتقوى، وهو الله. فيصبح ما زين الله له وسيلة للتقرب إلى الله وليس الشرك به. فلو أحببنا الولد مثل حبنا لله فقد أشركنا، ولو دفعنا حب الولد أو الزوجة لفعل يكرهه الله فقد فضلنا الشهود على الموجود. فضلنا الفاني على الله.

والمال أيضا فتنة، فهو بالنسبة لابن عربي من كلمة «ميل». وهو شيء يميل إليه كل البشر ويتمنونه. وابن عربي يعطي أهمية كبيرة في كتاباته للغة وللحروف ولحروف الجر وبناء الجمل. فهنا هو يشير، ويوضح دلالية كلمة المال، وكيف تصف ميلًا بشريًا. ومرة أخرى، يحاول ابن عربي أن يذكرنا أننا لو استعملنا المال لإرضاء الله وتصدقنا وأخرجنا الزكاة، لكان المال أحد وسائل التقرب إلى الله وتوضيح حبنا له. أما حب الرياسة أو المناصب، فابن عربي يقول إنه ربما أصعب حب يخرج من القلب لأنه موجود حتى عند أولياء الله. ولا بد أن نتذكر أن المهيمن والرئيس والفاعل هو الله، فنضع أنفسنا في موضع العبودية لا الرياسة حتى لو كانت النفس تميل إلى الجاه والقوة كما تميل إلى المال والولد. فهذه أشياء مزينة.

فمن فتن بحب شيء فعصى الله، ثم تاب أحبه الله لتوبته.

المفتن التواب عند ابن عربي هو أيضًا من يسامح ويتوب.

ويحب الله المتطهرين. والطهر من الصفات التي تكلمنا عنها في مقال عبد القادر الجيلاني، ولها معان عميقة ومهمة. ويقول ابن عربي إن المتطهرين هم من يتجنبون كل ما لا يحبون أن يرى الله، وهو كل ما هو مذموم شرعًا كالسرقة، والظلم، وقتل النفس، والزنا، والرياء، والنميمة، والتفاخر، ونقض العهد، وقطع الرحم... إلى آخره.

ويحب الله أيضًا المطهرين: وهم من ساعد غيره على الطهارة، وهي جهاد النفس ليصبح القلب سليمًا بصفائه وعافيته، ونور العلم، وترك الجهل. فمن يأخذ بيد غيره في طريق الصفاء هو من المطهرين. (535)

من الناحية اللغوية، يذكرنا ابن عربي أن الله خلقنا له، ولكن أعمالنا لنا لنزكي بها أنفسنا «فما خلقنا إلا له لا لنا، لذلك قرن الجزاء بالأعمال، فعملنا لنا لا له، وعبادتنا له لا لنا» (536)

يوضح ابن عربي أن أعمالنا لأنفسنا ننفع بها الناس ونفسنا، ولكن عبادتنا لا بد أن تتوجه له وحده، وحبنا يتوجه له وحده، ثم نحب كل ما خلق لأنه خلقها، وليس لأن لها أفضلية كونها مخلوقات. ونؤدي فرائضه ونتجنب ما نهانا عنه. ونتذكرأننا بين يديه يفعل بنا ما يشاء لأننا عباده وتحت ملكه. كما قال: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ للَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ للَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِىَ لْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ للَّهَ سَمِيعٌ عَلِيم} [الأنفال: 17].

والله يحب العلم: وابن عربي يقول: الجهل موت، والعلم حياة، والإيمان نور.

«وهو قوله تعالى {أَوَمَن كَانَ مَيْ ا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُو ا يَمْشِى بِهِ فِى لنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى لظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ

زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُو يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 122] يعني بالعلم، {أَوَمَن كَانَ مَيْ ا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُو ا يَمْشِى بِهِ فِى لنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى لظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُو يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 122] وذلك نور الإيمان» (537)

والله يحب الصابرين. ويقول ابن عربي «ومن ذلك حبه للصابرين، وهو قوله {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِ قَـٰتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِي فَمَا وَهَنُو لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ للَّهِ وَمَا ضَعُفُو وَمَا سْتَكَانُو وَ للَّهُ يُحِبُّ لصَّـٰبِرِينَ} [آل عمران: 146]» (538) والصبر مع الابتلاء والثبات مع المصائب من صفات أحباب الله. والصبر مع زينة الدنيا والسراء أيضًا، هو صبرنا على ما طلبه الله منا، وهو تجنب المعاصي، هذا أيضًا نوع من أنواع الصبر. قال النبي «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» (539) لأن المؤمن يصبر فيها أحيانًا على ما يكره لعلمه أنها ضيقة، كما قال السيوطي عند الموت نعرف أن الدنيا ضيقة ضيق رحم الأم وبطنها، وأننا عند الموت نخرج إلى الحرية كما يخرج الوليد إلى الدنيا الواسعة. (540)

وقد تكلمنا على أنواع الصبر في مقال الغزالي عن السعادة.

والمبتلي الذي يثبت هو من يحب الله. وهذا لا يعني ألا يحزن. الحزن والصبر مختلفان. قال ابن عربي « الله الذي أنزل بهم هذا البلاء {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِ قَـٰتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِي فَمَا وَهَنُو لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ للَّهِ وَمَا ضَعُفُو وَمَا سْتَكَانُو وَ للَّهُ يُحِبُّ لصَّـٰبِرِينَ} [آل عمران: 146] عن حمله لأنهم حملوه بالله وإن شق عليهم لا بد من ذلك، وإن لم يشق عليهم فليس ببلاء {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِ قَـٰتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِي فَمَا وَهَنُو لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ للَّهِ وَمَا ضَعُفُو وَمَا سْتَكَانُو وَ للَّهُ يُحِبُّ لصَّـٰبِرِينَ} [آل عمران: 146] لغير الله في إزالته ولجأوا إلى الله في إزالته، كما قال العبد الصالح {أَفَغَيْرَ دِينِ للَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى لسَّمَـٰوَٰتِ وَ لْأَرْضِ طَوْ ا وَكَرْ ا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [الأنبياء: 83] فرفع الشكوى إليه لا إلى غيره، فأثنى الله عليه بأنه وجده صابرًا {ذَٰلِكَ مِنْ أَ بَآءِ لْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [ص: 44] مع هذه الشكوى، فدل إن الصابر يشكو إلى الله لا إلى غيره، بل يجب عليه ذلك لما في الصبر إن لم يشك إلى الله من مقاومة القهر الإلهي وهو سوء أدب مع الله والأنبياء عليهم السلام أهل أدب وهم على علم من الله، فإنك تعلم أن صبرك ما كان إلا بالله، ما كان من ذاتك ولا من حولك وقوتك فإن الله يقول {لِيَقْطَعَ طَرَ ا مِّنَ لَّذِينَ كَفَرُوٓ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُو خَآئِبِينَ} [النحل: 127]، فبأي شيء تفتخر وهو ليس لك فما ابتلى الله عباده إلا ليلجأوا في رفع ذلك إليه ولا يلجأوا في رفعه

إلى غيره، فإذا فعلوا ذلك كانوا من الصابرين وهو محبوب الله ومن أسمائه تعالى النعتية الصبور» (541)

تذكر أن البلاء لا بد أن يؤلم، وإلا كيف يكون بلاء، لكن لو دعوت الله أن يرفع عنك الألم، وأن يلهمك الصبر فقد استفدت من البلاء أعظم استفادة. فقد تقربت إلى الله بدعائك ثم أدركت عجزك، فطلبت الصبر منه، ثم ثبت عند الحزن والألم فكنت من عباده وأوليائه الذين لا يضعفون لما أصابهم، ولا يظهرون عجزهم سوى له هو.

وتذكر أن صبرك بالله وليس بنفسك. هو يعطيك الصبر لتتحمل، ولو كنت تريد أن تعرف حب الله لك، فانظر لحجم الصبر الذي أعطاه إليك على المصائب وعلى أذى الناس. واعلم أن عليك أن تدعوه، وتلجأ إليه في رفع ألم البلاء عنك، وكل ما يأتي من الله خير حتى لو صاحبه ألم. أنت تطلب رفع الألم عنك، وليس تغيير قدر الله. ومن نعوت الله لنفسه أنه صبور، فالله يحب عباده الصبورين في البأساء والضراء. وتذكر أن الله يصبر على أذى العباد وخطاياهم وظلمهم وفسادهم في الأرض. فهو الصبور وهو الرحيم. فحاول أن تتقرب منه بصفاته. (542)

الله يحب الشاكرين: تشكر الله على نعمه. فماذا عن بلائه؟ تتذكر أن هناك فرقًا بين البلاء والألم. ما قدر الله فهو دومًا خير؛ لأننا لا نستطيع أن نميز ببصرنا المحدود الكثير من الأشياء، ونحن لا نعلم الغيب، فلا نستطيع أن نميز بين النعمة والنقمة، ولا نعرف لو أن ما أصابنا من ظلم أو فقد هو رحمة أم لا. وكل ما هو من عند الله رحمة وخير، ولكن الفقد أو الظلم يصاحبه ألم، فنطلب من الله أن يزيح عنا الألم، هذا ضروري لأنه يحب أن يتقرب منه عباده بالطلب. يقول ابن عربي فنحن أحيانًا نجد في مرارة الدواء ألمًا، ولكنه ألم يخبئ نعمة. فنحن نشكر الله على الدواء حتى لو صاحبه ألم. ونطلب منه تخفيف الألم، وهو قادر على ذلك. (543)

يقول ابن عربي: إن الله يعلم «أنه في طي ذلك المكروه نعمة» (544) ويقول أيضا في كتابه الفتوحات المكية: «فلما شكره على ما في هذا المكروه من النعمة الباطنة زاده نعمة أخرى وهي العافية وإزالة المرض وتصبره الدواء الكره عليه ولذلك قال ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ [إبراهيم: 7] فزاده العافية» (545)

الدواء يؤلم ولكنه يشفي. وتذكر أن العافية لا تعني بالضرورة عدم وجود مرض جسدي بل العافية هي القلب السليم الذي أشرق بنور الإيمان. فعند سؤال الله العافية نسأله العافية في ديننا، والبعد عن الفتن والبلاء المطلق الذي يكون في الدين. أما البلاء المقيد من مرض أو فقد فهذا بلاء مؤقت

يزول بزوال الدنيا نفسها إن لم يكن قبلها. ونعرف أن كل شيء من قضاء الله وفعله.

ويعم حب الله - كما يقول ابن عربي - في كل فعل جميل يفعله الإنسان «وجبت محبتي للمتحابين في، والمتزاورين في، والمتجالسين في، والمتباذلين في، الله يجعلنا ممن أنعم عليه، فرأى نعمة الله عليه في كل حال فشكر» (546) كل من يعود مريضًا أو يساعد جارًا أو يصل رحمًا، فهو تحت ظل حب الله. وكل من يصفي نيته في الحب، ولا يفعل ما نهانا عنه الله من نميمة ورياء... إلخ، فقد ظلله الله بحبه.

والله يحب المحسنين:

والإحسان من صفات الله. والمحسن من يعبد الله كأنه يراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. كيف تعبد الله كأنك تراه؟ يقول ابن عربي أن تعبده على «مشاهدة» أي تعرف أنه يشاهد كل أفاعلك، وتشاهده أنت في خلقه طوال الوقت. يقول تعالى {سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: 53] و{هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[الحديد: 4]، فشهوده لكل شيء هو إحسانه. فإن لم تحسن أنت بتناسيك وجوده، فهو المحسن بشهوده عليك، ووجوده معك طوال الوقت. (547)

إن الله جميل يحب الجمال

ننظر إلى جمال مقيد كالزينة التي تكلمنا عنها مسبقًا، وننظر إلى جمال مطلق. الجمال المقيد هو الذي لا ننظر إلى ماهيته وأصله. فلو رأينا بنتًا جميلة، ولم نعبر إلى ما هو أعمق، وهو أن خالق هذه البنت هو الله، فنحن ننظر إلى الجمال المقيد مثل الزينة، وليس الجمال المطلق، وهو حب الله الذي حبب نفسه للمؤمنين.

يقول ابن عربي:

«ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: إن الله جميل يحب الجمال. فنبهنا بقوله «جميل» أن نحبه، فانقسمنا في ذلك على قسمين، فمنا من نظر إلى جمال الكمال، وهو جمال الحكمة فأحبه في كل شيء؛ لأن كل شيء محكم وهو صنعة حكيم، ومنا من لم تبلغ مرتبته هذا وما عنده علم بالجمال إلا هذا الجمال المقيد الموقوف على الغرض» (548)

يوضح ابن عربي أن الجمال أنواعٌ، جمال الرؤية وجمال الطبع والقلب وجمال الأفعال إلى آخره. ولكن اعلم أيضًا أن كل من عند الله، الشر والخير ولكن الله يصف نفسه بالصفات الجميلة لأنه يحبها ويحب أن نحبها فيه.

«فاعلم أن العالم خلقه الله في غاية الإحكام والإتقان كما قال الإمام أبو حامد الغزالي من أنه لم يبق في الإمكان أبدع من هذا العالم، فالعالم جمال الله فهو الجميل المحب للجمال، فمن أحب العالم بهذا النظر فقد أحبه بحب الله، وما أحب إلا جمال الله، فإن جمال الصنعة لا يضاف إليها، وإنما يضاف إلى صانعه، فجمال العالم جمال الله» (549)

يخبرنا ابن عربي أنه يعرف امرأة محبة في إشبيلية تعطينا المرأة مثالًا لحب الله وحب الجمال بإخلاص فيقول: «وخدمت أنا بنفسي امرأة من المحبات العارفات بإشبيلية يقال لها فاطمة، بنت ابن المثنى القرطبي خدمتها سنين، وهي تزيد في وقت خدمتي إياها على خمس وتسعين سنة. وكنت أستحي أن أنظر إلى وجهها وهي في هذا السن من حمرة خديها وحسن نعمتها وجمالها تحسبها بنت أربع عشرة سنة من نعمتها ولطافتها، وكان لها حال مع الله، وكانت تؤثرني على كل من يخدمها من أمثالي، وتقول ما رأيت مثل فلان إذا دخل علي دخل بكله لا يترك منه خارجًا عني شيئًا، وإذا خرج من عندي خرج بكله لا يترك عندي منه شيئًا. وسمعتها تقول عجبت لمن يقول إنه يحب الله، ولا يفرح به وهو مشهوده عينه إليه ناظرة في كل عين لا يغيب عنه طرفة عين، والمحب أعظم الناس قربة إليه، فهو مشهوده» (550)

هذه القصة: تخبرنا عن طبيعة ابن عربي وإخلاص قلبه، فيدخل بكل نفسه فيما يفعل، ويخرج مما يفعل بكل نفسه، وهذا هو الإخلاص في العمل أو حب الله أو ما فرض على الإنسان القيام به. فلندخل بيت الله بكل نفسنا، ونخرج، ولا نترك حقدًا أو كرهًا بداخله. ولنقم بعملنا بكل نفسنا وبإخلاص لأنه أمرنا بألا ننقد العهد، وقد وقعنا عقدًا شفهيًا أو مكتوبًا مع صاحب العمل. ولنقم بالعلم بكل نفسنا ولا نتبع الهوى. ولنقم بواجبنا تجاه الأهل والجيران والمحتاجين بكل نفسنا، ولا نترك رياء أو كبرًا عندما نخرج من العمل. هكذا الدخول بكل النفس والخروج منها.

تعلمنا المرأة من إشبيلية أن من يشهد الله في كل شيء لا يحزن أبدًا، كيف يحزن وحبيبه لا يفارقه. الحزن دومًا من الفراق. ولا فراق مع حب الله.

في المقطع التالي نرى أن المرأة من إشبيلية لا ترى في أي فقد سوى أنه قرب من الله، وعدم انشغال عن مودته، هو خالق كل ما يفنى، وفاعل كل ما يحدث.

ويكمل ابن عربي «وكانت تضرب بالدف وتفرح، فكنت أقول لها في ذلك، فتقول لي إني أفرح به حيث اعتنى بي، وجعلني من أوليائه، واصطنعني لنفسه، ومن أنا حتى يختارني هذا السيد على أبناء جنسي؟» (551)

وهذه قصة الشاب المتعلق بأستار الكعبة يحكيها ذو النون، ويوضح فيها معنى العشق عندما يكون لله.

«أخبرنا يونس بن يحيى بمكة سنة تسع وتسعين وخمسمائة، قال أخبرنا أبو بكر بن الغزال، قال أخبرنا أبو الفضل بن أحمد، قال أخبرنا أحمد بن عبد الله، قال حدثنا عثمان بن محمد العثماني، قال حدثنا محمد ابن إبراهيم المذكر، حدثنا محمد بن يزيد قال: سمعت ذا النون يقول خرجت حاجًا إلى بيت الله الحرام، فبينما أنا أطوف إذ أنا بشخص متعلق بأستار الكعبة وإذا هو يبكي ويقول في بكائه «كتمت بلائي من غيرك، وبحت بسري إليك واشتغلت بك عمن سواك، عجبت لمن عرفك كيف يسلو عنك، ولمن ذاق حبك كيف يصبر عنك؟» (552)

وهذه الكلمات لا تحتاج إلى شرح، فالصدق يتأجج منها. فمن عرف حب الله ثبت في كل حال واستغرقه الحب عن كل شيء حوله.

وربما من المهم أن نتكلم أيضًا عن المودة والرحمة بين الزوجين؛ فابن عربي يقول إن هناك حبًّا ينتهي، وهناك حب لا ينتهي، وهذا الحب يكون بين الأخوة والأصدقاء والأزواج، فالحب ليس مقصورًا على نوع. فمثلًا حب النبي وأبي بكر الصديق، حب لم ينته حتى الموت. والثبات من صفات الأولياء ومن أهم الكلمات المذكورة في كتابات ابن عربي وغيره. الثبات كلمة لها دلالات وأمثلة. فالثبات إذن هو عدم تغير المشاعر من الفرح للحزن أو من الحب للكره. والثبات في المودة من صفات الله لذا أطلق على نفسه الودود، كما قال ابن عربي من قبل. وعندما يستعمل الله كلمتي المودة والرحمة ليشير إلى علاقة الزوجين فهو يطلب منا الثبات في الحب في السراء والضراء، ويذكرنا مرارًا أننا ربما نكره شيئًا، ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا، وربما نحب شيئًا وهو شر لنا في نطاق علاقة الرجل بالمرأة. فالثبات في العلاقة وفي العهد.

قال تعالى {مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَا صَدَقُو مَا عَـٰهَدُو ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُو تَبْدِي ا} [الأحزاب: 23]. والزواج عهد واتفاق بين طرفين لا بد أن يكون واضحًا من البداية. وقال في حق الزوجين {وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَ ا لِّتَسْكُنُوٓ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّ وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰ لِّقَوْ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم: 21].

ويقول ابن عربي أيضًا «اعلم أن الإنسانية حقيقة جامعة للرجل والمرأة، وليس للرجال درجة على النساء من حيث الإنسانية» (553)

«وعن الحب صدرنا وعلى الحب جبلنا فلذا جئناه قصدًا ولهذا قد قبلنا» (554)

ولكن ابن عربي يذكرنا في معظم كتاباته أنه متى أحب العبد غير الله، ومال إلى هواه يصبح الحب قيدًا وليس نعمة.

ولنختم المقال بالمعنى الأوسع للحب وهو حب كل ما خلق الله وحب كل من يعبد الله وكل من يبحث عن الله بطريقته.

سماحة ابن عربي في الحب

أما في قصيدة ابن عربي الشهيرة عندما قال:

«قد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني لقد صار قلبي قابلًا كل صورة فمرعى لغزلان، ودير لرهبان..وبيت لأوثان وكعبة طـائف وألواح توراة ومصحف قرآن..أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني» (555)

توضح لنا الباحثة شيميل في كتابها عن الصوفية (556) أن ابن عربي عندما وصل لهذا المقام فقد وصل إليه بعد مجاهدة مع النفس لتقبل الآخر. فهذا من ارتفاع مقام. بالنسبة لشيميل فهذا ليس فقط من سماحة الصوفيين وتقبلهم الآخر، ولكن هذه السماحة لا يصل إليها إلا صاحب مقام مرتفع من استطاع أن يصل إلى مقام الحب، وهو مهم كمقام الرضا والعبودية عند ابن عربي.

فقد استقر حب الله في قلب ابن عربي حتى أصبح يحب كل مخلوقاته بل يحب كل من يبحث عن الله بطريقته هو التي ربما تختلف تمامًا عن طريقة ابن عربي.

بالنسبة لابن عربي الإنسان يفتقر لوجود الله. من هنا جاء عنوان رواية نجيب محفوظ الشحاذ»فتجد في فطرة كل إنسان افتقارًا لموجود يستند إليه، وهو الله تعالى، ولا يشعر به، ولهذا قال: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ} [فاطر: 15]، يقول لهم: ذلك الافتقار الذي تجدونه في أنفسكم، متعلقه الله، لا غير، ولكن لا تعرفونه» (557)

فكل محاولة للوصول إلى الله هي عن حب له في الغالب حتى لو لم يدرك الإنسان. ومن يحب الله يحب كل عباده وكل خلقه.

وعن بر جميع البشر يقول ابن عربي «ثم وجد أن بره بكل عباد الله عبادة» (558)

ملخـص

ما علاقة السعادة بالحب؟

في حب الله سعادة، وحب الله لنا حب عناية أي حب من قبل أن نحبه، وقبل أن نستحق أي حب. فهو حب شامل واسع كرحمته بالضبط. وهناك عباد اختصهم الله بحب كبير، وهؤلاء هم المحسنون الصادقون المخلصون التوابون الشاكرون الصابرون، وهناك عباد كره الله صفاتهم حتى وإن لم يكرههم هم، وهم المتكبرون المفسدون الظالمون.

كل حب لا نرى الله فيه فهو ليس بحب حقيقي ولكن وهم. يقول ابن عربي:

«فأفنت الشعراء كلامها في الموجودات وهم لا يعلمون. أما العارفون، فإنهم لم يسمعوا شعرًا، ولا غزلًا، ولا تمدحًا، إلا فيه من خلف حجاب الصور» (559)

تذكر أيها القارئ أن المحبة توصلنا إلى مقام الرضا. وأن المحب دوما في شوق موصول الى حبيبه.

«ومـن عـجـب أني أحـن إلـيهم وأسأل شوقًا عنـهم وهـم معـي

وتبكيهم عيني وهـم في سـوادها وتشتاقهم نفسي وهم بين أضلعي» (560)

ومضـة نـور

«وعليك أن تتحبب إلى الله بكل ما يحبه، فإذا أحبك الله أسعدك بالعلم به، والله يحب أمورًا كثيرة، ومن الأمور التي يحبها الله، الرجوع إليه تعالى عند الفتنة؛ فإن الله يحـب كـل مفـتن تـواب، والفتنة والبلاء بمعنى واحد، هو الاختبار؛ لما عليه الإنسان من الدعوى، وأعظم الفتن، النساء والمال والولد والجاه هذه الأربعة، إذا ابتلى بها الله عبدًا من عباده أو بواحد منها وقام العبد فيها مقام الحق كانت نعمة وردته إلى الله» (561) ابن عربي

«وصية: عليك باستعمال العلم في جميع حركاتك وسكناتك. فكن صاحب علم وعمل، ولا تكن ممن علم وترك العمل، مثل الشمعة تضيء للناس وتحرق نفسك!» (562)

ابن عربي

«أدرك نفسك بالعلم قبل الموت. فإن الظلمة أمامك ما فيها نور إلا علمك وأشرف أعمالك العلم» (563)

ابن عربي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

عمـر بن الفـارض

سلطان العاشقين: الدنيا بين الحقيقة والوهم

«وكتب رجل إلى أخ له: أما بعد؛ فإن الدنيا حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، ونحن في أضغاث أحلام والسلام» (564)

أبو حامد الغزالي

الاهتمام بالحب ونعوته وصفاته وإعطاء الحب أكبر المقامات لم يكن فقط عند ابن عربي في أسفاره، ولكن عند ابن الفارض أيضًا.

عمر ابن الفارض نشأ في مصر من أب سوري في العصر الأيوبي، وعاصر ابن عربي، بل وقيل قابله في مصر، ودافع عنه، وتمت بينهما الكثير من المخاطبات والرسائل. وإذا كان ابن عربي قد كتب الفتوحات التي رآها وهي فتح من الله وإلهام منه عليه، فابن الفارض كتب قصيدته الشهيرة التائية أو نظم السلوك من أكثر من 700 بيت. نشأ ابن الفارض لأب يعمل بالفقه، وبينما هو في القاهرة يهم بالصلاة في المسجد رأى بقّالًا يتوضأ بطريقة غير صحيحة، فتدخل في رفق يساعد البقّال على الوضوء، فنظر الرجل إليه وقال: مكانك ليس هنا يا عمر، مكانك في مكة. وكأنها إشارة له بالسفر والفهم. سافر ابن الفارض في رحلة جهاد للنفس وتصفية لها إلى الحج، ومكث في مكة حوالي خمسة عشرعامًا. ثم عاد إلى مصر في الغالب عندما شعر بنداء من نفس البقّال بأن يمشي في جنازته، وتحقق النداء، ومشى ابن الفارض في جنازته. وألّف ابن الفارض أيضًا في مكة، مثل ابن عربي، بعضًا من أعذب شعره في مناجاة حبيبه ربه. وقيل إن ابن عربي عندما وصل مصر استقبله ابن الفارض، وتكلم معه كثيرًا. ثم حاول بعض الفقهاء ورجال الدين قتله واتهامه بالكفر، فدافع عنه ابن الفارض، ومعه السلطان الكامل الأيوبي. وتمكن ابن عربي من الهروب من مصر، ولم يعد إليها، ثم استقر في الشام، ولكن استمرت العلاقة بين ابن الفارض وابن عربي. حتى إن ابن الفارض بعث برسالة إلى ابن العربي يطلب منه أن يشرح له بعض الجمل في كتابه الفتوحات المكية، فأجاب ابن عربي: ستجد الإجابة في قصيدتك التائية أو نظم السلوك. تأثر الرجلان كلٌ بالآخر على أكثر من مستوى.

الطريق إلى السعادة عند ابن الفارض في الحب، وحب الله أسمى وأعظم حب. وعند إدراك أن الدنيا تتسرب من بين أيدينا بسرعة ولا يبقى غير حب الله في قلوبنا نصل إلى السعادة. ولكن الحب ليس دومًا هناء، هناك أيام شوق، وعدم صبر، وضلال، ولكن يبقى الحب مشكاة تضيء الطريق للسالكين دومًا. ابن الفارض في سياحته ورحلته إنسان يحكي عن ضلاله

وهدايته، عن حيرته ويأسه أحيانًا، وعدم صبره، ثم يجد الطمأنينة والسلام مع الحبيب الوحيد الله.

يتساءل ابن الفارض لو كان هذا العالم حقيقيا. وسبب التساؤل هو أن العالم غير مستقر بل هو زائل أيضا. من يعيش غائصًا في التفاصيل الصغيرة ربما ينسى الشكل العام للدنيا، لذا على الإنسان أن يسافر بجسده وعقله ليفهم أن الدنيا ساعة أو أقل. مثال: لو كنت تنظر إلى لوحة جميلة، وركزت نظرك فقط على خصلة في شعر رجل من ألف رجل في اللوحة ربما تنسى الهدف الأساسي من اللوحة، وتنسى شكلها العام. هذا هو حال الإنسان، يتوه في التفاصيل وينسى الهدف من حياته. وعند ابن الفارض الهدف من الدنيا هو «قتل غلام النفس». أي قتل السيىء في نفسك ومكافحة هواك، وإقامة حدود جدار تذكرك بحجمك في هذا العالم حتى لا تظلم أو تفسد. هكذا يقول ابن الفارض في التائية أو نظم السلوك. الغرض من الحياة هو المجاهدة، وجهاد النفس أسمى جهاد، ثم إدراك حجمك أمام قوة ربك، ثم التسليم له وعندئذ تصل إلى الرضا والسعادة.

وكيف تدرك حدودك؟ عندما تدرك عجز عقلك عن رؤية الحقيقة إلا بمساعدة القوي وهو الله.

ماهية الحياة

الحياة الدنيا وهم. يقول ابن عطاء الله السكندري: «ما قادك شيء مثل الوهم» (565) يقصد إيهام النفس بأنك تفعل الصواب.

ولكن بالنسبة لابن الفارض، الدنيا التي نعيشها ما هي إلا عرض مسرحي أو عرض لخيال الظل، كل ما عليه ينتهي وكل ما عليه له محرك واحد، مخرج هذا العرض المسرحي أو من يحرك العرائس في خيال الظل وهو الله خالق كل شيء. فكل شيء فانٍ ويبقى وجه ربك.

ما أهمية هذا التشبيه وما معناه؟

لو أن حياتنا كلها عرض لخيال الظل، فهي محدودة بوقت معين. ينتهي دور كل عروس داخل العرض في قت يعرفه من يحرك العرائس فقط، ولا نعرفه نحن.

ولو أن حياتنا بيده هو، فهو الفاعل الوحيد وغيره لا يفعل. إذن كل شيء يأتي منه هو، لا بد أن نوقن أننا عباد. ومقام العبودية من أعلى المقامات عند علماء الصوفية، وهو أن ندرك أننا بلا قوة ولا قدرة ولا حول، ونقول لا حول ولا قوة إلا بالله. ولكن بالنسبة لابن عربي، فقول لا إله إلا الله أتم وأعلى. لأنها تعني أن ما في الوجود غيره، كل ما دونه يهلك ويفنى في صورته الجسدية أو

العينية، وتبقى الروح تذهب إليه في النهاية. هذا الشعور لو تأصل داخل الفرد سيعطيه الثبات في الحب والحياة، والثبات من أهم الصفات فلا تفرحوا بما آتاكم، ولا تأسوا على ما فاتكم. هذه هي نفس أفكار ابن الفارض.

وأيضًا سيصعب على الإنسان الاغترار بماله، أو جاهه، أو زينة الدنيا لأنه يعرف أن الفاعل واحد سينهي العرض في يوم ما. وأن ما نحيا به وهم لا أكثر {وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ} [العنكبوت: 64].

بما إن رؤية الفاعل وقربه منّا يمنحنا الطمأنينة والهدوء والعافية، فمعرفة أنه هو الفاعل هي الهدف.

عندما ننظر إلى الفاعل في كل الأفعال، يسهل علينا تقبل البلاء والصبر عليه، فكل من عند الله.

عندما ندرك أننا في النهاية في يد الفاعل يعيدنا إليه، نخاف إغضابه.

ربما تكون فكرة العرض المسرحي أو خيال الظل التي تكلم عنها ابن الفارض كان قد تأثر فيها بفكرة الكهف التي تكلم عنها أفلاطون، فأفلاطون يعطي تشبيهًا وهو أن بعضنا يحيا داخل كهف ويرى ظل الناس والأحداث فيحسبها حقيقة، ولا يدري أن هناك حقيقة خارج الكهف. وربما لا يريد أن يخرج من الكهف أصلًا لأنه لو خرج وواجه الحقيقة، ربما تعمي الشمس عينيه، فيظن أن الحياة في الظلام أفضل. أما إذا تكشف له النور ببط ء، عرف ما جهل، وفهم أنه كان يحيا في وهم. ولو خرج أحد إلى الضوء، ورأى الحقيقة وأخبره أن هناك حياة خارج الكهف لن يصدق لأن عقله المحدود لا يعرف غير الكهف. حدود العقل تقيد البشر كما قلنا، وتجعلنا عبيدا لدنيا قصيرة. لحظة أن تدرك أن هذه الدنيا ليست النهاية، ولا لغاية تتحرر وتنكشف لك الحقيقة تدريجيًا.

أفلاطون لم يتكلم عن وجود الله. ولكن ابن الفارض يتكلم عن نور العلم بالله ولله، فالجهل ظلام والعلم نور. والدنيا وهم، والله هو الحقيقة المطلقة. تتكشف الحقيقة كما تتكشف لمن يخرج من الكهف عند أفلاطون، تتكشف للسالك أو الصوفي كلما أيقن أن المحرك للعرائس في خيال الظل واحد، فيبدأ في التفكير بخياله فيما بعد العرض المسرحي، وفيما هو أهم من تحريك العرائس. فيتجلى نور الله مع معرفته. ولنتذكر أن معرفة الله عند الصوفي هي أجل الأهداف وأهمها كما وضحنا في مقالات الغزالي والشاذلي.

هل هذا الطريق محظور على ما سوى الصوفي؟ بالطبع لا. هو طريق الإيمان بالله في كل زمان ومكان.

وهل يدخل اليأس قلب المؤمن؟ لا لأنه يعرف أن للعرض هدفًا، وأن العرض حتى وإن كان وهمًّا، فمحرك العرائس حقيقي، ومعرفته تعطي الأمل واليقين.

نقارن معرفتنا هذه بما يقصده ابن الفارض بكلام ابن عربي عن الحب في المقالين السابقين.

ونقارن كلمات ابن الفارض وأشعاره بأشهر تشبيهات الكاتب المسرحي شكسبير في مسرحيته ماكبث:

ما كبث يطمع في الملك والرياسة والجاه، فيقتل الملك ليأخذ مكانه. ثم يستمر في القتل، ولا يتوقف عن حلقة الدماء، ولا يجد في النهاية سعادة في الجاه أو السلطة. فلو تذكرنا كلمات ابن عربي أن الدنيا ضيقة فيحاول الإنسان التحرك بداخلها بشتى الطرق ليعطي نفسه مكانًا أوسع، ولا يوجد مكان أوسع سوى عند الله وبرؤيته هو. فمن يعيش مقيدًا بطمع لا بد أن يموت حزينًا. عندما يكتشف ماكبث في النهاية عدم جدوى طمعه، يقول هذه الأبيات الشهيرة التي تشبه إلى حد كبير تشبيه ابن الفارض، علمًا بأن ابن الفارض قالها قبل شكسبير بثلاثمائة عام أو يزيد.

«ما الحياة إلا ظل يمشي، ممثل مسكين

يتبختر ويستشيط ساعته على المسرح

ثم لا يسمعه أحد: إنها حكاية

يحكيها معتوه ملؤها الصخب والعنف،

ولا تعني شيئًا» (566)

يصف شكسبير الإنسان بأنه ممثل معتوه يحكي حكاية بلا أي قيمة، بل حكاية يظللها الوهم أيضًا، يغضب ويطمع هذا الإنسان، ثم يعيش ساعته ويموت بلا أي هدف أو قيمة.

ولكن القارئ يستطيع هنا أن يفهم الفرق بين كلمات ابن الفارض وماكبث. ما الفرق؟ بالنسبة للرجلين، الحياة وهمّ. وبالنسبة للرجلين، الحياة محدودة بساعة ربما لا أكثر {وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَـٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُو بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُو لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْ قَالُو رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَ بْعَثُوٓ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِ إِلَى لْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا} [الكهف: 19]، وبالنسبة للرجلين خيال الظل هو التشبيه المستعمل. ولكن الفارق مهول. فماكبث يحجبه طمعه عن رؤية الفاعل الحقيقي لكل شيء. فالظالم دومًا محجوب عن الله بأفعاله. وليس أصعب من عقاب الحجب عند

الصوفيين، عندما نحجب عن الله ونبتعد فهذا هو العقاب الذي يدمي القلوب. تضيق الدنيا بالبعد عنه والحجب، وتتسع بالقرب والشهود أي الشعور به في كل شيء.

ما كبث لم ير النور، لم ير سوى الأشياء التي قيدته بداخلها الجاه والسلطة والمال. لذا يرى أن الدنيا وهم، ولكنها وهم بلا قيمة ولا أهمية، كل الأفعال فيها تذهب هباء. لا نرى الشمس ولا نخرج من الكهف. ابن الفارض يرى أن هذا الإنسان إذا كان سالكًا فهو يسعى إلى ما وراء الوهم، إلى ضوء الشمس، وكلما اقترب من ربه تجلى له النور. الفاعل واضح عند ابن الفارض ومحجوب عند ماكبث. وكأن شكسبير يتكلم بلسان الإنسان الفاهم لطبيعة النفس البشرية وضعفها وقيدها. كل ما هو دون الله قيد، وكل قيد يحجب عن الرؤية.

هذه أجزاء من قصيدة ابن الفارض التائية أو نظم السلوك، مع الشرح.

«البيت الأول:سقتني حميا الحب راحة مقلتي وكأسي محيا من عن الحسن جلت» (567)

يبدأ ابن الفارض قصيدته بأن يذكر أن الحب جعله كالمخمور بنشوى رؤية جمال محبوبه وهو الله الجميل، وهذا هو المحبوب الوحيد في قلبه. وخمر الصوفي ليست كحولية، ولكنها خمرة الشعور بالطمانينة من وجود الله والقرب منه.

انظر الآية الكريمة « « [الإنسان: 21]. يرى جمال محبوبه كأنه خمر الحب، وهو خمر طاهر يتجلى في كل جمال. لقوله تعالى: « « [السجدة: 7]. (568)

«البيت الثامن:هبي قبل يفنى الحب مني بقية أراك بها لي نظرة المتلفت» (569)

يناجي ابن الفارض ربه، ويطلب منه أن يترك فيه بعض الرمق أو الحياة حتى يتسنى له أن يشهد عظمة ربه وقربه. الحب يفني صاحبه فيصبح عبدا لدى محبوبه يطيعه، ويتمنى البقاء معه. ورؤية الله في الدنيا رؤية بصيرة وليست رؤية بصر. هي رؤية شهوده وعظمته في كل شيء حولنا.

رؤية الله لنا «رؤية محيطة {أَلَآ إِنَّهُمۡ فِى مِرۡيَ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىۡ مُّحِي } (570) [فصلت: 54]» هدف الصوفي الأول والأخير، هو رؤية الله في الآخرة. ابن الفارض يطلب من الله أن يبقى فيه بعض البقية لأن حب الله يفنيه، فيريد أن يبقي الحب بعض الرمق ليستطيع أن يرى به الله. ولأن نظرة الإنسان دومًا نظرة ملتفت لا تبقى.

تقول رابعة العدوية

«أحبك حبين، حب الهوى وحب لأنك أهل لذاتك، فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عن من سواك، وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراك» (571)

ويتفق الصوفية أن كشف الحجب لا يحدث في الدنيا، ويحدث في الآخرة للعباد الذين يصطفيهم الله له. يقول ابن عربي إن كل عبد يريد جنة، وحور عين، وخمرًا، وفواكه، إنما هو عبد مقيد حتى داخل الجنة، وكل عبد لا يريد سوى الله هو عبد مطلق اليدين محرر. فرؤية الله في الدنيا بالبصيرة.

لذا فالحجب بالنسبة للصوفية أكبر عقاب. حتى إن ابن الفارض في قصيدته موكب العشاق يقول:

«إن كان منزلتي في الحب عندكم ما قد رأيت فقد ضيعت أيامي» (572)

بمعنى لو كانت منزلتي يوم الموت هي فقط الجنة فلا بد أنني ضيعت أيامي في حب غير الله.

لأنني لو أحببت الله بصدق وإخلاص لرأيته. (573)

يقول ابن الفارض في شعره إن «الحقيقة رحلتي»، يسلك الدروب في بحثه عن الحقيقة، ويتقلب يمينًا وشمالًا.

هذه القصيدة هي رحلة للبحث عن النور والحقيقة. ما يميزها، ويميز الشعور الصوفي هو الكلام التلقائي عن التجربة الإنسانية من حيرة، ووهم، وخطأ، وصواب، وندم، وذنب، وتوبة، وبحث، وعطاء، وبذل، واجتهاد.

يقول في التائية: «وإياك والإعراض عن كل صورة مموهة أو حالة مستحيلة.

فطيف خيال الظل يهدي إليك في كرى اللهو ما عنه الستائر شفت.

ترى صورة الأشياء تجلي عليك من وراء حجاب اللبس في كل خلعة» (574)

يطلب ابن الفارض من نفسه ومن غيره ألا يترك النظر للصور التي تخدعه، فحتى هذه الصور لو تعمق فيها فسوف يجد فيها عبرة. الصور الكاذبة الغامضة كلها عبرة ومثل. فكلها أمثال لخلق الله تعالى. وتشبيه بالدنيا التي نحياها. يتكلم مع السالك ويقول له بالتدريج ستتضح لك صورة الأشياء الحسية التي تنظر إليها وتدركها بحواسك «السمع والبصر والذوق واللمس» وحجاب اللبس هو الالتباس أو الحيرة والوهم. فأنت تتوهم أن كل الصور التي تراها حقيقية وهي ليست كذلك. ولكنك بالتفكير والتأمل والعلم والعمل تصل الى حقيقة الأشياء. أنت مقاد بوهمك لانك ضعت داخل التفاصيل الصغيرة داخل الحياة، ونسيت أن وراءها فاعلًا حقيقيًا واحدًا هو الله.

ومن القصائد التي تعطي نفس المعنى

«رأيت خيال الستر أكبر عبرة لمن هو في علم الحقيقة راقي

شخوص وأشباح تمر وتنقضي وتفنى جميعا والمحرك باقي» (575)

ثم يقول ابن الفارض في التائية:

«تجمعت الأضداد فيها لحكمة فأشكالها تبدو على كل هيئة.

صوامت تبدي النطق وهي سواكن تحرك تهدي النور غير ضوية.

وتضحك إعجابا كأجذل فارح وتبكي انتحابًا مثل ثكلى حزينة. (اجذل بمعنى أكثرهم فرحا)

وتندب إن أنت على سلب نعمة وتطرب إن غنت على طيب نغمة» (576)

يصف لنا هنا الدنيا التي تجمع المتناقضات، كما أن أسماء الله تجمع التضاد، فهو الظاهر والباطن المنتقم الجبار والرحمن الرحيم. وها هي الدنيا تجمع الحزن والفرح، ويتبدى لنا نحن إن كل هذه المشاعر حقيقية، وهي ليست كذلك. فنشعر بالحواس، ونرى، ونسمع، ونندم، ونطمع، ونحزن على زوال نعمة، ونفرح بطيب العيش، وفي النهاية كل ما نراه هو بفعل خيال الظل ينكشف من وراءه يد الفاعل، وتنتهي المسرحية، ويعيد العرائس لنفسه، ولا يبقى إلا هو. كل الأشياء له.

يقول النابلسي «جميع ما نراه هو من خلق الله، كل الأفعال ليست بيدينا، {وَ للَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: 96]» (577)

فالإنسان يخوض الحروب في البر والبحر ويزهو بانتصار قصير، ويكسب من صيد البر والبحر، ويشاهد افتراس الحيوانات بعضها لبعض، وكل هذا من صنع واحد وكل هذا للزوال. يقول ابن الفارض:

«وتنظر للجيشين في البر مرة وفي البحر أخرى في جموع كثيرة....

ترى الحروب وافتراس الحيوانات وصيد البر والبحر. تشهد كل هذا في هذه المسرحية.

وكل الذي شاهدته فعل واحد بمفرده لكن بحجب الأكنة (أغطية وستائر)

إذا ما أزال الستر لم تر غيره ولم يبق بالإشكال إشكال ريبة

وحققت عند الكشف أن بنوره اهتديت إلى أفعاله في الدجنة» (578)

وليس لك أن تعرف أن كل فعل بيده، وأنه عندما ينزل الستار لن يبقى غيره إلا بنوره، والعلم الذي أعطاك أيها السالك بعد المجاهدات والتخلي وليس قبل. كلما تخليت وجاهدت ينكشف لك الستار وترى النور. وعندما ترى النور تصل إلى الحرية. هناك بالطبع إشارة إلى الآيات التالية من كتاب الله:

{وَلَا تَدْعُ مَعَ للَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ لْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: 88].

{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَا . وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو لْجَلَـٰلِ وَ لْإِكْرَامِ} [الرحمن: 26 - 27]

إذا كشف الحجاب لك، لن ترى غيره، وستعرف قدر فنائك فيه وفي أفعاله.

عندما تهدي، أي تصل وتوقن، سترى شهوده في كل شيء حولك ولن تكتفي بالظل داخل الكهف المظلم، ولكن ستتوق إلى النور. ستغيب وتفنى في الله، أي تنسى كل من حولك وتستمد قوتك منه هو فقط.

ثم يفعل ابن الفارض ما فعله البوصيري بعده وما يفعله كل الصوفيين، يتكلم بكل صدق عن ضلاله وهدايته، عن تيهه ووصوله، فيقول - كما قال الغزالي في المنقذ من الضلال - إن الوصول إلى الله يحتاج إلى العلم والعمل.

«كذا كنت ما بيني وبيني مسبلًا حجاب التباس النفس في نور ظلمتي.

لأظهر بالتدريج للحس مؤنسا لها في ابتداعي دفعة بعد دفعة» (579)

لو تذكرنا كلمات ابن عطاء الله السكندري في الحكم عندما ذكرنا أن ما يقف بيننا وبين ربنا هو ميادين النفوس. ما يكمن بداخلنا يحتاج إلى فهم. لا بد من مواجهة النفس باستمرار لنقترب من الله. نواجهها بما تنكر، وما تدعي، وما توهم نفسها به، ونواجهها بالخطأ والصواب. عندما فعل ابن الفارض هذا زال الالتباس والحيرة ووجد ضالته وماهية وجوده، وانكشف عنه حجاب الوهم.

«فلما رفعت الستر عني كرفعة بحيث بدت لي النفس من غير حجبة

وقد طلعت شمس الشهود فأشرق الوجود وحلت بي عقود أخية

وقتلت غلام النفس بين إقامة الجدار لأحكامي وخرق سفينتي» (580)

انكشف الحجاب عن ابن الفارض عندما حرر نفسه من الوهم وقتله كما قتل الخضر الغلام، ثم أقام الجدار كما أقام الخضر الجدار ليضع نفسه في مكانها أمام الله القاهر فوق عباده، وكما خرق الخضر السفينة لينقذ أهلها خرق ابن الفارض سفينة غروره وأوهامه وضلاله لينقذ نفسه ويقربها إلى خالقها.

والجدار الذي أقامه هو الذي يفرق بين الفاعل والمفعول، العبد وربه. فقد وضع الجدار ليدرك حجمه الحقيقي، وأقامه ليضع لنفسه حدوده، وينفذ ما أمره الله به.

عندما فعل ابن الفارض هذا، رفعت عنه الستار، ورأى نفسه الحقيقية، ورأى الله في شهوده في كل ما خلق. وخرج من كهفه وأوهامه إلى النور يرى ويتحرر.

من الواضح تأثر ابن الفارض وإشارته في كل شعره وقصائده إلى القرآن، واستعماله للتشبيهات من القرآن طوال الوقت. ومن الصعب فهم مقصده إلا لو عرفنا السياق الذي يكتب فيه.

في كثير من الأحيان يتكلم ابن الفارض فيخاطب حبيبه، وأحيانًا يتكلم فيخاطب الله. يجد الشخص العادي صعوبة في التفرقة أحيانا أو تلتبس عليه الأمور، لكن في الحقيقة أن ابن الفارض يستعمل ما نطلق عليه في علم اللغويات الاجتماعية لغة مجتمع الممارسة (Eckert :community of practice) في كل مجتمع أو مهنة هناك لغة يفهمها أصحاب المهنة فقط، وتصعب على من هو خارج هذه المهنة أو هذا المحيط. وربما هذا ما أدى إلى سوء فهم لغة الصوفيين.

يقول السيوطي عن الصوفي، «الصوفي يرى الوجود للواحد الحق، كل الأفعال منه، لا ينظر لشيء من الأفعال إلا يرى الفاعل. لا يرى سماء، أرضًا، شجرًا، بل يرى صنع الله» (581) وقد أعطانا الغزالي مثالا في كتابه «مشكاة الأنوار» عن من يعجب بالشعر مثلًا فينظر إلى الورق والحبر والكلمات وينسى الشاعر، مَن أبدع هذا الشعر. وهذه حال البشر. ينسون الفاعل الوحيد وراء كل شيء.

ابن الفارض وأزمته بعد وفاته

كتب لنا المؤرخ الكبير ابن إياس: في سنة خمس وسبعين وثمانمائة هـ (1470 - 1471 ميلاديا) في كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور عن أزمة تكفير ابن الفارض بعد وفاته. وكتب ابن إياس بتعاطف واضح مع ابن الفارض.

«بعض العلماء تعصبوا ضد ابن الفارض، اتهموه بالكفر والحلول والاتحاد بسبب بعض أبيات التائية. رأس من تعصب عليه قاضي القضاة محب الدين بن شحنة، وبرهان الدين البقاعي» (582)

من كان معه ودافع عنه من العلماء، الفقيه والمؤرخ شيخنا الجلال بن الكمال السيوطي (849 هـ / 1445- 911 هـ / 1505م)، وقاضي القضاة في عهد الدولة المملوكية الشيخ زكريا الأنصاري (842هـ / 1421م - 926هـ / 1520م).

ألف جلال الدين السيوطي كتابه «قمع المعارض في الرد عن ابن الفارض». وصنف بعض العلماء كتابًا سموه «درياق الأفاعي في الرد على البقاعي» وقعت مشاحنات كبيرة بين الناس. وهجا الشعراء المهاجمين لابن الفارض، وغضب المصريون للهجوم عليه. فقال شاعر:

«إن البقاعي بما قد قاله مطالب

لا تحسبوه سالما فقلبه يعاقب» (583)

يقول ابن إياس إن العلماء والسلطان غضبوا من سب ابن الفارض «تعصب له العلماء والسلطان أيضًا فكتب إلى قاضي القضاة زكريا الأنصاري «ما يقول الشيخ الإمام العالم العلامة، البحر الفهامة، زكريا الأنصاري الشافعي، نفع الله المسلمين به، عمن قال بكفر سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله سيدي عمر بن الفارض، تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه، فيمن زعم أن عقيدته فاسدة بناءً على ما فهمه من كلامه في مواضع مرجعها إلى إطلاقات معلومة عند السادة الصوفية بإصطلاح تخاطبهم لا محذور فيها شرعًا. فهل يحمل كلام هذا العراف على اصطلاح أهل طريقته أم على اصطلاح أهل ملة غير الإسلام؟ فما الجواب عن ذلك؟ أفتونا مأجورين» (584)

من الواضح من رسالة السلطان قايبتاي تبجيله واحترامه لابن الفارض وللصوفيين عامة.

ألح عليه السلطان أيامًا حتى كتب زكريا الأنصاري: «يحمل كلام هذا العارف - رحمة الله عليه، ونفع ببركاته - على اصطلاح أهل طريقته، بل هو ظاهر فيه عندهم، إذ اللفظ المصطلح عليه حقيقة في معناه الاصطلاحي مجاز في غيره كما هو مقرر في محله، ولا ينظر إلى ما يوهمه تعبيره في أبيات في التائية من القول بالحلول والاتحاد، فإنه ليس من ذلك في شيء بقرينتي حاله ومقاله المنظوم في تائيته بقوله من أبيات القصيدة:

«ولي من أتم الرؤيتين إشارة تنزه عن رأي الحلول عقيدتي» (585)

وهذا يصدر عن العارف بالله إذا استغرق في بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحل ذاته في ذاته، وصفاته في صفاته، ويغيب عن كل ما سواه بعبارات تشعر بالحلول والاتحاد لقصور العبارة عن بيان حالته التي يرقى إليها كما قاله جماعة من علماء الكلام رضى الله تعالى عنهم. ولكن ينبغي كتم تلك العبارات عمن لم يدركها فما كل قلب يصلح للسر، ولا كل صدف ينطبق على الدر، ولكل قوم مقال، وما كل ما يعلم يقال. وحق لمن لم يدركها عدم الطعن فيها كما قيل:

«وإذا كنت بالمدارك غرا

ثم أبصرت حاذقا لا تمارى

وإذا لم تر الهلال فسلم

لأناس رأوه بالأبصار

ولو ذاق المنكر ما ذاق هذا العارف لما أنكر عليه.» (586)

بكل وضوح برأ زكريا الأنصاري ابن الفارض. أما التشبيه برؤية الهلال في هذه القصيدة التي استشهد بها الأنصاري فهي تذكرنا أن الإنسان مقيد بنظره الضيق وخياله المحدود. ولو تذوق من أنكر على ابن الفارض حبه لله وإيمانه ما ذاقه ابن الفارض من قرب من الله، ومعرفة لرحمته وعدله ما هاجم ابن الفارض. من هاجم ابن الفارض إذن لم يفهم أشعاره لأن أفقه ضيق، ومعرفته ظاهرية محدودة.

يقول ابن إياس «وسكن الاضطراب. وعزل السلطان ابن شحنة عن قضاء الحنفية» ويخبرنا ابن اياس أن لعنة قد أصابت كل من تطاول على ابن الفارض مستندًا إلى حديث النبي عن رب العزة «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب» (587)

فيقول إن ابن شحنة «حصل له فالج، وذهل وسلب من العلم» (588) أي أصيب بشلل وفقد عمله أيضًا. ويعطي ابن إياس أمثلة أخرى لكل ما أصاب باغضي ابن الفارض من مصائب واحدًا تلو الآخر.

قصيدة قلبي يحدثني بأنك متلفي

كنا قد تطرقنا إلى كيمياء السعادة في مقال الغزالي، وقلنا إن السعادة عند الغزالي هي المعرفة والجمال. فما أجمل من الله خالق كل جمال. ومعرفتنا بالله تولد الطمأنينة والسعادة. في هذه القصيدة يعبر ابن الفارض عن حبه الشديد الذي يصيبه بالوجد والشوق إلى الله، ثم يتكلم عن جمال الله. وفي بعض الشروح يتكلم عن جمال النبي (في كتاب عبد الغني النابلسي) ولكننا نرى أن الله أقرب في هذه القصيدة.

هذه القصيدة لابن الفارض من أعذب ما كتب عن الحب. يقول ابن الفارض إن الحب تلفه، ويصف مشاعر الحب من وجد وشوق ولهفة، ثم يتكلم عن جمال الله الذي ليس كمثله شيء، وكيف أنه لو تجلى لكل بدور الأرض لأظلمت من نوره وبهائه، فيصبح عشق الله مصدرًا للشوق وللقائه. ونجد هنا في هذه القصيدة أن ابن الفارض كعادته يستعمل قصص القرآن ليبتكر تشبيهات بديعة، فهو كما يقول الغزالي لا يستطيع أن يصف حبه إلا بما يدركه عقله. لذا فالإنسان كما يقول الغزالي يعرف الله يصفه بما يعرف، ولكن الله ليس كمثله شيء. فيتطرق ابن الفارض هنا إلى جمال يوسف فيقول إن النبي

يعقوب كان سيلهى وينسى جمال يوسف إذا تجلى له الجمال الإلهي الذي خلق يوسف، وإن الله إذا تجلى حتى بطريق غير مباشر من خلال رسالاته أو شهوده إلى أيوب كان سيشفى في الحال. كما يقول ابن الفارض إنه مستعد لتحمل أي عذاب في سبيل رضائه، فلو طلب منه أن يقف على النار سيفعل، وأنه هو الفقير إلى الله الذليل لعزته. حتى لو طلب منه بلا سبب أن يجعل خده موطئًا. بالطبع هنا ابن الفارض يستعمل كلمات ربما يمكن للبعض أن يسيء فهمها، يظن أن ابن الفارض يشخص الله، أعوذ بالله من ذلك، ولكن هذا لا يحدث. ابن الفارض يستعمل المجاز، والمجاز كما قال السيوطي موجود في القرآن في بعض الآيات مثل «يد الله فوق أيديهم» ومن المهم لمن يقرأ ابن الفارض أن يملك الخيال والقدرة على التمييز بين المجاز والمعنى الحرفي وإلا كان من الأفضل فعلًا عدم قراءته كما يقول السيوطي. فقد قال السيوطي إن ابن عربي نفسه إن كتبنا حرمت على غيرنا، أي على من لا يفهم أن لكل معنى ظاهرًا وباطنًا وأن المجاز من استعمالات الخيال لتقريب المعنى لا أكثر. هذه أجزاء من القصيدة:

«قلبي يُحَدّثني بأَنّكَ مُتْلِفِي

روحي فِداكَ عرَفْتَ أمَ لم تَعْرِفِ

لم أَقْضِ حَقّ هَواكَ إن كُنتُ الذي

لم أقضِ فيِه أسىً ومِثليَ مَنْ يَفي

ما لي سِوَى روحي وباذِلُ نفسِهِ

في حُبّ مَن يَهْواهُ ليسَ بِمُسرِف

فلَئِنْ رَضِيتَ بها فقد أسعَفْتَني

يا خَيبَة المَسْعَى إذا لم تُسْعِفِ

يا مانِعي طيبَ المَنامِ ومانِحي

ثوبَ السّقامِ بِهِ ووَجْدِي المُتْلِفِ

عَطفاً على رَمقي وما أبقَيتَ لي

منْ جسميَ المُضْنى وقلبي المُدَنَفِ

فالوَجْدُ باقٍ والوِصَالُ مُماطلي

والصّبْرُ فانٍ واللّقاء مُسَوّفي

()

أخفَيتُ حُبّكَمُ فأخفاني أسىً
حتى لعَمري كِدْتُ عني أختفي
وكتمْتُهُ عنّي فلو أبدَيْتُهُ
لوَجَدْتُهُ أخفى منَ اللُّطْف الخَفي
ولقد أَقولُ لِمَنْ تحَرّشَ بالهوى
عرَّضْتَ نفسَكَ للبَلا فاستهدف
أنتَ القَتِيْلُ بأيِّ مَنْ أحبَبْتَهُ
فاختر لنَفْسِكَ في الهوى من تصطفي
قُلْ للعذولِ أطلْتَ لومي طامعاً
إنَّ الملامَ عن الهوى مُستوقِفي
دَعْ عنكَ تَعنيفي وذُقْ طعم الهَوَى
فإذا عشِقْتَ فبعدَ ذلكَ عَنّف
بَرَحَ الخَفاء بحُبّ مَنْ لَوْ في الدّجى
سَفَرَ اللّثامَ لقُلْتُ يا بدرُ اختَفِ
وإن اكتفى غَيري بطَيفِ خيالِهِ
فأنا الّذي بوِصالِهِ لا أكتَفي
()
لو أسمَعوا يَعقُوبَ ذِكْرَ مَلاحَة
في وجهِهِ نَسِيَ الجَمالَ اليوسُفي
أو لو رأهُ عائِداً أيّوبُ في
سِنَةِ الكَرَى قدماً من البلوى شُفي
كُلُّ البُدُورِ إذا تَجَلّى مُقْبِلاً
تصبُو إليه وكُلُّ قَدٍ أهيَف
إن قُلْتُ عندي فيكَ كُلُّ صَبَابَةٍ
قالَ المَلاحةُ لي وكُلُّ الحُسْنِ في

()

إنْ زارَ يوماً يا حشايَ تَقَطَّعِي

كَلَفاً بِهِ أو سارَ يا عينُ اذرِفي

ما للنّوَى ذنْبٌ ومَنْ أهوَى مَعي

إن غابَ عن إنسانِ عيني فهْوَ في« (589)

جمال هذه القصيدة يكمن في أن ابن الفارض يؤكد أن الانسان بطبعه يتوق إلى الجمال وإلى الحب، وأن الله هو قمة الجمال وخالق الحب. وفي نهاية القصيدة يعرف الشاعر أن رؤية الله في الحياة الدنيا مستحيلة فيقول سطوره المؤثرة.. إن غاب عن إنسان عيني فهو في. أي أن الله في القلب، وكل شيء حتى ولو لم نره. هو يتوق إلى لقاء حبيبه، ويعرف أن اللقاء مؤجل، يشتاق ويعرف أن الشوق سيستمر إلى أن يحين اللقاء في الآخرة، ولكن الله معه في قلبه حتى ولو لم يره. فجماله يشفي المريض، ويهدأ الحزين. لاحظ هذه الأبيات:

«أنتَ القَتِيْلُ بأيّ مَنْ أحبَبْتَهُ فاختر لنَفْسِكَ في الهوى من تصطفي»

أي أنت عبد من تحب، وأنت تحت سلطته فاختر من تحب. هل تحب الملك القادر على كل شيء، أم تحب شخصًا فانيًا أو شيئًا غير موجود في الحقيقة؟ ويبقى ابن الفارض سلطان العاشقين بحق.

ومضة نور

«واتهامي في الحب حسبي

وأني بين قومي اعد من قتلاك»

ابن الفارض

«كل من في حماك يهواك

لكن أنا وحدي بكل من في حماك»

ابن الفارض

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الأخلاق سر السعادة عند ابن عربي

أكبر الكرامات، أن تبدل خلقًا مذمومًا من أخلاق نفسك بخلق محمود (590)

سهل بن عبد الله التستري

أيها القارئ الطريق إلى الله مفتوح دومًا يحتاج إلى علم وتفكير، ومحاربة الهوى، والصفات الذميمة. وطريق المريد موصول بالأحوال والمقامات. تذكر أن الحال يأتي من الله هبة لك فتصفو نفسك وتنفتح على الدنيا بتفاؤل لأنك تعرف أنها ليست الغاية، وأنك من المبشرين. أما المقام فلا تصل إليه إلا بالسعي الدائم، ومجاهدة النفس. لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. ولا يطلب منك الله ما لا تستطيع، لذا قال شيخنا أبو حامد الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة» إن قطع النفس عن علائق الدنيا ربما يكون مستحيلًا، فستبقى النفس معلقة بمال، وممتلكات وعمل، وأولاد، وزوجة، وأشخاص، وأشياء. ولكن ما يمكن هو أن تحاول وتسعى أن تدرك أن التعلق قيد فلا يسيطر عليك، فلو سيطر سترى صورة الأشياء ولا ترى المصور. وتتقيد بما هو وهم، وتجري وراء سعادة مشوهة أو زائفة.

وكنت قبل التبحر في الفكر الصوفي أفهم الآيات الكريمة بمفهوم ظاهر يخلو من العمق، مفهوم مقيد بالدنيا. كما أن فهمي للسعادة كان مقيدًا بالأشياء، أو كما يطلق عليها أبو حامد الغزالي، العلائق. ولكن للسعادة التي هي مرادف الرضا معنى أعمق. فلنتأمل هذه الآيات:

{مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 97].

{أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ}[يونس: 62، 63، 64].

{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ. وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ} [الضحى: 8،7،6]

كنت أظن أن الحياة الطيبة، هي الحياة التي يعيش فيها الإنسان بلا ابتلاءات، غني وصحة، ويملك كل ما نظنه من مقومات السعادة. وكنت أظن أن الآية الكريمة گ گ گ يمكن فهمها بالمعنى الحرفي، أي أن الله رزق نبيه المال، ولكن هناك معنى باطن أشد عمقًا. الغنى هو الاكتفاء بحب الله وعبادته فلا يذل الشخص نفسه لشيء، ولا يقع أسيرًا لرغبة. فالحياة الطيبة تأتي بالرضا، وثبوت الإيمان في السراء والضراء. والابتلاء من جوهر الدنيا، كالتقلبات واختلاف الأحوال. بل إن النبي عليه الصلاة والسلام أهانه الكفار

وابتلي في ابنه إبراهيم بوفاته، وابتلي في قومه بعدم تصديقه والافتراء عليه، ولكنه عاش حياة طيبة لأنه اطمئن بمكانه ومقامه عند الله. النفس المطمئنة نفس سعيدة، والنفس الراضية سعيدة. السعادة تتكون من كلمتين، الرضا والاطمئنان. من يطمئن إلى الله يقترب منه، ومن يرضى بقضائه ويتخذه وكيلًا لا يخاف فاقة، ولا فقرًا ولا مصيبة. فالنبي لم يكن أبدًا غنيًّا بماله، كما شرح لنا ابن عربي، ولكنه كان غنيًّا برضاه وتوكله على الله. فلو ظننا أن الحياة الطيبة هي حياة نلملم فيها علائق الدنيا من مناصب وأموال وممتلكات وأحباب، فقد أخطأنا. ولكن للوصول إلى مقام الرضا ومقام الطمأنينة، لا بد من الوصول لمقام العبودية، وكل هذه المقامات يسعى المريد إلى الوصول إليها بالأخلاق. فالأخلاق هي مفتاح الفتح. ابدأ بأن تضعف التعلق بالعلائق، ثم راجع أخلاقك، وحاسب نفسك حساب الصديقين المتطهرين، وليس حساب من قاده الوهم إلى الكهف المظلم. فكذب على نفسه، وصدق كذبه. تذكر أولًا أن كل شيء من عند الله، ولكن لن تصل سوى بالسعي. اسع على رزقك، وعندما يأتي اشكر الله عليه، ولو لم يأتِ اشكر الله على سعيك. السعي أحد مفاتيح الفتح. فالحياة الطيبة هي التي نرى فيها مقامنا عند الخالق، وتصح عبوديتنا بالتفويض إلى إرادته هو. الغني هو من افتقر إلى الله، أي لجأ إليه بصدق في أنه هو الوهاب المعبود. فلتفوض نفسك إليه تفويضًا صادقًا.

ويقول ابن عربي في كتاب الكوكب الدري في مناقب ذي النون: «روينا: عن أبي يزيد البسطامي الأكبر أنه قال في بعض مناجاته: يا رب كيف الوصول إليك؟ فقيل له: اترك نفسك وتعال» (591)

أي اترك هوى نفسك وقيدها واترك إعجابك بالأوهام من حولك، وخداع نفسك بأنك على صواب، ثم اقترب من ربك.

يقول ابن عربي في رسالة التراجم:

«القرب من الحق بحسب تقديس الذات، وتزكيتها، ولا يختص بذلك ذكر دون أنثى، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد كمل من النساء مريم وآسية» (592)

مفتاح القرب من الله الصدق. يقول ابن عربي في كتاب التراجم:

«الصدق أيها السالك ترى العجب العجاب في الدارين».

والصدق يعني أيضا أن تفي بعهدك مع البشر ومع الله: «عليك بإبرار القسم أيها السالك ولا تقسم على أحد ما استطعت في أمر، ولكن قل إن شاء الله فلتكن المشيئة هي الحاكمة وأنت مستريح» (593)

وما معنى أن يظهر العبد الحرية التي لا يملكها؟

ظاهر الحرية السيئ يعني أن تتعدى على حقوق الغير. وأن تدعي ما ليس لك، فهذا يغضب الله. مثلا لو أراد رجل زوجة رجل آخر أو ماله ففي هذه الحالة هو يعطي نفسه الحرية ليتعدى على شيء ليس له. ولو أدرك هذا الرجل أن نفسه بيد الله، وأن كل ما يملك لله وبالله لما أعطى نفسه هذه الحرية. فهذه حرية مذمومة. فلو طوعت لك نفسك أن تطمع فيما ليس لك سلبك الله ما أعطاك بطريقة أو بأخرى.

فيقول ابن عربي: «حرم الفواحش من الزنا والسرقة والغصب، وما هي إلا ادعاء ما ليس لك، من حقوق المخلوقين. فإذا ادعيت ما ليس لك، سلبك ما ملكك، وإذا تحققت بوصفك، وسلمت له وصفه، منحك ما لم يكن عندك» (594)

إذن أن تسلب أحدًا حقه بالسرقة أو الزنا، فقد تصرفت في شيء لا تملكه فأغضبت الله. من ينظر إلى امرأة غيره أو يحسد غيره على نعمة أنعم الله بها عليه، هو في الحقيقة يعطي نفسه الحرية للتصرف في شيء لا يملكه. الشعور بالكبر من الحرية المذمومة.

إذن الحرية هنا تعني الطغيان على حق غيرك أو إحساسك أن نفسك ملك لك. الحرية هنا لا تعني أن تتخذ قرارًا عادلًا في الحياة، ولكنها تعني أن تفتخر بما أنجزت متناسيًا أن كل شيء من الله ولله. أنت في ضيافته مسبوغ بنعمته. هذه الحرية إستعملها قارون عندما {قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ للَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ لْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّ وَأَكْثَرُ جَمْ ا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ لْمُجْرِمُونَ} [القصص: 78]. كل علم عندك حتى لو سعيت له فهو رزق من الله.

بالإضافة إلى أحكام الشرع من الابتعاد عن السرقة و الزنا والقتل وغيرها. هناك صفات أخرى لا بد من الابتعاد عنها لأنها تؤدي إلى ارتكاب الأخطاء، وتكون المحرك في اكتساب الذنوب. من هذه الصفات، الكبر والحسد.

الكبر والحسد

أولًا لنتذكر أن الكبر من الكبائر، فالله لا يحب كل مختال فخور. يعطينا ابن عربي مثالًا من النبي موسى عليه السلام عندما شعر أنه يعلم كل شيء، فأدبه الله بمرافقة الخضر. فأدرك عجزه. ولنتذكر كيف خاطب موسى الخضر، وكيف تواضع أمامه.

يقول ابن عربي«ومن عرف الله تعالى، صغر عنده كل شيء، فارتفع عن بصره رداء الكبرياء» (595)

وقال ابن عطاء الله «من رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب» (596)

وهنا نجد مثالًا حيًّا لكلام أحد أهم شيوخ الصوفية الشيخ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي (734 _ 792). كتب الشيخ الرندي شرحًا للحكم العطائية، وفي نهاية الشرح كتب على نفسه هذه الكلمات. فليقرأها القارئ بتمعن:

«ونحن نستغفر الله تعالى مما يعلمه منا من التعدي والجراءة فيما تعرضنا له من بيان كلام الأولياء والراسخين من العلماء، وتقرير عباراتهم وإشاراتهم من غير اطلاع منّا على كنهها، ولا بصيرة فيها. ونستغفره أيضًا مما أقدمنا عليه من إظهار ما ستروه، وإعلان ما أسرّوه. ونستغفره أيضًا مما وقع منا فيه من ذكر أحوال الأولياء، رضى الله عنهم، ومقاماتهم، وتحريضنا على سلوك طريقهم المستقيم مع إفلاسنا من جميع ذلك. ونسأله مع ذلك ألا يؤاخذنا بما انطوت عليه ضمائرنا، وأكنّته سرائرنا من أنواع القبائح والمعايب التي يعلمها منّا ولا نعلمها، أو نعلمها ولا تسمح نفوسنا بالتنقي منها والتنزه عنها اغترارًا منا بحلمه واستهانة بنظره وعلمه» (597)

هذا شيخ بلغ به التواضع أن يستغفر الله على أنه يشرح كلمات ابن عطاء الله، ويرى أنه لا يملك نفس المقام ويحاسب نفسه، ويلومها أمام كل قارئ، وهو الشيخ الصوفي الجليل. فهل هناك تواضع أكثر من ذلك؟ ذلك هو تواضع العلماء، ومن يعرف يدرك قدر نفسه ويلومها.

من أهم الأشياء التي لا بد أن نتعلمها في هذا الكتاب أن الله أحيانًا يهيئ عبدًا صالحًا ليصبح له مقام في الدنيا. ولأنه يخاف على عباده الصالحين، فهو يزكي أنفسهم، ويعلمهم قبل أن يدركوا مقامًا في الدنيا أو رياسة أو سلطة. ولنا في ذلك مثل لسيدنا يوسف.

فنبينا يوسف أصبح عزيز مصر، وقطعت النسوة أيديهن من جماله، ولكنه قبلها بيع بثمن بخس، دراهم معدودة. جهزه الله لمقام في الدنيا والآخرة بأن خفض مقامه في البداية تذكرة له ولغيره بأن كل ما سيأتي نعمة من الله ورزق منه هو.

يضيف ابن عربي في كتاب «الإسرا إلى مقام الأسرى»:

«لم قالت النسوة: إن هذا إلا ملك كريم، قلت لاختصاصه عمومًا بأحسن تقويم، ثم قال لم بيع بثمن بخس، قلت ليعلم أن الإنسان من حيث هو صاحب نقص، فإن غلا ثمنه وعلا، فلصفة زائدة على ذاته حضرتها الملأ الأعلى» (598)

إذن كما يقول ابن عربي الإنسان «صاحب نقص» وكل ما يصل إليه هو من عند الله تعالى. ولنتذكر أن التمكين في الدنيا والآخرة يأتى دومًا بعد الذل أو الصبر على البلاء.

يقول ابن عربي «من قربه الحق كثر أعداؤه، ومن اعتنى به كثر حساده، واعلم أن الحق ما يقرب العبد إلا على قدر تعلق همته به، فهمته أنزلته ذلك المنزل وهمتك خلقها فيك عناية منه بك، فعنايته أنزلتك فلا شيء لك فالكل منه وإليه» (599)

تذكر أن ابتلاءك من الله لك لا عليك. فهو ليس عقوبة. وتذكر أن السر بينك وبينه وحده.

أما الحسد فهو بالنسبة لابن عربي ذنب الشيطان، لذا فهو أعظم الذنوب. يقول ابن عربي: الحسد أعظم الذنوب.

لنحلل معا كلمات إبليس، فقد ادعى أنه أفضل من آدم عليه السلام، لأن الله خلقه من نار وخلق آدم من طين. إذن أعطي إبليس نفسه الحرية بالنظر إلى رزق غيره، وتقسيم الأرزاق كما يريد، فشعر أنه يستحق مكانة آدم فحقد عليه وحسده. كم مرة يا بني آدم تفعل هذا مع غيرك؟ تشعر أنه لا يستحق مكانته؟ بل ذنب إبليس لم يتوقف عند الحسد، ولكنه أيضًا تكبر بأصله. وظن أن كونه خلق من نار يجعله في مكانة أعلى. كم مرة نرى أمامنا من يفتخر بعشيرته، وعائلته، وقبيلته، ويظن أنه خير من غيره؟ فيعطي نفسه الحرية في الحكم على الآخرين؟ هل تخلصنا نحن من ذنوب إبليس؟

ماذا تفعل أيها القارئ لتزكي نفسك؟ في كل يوم قبل الصلاة يدعونا الله للمجاهدة. يدعونا للطهارة. فالمقام لا نصل اليه سوى بالمجاهدة.

يقول ابن عربي «واعلم أن المتطهر في هذا الطريق من عباد الله الأولياء، هو الذي تطهر من كل صفة تحول بينه وبين دخوله على ربه، ولهذا شرع في الصلاة الطهارة لأن الصلاة دخول على الرب لمناجاته» (600)

في المرة القادمة تذكر أنك تقف أمام ربك في الصلاة، فلا تشغل نفسك بالعلائق. وتذكر أيضًا أن الله سترك مرة، ومرتين، فاستر عباده. واعلم أن أعظم عبادة تقربك من الله هي البعد عن «المحارم» ولا نقصد هنا السرقة والقتل فقط، بل النميمة، والغيبة، والحسد، والغيرة، والكبر، والظلم، وعدم الإخلاص في العمل... إلخ.

«واعلم أن الله تعالى يستر عبده على المعصية مرات ومرات، لإظهار الفضـل، ثم يأخذه بها، ويرفع ستره عنه بعد ذلك، لإظهار العدل» (601)

صفاتٍ لا بد أن تتسم بها:

من أهم الصفات التي يتسم بها المحسنون هي الرحمة و المغفرة و التسامح وتقبل الاختلاف.

يقول ابن عربي عن أولياء الله:

«وكانوا رحمهم الله يشفقون على من يؤذيهم خوفًا على دينهم أن ينقص بسببهم، فيقابلونه باللفظ دون القلب، فيزجرونه حتى ينتهي، وقلوبهم فارغة من التشفي منه، بل قلوبهم تدعو له بالهداية والصلاح» (602)

يشرح ابن عربي معنى باطنًا لهذه الآية مخاطبًا المظلومين والضعفاء قائلًا:

«أما الضعفاء، فقد نفس الله عليهم، حين قال: {وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ} [الشورى: 40]. انظر إلى قوله: {وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ}، أي كونك تقتص، هي أيضًا سيئة. ثم ختم الآية بقوله: {وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ} [الشورى: 40]» (603)

أي أنك ربما تعرضت للظلم فتصرفت بطريقة جعلتك أنت أيضا ترتكب سيئة. ادفع الظلم عنك ولا تطغِ بعدها أو تعصِ الله.

هل نريد معرفة سر السعادة؟ ما هي الصفة التي تعطينا السعادة في الدنيا والآخرة؟

يقول في كتابه التراجم: الرحمة تؤدي إلى السعادة »ارحم من وافق الحق ومن خالفه.... فطوبى لمن رحم خلقه» (604)

كلمة السر هي الرحمة. وينصحنا أن نرحم الناس أمامهم، ومن خلف ظهرهم، كافرهم ومؤمنهم، عاصيهم وطائعهم. ارحم كل خلق الله تجد السعادة.

ويعرف ابن عربي السعيد قائلا: «السعيد من نظر الحق في الخلق، لا من نظر قضاءه فيهم وإن كان سعيدًا فهو دون ذلك، قال بعض أئمتنا: من نظر الخلق بعين الحق رحمهم، ومن نظرهم بعين العلم مقتهم» (605)

لو نظرت إلى خلق الله فرأيتها شهودًا عليه، ترتاح وتسعد لا تنظر إلى ما سيحدث لهم من دخول جنة أو نار، هذا ليس من شأنك، ولا تفرح بمصائبهم، فالله رحيم بكل عباده، كن رحيمًا بهم، وحقق اسم الله في خلقه، وهو الرحمن الرحيم.

ويخبرنا ابن عربي عن الرحمة الآتي:«الرحمة من الله تتبع الرحماء حيث كانوا، وتتخللهم وإن كانوا بين أطباق الثرى» (606)

ويقول ابن عربي «ومن رحم خلق الله، فإنما رحم نفسه» (607)

الوصل والرحمة بكل عباد الله وحق الصحبة

حكينا قصة إبراهيم عليه السلام مع الضيف الذي نزل به، فقدم له إبراهيم الطعام، ودعاه إبراهيم لعبادة الله، وكان على غير دين إبراهيم، فأبى الضيف، وعندما تجلى للضيف رحمة الله بكل العباد مع اختلافهم قال الرجل «فمثل هذا ينبغي أن يعبد». ما جعل الرجل يعبد الله ليس اللقمة التي سيطعمها له إبراهيم، ولكن ما جعله يعبد رب إبراهيم هو أنه رحيم يعطي الكافر والمؤمن. الرحمة مفتاح فهم الدين. (608)

الوجود مبني على الوصل

يقول ابن العربي في الفتوحات المكية:

«ولما كان الوجود مبنيًا على الوصل، ولهذا دل العالم على الله، واتصف بالوجود الذي هو الله، فالوصل أصل في الباب، والقطع عارض يعرض، ولهذا جعل الله بينه و بين عباده حبلًا منه إليهم يعتصمون به و يتمسكون ليصح الوصلة بينهم و بين الله سبحانه» (609)

أنت تسعد بالوصال مع الله، فلا تقطع ما أمر الله به أن يوصل من اتصالك بالبشر وصلة الرحم. حتى الأنفاس متواصلة ولو لم تتواصل لمات الإنسان. في الوصل مع الله حياة، وفي الوصل بين البشر رحمة.

يقول ابن عربي «وقد ورد في الخبر لا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانًا، فنهوا عن التقاطع. ألا ترى اتصال الأنفاس داخلها بخارجها يؤذن بالبقاء والحياة، فإذا انقطعت الوصلة بين النفسين فخرج الداخل يطلب دخول الخارج، فلم يجده، مات الإنسان لانقطاع تلك الوصلة التي كانت بين النفسين؟ فالواصلون ما أمر الله به أن يوصل ذلك هو عين وصلتهم بالله تعالى، فأثنى عليهم» (610)

وهناك آداب للوصل والتواصل فينهانا الله عن اللغو والنميمة.

«ومن الأولياء أيضًا الكرماء من رجال ونساء رضي الله عنهم تولاهم الله بكرم النفوس فقال تعالى ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ [الفرقان: 72]، أي لم ينظروا لما أسقط الله النظر إليه، فلم يتدنسوا بشيء منه، فمروا به غير ملتفين إليه كرامًا فما أثر فيهم» (611)

هناك آداب للوصل بين البشر، وأولها ألا يغتاب بعضنا بعضنا. في الوصل صحبة. وأفضل صحبة هي صحبة الله، ولكن هناك أيضًا قدسية في صحبة خلق الله لا بد أن نحترمها دومًا. يقول ابن عربي في الفتوحات المكية: اعلم أن الصحبة نعت إلهي. يحكي لنا قصة توضح شرف الصحبة والمعاملة مع من صاحبنا ولو وقت قصير.

«فأمر الصحبة عظيم وشأنها كبير، وما يرعاها إلا الأكابر، وأحسن ما بلغني في رعى حقها، والقيام به ما حكي عن الحجاج رحمه الله أنه أمر بضرب عنق شخص، فقال لي أمر نحب أن أذكره للأمير قبل أن يقتلني. فقال له الحجاج قل، قال أيها الأمير لا أحب أن أقوله لك إلا حتى تتركني مكتوفًا بحالي أمشي معك في إيوانك هذا من أوله إلى آخره وما على الأمير في ذلك من بأس، ولا يحول ذلك بينه وبين ما يريده مني، ويقضي لي بهذا حاجة. فقال لحاجبه اصعد به إليّ، وقام الحجاج يسايره في الإيوان، ويصغي إليه ليرى ماذا يقول له، فلما بلغ معه إلى آخر الإيوان وعاد إلى مكانه، قال أيها الأمير إن الكريم يراعي حق صحبة ساعة، وقد صحبني الأمير، وصحبته في هذه المشية، والأمير أولى من رعى حق الصحبة. فقال الحجاج خلوا سبيله فوالله لقد صدق، ولقد نبه عاقلًا فلو قتلته لكنت ألأم الناس. ثم أمر أن يجزل له في الأعطية، وخيره في صحبته والإقامة عنده، فما أدري بعد ذلك هل أقام عنده أم لا. فهذا من حسن ما يسمع في حق الصحبة من الوفاء به والرعاية، هذا من الحجاج. فلا بد لعبيد الله أن يخلصوا مع الله نفسًا واحدًا يصح به إطلاق الصحبة مع الله، فلا بد أن يرعى الله حق ذلك النفس، وأما صحبة أهل الله بعضهم مع بعض أو صحبتهم للخلق أو صحبة الخلق إياهم فهم يطالبون أنفسهم بحق ما يجب للصاحب على الصاحب (..) فصحبة الله أولى و كذلك في صحبة غير الأشكال وغير الجنس مثل صحبته لما يملكه من الدواب و الأشجار وما يصحبه من ذلك وإن لم يملكه، فإن رأى شجرة ذابلة لاحتياجها إلى الماء، وإن لم يكن مالكها حاضرًا وقدر على سقيها في صحبة تلك الساعة حيث استظل بها، أو استند إليها طلبًا لراحة من تعب، أو وقف عندها ساعة لشغل طرأ له، فهذه كلها صحبة وهو قادر على الماء فتعين عليه رعى حق الصحبة أن يسقيها لذلك لا لأجل صاحبها ولا طمعًا فيما تثمر سواء أثمرت أو لم تثمر أو كانت مملوكة أو مباحة، وكذلك الحيوانات المؤذية وغير المؤذية فإنه في كل ذي كبد رطبة أجر» (612)

هناك أخلاق وعهد مع الصحبة. فمن أكل معك، أو جلس معك ساعة له حق عليك ألا تخونه وتغتابه وتضر به. بل حتى المخلوقات، لا بد أن تعطيها حق الصحبة. فلو استظللت بشجرة فاسقها وارع كل الدواب التي تملك وتصاحب والتي لا تملك وتصاحب. إذا كان الحجاج تراجع عن القتل من أجل حق الصحبة، فماذا عنك أنت؟ نردد كلمات ابن عربي «ان الكريم يراعي حق صحبة ساعة».

في طلب العلم والسعي على الرزق سعادة

كلما تعلمت ازددت رغبة في العلم، والجهل كبيرة عند الشاذلي كما قلنا من قبل. ولكن من العلم أن تعلم ما لا تستطيع تعلمه أو تخيله. فالله ليس كمثله

شيء. ولا تجعل من علمك موضع فخر وكبر فالعلماء الحق دوما في زهد. (613)

ولكن لا تغتر بعلمك. فمحمد نفعه العلم ونفع به، أما إبليس فقد علم ما أمر الله به، ولكنه لم ينفذه. العلم بلا إيمان لا يجلب السعادة. (614)

وعن الجهل يقول ابن عربي «ولا شيء أقبح من الجهل. والجهـل عـدم وليس له نسبة وجودية، والعـدم شـر، والشر قبيح لنفـسه حيثما فرضته. والوجود كله خير؛ لأنه عين الخير المحض، وهو الله تعالى» (615)

يقول ابن عربي عن السعي في الرزق أن موسى كلم ربه بعد أن سعى في رزق عياله

«{إِذْ رَءَا نَا ا فَقَالَ لِأَهْلِهِ مْكُثُوٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَا ا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى لنَّارِ هُ ى} [طه: 10]. ما في الدنيا أشرف من السعي على العيال، الذين جعلك الله وكيلًا عنهم، في رزقهم وكسوتهم، وتعليمهم وإرشادهم. انظر إلى موسى عليه السلام: ما وقع له الكلام والتجلي، إلا حين أراد السعي على عياله» (616)

«ورزق لا بد وصولك إليه من السعي، فلا يقال لو ترك هذا السعي كان أفضل» (617)

في احترام كل العالم وتقبل الاختلاف سعادة

في كتابه الفتوحات المكية، يوجهنا ابن عربي إلى فكرة احترام كل خلق الله بلا تمييز. فيكتب في الباب الخامس والثمانين والثلاثمائة بعنوان «في معرفة منازلة من حقر غلب ومن استُهين منع».

«اعلم أن احتقار شيء من العالم لا يصدر من تقي يتقي الله، فكيف من عالمٍ بالله!! فليس في العالم عين إلا وهو من شعائر الله؛ فإن الحق وضعه دليلًا عليه. وتعظيم شعائر الله من تقوى القلوب، فهذا أمر مطلوب. وكذلك تعظيم حرمات الله، وتعظيمها أن تبقيها حرمات كما خلقها الله في الحكم، ومن لم يعظم حرمات الله يفقد خيرها. والعالم شريف كله، فلا تحتقر شيئًا منه ولا تستهن به. وقد أمرنا الله أن ننظر إلى السماء والجبال والأرض والظل وغير ذلك لنرى آيات الله في الآفاق، وفي أنفسنا أيضًا. وعند أهل الكشف، كل جزء من العالم مستند إلى حقيقة إلهية». (618)

لا بد أن تعظم حرمات الله بألا تفعلها وتراها جرمًا عظيمًا، وبهذا تكون قد احترمت خلق الله، واحترمت كلماته. كل الوجود خلقه الله رحمة منه، فعلينا أن نصبر على المعرفة ونتعلم، فالجمال هو العلم والجهل هو القبح.

ولنتذكر هذا.. في كل يوم نرى فيه من يحقر ضعيفًا أو فقيرًا، ومن يستعبد خلق الله حتى من يحقر مجرمًا أو سارقًا أو حشرة أو حيوانًا أو أيًّا من خلق الله أو من يسخر من خلق الله وأفعال الناس.

في علاقة الصوفيين بأصحاب الديانات الأخرى

يقول أبو حامد الغزالي عن صفة التعصب للرأي أو الدين: «التعصب سبب يُرسخ العقائد في النفوس وهو من آفات علماء السوء فإنهم يبالغون في التعصب للحق، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة، والمقابلة، والمعاملة، وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل، ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة لا في معرض التعصب والتحقير لنجحوا فيه، ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع، ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم وسموه ذبًّا عن الدين ونضالا عن المسلمين وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة في النفوس» (619)

فالتعصب في رأي الغزالي آفة بعض العلماء وهو يؤدي إلى الهلاك لأن سيصاحبه لعن الآخر، والإساءة إليه. ولأن العالم المعصب قد يريد أن يؤثر في النفوس ويجمع الناس حوله وقد ينجح في ذلك لأن بعض الناس تلتف حول التعصب بسهولة ولكنه سينشر الباطل والبدع والكره بين الناس.

وجدت الكثير من الأمثلة للصوفيين الذين يطلبون النصح من راهب مثلا أو يتكلمون على معاملتهم مع غير المسلمين بكل سماحة. سأذكر هنا مثالين فقط. هذا مثال من ذي النون المصري عن ابن عربي.

«روينا عن ذي النون: أنه قال: أوقفني المتوكل بين يديه فقال لي: إنك مليح العباد، وظريف الزهاد أخبرني أحسن ما سمعت به وأعجب ما رأيت. فقلت: يا أمير المؤمنين إني كنت جايزًا في بعض سياحاتي في أرض الشام إذ مررت بنهر يقال له نهر الذهب، فمررت بقربه، وفي طرف القرية صومعة راهب، فناديته يا راهب أجبني فلم يجبني، فناديته الثانية يا راهب أجبني، فلم يجبني، فناديته الثالثة.

فقال: ما حاجتك وما الذي تريد؟

فقلت: عظة أنتفع بها.

فقال لي: أو تركت الدنيا؟

قلت: نعم.

قال لي: كل القوت، والزم السكوت، وعلل النفس بأنها تموت، وذكرها الوقوف بين يدي الحي الذي لا يموت.

قال: فتركته ثم بت ليلتي فلما أصبحت عدت إليه وناديته يا راهب زدني من تلك الحكمة.

فقال لي: كل الصبر والزم الفقر، ثم أنشد يقول:

«فدع ظلم العباد فليس شيء أضر عليك من ظلم العباد تأهب للذي لا بد منه فإن الموت ميقات العباد أيسرك أن تكون زميل قوم لهم زاد وأنت بغير زاد» (620)

ينصح الراهب ذا النون المصري بألا يظلم أحدًا وأن يحترس من كلماته حتى لا يذنب بها وأن يصبر ويفتقر إلى الله ويلجأ إليه. وأن يتذكر الموت.

وفي كتاب «أيها الولد» يعطي الغزالي مثالا لحاتم الأصم وهو من أصحاب الصوفي الجليل شقيق البلخي. ويعطيه حاتم الأصم ثماني فوائد تلخص حياتنا الدنيا وما فيها. ثم بعد أن يذكرهم، يقول شقيق البلخي الآتي:

«فقال شقيق: وفقك الله تعالى، إني قد نظرت التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فوجدت الكتب الأربعة تدور على هذه الفوائد الثمانية، فمن عمل بها كان عاقلًا بهذه الكتب الأربعة» (621)

فهذا دليل على أن البلخي يدرك أن هذه الكتب بها منفعة وعلم، وأن الوصول إلى الله متعدد الطرق كما قال ابن عربي.

هذه بعض الأمثلة التي توضح ثقة الصوفيين فيما يملكون من العلم، ومن الثقة سؤال أهل الدين والعلم كما سأل ذو النون الراهب. ومن الثقة قول الصدق بأن كل كتاب نزل فيه ما ينفع البشر. هذا هو الإيمان العميق الذي يجعل القلب يتقبل الآخر ويحترم كل خلق الله. ولنا في وصول ابن عربي الى حب كل الاختلاف وكل العباد عظة فقد صار قلبه يقبل كل سعي إلى الله حتى ولو بصور مختلفة.

كيف تساعد الأخلاق على الوصول إلى الرضا والسعادة؟

يوضح ابن عربي في الفتوحات المكية الفرق بين الفرح والرضا. الفرح به غرور ووهم. أما الرضا فهو مقام من مقامات الأولياء. فيقول «العاقل لا يفرح بشيء زائل وإنما يفرح بشيء دائم ثابت، والدنيا زائلة فانية فلا يفرح فيها ولا بها عاقل. وقد نسب الله إليه الفرح بتوبة العبد لأن التوبة رجوع إلى الله، والرجوع دائم دنيا وآخرة، فالمحجوب يرجع إلى الله برفع الحجاب» (622)

الفرح غير السعادة. الفرح هو الاطمئنان لشيء. والاطمئنان لا يكون إلا لله تعالى. الفرح لا يكون بالدنيا فقد فرح بها قارون فضاع منه كل شيء. أما الرضا فلا يأتي بالعلائق، ولا الأشياء، ولا الشخوص، بل من عند الله بعد مجاهدة.

كيف تعرف الله، وتسعد به لو عرفت أن كل شيء بيده هو، يتصرف في الكون وهو الفاعل الوحيد. وهذا لا يمنعك من السعي والرحمة بكل مخلوقاته، واتباع شرعه، واحترام كل خلقه، والمغفرة، والعفو عن الزلات لو استطعت.

وعن السجن في الدنيا يشرح ابن عربي «البشرية قيد، والدنيا قيد، والشهوات قيد، والسجن قيد، والمرض قيد، والذنوب قيد، والسراء قيد، والضراء قيد. كل الناس مقيد بقيود كثيرة. ونداء الحق إلينا، يحثنا أن نفك كل هذه القيود. مؤسف أن يدخل بعض الناس الجنة، وهم مازالوا في قيودهم، من الانشغال بالمأكل والمشرب والنساء:{إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ} [يس: 55]» (623)

ما يتضرع إليه ابن عربي هو النظر إلى وجه الله، لا جنة ولا نار، مثله مثل رابعة العدوية من قبله.

وها هي كلمات ابن عربي الرائعة عن الغربة في الدنيا

«إشارة: من خرج عن أصله فهو غريب وعذاب الغربة شديد، الشقي غريب في الآخرة والسعيد غريب في الدنيا فطوبى للغرباء» (624)

الضيق والرضا وعلاقتهما بالأخلاق والقرب من الله

الضيق شعور ربما يتزايد مع مرور العمر عند البشر فيظنون بأنهم لم يقتنصوا فرصهم من السعادة، ولم يحققوا كل ما أرادوا في الدنيا. إنما هو شعور طبيعي بالنسبة لابن عربي لأنه نتيجة إلى طبيعة الحياة الدنيا الضيقة المتغيرة. يقول ابن عربي:

«اعلم أن التقوى تخرج العبد مما هو فيه إلى أمر آخر. وأكثر الناس يرون الضيق فيما هم فيه، ويطلبون الخروج إلى أمر آخر يتوهمون فيه الاتساع، فإذا خرجوا إليه وجدوا فيه الضيق كما كان حالهم في الأمر الأول، فلا تجد أحدًا راضيًا بحاله في الوجود أصلًا إلا نادرًا، وهم أهل الله، العارفون به والمشاهدون أن الله كل يوم هو في شأن، فالعارف راض بحاله في وقته، وفي طلبه الانتقال، وأكثر العالم يطلب الانتقال لعدم الرضا بحاله فلا تجد أحدًا من صالح وغير صالح يرضى بحاله وطلب الانتقال أن الإنسان مجبول على القلق من الضيق لأنه مقبوض بالحال الذي هو فيه، ويجد نفسه محصورًا فيطلب الانفساح والاتساع ويتوهم أن زوال الضيق في خروجه إلى أمر آخر،

فإن خرج إليه وجده ضيقًا مثل الأمر الأول وهكذا، ومن اتخذ الله وقاية أزال عنه الضيق بأن يكشف له اتساع اسم «الله»، ويرزقه من حيث لا يحتسب وذلك بعدم التقييد، فله السعد دائمًا وأبدًا. ومن لم يتق الله يخرج من ضيق إلى ضيق. والله خلق العبد لعبادته، فعليه أن لا يشغل نفسه بالرزق كما لا يشغل نفسه بالموت، فالحكم واحد. والرزق لا يمكن الزيادة فيه، فيبقى العبد معذبًا بالضيق إلى أن يموت، والذي يرى أن رزقه يأتيه من حيث لا يحتسب، وهو صاحب التقوى، يعش في سعة الأمل والرجاء، فالرجاء هو الحاكم عليه» (625)

في تقوى الله السعادة كلها، وباسم الله وسر كلماته نصل إلى الاتساع في العالم الضيق. ولكن ليس بترديد الاسم دون فهم لمعانيه، ولكن بترديد الأسماء والطاعة له ولما أمرنا به. البشرى والأمل والرجاء موجودون دوما عند من يتقى الله وتقوى الله بأن نبتعد عن ما يكرهه ونقترب من ما يحبه من صفات. والتقوى والقرب هما السعادة.

الأخلاق والعلاقة المباشرة مع الله

تأمل أيها القارئ هذه القصة: «خرج أبو يزيد البسطامي في بدايته إلى السياحة، فقابله شيخ: فقال له: إلى أين؟ فقال: أبحث عن الحق. فقال: الذي تبحث عنه، تركته في بسطام. وهو معكم أين ما كنتم، قد يرحل المرء لمطلوبه، والسبب المطلوب في الراحل» (626)

فاجعل علاقتك بالله علاقة عبد بالملك مباشرة، لا يوجد بها وسيط ولا شفيع.

يقص علينا ابن عربي هذه القصة ليوضح لنا أن حبيب الله لا يحتاج إلى شفيع، بل يريد أن يأنس بمحبوبه حتى في لحظات العتاب.

«غضب أحد الملوك على أحد الندماء، فهمّ بعقابه وإهلاكه، وسلّ الملك السيف من غمده حتى يضربه به، فنهض أحد أصدقاء هذا النديم، وأسرع بالسجود وشفع له أمام الملك، فقبل الملك شفاعته في الحال. ولكن النديم تضايق جدا من ذلك الشفيع، وقطع صداقته به، وعندما لامه الناس على ذلك، وقالوا له: كيف تقابل هذا المعروف بالإساءة؟ فقال لهم: إن الروح مبذولة من أجل الملك، فلماذا يقوم هو بالشفاعة؟ فأنا نفيت كل ما سوى الملك، وولائي كله للملك، ولو قطعني بالسيف لكان ذلك كرمًا منه، ولو وهبني بدلاً من روحي ستين روحًا، ولا عمل لي إلا التضحية والانسلاخ عن الذات. وهذا الذي شفع لي لم يتعلم الأدب من جبريل العظيم، استأذن إبراهيم، العلم أولًا، في أن يشفع له عند ربه، حين ألقي في النار. فقال له: ألك حاجة؟ حتى أمد لك يد العون، وإلا مضيت إلى حال سبيلي، ولم أثقل الغضب عليك، فقال الخليل: أما منك فلا. فالمنع من الحق إحسان. والعطاء من الخلق حرمان.

شفع الشافع في، توجه إليه قلبي مضطرًا، لأن القلوب عبيد لمن أحسن إليها، وأنا لا أريد أن أرى إلا الملك» (627)

وبخ العبد من شفع له عند الملك، وقال إنه يفضل أن يقابل الملك ويخضع للعقاب ولا يتدخل أحد بينه وبين الملك. فلو تدخل أحد ربما يشعر ناحيته بالامتنان، وهو لا يمتن إلا له هو الملك »فأنا نفيت كل ما سوى الملك، وولائي كله للملك»

ويذكرنا بقصة إبراهيم مع جبريل عندما أُلقي في النار ورفض اللجوء لغير الله.

ولكن قبل أن تختلي مع الله اسمع نصيحة ابن عربي: «فالله الله، لا تدخل خلوتك حتى تعرف أين مقامك وقوتك من سلطان الوهم» (628)

لو أردت أن تخلو مع الله فمن الأدب أن تواجه نفسك وتصدق معها لا توهمها بالحقائق ولا تخدعها. لا توهم نفسك أنك أفضل الناس، وأنك طيبٌ وتراعي حقوق الله مثلًا، وأنت قد انتهيت للتو من اللغو، والنميمة، والحكم على خلق الله. اصدق مع نفسك، وحاسبها قبل الدخول عليه.

تذكر أن الخلوة لا تحتاج إلى مسافات. يمكنك أن تختلي بربك هنا في بيتك فلا تحتاج إلى السفر «{هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: 4]» (629)

يوضح لنا ابن عربي بعض أخطاء من ظن أنه دخل خلوة مع الله، وسافر يبغي الكهوف البعيدة، وجاع، وعطش واستغنى، ولكن حمل معه صور الأكل والشرب والبيت والزوجة... إلى آخره. تذكر وأنت في خلوتك أنك مضطر إلى الله. فهو يجيب المضطر إذا دعاه. فادعوه دعوة الفقير المضطر. وفر إليه في خلوتك لا تفر منه.

يشرح ابن عربي في الفتوحات المكية كيفية الفرار إلى الله. فيقول:

«لما فر موسى من قومه، وهبه الله الرسالة والخلافة، وأمرنا الله بالفرار إليه، وجاء بالاسم الجامع «الله»، والمراد منه اسم خاص هو «الوهاب»، والإنسان يفر من وإلى، وهناك من يفر، ولا يعين من يفر إليه؛ فأرشدنا الله أن نفر إليه، ولا نفر من كون إلى كون» (630)

موسى رضي الله عنه فر من قومه، فوهبه الله الرسالة، فما بالك بمن يفر إلى الله لاجئًا إليه، ولا يفر من قوم إلى قوم ومن فانٍ إلى فانٍ؟ سيفتح الله عليه، وينجيه، وينصره.

لخص ابن عربي بهذه الكلمات القرب من الله والحجاب عنه.

ملخـص

اعلم أن الرحمة تطهرك، وأن العلم ينفعك، وأن الله يريدك أن تذكره دومًا وتختلي به. واعلم أن علاقتك بالله علاقة مباشرة ليس بها وسيط.

في حقيقة الأمر لو تذكرنا دومًا مقام العبودية، أي أننا على هذه الأرض تحت تصرف الله، فليس لنا أن نطغى أو أن نستعمل السلطة التي لا نمكلها. فهب إنك عبد عند الملك، يستضيفك في قصره ثلاثة أيام، ماذا ستفعل؟ طلب منك عبادته بصدق، هل ستعطي نفسك الحرية والسلطة لتتجسس على النساء في القصر، وتسرق بعض الحلي، وتحسد من في القصر، وتتكبر أنت يا عبد على عبيد مثلك؟ لو فعلت، فقد استعملت حرية ليست من حقك، وسلطة لم يعطها الله لك. لذا يعرّف لنا ابن عربي الأخلاق السيئة بأنها اقتناص لحرية لا تمتلكها، وسلطة لم يعطها الملك لك. أنت مقيد في الدنيا ولو كنت تبغي الحرية الحقيقية فهي لا تأتي سوى بالقرب منه والطمأنينة.

ومضـة نـور

هذه بعض نصائح ابن عربي

«وعليك برحمة الخلق أجمعين» (631)

«عليك بالجهاد الأكبر وهو جهاد هواك» (632)

«ولا تحقر أحدًا من الخلق، فإن الله ما احتقره حين خلقه، قيل: مر عيسى عليه السلام بخنزير، فقال له: مر بالسعادة، قيل له في ذلك: فقال لا أعود لساني إلا قول الخير. قال الشاعر

إنما الناس حديث بعدهم فلتكن خير حديث يسمع» (633)

«وإياك والخيلاء» (634)

«وعليك بالورع في المنطق كما تتورع في المأكل والمشرب، والورع عبارة عن اجتناب الحرام والشبهات» (635)

«وصية: إياكم ومظالم العباد؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وظلم العباد أن تمنعهم حقوقهم التي أوجبها الله عليك؛ كأن تجد أحدًا في حاجة، وأنت قادر على سد خلته، وإن لم يطلب منك ذلك، فإن الله ما أطلعك عليه إلا لتقضي حاجته؛ فإن لم تقدر فأقل حالك أن تدعو له، وإن غفلت عن ذلك فأنت ظالم له؛ وإن قام غيـرك بقضاء هذه الحاجة فقد أسقط عنك المطالبة من حيث لا تشعر؛ فإذا أعطيت أحدًا حاجة فانوِ أن تنوب عن أخيك المسلم الذي رد هذا

المحتاج، وتشكره في باطنك لأنه ساق إليك هذا الخير. والحاجات كثيرة؛ الضال يطلب الهداية، والجائع يطلب الطعام، والعريان يطلب الملبس، وهكذا. فاقض حاجاتهم، واعلـم أنـك فقير إلى الله مثلهم. وقد ذكّرتك، والذكرى تنفع المؤمنين، فإن لم تنفعك الذكرى فاتهم نفسك في إيمانك» (636)

«واحذر أن تعير عباد الله بما ابتلاهم به في خلقهم وخلقهم وما قدر عليهم من المعاصي، وسل الله العافية، وكن على نفسك، لا تكن لها» (637)

«وتب إلى الله مع الأنفاس. واسأل عن حكم الشرع في كل ما تفعله.

وإياك في إنفاق المال في معصية الله، أو إعطائه لمن ينفقه في المعصية» (638)

«واصغ إلى من يحدثك مهما كان؛ فإن لكل أحد عند نفسه قدرًا، وقد أمرك الله بالتحبب إلى الناس. وإياك أن ترد الهدية أو تحقرها، ولو كانت ما كانت» (639)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الطهارة والمعنى الظاهر والباطن لصفاء القلب

عبد القادر الجيلاني

«علامة السعيد أربع، إذا اؤتمن عدل، وإذا عاهد وفَّى، وإذا تكلم صدق، وإذا خاصم لم يشتم»

النبي

هو أبو محمد عبد القادر بن موسى بن عبد الله الجيلاني سلطان الأولياء 470 -561 هـ (1077- 1166 م). ربما ولد في بلاد فارس أو إيران، ولكنه قضى معظم حياته في العراق واعظًا ومدرسًا، وقيل إنه التقى بالغزالي وتأثر به. وربما من أهم من أثر فيهم عبد القادر الجيلاني، القائد صلاح الدين الأيوبي الذي تأثر بأفكار الجيلاني الصوفية هو وغيره من الجنود. فكان تأثير عبد القادر الجيلاني في بث روح الشجاعة والزهد في قلوب الجنود التي حاربت الصليبيين تأثيرًا كبيرًا جدًّا. الغريب أن هذا العالم الجليل لم يترك لنا أي كتب مثله مثل الشاذلي من بعده، وأبو العباس المرسي. وهذا على عكس الغزالي، وابن عربي اللذين تركا لنا إرثًا من الكتب التي تحتاج إلى سنوات لقراءتها. كل ما نعرفه عن عبد القادر الجيلاني أتى من كتب تلاميذه عنه وكتابتهم وراءه للمحاضرات التي كان يعطيها لهم، فجاءت نصائحه حميمية أحيانًا كأنها من أب لأولاده، وأحيانا حادة وقوية كأنها أيضًا من أب لأولاده. فكتابه مثلًا «الفتح الرباني في الفيض الرحماني» كتب بلغة تبدو إلى حد كبير غير رسمية، بها بعض العامية، لغة حوارية ممتلئة بالحياة، بالضبط كلغة محاضرة كتبها تلميذ نابغ يكتب وراء أستاذه. وقبل أن نعرض بعض نصائح عبد القادر الجيلاني لتلاميذه لا بد أن نؤكد أن المعنى الظاهر سهل، والمعنى الباطن أصعب.

كل إنسان يتمنى أن يجتاز طريقًا سهلًا مألوفًا، وأن يعرف كل أسماء شوارعه. فنجد الناس تلهث وراء أدعية مكتوبة، وأوراد تقرأها وأحزاب، وهذا كله يمكن أن يكون من الظواهر وليس البواطن. ولنتذكر أن الله ينظر إلى قلب، ولا بد هنا من إعادة نصيحة الغزالي لطلابه ومريديه عندما استشهد بالبسطامي.

«سئل أبو يزيد البسطامي عن اسم الله الأعظم، فقال: فرغ قلبك من غيره، وادعه بأي أسمائه شئت» (640). إذن ليس هناك مفتاحٌ سهلٌ نصل به إلى الباب. لن نقرأ آية الكرسي سبعين مرة فنتطهر، هذا سيساعدنا على أن نتطهر، ولكن لنتطهر لا بد أن نفرغ قلبنا مما سوى الله ثم ندعوه. فبدلًا من، الأدعية المكتوبة التي نرددها كل يوم أو بالإضافة إليها، لا بد لنا أن ندعوه، ونحن مخلصون وليس طامعين، ندعوه وقلبنا لا يشرك به ولا يظن أن هناك

شيئًا أهم منه سواء مال، أو زوجة، أو ولد، أو جاه أو منصب. ندعوه وقلبنا صاف له، وللبشر أجمعين. وهذا صعب لو تعلمون. لذا استسهل الناس فآثروا الأدعية المكتوبة والملبس الذي يظهر الخشوع، ولكن الخشوع بالقلب أيضًا. لا بأس من الأدعية والملبس إذا صاحبهما قلب سليم، ولكن بدون قلب سليم ما فائدة الظواهر!

وها هو عبد القادر الجيلاني يشرح لنا في هذه المقالة معنى جديدًا للوضوء. كل يوم اعتدنا أن الوضوء له قواعد معينة من الغسل مثل غسل الوجه والرأس.. إلخ. ثم بعد أن يصح وضؤنا، نقدم على الصلاة ولكن عبد القادر الجيلاني يرى في الوضوء معنى أعمق بكثير، معنى باطن يعني الطهارة التي تعم القلب والبدن. وهذا أصعب لو تعلمون من الغسل بالماء. وقبل أن أشرح فكرة عبد القادر الجيلاني عن الوضوء، أريد أن أعطي مثالًا ربما يعرفه الكثيرون ممّن قرأ رواية الأديب نجيب محفوظ «اللص والكلاب» أو حتى شاهد الفيلم. تحكي القصة عن سعيد مهران اللص الذي تأثر بأفكار اشتراكية من صحفي، فأقدم على السرقة، وهو يظن أن هذا حقه من الغني، ولكن خانه رفيقه، وأبلغ عنه الحكومة، فدخل السجن وحده، ولم يدخل أيٌّ ممن تعاونوا معه سواء بالتحريض أو بالفعل. ثم تزوج رفيقه من زوجته، وحرمه من ابنته. يخرج «سعيد مهران» من السجن، فيزور مسجدًا به شيخ صوفي كان قد اعتاد على معاودته هو وأبيه وهو صغير. يحكي للشيخ الصوفي محنته الظاهرة، فيتكلم معه الشيخ الصوفي عن محنته الباطنة، ويعطيه حلًّا لها، ولكن سعيد مهران لا يفهم كلمات الشيخ الصوفي. سعيد مهران مثلنا جميعا يريد حلًّا محسوسًا ظاهرًا، لا يوجد فيه مجاهدة، ولا معرفة لضعف النفس ولا ردع لهواها. والشيخ لا يستطيع أن يجاريه في هذا، لذا لا يحدث بينهما أي توافق. وهنا الحوار الرائع من الرواية الذي لخص فيه نجيب محفوظ أكثر من معنى لمعاني الصوفية. مثلًا نجد في الحوار إشارة إلى رابعة العدوية، عندما وجدت سفيان الثوري وهو يدعو الله أن يرضى عنه فقالت له «أما تستحي أن تطلب رضا مَن لست عنه براضٍ؟». (641) ونجد أيضًا إشارة إلى الحديث النبوي الشريف «الدنيا سجن المؤمن». وفكرة أن الدنيا سجن فكرة مهمة جدًّا في الفكر الصوفي، وهذا السجن لا خروج منه إلا بنفحات من الله، عندما يصل الإنسان إلى مقام الرضا يستطيع أن يرى ويتذوق إشارات الله من حوله، فتحرره في الحياة الدنيا، ولكن الحرية الحقة لا تأتي إلا في الآخرة. إذن الشيخ في الرواية يتكلم بكلام نعرفه جيدًا من الفكر الصوفي، ولكن هناك جملة معينة يرددها طوال الوقت، لا يفهم منها «سعيد»، الشخصية الرئيسية في رواية «اللص والكلاب»، سوى المعنى الظاهر. ولأن الصوفي كما قلنا من قبل وكما سنشرح في مقال اللغة، قليل الكلام لا يشرح مقصده دومًا،

فالشيخ يعيد عليه الكلمة نفسها لعله يفهم، وهو لا يفهم سوى المعنى الظاهر. وها هو المثل:

من رواية «اللص والكلاب»:

«ها هو سعيد مهران يدخل على الشيخ الجنيدي طالبًا بيتًا ومعرفة قائلًا للشيخ:

«السلام عليكم يا سيدي ومولاي!

(...)

(ثم يقول سعيد للشيخ): اجلس دون استئذان لأني أذكر أنك تحب ذلك!

شعر بأن الشيخ ابتسم من دون أن ترتسم على شفتيه الغارقتين في البياض ابتسامة. ترى هل تذكره؟

ـ لا تؤاخذني، لا مكان لي في الدنيا إلا بيتك..

ترك الشيخ رأسه يهوي في صدره، وهو يقول بصوت هامس:

ـ أنت تقصد الجدران لا القلب..

فتنهد سعيد، وبدا لحظة كأنه لم يفهم شيئًا، ثم قال بصراحة ودون مبالاة:

ـ خرجت اليوم فقط من السجن..

فأغمض الشيخ عينيه متسائلًا:

ـ السجن!

(يقول سعيد): نعم، أنت لم ترني منذ أكثر من عشرة أعوام، وفي تلك الفترة من الزمن حدثت أمور غريبة، ولعلك سمعت عنها من بعض مريديك الذين يعرفونني..

ـ لأنني أسمع كثيرًا لا أكاد أسمع شيئًا..

ـ على أية حال لا أحب أن ألقاك متنكرًا، لذلك أقول لك إنني خرجت اليوم فقط من السجن..

فهز (الشيخ) رأسه في بطء وهو يفتح عينيه قائلًا فيما يشبه الأسى:

ـ أنت لم تخرج من السجن..

فابتسم سعيد. كلمات العهد القديم تتردد من جديد. حيث لكل لفظ معنى غير معناه. وقال:

ـ يا مولاي، كل سجن يهون إلا سجن الحكومة..

فرنا إليه بعين رائقة ثم تمتم:

ـ يقول إن كل سجن يهون إلا سجن الحكومة..

فابتسم سعيد مرة أخرى. كاد ييأس من التلاقي. ثم تساءل في حرارة:

ـ هل تذكرتني؟

فغمغم الشيخ دون مبالاة:

ـ ولك الساعة التي أنت فيها!

ومع أنه لم يشك في أنه تذكره إلا أنه تساءل مستزيدًا من الثقة:

ـ وأبي عم مهران الله يرحمه؟

ـ الله يرحمنا..

ـ ما أجمل الأيام الماضية!

ـ قل ذلك إن استطعت عن الساعة..

ـ ولكن..

ـ الله يرحمنا!

ـ قلت إني خارج اليوم من السجن». (642)

لنشرح شيئًا من كلام الشيخ الباطن وكلام سعيد الظاهر. سعيد يرى أن سجن الحكومة قاسٍ، والشيخ يرى أن الدنيا كلها سجن، وسجن النفس أوعر وأشد لأنه قيدٌ. حب المال قيدٌ، وحب النساء قيد، وحب الانتقام قيد، وحب الدنيا قيد. بل الشيخ يرى أن الدنيا ساعة لا أكثر. وقتها محدود كما السجن. ولذا يشير إلى كلام الإمام علي رضي الله عنه «الدنيا ساعة فأجعلها طاعة، والنفس طماعة عودها القناعة». لو أدرك سعيد أن الدنيا ساعة، ولو تحرر من سجن شهوة الانتقام والحزن والإحباط لتحرر، ولكنه لا يدرك إلا المعنى الظاهر. وأهم من كل شيء لا يدرك «سعيد» أن قضاء الله نافذٌ فلذا يحاول بعد ذلك قتل زوجته وصديقه الخائن ويفشل، بل يقتل آخرين لا ذنب لهم، ثم يستسلم بعد فوات الأوان، فهو ربما بطل مأساة حديثة؛ لأنه لم يدرك ماهية الدنيا، توقف عند ظاهر المعاني، وليس باطنها. استعمال التناص في هذه المقاطع مهم جدًّا ولا يمكن فهم كلام الشيخ جنيدي سوى بعد قراءة كتب الصوفية. أما ابنة سعيد التي تتمرد عليه، فيرى فيها الشيخ أنها مثل سعيد الذي لا يحمد ربه على شيء ولا يرضى عنه.

يحاول سعيد تكملة حديثه مع الشيخ فيقول:

«وقال: مولاي، قصدتك في ساعة أنكرتني فيها ابنتي..

فقال الشيخ متأوهًا:

ـ يضع سره في أصغر خلقه!

فقال جادًّا:

ـ قلت لنفسي: إذا كان الله قد مد له العمر، فسأجد الباب مفتوحًا..

فقال الشيخ بهدوء:

ـ وباب السماء كيف وجدته؟

ـ لكني لا أجد مكانًا في الأرض، وابنتي أنكرتني..

ـ ما أشبهها بك..

ـ كيف يا مولاي؟

ـ أنت طالب بيت لا جواب..

فأسند رأسه المفلفل إلى يده المعروقة الدكناء، وقال:

ـ كان أبي يقصدك عند الكرب، وجدت نفسي..

فقاطعه بهدوء لا يخرج عنه:

ـ أنت تريد بيتًا ليس إلا..

تضاعف شعوره بأنه يعرفه، وقلق دونما سبب مفهوم، وقال:

ـ ليس بيتًا فحسب، أكثر من ذلك، أود أن أقول: اللهم ارضَ عني..

فقال الشيخ المترنم:

ـ قالت المرأة السماوية: «أما تستحي أن تطلب رضا من لست عنه براضٍ؟!«...

ـ ألا تزال تحيا الأذكار هنا؟

فلم يجبه. وساوره القلق فعاد يسأل:

ـ ألا ترحب بي؟

ففتح الشيخ عينيه قائلًا:

ـ ضعف الطالب والمطلوب..

ـ لكنك صاحب البيت!

فقال في مرح طارئ:

ـ صاحب البيت يرحب بك. وهو يرحب بكل مخلوق، بكل شيء..

فابتسم سعيد متشجعًا، فاستدرك الشيخ قائلًا: أما أنا فصاحب لا شيء..

وكان ضوء الشمس المرسوم على الحصيرة قد انسحب إلى الجدار فقال سعيد:

ـ على كل حال فهذا البيت بيتي، كما كان بيت أبي، وبيت كل قاصد، وأنت يا مولاي جدير بكل شكر..

فقال الشيخ:

ـ اللهم إنك تعلم عجزي عن مواضع شكرك، فاشكر نفسك عني، هكذا قال بعض الشاكرين!

فقال سعيد برجاء:

ـ إني في حاجة إلى كلمة طيبة..

فقال في عتاب حليم:

ـ لا تكذب (..)

وإذا بالشيخ يقول:

ـ خذ مصحفًا واقرأ..

ـ غادرت السجن اليوم ولم أتوضأ..

ـ توضأ واقرأ..

فقال بلهجة جديدة شاكية:

ـ أنكرتني ابنتي، وجفلت منى كأني شيطان، ومن قبلها خانتني أمها!

فعاد الشيخ يقول برقة:

ـ توضأ واقرأ» (643)

التناص يغلب على هذا المقطع وعدم التواصل أيضًا بين الشيخ وسعيد واضح جدًا. سعيد يفكر في الأرض، والشيخ يفكر في السماء. أشار الشيخ إلى

مقولة الحسين بن منصور الحلاج «اللهم إنك تعلم عجزي عن مواضع شكرك، فاشكر نفسك عني». (644) عندما شكره «سعيد» حاول الشيخ أن يشرح لسعيد أن الشكر لا يكون لعبد فقير، بل لله وحده، وأنه هو الشيخ يقف عاجزًا عن شكر الله على كل لطفه ورحمته. والتناص أيضًا كما قلنا من قبل عندما يشير الشيخ إلى المرأة السماوية وهي رابعة العدوية وقد تكلمنا عن هذا في مقال رابعة.

يحاول الشيخ أن يشرح لسعيد أن البيت بيت الله، وأننا لا نملك شيئًا على هذه الأرض، وأن من يشغل نفسه بالعلائق سجينٌ، ومن يطلب رضا ابنته وهو ليس راضيًا عن ربه منافقٌ، ولكن سعيد لا يفهم. فيطلب منه الشيخ أن يقرأ لعله يفهم، فيقول سعيد أنه لم يتوضأ، وهنا الإشارة إلى معنى الوضوء الذي شرحه لنا عبد القادر الجيلاني، والذي سنوضحه في هذا المقال. ولكن لاحظ كم مرة يطلب الشيخ من سعيد أن يتوضأ، وسعيد يفهم الوضوء بالمعنى الظاهر فقط، وهو الاغتسال، وحتى هذا لا يستطيع القيام به.

«توضأ واقرأ..

ـ خانتني مع حقير من أتباعي، تلميذ كان يقف بين يديَّ كالكلب، فطلبتِ الطلاق محتجة بسجني، ثم تزوجت منه..

ـ توضأ واقرأ..

فقال بإصرار:

ـ ومالي، النقود والحلي، استولى عليها، وبها صار معلمًا قد الدنيا، وجميع أندال العطفة أصبحوا من رجاله..

ـ توضأ واقرأ..

بعبوس وقد انتفخت عروق جبينه:

ـ لم يقبض عليَّ بتدبير البوليس. كلا، كنت كعادتي واثقًا من النجاة، الكلب وشى بي، بالاتفاق معها وشى بي، ثم تتابعت المصائب حتى أنكرتني ابنتي..

فقال الشيخ بعتاب:

ـ توضأ واقرأ: ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ، واقرأ: ﮒ ﮓ . وردد قول القائل: «المحبة هي الموافقة أي الطاعة له فيما أمر، والانتهاء عما زجر، والرضا بما حكم وقدَّر». (645)

فما هو الوضوء الذي يقصده الشيخ؟ ولم لا يقوم به سعيد؟ قبل أن نشرح هذا نشير مرة أخرى إلى التناص في النص «المحبة هي الموافقة أي الطاعة له

فيما أمر، والانتهاء عما زجر، والرضا بما حكم وقدَّر». (646)

هذا قول صوفي حبّ الله وهو قولٌ يؤكد على المرء أن يطيعه في الصلاة والوضوء والصيام والزكاة، ولكن كل هذه الأركان لها معنى ظاهر عند الصوفية ومعنى باطن، والباطن أصعب يحتاج إلى مجاهدة النفس. إذن فحب الله بالطاعة وتجنب المعصية والرضا بالقضاء والقدر. مرة أخرى يأتي الرضا كأعلى المقامات. يستمر سعيد مهران في سرد قصته الدنيوية وشرح معاناته من الخيانة والغدر، ويستمر الشيخ في محاولة إفهامه أنه في رعاية الله ورحمته، وأنه لو أحب الله لاطمئن، وأن الله قال في كتابه { وَ صْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى }[طه: 41]، أي أن الله خلق كل البشر ليعبدوه، لا ليهتموا بدنيا فانية ورزق مكتوب وقدر معلوم، بل في حب الله وصنعه لنا رعاية واختصاص وتكريم لبني آدم عليه السلام لو أدركه لرضى وسلم. ولكن سعيد لا يدركه.

يقضى سعيد ليلته في المسجد مع الشيخ ولكنه لا يتوضأ ولا يقرأ.

«آخر خيط ذهبي يتراجع من الكوة. أمامي ليلة طويلة. هي أولى ليالي الحرية. وحدي مع الحرية. أو مع الشيخ الغائب في السماء. المردد لكلمات لا يمكن أن يعيها مقبلٌ على النار. ولكن هل من مأوى آخر آوي إليه؟» (647)

لا يحدث تلاقي فكري بين سعيد والشيخ.

يقول عبد القادر الجيلاني في كتابه «الفتح الرباني في الفيض الرحماني» ناصحًا أحد تلاميذه

«يا غلام: لا تيأس من رحمة الله عز وجل بمعصية ارتكبتها، بل اغسل نجاسة ثوب دينك بماء التوبة، والثبات عليها، والإخلاص فيها وطـيّـبَهُ، وبخره بطيب المعرفة. احذر من هذا المنزل الذي أنت فيه، فإنك كيفما التفت فالسباع حولك، والأذايا تقصدك تحول عنه، وارجع إلى الحق عز وجل بقلبك، لا تأكل بطبعك وشهوتك وهواك لا تأكل إلا بشاهدين عدلين، وهما الكتاب والسنة، ثم اطلب شاهدين آخرين، وهما قلبك وفعل الله عز وجل» (648)

ينصح الجيلاني مريده أن يغسل نجاسة قلبه، يتطهر من يأسه عند الضيق ومن ذنوبه أيضًا، يثبت على توبته، ثم يسعى إلى المعرفة. ولذا قال الشيخ لسعيد مهران توضأ واقرأ. أي طهر ثيابك من الوسخ الذي علق بها من سرقة، وكره، وحقد، ويأس من رحمة الله، ثم اطلب المعرفة، وأنت مدرك أن من حولك من ناس لن يضرك ولا ينفعك إلا بإذن الله.

ويضيف الجيلاني عن العلم والطهارة:

«أما طهارة الظّاهر: فبماء الشريعة، وأما طهارة الباطن فبالتوبة والتلقين والتصفية وسلوك الطريق، فإذا انتقض وضوء الشريعة بخروج النجس يجب

تجديد الوضوء، كما قال النبي : «من جدد الوضوء جدد الله إيمانه»، فإذا انتقض وضوء الباطن بأفعاله الذميمة والأخلاق الردية، كالكبر والحقد والحسد والعجب والغيبة والكذب والخيانة، يعني خيانة العين واليد والرجل والأذن، كما قال النبي : «العينان تزنيان، والأذنان تزنيان» إلى آخر الحديث، فتجديده بإخلاص التوبة عن هذه المفسدات، وتجديد الإنابة بالندم والاستغفار وقمعها من الباطن، وينبغي للعارف أن يحفظ توبته من هذه الآفات، فتكون صلاته تامة، قال الله تعالى: [ق: 32]، فوضوء الظاهر وصلاته مؤقتة، ووضوء الباطن وصلاته مؤبدة في جميع عمره في كل يوم وليلة متصلة». (649)

هنا يظهر وضوء الباطن الذي لا يفسد بسهولة لأنه يحتاج إلى مجاهدة ومعرفة النفس.

والوضوء يتبعه صلاة، والصلاة أيضًا لها عند الجيلاني معنى ظاهر وباطن. فالقرآن الكريم يطلب منا المحافظة على الصلاة والصلاة الوسطى، والفقهاء يرون أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، والسيوطي يرى أنها صلاة الظهر، ولكن عبد القادر الجيلاني يرى أن المعنى الظاهر للصلاة الوسطى هو وقتها، والمعنى الباطن هو معناها. فالصلاة الوسطى هي صلاة القلب.

«لأن القلبَ خلق في وسط الجسد بين اليمين والشمال، وبين العلوي والسفلي، وبين السعادة والشقاوة، كما قال النبي : «القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء»، والمراد من الأصبعين صفة اللطف والقهر، لأن الله سبحانه منزه عن الأصابع» (650)

ثم يكمل: «فإذا غفل القلب بطلت صلاة الجوارح؛ لأن القلب أصل والبواقي تابع له، كما قال : إن في جسد بني أدم لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». (651)

وصلاة القلب بتفـريغه مما سوى الله، وأن نحب الله حـبًّا خالصـًا. ولا نعـني بتفريغه ألا نحب أحدًا سوى الله، لا بل نحب، ولكن لا نحب أحدًا أكثر من الله، ونجد في حب أي شيء وأي خلق طريقًا إلى الله وغاية.

يقول الجيلاني «فهذا عالم التجريد من غير الله تعالى، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «تجوع تراني، تجرد تصل» والمراد من التجرد: فناء الكل من الصفات البشرية، فيبقى في عالمه متصفًا بصفة الله تعالى، كما قال النبي : «تخلقوا بأخلاق الله تعالى» يعني اتصفوا بصفات الله تعالى». (652)

أي اجعله «نصب عينيك» كما قالت المرأة لذي النون المصري. واجعل صفاته من الرحمة والكرم والود واللطف هي ما تربو إليه.

ويكمل «وأما صلاة الطريقة: فهي صلاة القلب، وهي مؤبدة، فقد علمت هذه يعني قوله تعالى: {فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}[البقرة: 238]». (653)

ويضيف الجيلاني أن للسعادة والرضا علامات فيقول عن لسان البلخي:

«قال شقيق البلخي رحمه الله: علامة السعادة خمس: لين القلب، وكثرة البكاء، والزهد في الدنيا، وقصر الأمل، وكثرة الحياء، وعلامة الشقاوة خمس: قسوة القلب، وجمود العين، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل، وقلة الحياء، وقال النبي : «علامة السعيد أربع، إذا اؤتمن عدل، وإذا عاهد وفَّى، وإذا تكلم صدق، وإذا خاصم لم يشتم، وعلامة الشقي أربعة، إذا اؤتمن خان، وإذا عاهد أخلف، وإذا تكلم كذب، وإذا خاصم شتم النّاس، ولا يعفو عنهم»، كما قال الله تعالى: {وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ٣٩ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ} [الشورى:40]». (654)

إذن السعادة وهي موضوع هذا الكتاب تأتي بصفاء القلب والأخلاق الحسنة وتفريغ القلب عن ما سوى الله. فجمود القلب وتذكر أذى الناس لك يؤدي الى تعاستك أنت. والصفح عن الخلق والصدق هما أقرب الطرق للسعادة. وقصر الأمل في الدنيا وعدم توقع السعادة المطلقة فيها هو عين السعادة. والوضوء عند العارفين مثل الجيلاني هو تنقية القلب من العلائق من خوف وكره وطمع إلى آخره، وهو وضوء يتمنى المرء ألا ينقضه وأيضًا لا بد أن يجدده كل حين بالتوبة. كالصلاة.

ولكن تذكر أيها القارئ أن ما يطلبه هؤلاء العارفون صعب جدًّا لا يحدث إلا بالتربية، تربية النفس وجهادها.

«واعلم أن تبدل الشقاوة إلى السعادة أو عكسه يكون بالتربية». (655)

فماذا فعلت لنفسك اليوم؟ هل جددت وضوءك؟ هل قرأت؟ هل حاولت المعرفة والفهم؟

كيف تطهر قلبك لترى النور؟

وهذه بعض نصائح عبد القادر الجيلاني لتلاميذه. نصائح تعتبر مفتاحًا للتعامل مع الدنيا، وإدراك الرضا فيها.

يقول عن كشف الحجاب والقرب من الله:

لو أردت أن ترى الله في الدنيا فبقلبك وبصيرتك، ولهذا تحتاج إلى تطهير نفسك، وتلميعها باستمرار.

يقول الجيلاني «فالرؤية نوعان: رؤية جمالية في الآخرة بلا واسطة مرآة القلب، ورؤية صفاته في الدنيا بواسطة مرآة القلب بنظر الفؤاد من عكس أنوار الجمال، كما قال الله تعالى: {مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ} [النجم: 11]».

وجميع الدعاوي التي صدرت من الأولياء في رؤية الله تعالى، كقول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: (رأى قلبي ربي) أي بنور ربي، وقول عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: (لم أعبد ربًّا لم أره)، فذلك كله مشاهدة الصفات، كما أنّ من رأى شعاع الشمس من المشكاة ونحوها، صح له أن يقول رأيت الشمس على سبيل التوسع» (656)

«وأمّا رؤية ذات الله تعالى فهي في الآخرة بلا واسطة المرآة إن شاء الله تعالى بنظر السر، وهو المسمى بطفل المعاني، كما قال الله تعالى: { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ٢٣ }[القيامة: 22 - 23]» (657)

«قال الله تعالى: {وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا} [الإسراء: 72]، والمراد منه عمى القلب، كما قال الله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ}[الحج: 46]» (658)

فكيف تصل إلى رؤية الله في الدنيا؟ بذكره ومتابعة ما طلبه منك، وتطهير نفسك باستمرار، وعدم تركيزك على تفاصيل الدنيا الفانية. فكما يقول ابن عطاء الله لا بد أن تفرغ قلبك لترى انعكاس نور الله فيه، وإلا لو كان قلبك ممتلئًا بصفات ذميمة كالحسد والغيرة والكبر أو بتمنى أشياء فانية كالسلطة والمال... إلى آخره، كيف تتوقع أن ينعكس ضوء الله على قلبك. لا بد أن تفرغ قلبك من كل شيء تتجه لربك بإخلاص.

«كما قال الله: { إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢ }[الأنفال: 2]، أي خشيت قلوبهم والخشية لا تكون إلّا بعد انتباه القلب عن نوم الغفلة». (659)

ثم يذكرنا الجيلاني بالصفات الذميمة التي تكدر القلب، وتحجب رؤية الله فيه وهي:

«كالغضب والشتم والضرب والقهر، والشيطانية كالكبر، والعجب، والحسد، والحقد، وغير ذلك، وإذا تطهرت منها فقد تطهرت من أصل الذنوب، فأنت من المتطهرين والتوابين، كما قال الله تعالى: { وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ

يَطۡهُرۡنَ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ للَّهُ إِنَّ للَّهَ يُحِبُّ لتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ لۡمُتَطَهِّرِينَ } [البقرة: 222]، فمن تاب عن مجرد ظاهر الذنب لا يدخل في هذه الآية، وإن كان تائبًا ولكن ليس بتواب؛ فإنه لفظُ المبالغة، والمراد منه توبة الخواص، مثال مَنّ يتوب عن مجرد الذنوب الظاهرة كمن يقطع حشيش الزّرع من فرعه، ولا يشتغل بقلعه من أصله فينبت ثانيًا لا محالة بل أكثر مما ينبت أولاً، ومثال التواب من الذنوب والأخلاق الذميمة، كمن يقطعه من أصله». (660)

إذن قطع الذنوب دون إخلاص في التوبة، ودون ترك الغضب والحسد والكبر والنيمية، لن يؤدي إلى توبة صادقة بل كقطع الحشائش دون الجذر. والتوبة تحتاج إلى عمل صالح. فمثلا لو سرق رجل، وتاب يحتاج أيضًا إلى إعادة ما سرق على قدر استطاعته. يفرق هنا «الجيلاني» بين التوبة، والتوابين، والتواب الذي يستمر في توبته ويعمل على مرضاة ربه.

تذكر أيها الانسان أن التفكير والتأمل ومحاولة الفهم أيضًا نوع من المجاهدة.

«والمراد من وجود الإنسان هو علم التفكر، كما قال النبي : تفـكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة». (661)

والثبات من أعظم صفات المؤمنين

ومن صفات حب الله لنا الود، ويعرف ابن عربي الود بالثبات في الحب. فحب الله على كل حال، واعبده على كل حال، واستعن به على كل حال تطهر نفسك.

يقول الجيلاني عن الثبات: «كما قال الله تعالى: {يُثَبِّتُ للَّهُ لَّذِينَ ءَامَنُو بِ لۡقَوۡلِ لثَّابِتِ فِى لۡحَيَوٰةِ لدُّنۡيَا وَفِى لۡأَخِرَةِ وَيُضِلُّ للَّهُ لظَّٰلِمِينَ وَيَفۡعَلُ للَّهُ مَا يَشَآءُ} [إبراهيم:27]، وأنزل عليهم سكينة الأنس، وأنبت فيها شجرة التوحيد أصلها ثابت في الأرض السّابعة بل تحت الثّرى، وفرعها في السّماء السّابعة بل إلى ما فوق العرش، كما قال الله تعالى: {أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ للَّهُ مَثَ ا كَلِمَ طَيِّبَ كَشَجَرَ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِ وَفَرۡعُهَا فِى لسَّمَآءِ}[إبراهيم: 24]». (662)

وعن الثبات مع الله في كل حال يقول الجيلاني «وقال رضى الله عنه: الزموا موافقة الحق عز وجل في البأساء والضراء، والفقر والغنى والشدة والرخاء في السقم والعافية في الخير والشر في العطاء والمنع، ما أرى لكم دواء إلا التسليم إلى الحق عز وجل، إذا قضى عليكم بشيء لا تستوحشوا منه، ولا تنازعوه فيه ولا تشكوا منه إلى غيره، فإن ذلك مما يزيدكم بلاء بل سكوناً وسكوتاً وخمولاً، اثبتوا بين يديه، وانظروا ماذا يعمل فيكم وبكم تفرحوا على

تغييره وتبديله، إذا كنتم معه هكذا لا جرم بغير الوحشة بالأنس والتوحيد بالفرحة به». (663)

يذكرنا الجيلاني أن الفرح بالله وليس بالناس. فلو اعتمدت على الخلق ليعطوك السعادة فقد توهمت.

وعن حب الله وصفاته يتكلم الجيلاني قائلا:

«ولا تيأس من نصرة الله عز وجل فإنها تأتيك مع ثباتك». (664)

«يا طوبى لك إن وافقت الحق عز وجل وأحببته، ويحك قد ادعيت محبة الله عز وجل، أما علمت أن لها شرائط؟ من شرائط محبته موافقته فيك وفي غيرك، ومن شرائطها أن لا تسكن إلى غيره، وأن تستأنس به، ولا تستوحش معه، إذا سكن حب الله قلب عبد أنس به، وأبغض كل ما يشغل عنه، تب من دعواك الكاذبة هذا شيء لا يجيء بالتخلي والتمني والكذب والنفاق والتصنع، تب واثبت على توبتك فليس الشأن في توبتك الشأن في ثبوتك عليها، ليس الشأن في غرسك الشأن في ثبوته وتغصينه وثمرته». (665)

من شروط المحب أن يجد صحبة محبوبة أعظم صحبة وصحبة غيره وحشة. ومن شروط المحبوب أن ينشغل بمحبوبه عن من سواه وأن يطيعه في كل شيء.

وعن الدنيا يقول «فرغ قلبك من هموم الدنيا فإنك مأخوذ منها عن قريب، لا تطلب طيب العيش فيها فما يقع بيدك. قال النبي : «العَيْشُ عَيْشُ الآخِرَةِ». (666)

«يا غلام: لا يكن همك ما تأكل، وما تشرب، وما تلبس، وما تنكح، وما تسكن، وما تجمع، كل هذا هم النفس والطبع، فأين هم القلب والسر، وهو طلب الحق عز وجل. همك ما أهمك، فليكن همك ربك عز وجل وما عنده. الدنيا لها بدل وهو الآخرة، والخلق لهم بدل وهو الخالق عز وجل، كلما تركت شيئًا من هذا العاجل أحدث عوضه وخيرًا منه في الأجل» (667)

اثبت في الدنيا لأنها مرحلة لها بديل. واجعل حبك لله بإخلاص، لا طلبًا لجنة، ولا طمعًا في شيء. صلاة القلب وطهارة القلب وغسله هي بالصدق والثبات والإخلاص في حبه.

وعن علم الظاهر والباطن يقول الجيلاني:

«علينا علمان؛ ظاهر وباطن، يعني الشريعة والمعرفة، فأمر بالشريعة على ظاهرنا، وبالمعرفة على باطننا، لينتج من اجتماعهما الحقيقة، كما قال الله تعالى: {مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ} [الرحمن:19،20]،

وإلا فبمجرد علم الظاهر لا يحصل الحقيقة ولا يوصل إلى المقصود والعبادة الكاملة بهما، لا بواحد منهما، كما قال الله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[الذاريات: 56]، أي ليعرفوني، فمن لم يعرفه كيف يعبده؟! فالمعرفة إنما تحصل بكشف حجاب النفس عن مرآة القلب بتصفيته، فيرى فيها جمال الكنز المخفي في سر لب القلب». (668)

لتعرف الله تحتاج إلى علم الظاهر وهو اتباع أوامره، وتحتاج إلى إخلاص القلب وصدقه، وهو علم الباطن أو الحقيقة وهذا يتعدى مجرد ظاهر العبادات إلى باطنها، والهدف منها، وهو الصدق والإخلاص، وتطهير القلب ليستقبل نور الله.

وعن السعادة و الرضا نكرر كلمات الرسول الكريم في كتاب الجيلاني.

«عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُوَنَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللهِ. ومَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُوَنَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى الله. ومَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُوَنَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ وَاثِقاً بِمَا فِي يَدِ الله أَوْثَقَ عَلَى مَا فِي يَدِهِ». (669)

يعطي الجيلاني بعض الصفات للمؤمن:

«المؤمن يستر حزنه ببشره، ظاهره يتحرك في الكسب، وباطنه ساكن إلى ربه عز وجل ظاهره لعياله، وباطنه لربه عز وجل، لا يفشي سره إلى أهله، وولده، وجاره، وجارته، ولا إلى أحد من خلق ربه عز وجل«. (670)

«{أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر: 36]». (671)

النفاق عكس الطهارة؟

ثم يؤنب الجيلاني أحد تلاميذه قائلًا: «ويحك: تأمر الناس بالصدق، وأنت تكذب، تأمرهم بالتوحيد، وأنت مشرك، تأمرهم بالإخلاص، وأنت مراء منافق، تأمرهم بترك المعاصي، وأنت ترتكبها!». (672)

لا تسعي يا إنسان إلى إرضاء الناس، بل إلى إرضاء ربك. وتذكر أن البلاء تحضير لك للتمكين والمكانة العالية عند خالقك. ولا تأمر الناس بشيء لا تفعله أنت. قوِّم نفسك أولا.

وعن الأفعال لا الأقوال يقول الجيلاني «عن الحسن البصري رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول: عظ الناس بعلمك وكلامك، يا واعظًا عظ الناس بصفاء سرك، وتقوى قلبك، ولا تعظهم بتحسين علانيتك مع قبح سريرتك». (673)

ثم يقول مؤنبًا تلميذه على النفاق: «ويحك: تقعد في صومعتك، وقلبك في بيوت الخلق منتظر لمجيئهم وهداياهم، ضاع زمانك، وجعلت لك الصورة بلا

معنى، لا تؤهل نفسك لشيء لم يؤهلك الله عز وجل له إن لم يأتك التأهل من الله عز وجل وإلا ما تقدر عليه أنت ولا الخلق، إذا أرادك لأمر هيَّأك له، إذا لم يكن لك باطنٌ صحيح وقلب خال عما سوى الحق عز وجل وإلا فمجرد الخلوة لا ينفعك، اللهم انفعني بما أقول، وانفعهم بما أقول ويستمعون». (674)

ويوبخ تلميذه لأنه يعظ الناس، وينسى نفسه وتطهيرها.

«يا غلام: عظ نفسك أولاً، ثم عظ نفس غيرك، أنت أعمى كيف تقود غيرك، إنما يقود الناس البصير، إنما يخلصهم من البحر السابح المحمود. إنما يردّ الناس إلى الله عز وجل من عرفه أما من جهله كيف يدل عليه؟«. (675)

«ويحك! تدعى أنك عبده، وتطيع سواه،! {وَمَآ أُمِرُوٓ إِلَّا لِيَعْبُدُو للَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ لدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُو لصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُو لزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ لْقَيِّمَةِ} [البينة: 5]». (676)

المؤمن الحق كما قالت رابعة لا يريد جنة، ولا نارًا، يعبد الله في جميع أوقاته لأنه يريده هو. يريد الوصال والصحبة.

عن إطعام الطعام

وعن إطعام الطعام للتقرب من الله ينصح الجيلاني تلميذه بأن يشارك غيره في الطعام وان يتأدب وهو يعطي الطعام لغيره ويفعل كما فعل الرسول فقد كان يعطي السائل بنفسه ويطعم دابة السائل بيديه تواضعا وكرما.

«يا قوم: تشبعون وجيرانكم جياع، وتدعون أنكم مؤمنون ويحك: هلا قمت، وأخذت ما بين يديك، وأعطيته تجمع بين الحالين، التواضع في قيامك، والعطاء من مالك، نبينا محمد ، كان يعطي السائل بيده ويعلف ناقته». (677)

وعن التقوى والطهارة

التقوى مفتاح الفتح واليقين. وهي مراعاة نفسك، وأفعالها ظاهرها وباطنها.

يقول الجيلاني «يا غلام: إن أردت أن لا يبقى بين يديك باب مغلق، فاتق الله عز وجل، فإنهما مفتاح لكل باب، قال الله تعالى:

{فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُو وَأَشْهِدُو ذَوَىْ عَدْ مِّنكُمْ وَأَقِيمُو لشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِ للَّهِ وَ لْيَوْمِ لْـَٔاخِرِ وَمَن يَتَّقِ للَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَ ا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى للَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ للَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ للَّهُ لِكُلِّ شَىْ قَدْ ا} [الطلاق: 3،2]». (678)

ولكن التقوى تحتاج إلى مجاهدة النفس وتعب وتربية. التقوى تحتاج الى علم وعمل وإخلاص.

التقوى هي الإخلاص في العمل. يقول الجيلاني ناصحًا تلاميذه: «يا غلام: عليك بالإخلاص في الأعمال، وارفع بصرك عن عملك وطلب العوض عليه من الخلق والخالق، اعمل لوجه الله عز وجل لا لنعمه.. يا غلام: سلم نفسك ومالك إلى يد قدره وحكمه وقضائه، سلم المشترى إلى المشتري، وغدًا يعطيك الثمن». (679)

ملخـص

تكلمنا عن المعنى الظاهر والباطن للطهارة. والطهارة تؤدي الى الوصول إلى مقام العبودية. وتمام العبودية أن تعبد الله بإخلاص له هو فقط من أجل حبك له. والقلب الصحيح هو عكس القلب السقيم، والقلب الصحيح لا مرض به، وهو القلب الممتليء بالرحمة.

يقول الجيلاني: «إذا صح القلب امتلأ رحمة وشفقة على الخلق». (680)

«صلاح القلب بالتقوى والتوكل على الله عز وجل، والتوحيد له والإخلاص في الأعمال وفساده بعدم ذلك». (681)

كل هذه الصفات الحميدة التي يشجعنا عليها الجيلاني والصفات الذميمة التي ينصحنا باجتنابها تطهر القلب وتجليه أي تلمعه، فيستقبل النور ويعكسه. لا يصح قلب لا رحمة فيه هكذا قال الجيلاني، وهكذا قال كل الصوفيين.

ومضـة نـور

«ويحك: لا تعجل، فإن من استعجل أخطأ أو كاد». (682) الجيلاني.

«لا تردوا سائلاً، وأنتم تقدرون أن تعطوه شيئًا قليلًا كان أو كثيرًا». (683) الجيلاني.

«يا طالب الأشياء من غيره ما أنت عاقل هل شيء ليس هو في خزائن الله عز وجل، قال الله عز وجل: {وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَ مَّعْلُو } [الحجر: 21]». (684) الجيلاني.

وهذا دعاء الجيلاني: «اللهم اشغل جوارحنا بطاعتك، وقلوبنا بمعرفتك، وألحقنا بالذين تقدموا من الصالحين، وارزقنا ما رزقتهم، وكن لنا كما كنت لهم آمين». (685)

يقول الشيخ ابن مخالا: »وقال رضي الله عنه: لأن تعاهد الله تعالى عهدًا صادقًا في ليلة خيرٌ لك من قيامها». (686)

«وقال رضي الله عنه: من أعظم أبواب الصدق منع النفس من اتباع إرادتها، فإن ذلك قرع باب سعادتها، قال تعالى: { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ . فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ } [النازعات: 40، 41]،فإنها ظلمة بذاتها وصفاتها وأفعالها، ومدرجة شقاها اتباع إرادتها، وسلوك سبيل هواها». (687)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الصبر والبلاء والرضا عند الصوفية

«إنَّ الله لا يُعَذْبُ حَبِيبَه وَلَكِنْ قَدْ يَبْتَلِيه في الدنيا»

رسول الله

كيف الوصول إلى السعادة في الدنيا والمحن تحاصرنا؟ وما معنى هذا الحديث الشريف؟

ربما تعتبر المحنة في حياة أي شخص نقطة تحول للأفضل أو للأسوأ. نريدها أن تكون نقطة قوة، وليس نقطة ضعف. المحنة هي لحظة إدراك لعجز الإنسان عن درء الأذى الذي وقع عليه. وعند الفكر الصوفي شعور الإنسان بالعجز هو افتقار لله، وعند العجز يدرك الإنسان مدى قوته لأن قوته ليست من نفسه، ولكن ممن يحميه ويساعده، إنها من ربه. لذا في إدراك العجز منتهى القوة. عندما تعيينا الحيل، نستعين بالملك. فعندما تضيق بنا بلادنا نطلب اللجوء إلى بلد آخر. وعندما يُحكم علينا بالسجن مثلًا نتمنى الحرية. وعندما نفقد عزيزًا نتمنى أن نذهب إليه بأقصى سرعة. كل هذه المشاعر رد فعل طبيعي، وفي باطنها شعور بالرغبة في تغيير حال أضرنا. وفي كل هذه الأحوال نطلب مساعدة شخص، وفي الحقيقة المساعدة بيد الملك فقط، هو الحاكم والناهي. ولكن معرفة ماهية الدنيا هي أول الطريق.

قبل أن نتكلم على مقام الرضا الذي يعتبر أعلى مقام عند الكثير من الصوفيين، لا بد أولًا أن نوضح نظرة الفكر الصوفي للدنيا نفسها. فالطريقة التي نرى بها الدنيا ستحدد أيضا نظرتنا للبلاء. البلاء أنواع معروفة، إما فقد أو ظلم، أو مرض، أو خيانة، أو فقر، أو سجن، أو عجز عن تغيير موقف سيئ، كأذى يقع لأحبابنا أو فقد العمل أو مورد الرزق... إلى آخره. كل هذه أنواع فَقد تحدث للناس في الدنيا. وهناك ابتلاءات أقوى كابتلاء بمعصية أو شك في الدين أو ظلمنا نحن للعباد. وربما التفكير السائد أن على الإنسان الصبر على البلاء، وأن الدنيا فانية، وأن الأحوال تتغير. وكل هذا صحيح ولكن هناك معان عميقة، يعبر عنها الفكر الصوفي ربما تؤدي إلى فهم وعلم أعمق وأكثر أثرًا في النفس. لنبدأ بتعريف هذه الدنيا عند ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية.

الدنـيا وأحوالهـا

في كتابه الفتوحات المكية يشرح ابن عربي الآية الكريمة « {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُو وَأَشْهِدُو ذَوَىْ عَدْ مِّنكُمْ وَأَقِيمُو لشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِ للَّهِ وَ لْيَوْمِ لْـَٔاخِرِ وَمَن يَتَّقِ للَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَ ا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكّلْ عَلَى للّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ للّهَ بَـٰلِغُ أمْرِهِ قَدْ جَعَلَ للَّهُ لِكُلِّ شَئْ قَدْ ا} [الطلاق:2، 3]» (688) فيوضح أن التقوى تُخرج العبد من حال إلى حال، وأن الرزق في هذه الحالة أكبر مما يتوقع العبد بخياله الضيق. مرة أخرى يلجأ الصوفيون إلى كلمات معينة تعتبر مفتاح فهم الدنيا في الفكر الصوفي، وهي الضيق والاتساع والسجن. تكلم ابن عطاء الله عن فكرة الضيق والاتساع أيضًا في المدرسة الشاذلية، وقبله تكلم ابن عربي موضحًا أن الدنيا محدودة، لها أول وآخر منذ الولادة إلى الممات، ولها حدود مادية أيضًا لأن الكرة الأرضية التي نعيش فيها لها حدود مهما اتسعت. الإنسان مخلوق مكرم من الله، لذا يدرك في أعماقه أنه في إطار ضيق وهو الدنيا. لذا يخبرنا السيوطي في كتاباته أن الإنسان عند الموت تتسع حدوده مثل الإنسان عند الميلاد. عند الميلاد نخرج من الرحم الضيق إلى الدنيا التي نراها واسعة حينها، وعند الموت نخرج من الدنيا الضيقة إلى براح الآخرة الواسع فنتحرر. الإنسان يتوق إلى الحرية. ولكن كيف له أن يتحرر وهو في دنيا محدودة؟ بل هو ليس فقط في دنيا محدودة، بل هو ينتقل من حال إلى حال، وفي كل حال هو محدود بهذا الحال. ينتقل من حال طالب مثلًا إلى حال مدرس، ينتقل من حال غني إلى حال فقير، وكلمة حال في حد ذاتها يمكن تعريفها بعدة كلمات. فلو طلبنا منك أن تصف حالك ستصفه بعدة كلمات كثرت أو قلت. وهذا يعني أن حالك أيضًا ضيق ومحدود. فأنت محدود بدنيا فيها الضيق مادي، ومحدود بحال أنت فيه ضيق. ومحدود بلغة معينة تعجز أحيانًا كلماتها عن وصف الحقيقة. ولأن الإنسان مكرم من ربه فهو دومًا يريد تغير حاله لأنه يظن خطأً أن في تغيير الحال سعادته، والسعادة بالنسبة له في اتساع هذا الضيق. السعادة في الحرية. ولكن الحرية الحقيقية ليست موجودة في هذه الدنيا الضيقة. إذن ما الحل؟ كم مرة سمعت عن رجل ترك زوجته باحثًا عن السعادة مع امرأة أخرى؟ وعن آخر ترك عمله باحثًا عن عمل أفضل، وآخر هاجر باحثًا عن فرصة أفضل و، و، و... لا أحد يرضى بحاله بسهولة. وكل البشر يتعرضون للمحن، ولكن من البشر من يرضَ، ومن البشر من لا يرضى.

يقول ابن عربي:

«إن أحدا لا تراه راضيا بحاله في الوجود أصلًا، إنك ما ترى أحدًا إلا وهو يذم زمانه، ويحمد ما مضى وخلا من الأزمان وليس زمانه إلا حاله مذ وجدت هذه النشأة، وذلك أن الإنسان مجبول على القلق من الضيق، وطلب الانفساح والإفراج عنه، ويتخيل أن كل ما هو خارج عنه فيه الانفساح من هذا الضيق الذي هو فيه. فمن اتخذ الله وقاية أخرجه من الضيق، أي أزال الضيق عنه فاتسع، ولذلك رزقه من حيث لا يحتسب؛ لأنه لم يقيد، فلم يتقيد فكل شيء أقامه الحق فيه فهو له. فالانتقال يعم الجميع، والرضاء، وعدم الرضاء

الموجب للضيق هو الذي يتفاضل فيه الخلق، فمن اتقى الله خرج إلى سعة هذا الاسم». (689)

الإنسان بطبعه يحاول الخروج من حال إلى حال، وفي باله «الاتساع المتوهم»، ولكنه يجد نفس الضيق في حاله الجديد. كل مُعرف محدود، والحال مُعرف، والزمن مُعرف، والإنسان مُعرف. ولكن رزق الله غير مُعرف، وماهيته وسعت كل شيء. إذًا الله هو الوحيد القادر أن يخرجك إلى الاتساع والحرية بقوته وقدرته.

الحل عند ابن عربي يكمن في تقوى الله، والتقوى تأتي بأن تتخذ من الله وقاية لك من الذنوب، تستعين به على الفتن، وتستعين به لتصبر على الطاعة، وتبتعد عن المعصية. من يفهم سر الكلمة، كلمة الله بما فيها من معان القوة والنصر والرزق والرحمة والعناية والحب تتسع دنياه. اليقين يعطي الدنيا بعض الاتساع، ويجعلنا نتحمل ضيقها. أما أن نبحث عن أشياء مادية وموجودات فانية ونظن أنها ستغير حالنا للأفضل فهذا لن يحدث، سنبقى في نفس الضيق حتى لو توهمنا إلى حين أننا حققنا ما نريد. فبدون رحمة الله وبدون اللجوء إليه طالبين الفرج والمخرج لا يوجد مخرج. السعادة إذن شعور يحتاج إلى مجاهدة، ويحتاج إلى فهم لماهية الدنيا. الدنيا تتغير ونحن ننتقل من حال إلى حال طوال حياتنا، وفي كل انتقال لا بد أن تعرف مغزى كلمة الله ومعناها. يقول دكتور أحمد كمال الجزار شرحا لابن عربي «اعلم أن الله تعالى ما نقل عبدًا من مكان إلى مكان ليراه، بل ليريه من آياته التي غابت عنه، وكذلك إذا نقل العبد من حال إلى حال ليريه أيضا من آياته، وما أسري بالرسول إلا ليريه الآيات...» (690)

فالانتقال إذن من حال إلى حال ربما به ألم، ولكنه للكشف وللرؤية، وليس للعقاب. كلما انتقل الإنسان لحال آخر أشهده الله على حقائق أكثر. فيكون من عباد الله المخبتين، أي المطمئنين.

هذه الكلمات تلخص حال الدنيا، فالشعور بالألم لا يذهب هباء أبدًا، بل ينقلنا من حال جهل إلى حال علم، لو فتحنا قلبنا وفهمنا. حال الألم يكشف لنا، ويرينا من آيات الله، هو ليس عقابًا لنا، بل معرفة. وتذكروا معي أن في المعرفة دومًا سعادة كما قال الغزالي من قبل، وكما شرحنا في مقال السعادة. الألم يرتبط عند المؤمن بشهود معجزات الله والكشف، أي القرب من الله بالمعرفة والاطمئنان. والمخبتون من عباد الله هم المطمئنون به. كم مرة شعرت أن الدنيا قد ضاقت بك؟ تذكر حينها أن الدنيا فعلًا ضيقة. ولكن بذكر الله تتسع، وبفهم مراده منك تتسع أكثر. وبقربك أنت منه تتبدى لك معرفة جديدة تجعل لدنياك سعة أكثر وأكثر.

وكنت أظن قبل القراءة والمعرفة أن الحياة الطيبة هي الحياة التي نحيا فيها، ومعنا ما نريد من أشياء وناس وموجودات. ولكن ابن عربي شرح الحياة الطيبة شرحًا مختلفًا عندما قال في الفتوحات المكية في الباب السابع والثمانين وأربعمائة في معرفة حال قطب كان منزله «{مَنْ عَمِلَ صَـٰلِـ ا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰ طَيِّبَ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُو يَعْمَلُونَ} [النحل: 97] الحياة الطيبة هي تعجيل البشرى في الحياة الدنيا، فيعيش العبد باقى عمره في حياة طيبة لما حصل له من العلم بما سبق له من سعادته في علم الله مما يؤول إليه في أبده، فتهون عليه هذه البشرى ما يلقاه من المشقات والعوارض المؤلمة، {أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى لسَّمَـٰوَٰتِ وَ لْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ للَّهِ حَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[يونس: 55]». (691)

فلتفكر معي أيها القارئ لو كنت في سجن تعاني الأمرين، وقلت لك إنك خلال يوم واحد ستخرج بكامل صحتك، معك كل ما تريد، وكل ما تتمنى، وستنسى كل ما لاقيت من عذاب، ألن يساعدك هذا اليقين بأن تصبر؟ إذن تعجيل البشرى، واليقين الذي يأتي لمن يطمئن لما بشره به الله يجعلنا نتحمل لوقت قصير مشقات الحياة. الحياة الطيبة هي الحياة التي توقن فيها أنك منصور، ولكن نصرك لا يتبع خيالك الضيق. لأن رزق الله ليس له حساب ولا توقع.

تغير حال الدنيا تكلم عنه كل علماء الصوفية. فهذا عبد القادر الجيلاني يجيب على سؤال تلميذه عن كيفية إخراج حب الدنيا من قلبه فيقول:

«سأل سائل كيف أخرج حب الدنيا من قلبي؟ فقال: انظر إلى تقلبها بأربابها وأبنائها، كيف تحتال عليهم، وتتلهي بهم، وتعذبهم خلفها، ثم ترقيهم من درجة إلى درجة حتى تعليهم على الخلق، وتمكنهم من رقابهم، وتظهر كنوزها وعجائبها، فبينما هم فرحون بعلوهم، وتمكنهم، وطيبة عيشهم، وخدمتها لهم إذا أخذتهم وقيدتهم وغرتهم وأرمَت بهم من ذلك العلو على رؤوسهم، فتقطعوا، وتمزقوا، وأهلكوا، وهي واقفة تضحك بهم، وإبليس إلى جنبها يضحك معها، هذا فعلها بكثير من السلاطين والملوك والأغنياء من لدن آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، بذلك ترفع ثم تضع، تقدم ثم تؤخر، تغني ثم تفقر، تدني ثم تذبح، والنادر منهم من يسلم منها ويغلبها، ولا تغلبه، ويعان عليها، ويسلم من شرها وهم آحاد أفراد إنما يسلم من شرها من عرفها واشتد حذره منها ومن حيلها». (692)

كلمات السر في هذه الفقرة هي «جاهد نفسك حتى تطمئن». فلو عرفت أن الدنيا لا أمان لها، لا تغرنك بزينتها، ولا تملك قلبك بأشيائها. استمتع بها ولكن اثبت لو تغيرت، واجعل الله نصب عينيك في الحالتين.

كما يذكرنا الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» إننا في هذه الدنيا في سفر، لا بد ألا ننسى أو نلتهي »لا تأنس بمنزل لست مستقرًا فيه» «والدنيا منزل، وقد دخلها الناس من باب الرحم، وهم خارجون عنها من باب اللحد، فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة». (693)

وعن الدنيا يقول الجيلاني «يا غلام: لا بد من الحلاوة والمرارة والصلاح والفساد والكدر والصفاء، فإن أردت الصفاء الكلي ففارق بقلبك الخلق، وواصله بالحق عز وجل». (694)

إذن لو فارقت الدنيا قلبك، وجعلت الله نصب عينيك، تتحرر وترضى.

يقول الجيلاني عن معرفة الله والأنس به: «إذا وجدته وجدت كل الصفاء عنده، ما يفعل المحب لله عز وجل بغيره؟». (695)

يدعو عبد القادر الجيلاني تلاميذه للتفرغ من هموم الدنيا ذاكرًا قول رسول الله «تَفَرَّغُوا مِنْ هُمُومِ الدُّنيَا مَا اسْتَطَعْتُم». (696)

ثم يقول «يا غلام: إن قدرت أن تتفرغ من هموم الدنيا فافعل، وإلا فهرول بقلبك إلى الحق عز وجل، وتعلق بذيل رحمته حتى يخرج هم الدنيا من قلبك، هو القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، بيده كل شيء، الزم بابه، وسله أن يطهر قلبك من غيره، ويملأه بالإيمان والمعرفة له، والعلم به، والغنى به عن خلقه، سله أن يعطيك اليقين، ويؤنس قلبك به، ويشغل جوارحك بطاعته، اطلب الكل منه لا من غيره، لا تذل لمخلوق مثلك، بل يكون له لا لغيره، ومعاملتك معه وله لا لغيره» (697)

ففر إلى الله إذن، واطلب الاتساع من الضيق منه هو وحده.

ما معنى الابتلاء؟ القضاء والألم

يقول الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» إن الإنسان يشكر الله في النعمة والنقمة. ولكن طلب الله منا الصبر عند الابتلاء، فكيف يطلب منا الصبر والشكر معًا؟ أليس في هذا بعض التناقض؟

يشرح ابن عربي السبب في هذا، فيوضح أن البلاء منقسم إلى نوعين، والنعمة منقسمة إلى نوعين: بلاء مطلق، وهو الكفر والشرك. وبلاء مقيد، وهو كل ما دون ذلك من نقص في الأموال والأنفس، ومن فقد الأحبة والفقر والظلم...إلخ. والنعمة أيضًا مطلقة، وهي الإيمان بالله، والنعمة المقيدة هي المال والولد والزوج والزوجة والرياسة، أي السلطة وغيرهم. النعمة المقيدة حبيسة الدنيا وزوالها جائز، والبلاء المقيد ليس في الحقيقة بلاء، وإنما البلاء هو الألم الصادر عن القضاء. فمثلًا كون الإنسان قد مرض بمرض مؤلم،

فالمرض ليس هو الابتلاء، ولكن الألم الصادر عن المرض هو البلاء. من حق الإنسان إذن أن يطلب زوال الألم، ويصبر عليه معًا. الحمد ليس على الألم، بل يحمد الله على القضاء الذي يسبب الألم. فالقضاء هو من الله، لذا وجب الحمد. وقضاء الله كله خير، حتى لو جهل الإنسان السبب.

فكما يقول الغزالي سر القدر من أسرار الله التي لا يمكن أن يتطلع عليها العبد، ومن المستحيل فهمها بالعقل »نعم، لفعل الأصلح سر يُستمَد من معرفة سر الله تعالى في القدر». (698)

إذن يفصل ابن عربي والغزالي بين الألم الذي يقع نتيجة القضاء، والقضاء نفسه. القضاء نشكر عليه، والألم نصبر عليه، وندعو الله بزواله.

ولكن علماء الصوفية لا يطلبون منا الاستسلام للظلم مثلًا واعتبار هذا بلاء، علينا برد الظلم، أما البلاء فهو الألم المترتب على ما حدث لنا. نحاول إذن أن نزيل البلاء لو استطعنا، ولا ندعي أنه قضاء فنتركه ونستسلم، ولكن عندما لا نستطيع نترك الله يرعانا بيقين.

يقول الغزالي «وكل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه، فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش، يؤمر بإزالة الألم. وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته». (699)

عليك بدفع الضررعنك. عالج مرضك، واعمل من أجل أبنائك، واسع إلى كسب المال. ولكن تذكر أن هناك أنواعًا من البلاء كالأمراض المزمنة، أو الفقد يقف البشر عاجزين أمامها.

ويشرح لنا عبد القادر الجيلاني الهدف من البلاء فيقول: «المؤمن يثبت عنده أن الله عز وجل ما يبتليه بشيء إلا لمصلحة تعقب ذلك، إما دنيا أو آخرة، فهو راضٍ بالبلاء، وصابر عليه غير مهتم، شغله ربه عز وجل عن البلاء لا كلام لكم مسموع عند الله عز وجل وعند عباده الصالحين حتى تتوبوا، وتخلصوا بالتوبة، وتثبتوا عليها وتوافقوا القدر والقضاء فيما لكم وعليكم، فيما يعز ويذل، في الغنى والفقر، في العافية والمرض، فارزقنا القرب منك مع عدم نار الآفات، فإن كان ولا بد من نار الآفات، فاجعلنا فيها كالسمندل الذي يبيض ويفرخ في النار وهي لا تضره ولا تحرقه، اجعلها علينا كنار إبراهيم خليلك، أنبت حوالينا عشبًا كما أنبت حواليه، وأغننا عن جميع الأشياء كما أغنيته». (700)

يدعو الله الجيلاني أن يثبت وينبت ويفتح الله عليه في البلاء. وأن يكون البلاء فرصة للقرب من الله. ويعطي مثال بالسمندل الذي لا تحرقه النار بل ينمو بها ويبيض. ويذكرنا الجيلاني أن الدنيا متغيرة بها حلاوة ومرارة.

حتى الجنة بالنسبة للجيلاني ليست هي الغاية. لأن الجنة أيضًا لطالبي الأشياء، غايته هو الله فقط. (701)

وهنا يلخص الجيلاني الهدف من البلاء. عند البلاء يتغير القلب والنفس، فينشأنا الله خلقًا آخر أكثر قربًا وقوة. فيقول ناصحًا تلميذه: «اصبر على أذية الخلق طلبًا لرضا الحق عز وجل، اصبر على ما يبتليك به بأنواع البلايا، هذا دأب الله عز وجل مع عباده المصطفين المختبين، يقطعهم عن الكل، ويبتليهم بأنواع البلايا والآفات والمحن، يضيق عليهم الدنيا والآخرة وما تحت العرش إلى الثرى، يفنى بذلك وجودهم، حتى إذا أفنى وجودهم أوجدهم له لا لغيره، أقامهم معه لا مع غيره، ينشئهم خلقًا آخر، كما قال عز وجل: {ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ} [المؤمنون: 14]». (702)

عندما يفني الله وجودك القديم، يوجدك لنفسه لا لك أنت. يقربك منه هو. إذًا هناك فائدة تعود على الانسان مع وجود الألم. هذه الفائدة نتكلم عنها بالتفصيل لاحقًا تحت عنوان التمكين.

ولنتأمل قوله تعالى {قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: 51]. مرة أخرى أسرار اللغة تساعدنا على فهم المعنى الباطن للآية. فالمصيبة لك، لا عليك. (703) فقضاء الله كله خير لنا.

ولنتأمل استعمال اللغة مرة أخرى في استعمال كلمة رب، وليس كلمة الله في الآية الكريمة: {قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ} [الطور: 48]، ليدرك الإنسان أن هذا البلاء من ربه الذي رباه، وقام عليه ورعاه». (704)

وربك هنا لأنه رباك أنت، ورعاك أنت، فهو يتكلم معك أنت، ويخصك أنت بالرحمة والعناية. لا، لا تفزع لو أصابتك مصيبة، فهي لك، لا عليك. ويشرح صلاح الدين التيجاني هذا المثل من الفتوحات المكية «فمثله كمثل من لطمه أحـد في الظـلام. فاشتد غيظه، فلما ذهب الظلام، إذا بحبيب له هو الذي لطمه، فيذهب غيظه». (705) لأن هذا الحبيب ربما لطمه ليبعده عن خطر ما، أو يكشف له حقيقة ما.

إذا علمت أنه معك أينما تكون، لن تيأس ولن تلهث لغيره ليساعدك.

ويذكرنا ابن عربي بقصة الخضر في كتابه الفتوحات وكيف أن الله قدم رحمة الخضر على علمه في الآية الكريمة: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ

رَحْمَ   مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡ   ا} [الكهف: 65].

أنواع البلاء: الموت مثالًا

وموت الأحبة أحد الابتلاءات التي تكلم عنها الصوفيون. فنجد ابن عربي يرسل رسالة لامرأة من الأندلس فقدت ابنتها فيقول:

«ولعله نعيم استعجلها، وأهلت له كما أهل لها. فقال أحمد الله أقدم، وبه أختم، وأتمم الذي جعل الموت غاية كل حي، والفناء منتهى كل شيء». (706)

يشرح ابن عربي للمرأة التي فقدت ابنتها أن موتها ربما كان لأن الله أراد لها نعيمًا أهلت له في سنها الصغيرة، وأصبحت مجهزة له، فرحمة به لها أخذها عنده في نعيمه. وذكرها أن الموت ليس نهاية، بل غاية. أي هو هدف كل حي ليلقى ربه وينعم بنعيمه. أما الفناء في الدنيا فهو الحقيقة الوحيدة.

ومن المهم أن نتذكر أن ابن عربي فقد هو الآخر ابنته زينب وهي صغيرة وكتب يرثيها:

«لحدت بنتي بيدي لأنها ذو جسدي.

أنا على حكم النوى فليس شيء بيدي.

مقيد في وقتنا ما بين أمس وغد.

(...)

يقول ربي إنه خلقني في كبد.

فكيف أرجو راحة ما دمت في ذا البلد». (707)

يتذكر ابن عربي مع أنه لا ينسى عجزه أمام القضاء، ويَذْكُر لنا ويذكّرنا بأن الدنيا بأوقاتها التي نعرفها قيد وسجن نتقلب فيه من يوم إلى يوم حتى يحين لقاء الله والتحرر من الأسر. ويقصد بالبلد الدنيا، ولعله استعمل كلمة بلد ليشير إلى الحدود الواضحة لهذا العالم الصغير الضيق.

يكمل ابن عربي رسالته للسيدة التي فقدت ابنتها قائلًا:

«اعتكفنا على أصنام لذاتنا، وأرسلنا عنان شهواتنا، وفرطنا في جنب الله كأننا في أمن مما توعدنا به الله.. وأين الفرار، وكيف الفرار، حجبتنا الدنيا بحسن الحال، عن تذكر الترحال، إلى دار العاقبة والمآل، مع علمنا أنها في اضمحلال، وأن نعيمها إلى زوال، أما آن لنا أن نرجع ونسمع ونقلع، لقد تيقنا القدوم على الحي القيوم غرسنا الأماني بدار الغرور، وزرعنا البذور في غير

معمور، وكأن بنا نجني ما غرسنا، ونحصد ما زرعنا. سيحصد عبد الله ما كان حارثًا فطوبى لعبد كان لله يحرث.

فانظري وفقك الله إلى ما أنت عليه صائرة، وليشغلك ذلك عما أصابك من الحادث الذي نابك، وهل هو إلا أمر يعم الفقير والغني، ولا بد لنا من ورود ذلك المورد العسير، وقد مات رسول الله وهو خير البشر، ومات نساؤه وصحابته ووزراؤه حتى ما بقي في الدار من أحد.

فـ {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَا . وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَ ٱلْإِكْرَامِ} [الرحمن: 26 - 27]، فسلمي الأمر للقضاء، وقولي ما قال سيد الأنبياء، وقد دمعت عينه على ابنه إبراهيم وهو يكيد بنفسه بين يديه ، فقال: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون». فلا حرج عليك في إرسال الدموع وتفجع القلب المصدوع، فإن النبي ، وقد رفع له صبي ونفسه تقعقع كأنها في شنة ففاضت عيناه، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء». فالبكاء مباح من غير نياحة ولا صياح. ومات ميت من آل النبي ، فاجتمع النساء يبكين عليه، فقام عمر فنهاهن فقال رسول الله : «دعهن يا عمر فإن العين دامعة والفؤاد مصاب والعهد قريب».وهذه كلها أخبار صحاح، أوردتها عليك أيتها الأخت الشقيقة، لتشتفي من بكائك. علمك أن لا ذنب عليك فيه ولا سؤال، وإن احتسبت وصبرت كان أجرك على الله وظفرت فقولي: إنا لله وإنا إليه راجعون، يثني الله عليك، ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀﮁ ﮂ ﮃ ﮄ .وقد ذكرتك فاذكري... أرشدنا الله إلى طاعته وأدخلنا برحمته في رحمته، والسلام». (708)

يذكر ابن عربي الصديقة في الأندلس بأن الموت يعم كل البشر. ويذكرها بأعمالها، ويطلب منها أن تشغل نفسها بالعمل ليوم موتها، ولا تنخرط في حزنها فتنسى أنها هي أيضًا ستلاقي ربها. ولكنه لا ينهاها عن الحزن، بل ينهاها عن ألا تسلم لقضاء الله، ولم يزل يذكرها برحمة الله وأن دموعها من الرحمة التي وضعها الله في قلبها. وأنه يستجيب كيفما يشاء، وقتما يشاء، فلا بد ألا توقف الدعاء له. وها هي كلماته تلخص حالنا جميعًا عندما يتحسن حالنا فنبتعد عن الله ونطمئن للدنيا، وننسى ولو للحظات أننا عنها راحلون»حجبتنا الدنيا بحسن الحال، عن تذكر الترحال». (709)

وعن معنى الموت يشرح لنا دكتور أحمد كمال الجزار فكرة ابن عربي عن الموت قائلا «والموت انتقال من منزل الدنيا إلى منزل الآخرة، ما هو عبارة عن إزالة الحياة، وإنما الله أخذ بأبصارنا فلا ندرك حياة الإنسان الذي مات كما لا ندرك حياة الشهداء، والميت يسأل في قبره، وما زال عنه اسم الموت، فلولا أنه حي في حال موته ما سئل. فليس الموت بضد الحياة إن عقلت،

فالموت إزالة الوالي وهو الروح. والميت عندنا يعلم أنه حي، وأنت تحكم عليه ببصرك أنه ميت جهلًا منك». (710)

إذن الموت ليس عكس الحياة، بل هو استمرار للحياة، ولكن بطريقة أخرى لا نستطيع نحن بنظرنا الضيق ورؤيتنا المحدودة أن نشعر ونرى من انتقل إلى الله، ولكنه موجود. وهذا المعنى مهم جدًا. الميت يعلم أنه حي.

ويقول ابن عربي في أحد مراسلاته:«أما بعد يا أخي، فالقدر سابق، والقضاء لاحق، فلا يغرنك ما أنت عليه». (711) «أما علمت أن بقاء الحال محال». (712)

القضاء يحدث شئنا أم أبينا. وعبارة ابن عربي الشهيرة التي أصبحت تتردد بين البشر هي بقاء الحال من المُحال.

وعن الموت الذي يخرج الإنسان من القيد إلى الحرية يتكلم الغزالي في أشعاره. وهذه قصيدة قيل أنها وجدت عند رأس الغزالي يوم وفاته يقول فيها:

قُل لإخوان رأوني ميتاً

وبكوني ورثوا لي حزنا

أتظنون بأني ميتكم

ليس ذاك الميت والله أنا

أنا في الصور وهذا جسدي

كان بيتي وقميصي زمناً

أنا در قد حواه صدف

كان سجني فطرحت السجنا

أنا عصفور وهذا قفصي

طرت عنه وتبقى رهنا

احمد الله الذي خلصني

وبنى لي في المعالي وطنا

كنت قبل اليوم ميتاً بينكم

فحـييـت وخلـعــت الكفــنا (713)

الغزالي يعرف أن الموت حرية وخلاص لمن رضي، وصبر، وعبد ربه بإخلاص. ولذا يستعمل الصوفي كلمة «انتقل»، وليس «مات».

والطريف أن قدماء المصريين يطلقون على «الموت والبعث» الخروج إلى النهار، والغزالي يستعمل نفس التشبيه، مما يثبت أن البحث عن الله مستمر طوال الوقت، ومنذ القدم، وبطرق مختلفة. لأن الإنسان يفتقر إلى وجود الخالق كما قال ابن عربي. يقول الغزالي أن النهار دليل الآخرة، والليل دليل الدنيا. (714) في الموت راحة من الحبس، لذا فهو تحرر، وبصيرة ونهار. (715)

ويذكر ابن عربي في كتابه «الأسفار عن نتائج الأسفار» القارئ بكلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند حدوث المصيبة. (716)

في أي قضاء مؤلم نتذكر ثلاثة أشياء: أن القضاء لم يكن فتنة في ديننا وهي أصعب الابتلاءات، وأن كل مصيبة هناك أعظم منها، وأن لنا فيها أجر من الله والله أعطانا عهدًا بهذا.

وبينما يكون فراق الأحبة من أصعب الابتلاءات، فالنتيجة التي يوضحها لنا الفكر الصوفي أن علينا أن نفرق بين القضاء والألم الذي يصاحبه. وللابتلاء أشكال كثيرة. في السطور المقبلة سنعرض كلام أعلام الصوفيين عن البلاء وعن التأدب والصبر والتوكل.

التأدب عند الابتلاء

كما عودنا عبد القادر الجيلاني في تعليم طلابه، يتكلم معهم مباشرة بصدق وتلقائية، ويشرح لهم الدنيا والقدر. وقال رضي الله عنه بالرباط عشرين ذي الحجة سنة خمس وأربعين وخمسمائة: عن النبي أنه قال: «مِن كُنوزِ الْعَرْشِ كِتْمَانُ المَصَائِبِ».

«يا من يشكو إلى الخلق مصائبه، إيش ينفعك شكواك إلى الخلق، لا ينفعونك ولا يضرونك، وإذا اعتمدت عليهم وأشركت في باب الحق عز وجل يبعدونك، وفي سخطه يوقعونك وعنه يحجبونك،...». (717)

إذن تأدب مع الله، لك أن تعبر عن ألمك، ولكن لا تشتكي من ربك لشخص، ولو طلبت مساعدة شخص، تذكر أن مساعدته بأمر الله.

«وقال رضى الله عنه: الزموا موافقة الحق عز وجل في البأساء والضراء، والفقر والغنى والشدة والرخاء، في السقم والعافية، في الخير والشر في العطاء والمنع، ما أرى لكم دواء إلا التسليم إلى الحق عز وجل، إذا قضى عليكم بشيء لا تستوحشوا منه، ولا تنازعوه فيه، ولا تشكوا منه إلى غيره

فإن ذلك مما يزيدكم بلاء اثبتوا.. بين يديه، وانظروا ماذا يعمل فيكم وبكم، تفرحوا على تغييره وتبديله...

يا غلام: سلم إليه في مقدوره ثم قم معه بعد ذلك، الأمر يحتاج إلى أساس ثم بناء». (718)

الأمر يحتاج إلى أساس ثم بناء أي التسليم أولًا، ثم التوكل والتمكين، ثم الرضا، كما سنرى.

فحاول أن تلجأ إلى الله ليخفف آلامك. الخطوات التي نتبعها في طريقنا إلى التوكل والصبر هي الآتي:

1 - فرق بين القضاء والألم الذي يصحبه.

2 - ندعو الله باسمه الله، ونردد اسمه راجين منه منحنا القوة من عنده. نردده «على نظافة»، كما يقول الصوفيون، أي من قلبنا بلا مرارة، ولا حقد، ولا يأس، ولا شك.

3 - نردد كلمات «الله لا حول ولا قوة إلا بالله«، لنذكر أنفسنا من أين تأتي القوة. ثم نردد كما سيشرح لنا ابن عربي «لا إله إلا الله» أيضًا على نظافة، وهي بالنسبة لابن عربي أعم من «لا حول ولا قوة إلا بالله» لأنها تنفي وجود أي شيء دائم في الكون سواه هو الله. نطلب بهذه الكلمات القوة منه بإخلاص. لا يوجد عدد مرات معين، رددها بصدق قدر استطاعتك.

هذه أول خطوات التعامل مع البلاء ولنشرح الآن الخطوات التالية معًا.

الصبر والتوكل

تكلمنا في مقال البحث عن السعادة عن ثلاثة أنواع للصبر. الصبر على الطاعات أي أن تصبر على عناء الطاعات أحيانًا، فلو كنت فقيرًا لا تسرق، ولو كنت غير متزوج، لا تزنِ، إلى آخره. والصبر عند الفاقة، والصبر على المعرفة. وربما النوعان الأخيران من الصبر مرتبطان جدًّا. تصبر على الفاقة، وعلى معرفة الهدف منها أو الخير الذي سيأتي من ورائها. فالكثير من الأمور لا تتبدى لنا في الحال، ولكن تحتاج لقلب سليم، وعقل واعٍ، ووقت طويل من الاجتهاد للفهم. يذكّر الغزالي في كتابه «أيها الولد» المريد بآيات الله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُو حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْ ا لَّهُمْ وَ للَّهُ غَفُو رَّحِيم} [الحجرات: 5]، {قَالَ فَإِنِ تَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْ ا}[الكهف: 70]». (719)

وقال الغزالي لتلميذه: «لا تـسألني قبل الوقت وتيقن أنك لا تصل إلا بالسير» (720). ونردد مرة أخرى كلمات الشاذلي: «لا حجاب إلا الوقت». (721)

بمرور الوقت تتكشف لك الأشياء لو فتحت قلبك، وعبدت ربك بإخلاص. تذكر أن صبرك بالله، وأن الصابرين من عباد الله الذين اختصهم بالحب. ويذكرنا ابن عربي في الفتوحات المكية بأن الله يحب الصابرين.

«{وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ}[آل عمران: 146]، وهم الذين ابتلاهم، فحبسوا نفوسهم عن الشكوى إلى غير الله، {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ} [آل عمران: 146] عن حمله، لأنهم حملوه بالله: {وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} [النحل: 127] وإن شق عليهم: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ} [آل عمران: 146] لغير الله في إزالته، ولجئوا إلى الله في إزالته، كما قال العبد الصالح {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ} [الأنبياء: 83] فرفع الشكوى إليه لا إلى غيره، فأثنى عليه بأنه وجده: {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ} [ص: 44] مع هذه الشكوى، فدل أن الصابر يشكو إلى الله». (722)

الصبر والتوكل مرتبطان كل الارتباط. فما يعيننا على الصبر هو التوكل على الله.

وعن الصبر لاحظ أيها القارئ التشبيه في هذه الآية:

{وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} [الأعراف: 126]. قالها سحرة فرعون عندما وعدهم بالعذاب الأليم لأنهم آمنوا برب موسى. الصبر يكون على الألم، أو الخوف، أو الفزع، وأن تفرغ وعاء يعني أن تسكب كل ما فيه وتخليه. وهنا يطلب السحرة من الله أن يسكب عليهم الصبر سكبًا، أي يعطيهم من الصبر بسخاء ليتحملوا الفزع والألم.

كما يقول الطبري في تفسيره سحرة فرعون «فزعوا الى الله» بأن طلبوا منه الصبر على تهديد فرعون لهم وقتله. لم يلجأ السحرة سوى لله فانتقلوا من سحرة إلى شهداء في نفس الليلة (تفسير الطبري). أما عند الله باقٍ، وما عند الله كثير، وما عند الإنسان ينفد، فاطلب من الله لا من البشر. ها قد رأينا سحرة فرعون أقوياء بربهم، وفرعون يستغيث في نهاية عمره، ويدرك خطأه وضعفه. هم أقوياء، وهو ضعيف.

فصبرك بالله وليس بنفسك.

التوكل

وعن التوكل يقول الغزالي للولد «وسألتني عن التوكل، وهو أن تستحكم اعتقادك بالله تعالى فيما وعد، يعني تعتقد أن ما قُدِّر لك سيصل إليك لا محالة، وإن اجتهد كلُّ مَن في العالم على صَرْفه عنك. وما لم يُكتب لك لن يصل إليك، وإن ساعدك جميع العالم». (723)

هذا اليقين يساعد على الوصول إلى السعادة لأنك لن تقلق ولن تحزن على ما فات.

وعن التوكل يقول ابن عربي في الفتوحات المكية «أول كلام شق أسماع الكائنات، قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُو بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُو يَوْمَ لْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ} [الأعراف: 172]». (724)

تسليمك له يعني أنك أعطيته التفويض ليتحكم فيك تمامًا. ولكن اترك نفسك له راضيًا لا على مضض، واترك نفسك له مطمئنًا أنه هو من زرع فيك الحب والتعلق، وهو قادر على كل شيء. وأعطانا ابن عربي مثلًا في قصة خليل الله إبراهيم عليه السلام، سمي خليل الله لاعتماده على الله، وقد ابتلى كثيرًا. أولًا سأل الله أن يرزقه بالولد، وليست مصادفة أن يبتلى فيما طلبه وأحبه، ولكنه لم ييأس، ولم يقنط من رحمة ربه. فقد كان مستعدًا أن يضحي بالولد الذي طلبه من الله، لولا أن جاء الذبح العظيم ليفدي ولده. وقصته مع النار قصة أخرى لها أهميتها كما ذكرنا في مقال الشاذلي.

إذن لو تركت نفسك لله سينجيك، أما لو حاولت أن تنجو بنفسك فقط، فلن تنجو سوى بإذنه وإرادته.

ولتتذكر أنك ضيف على الله في هذه الدنيا كما يقول ابن عربي. الله قيوم عليك فلا بد أن تتوكل عليه. فهل لضيف عند الكريم أن يقلق من أذى أحد، أو من قلة طعام أو رزق؟ هو قائم عليك لأنه القيوم. (725)

واجبك في الدنيا أن تعبد الله، وتثق في اختياراته، وتجاهد نفسك على طاعته. فلك الاختيار في أشياء، وهناك قضاؤه في كل شيء. وتذكر أن صبرك تجزى عليه بغير حساب. فالصبر له مكانه خاصة في الإسلام لأن عطاء الله فيه غير محسوب، يفوق كل توقعاتك.

كيف تتوكل على الله بإخلاص؟ مرة أخرى يفرق الصوفي بين الظاهر والباطن. الظاهر أن تتبع حدود الشرع، والباطن أن تفهم أن الغرض كله من هذه الدنيا هو عبادة الله، وتمام العبودية هو أن تتذكر أن لا فاعل ولا موجود

سوى الله، وغيره هالك وفانٍ. إذن لو حكم عليك بحكم، فلتسلم له. إذا كان هو ربك الذي رباك. إذا حكم عليك أبوك بحكم تظن أن فيه الخير لأن والدك لا يريد بك الشر، فكيف بربك العالم بالظاهر والباطن، مالك مفاتيح أسرار القدر؟

ويعطينا ابن عربي (726) مثالًا آخر للتوكل على الله في الآية الكريمة {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُو ا} [الإسراء: 89].

إذن تذكر أنك تطلب منه هو أن يدخلك ويخرجك، فليس الدخول والخروج سوى به هو، وليس بك أنت. والشيطان هدفه الدائم هو أن يجعلك مثله غير راضٍ، وغير سعيد. (727)

والمثل هنا من قصة نوح عندما قرر ابنه أن يأوي إلى جبل يعصمه من الغرق، فقد تصرف بنفسه وليس بربه، وظن أنه قادر وحده على النجاة، فغرق. وهكذا نحن، نلجأ إلى الله لينجينا.

بالنسبة لابن عربي توكلك على الله يعني أن تطلب منه أن يعينك على التحمل. مثلًا صبرك بالله، وليس بنفسك. وتفكيرك في الأسباب التي لا طائل منها لن ينتهي، وسوف تعود له مهما حاولت وحدك الخروج من الضيق. استعن به على ترك الشك، ولا تستعن بنفسك. واستعن به على القوة عند الابتلاء، ولا تستعن بنفسك. واستعن به على الصبر، ولا تستعن بنفسك. التسليم له في كل أمر، هو الغاية.

«وقال تعالى: {أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَا } [الزمر: 36].

وقال تعالى: {إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِي }[الأنفال: 49]، عزيز لا يذل من استجار به، وحكيم في تدبير أمر مَن توكل عليه». (728)

كما قلنا من قبل الغنى هو الاستغناء واليقين بالله. الله يعطي العبد رزقه مهما فعل البشر، ومهما سدوا عليه الأبواب. الرزق والموت قضاء من الله. مرة أخرى السعي مهم، ولكن بيقين أن الرزق من عند الله. (729)

«سأل إبراهيم بن أدهم بعض المنقطعين في الصحراء: من أين تأكل؟

فقال: ليس هذا العلم عندي، ولكن سل ربي من أين يطعمني؟». (730)

يشرح ابن عربي درجات التوكل، أولها: أن تفوض الأمر إلى الله، كما تعطي محامي توكيلًا مثلًا وكلك ثقة. فما بالك برب العباد؟ والدرجة الثانية: أن يكون

حالك مع الله كالطفل مع أمه، لو خاف يلجأ إليها، ويثق بها. أما ثالث درجة وأعلاها: أن تترك نفسك لله بكليتها. فلا تحتاج حتى أن تطلب منه، لأنك تثق أنه يعلم الخير، كما فعل إبراهيم وهو في النار. ومنها أن تفزع إليه في حزنك، وتلجأ إليه وتطلب منه أن يهدأ عذابك. (731)

وعن معنى «لا حول ولا قوة الا بالله»، وعلاقة هذه الجملة بجملة «لا اله الا الله»، يشرح التجاني قصد ابن عربي قائلًا «ونسبة (لا حول ولا قوة إلا بالله) إلى كلمة (لا إله إلا الله) بعيدة جدًّا، وإذ أن الكلمة الأولى نفت شيئين: الحول والقوة، أما الثانية: فنفت كل شيء، ونسبت الكل إليه تعالى». (732)

وعن التوكل يشرح لنا ابن عربي الآية الكريمة قائلًا قال تعالى: ففروا إلى الله، وليس من الله. أنت تطلب اللجوء إليه بفرارك. فلا خوف عليك، ولا حزن. (733)

ولكن التوكل لا يعني التواكل أو تحمل الأذى. فرد الظلم ومواجهته ليس ضد التوكل.

ويشرح ابن عربي «قال للأعرابي، الذي دخل المسجد وترك بعيره بغير ربط: (اعقلها وتوكل)، فالأخذ بالأسباب لا يقدح في التوكل، إنما يقدح فيه الاعتماد على السيد.

فإذا ظلمك أحد، تأخذ في الأسباب التي ترد ظلمه عنك، ولكن لا تظل تشتمه وتغتابه، قال : «إن العبد ليظلم المظلمة، فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه، ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظلوم». (734)

رد الظلم عن نفسك، وحارب من يؤذيك، واجتهد للنجاح، هذا كله لا ينفي أن تتذكر أن قوتك التي تحاول بها رد الظلم من الله، وأن محاربة من يؤذيك لها آداب ولا بد ألا تتعدى حدود الله، وأن السعي للنجاح والثراء نعمة مقيدة، وربما تعينك على أداء فرائض الله من الزكاة والصدقات، ولكن لا بد أن تتذكر أن كل من عند الله. »لا إله إلا الله» تنفي أن يكون في الكون فاعل سواه.

فلم يحاسبنا الله إذا كان هو الفاعل؟ لأن لديك الحرية في مواجهة نفسك وتصفيتها، ومحاولة شفاء قلبك من كل الذنوب، مثل الكره والحقد والقسوة. هذه في يدك أنت، حتى لو كان كل شيء قدر مكتوب.

وكما يؤكد ابن عربي في الفتوحات في توكلك على الله تطرح العقل جانبًا لا تستكثر حتى المعجزات فهو قادر على كل شيء.

ولنتذكر أن الله يحب أولياءه المخبتين أي المطمئنين له، الساكنين إليه ولأقداره. فلا بد أن تطمئن إلى الله وتصبر وتتوكل، فتكون من أولياء الله

المخبتين. (735)

اليقين بالله يعبر عنه ابن عطاء الله السكندري في الحكم قائلا: «وإنما يقويهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره، وإنما يصبرهم على وجود حكمه علمهم بوجود علمه، وإنما يصبرهم على ما جـرى علمهم بأنـه يرى«. (736)

علمك بأن القضاء من الله الذي عودك الرحمة والعناية يجعل تحمله أسهل.

ويشرح ابن عربي المعنى الباطن للآية الكريمة: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ لدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُو لِى وَلْيُؤْمِنُو بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: 186] في الفتوحات المكية فيقول إن الله يستجيب لعبده، ولكن الاستجابة إما أن تكون في التو واللحظة، أو مؤجلة لعلمه بالأصلح، أو ربما استجاب لك ولم يعطِك ما تريد لأنه أعلم بمصلحتك. فعقلك مقيد، ولا يعرف الغيب.

يشرح ابن عربي «فمن عرف هذا الأمر لم يسأل الله في حاجة من حوائج الدنيا على التعيين، ولكن يسأل الخير كما يعلمه الله له. والخلاصة أن الناس لا تعرف مصالحهم، فعليهم أن يسألوا الله التوفيق والعافية والعناية في تحصيل السعادة، وزيادة العلم الذي يأتي بهذه السعادة وهو العلم بالله. فهذا ذكر عظيم الفائدة». (737)

عندما تدعو الله وأنت تعرف قربه منك، فاعلم أنه سيفتح لك بعلامات ابحث عنها. ولو لم يعطِك ما سألت، سيعطيك علامة لسبب هذا. اصبر على المعرفة، وافتح قلبك لفهم المغزى. وكما قال ابن عطاء الله، من قبل، ما تراه أنت من أمور الدنيا، وما تطلبه من الله بمعرفتك المحدودة، ليس بالضرورة خيرًا لك. فربما تريد أن تراجع دعواك بعض الشيء، أو تدعو بما تريد، وأنت تعرف أنه سيختار لك الأفضل.

بالنسبة لعلماء الصوفية البلاء قد يكون نعمة لأنه يأتي بالتمكين. ولا تمكين بلا بلاء، وصبر، وتوكل.

ويوصينا ابن عربي قائلًا:«وصية: من لم يعد البلاء نعمة، فليس من الحكماء. ومن أقبل على الدنيا ونسي الآخرة، كان من السفهاء». (738)

ولكن لم يعتبر البلاء نعمة؟ لأن مع البلاء نجاهد أنفسنا لنصبر، ونتوكل عليه، ولو نجحنا في أن نصبر ونتوكل عليه فسوف يحدث لنا التمكين، أي القدرة التي تفوق قدرة الآخرين من لم يصابوا بالفاقة. ومع القدر سنصل إلى أعلى المقامات وهو مقام الرضا، ومع مقام الرضا نصل إلى السعادة التي نبغيها منذ الأزل. فلنفهم معًا معنى كلمة التكمين عند الصوفية.

التمكـين

ما هو التمكين؟ هو قوة ومقام في الدنيا، أو الآخرة، أو الاثنين معًا.

يقول الغزالي «روي أن عبد القاهر بن عبد العزيز قال للشافعي يومًا: أيهما أفضل الصبر أو المحنة أو التمكين؟ فقال الشافعي رحمه الله: التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة، فإذا امتحن صبر وإذا صبر مكن؛ ألا تري أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنه، وامتحن موسي عليه السلام ثم مكنه، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنه وآتاه ملكًا، والتمكين أفضل الدرجات، قال الله عز وجل {وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: 21]، وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مُكِن، قال الله تعالى {فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ}[الأنبياء: 84]». (739)

«قال رسول الله ﷺ: أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل». النبوة والرسالة تمكين.

تذكر أن البلاء أول درجات التمكن، وبلا بلاء لا يوجد تمكن، والتمكن هو القوة التي يمنحها الله لعباده المخلصين وتحدث خاصة للأنبياء. افهم معنى البلاء لتصبر. هل البلاء لمن عصى ربه؟ لا، البلاء يعم كما قال الله في كتابه: {وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ} [الأنفال: 25].

أي أن الفتنة لن تصيب فقط الذين ظلموا بل كل البشر الصالح والظالم. (740)

النبي يوسف تعرض للخيانة من أقرب الناس إليه، أخوته، ثم بيع بثمن بخس. وكما يقول ابن عربي في الفتوحات المكية، كان لا بد أن يباع بثمن بخس، ويدرك احتياجه إلى ربه ليصبح بعد ذلك عزيز مصر، فيتمكن في الدنيا والآخرة. إدراك العجز تمكين لأنك تعرف حينها منبع قوتك.

هل تريد أن تعرف إذا كنت قد اقتربت من التمكين؟ فكر في أمرك قبل حدوث البلاء؟ هل كنت تظن أنك ستستطيع تحمله؟ أنت تتحمله بقدرة الله.ولا بأس من وجود حزن أو ألم، فالحزن رحمة بداخلنا.

اصبر على أذى العباد. فالله يصبر على عباده وكلماتهم، فكيف لا تصبر أنت أيها العبد؟ (741)

فما هو التمكين؟ هو الإدراك والمعرفة والقوة بالله. قلنا من قبل أن المعرفة تعطي سعادة. وكل من صبر على محنته أصبح أكثر حكمة، والحكمة رزق من الله لعباده الصالحين. بالمحن ترى، وبالمحن تتكشف لك حقائق. ولكن لتفتح قلبك لله لتستقبل عطاياه.

يقول ابن عربي عن العلماء ونورهم إن العالم يجد الطريق واليقين. وهذا هو التمكين. (742)

وقد قال أبو الحسن الشاذلي: «لا يكمل عالم في مقام العلم حتى يبتلي بأربع: شماتة الأعداء. وملامة الأصدقاء. وطعن الجهال. وحسد العلماء. فإن صبر على ذلك، جعله الله تعالى إمامًا يقتدى به». (743)

حتى الأولياء يحتاجون لبلاء ليصبحوا في مقام أعلى. ولكن هل هناك مقام بعد التمكين؟ نعم مقام الرضا. هل تتصور أن تكون راضيًا طوال الوقت في السراء والضراء. الرضا يفتح لك الدنيا الضيقة، ويجعل الأحوال عندك سواء، بالرضا تطوف فوق كل الأحوال، وتترفع عنها جميعًا.

عندما تصل إلى التمكين ستدرك الكثير، وأول ما ستدرك هو قرب الله منك ورحمته بك. فهو دومًا قريب.

التمكين إدراك. إدراك قرب الله ورحمته، وأن البلاء خير لأنه منه هو، بقضائه هو.يقول ابن عربي: « فالمصائب والبلايا الفقر في عين القرب وإن ظنناها بعدًا. فالمنح قد خبئت في المحن، فما من الله شيء أبعد من شيء، ولا شيء أقرب من شيء، فالقرب هو قرب المراتب، لا المسافات. فكم متعلق بأستار الكعبة وهو عن الله بعيد، وكم من منقطع في الصحاري والقفار، وهو من الله قريب». (744)

ربما تظن أن ما أصابك من بلاء عقاب، ولكنه في الحقيقة قرب من الله ورحمة. وتذكر أن أقرب شيء إليك ربما لا تراه من شدة قربه.

الإدراك يأتي عندما توقن أن كل ما يحدث لك رزقه لك.ويعطينا ابن عربي مثالًا لتغير الإنسان بعد التمكين، فيذكرنا بقصة النبي بعد الإسراء والمعراج.

بعد تعرض النبي لأذى قريش أراد الله له التمكين، فتغيرت نظرته للناس حتى أعدائه. ولم يعد يرى غير الله في كل شيء. هذا هو تمكين الأنبياء. وهناك تمكين العباد الصالحين أيضًا. يدرك العبد أن «قال تعالى:{ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: 88]. وكل هالك: وهم» (745)

وفكرة الوهم عبر عنها أيضًا ابن عطاء الله عندما قال «ما قادك شيء مثل الوهم». (746)كل ما تريده أو تحزن عليه في الدنيا لا يستحق لأنه ليس بباق،

وكل ما ليس بباقٍ غير موجود، بل تتوهم وجوده.

ونختم هذا الجزء بقول النبي «والمؤمن في الدنيا كثير الرزايا لأن الله يحب أن يطهره حتى ينقلب إليه طاهرًا من دنس المخالفات التي كتب الله عليه في الدنيا أن يقام فيها» «قال الرسول : مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تصرعها الريح مرة، وتعدلها أخرى حتى تهيج». (747) إذن لتنضج الزهرة وتسطع بجمالها لا بد من رياح، وعواصف، ورزايا، وابتلاءات يصاحبها الألم.

الـرضـــا

الرضا عند الصوفية ربما يكون أعلى مقام يصل إليه الإنسان في الدنيا، وهو مقام من مقامات الجنة.

قال تعالى: {يَـٰٓأَيَّتُهَا لنَّفْسُ لْمُطْمَئِنَّةُ . رْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَ مَّرْضِيَّ } [الفجر: 27، 28].

والرضا كما الحب، شعور لا بد أن يكون متبادلًا بين العبد وربه. ولكن في الحب يأتي حب الله للعبد أولًا قبل أن يولد، ثم يأتي حب العبد لله بعد ذلك. أما في الرضا، فالعلاقة أكثر تشابكًا. من يرضى الله عنه لأنه يتقي الله يهديه الرضا هبة من عنده، ومن يرضى عن الله وقضائه يرضى عنه الله. {جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا لْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَ ا رَّضِىَ للَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُو عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ }[البينة: 8].

وللصوفيين الكثير من الكلام عن الابتلاء والصبر والشكر والرضا. ولكن لأن الرضا مقام، فلا بد من الوصول إليه تدريجيًّا بالمجاهدة والرياضة المستمرة.

النفس المطمئنة وعباد الله المخبتون هم من وجدوا الرضا في الدنيا والآخرة. سكنوا لله واطمأنوا له. وابن عطاء الله يقول في كتابه «التنوير في اسقاط التدبير» عن النفس المطمئنة أنها «كالأرض المطمئنة»، أي التي لا يوجد بها استعلاء، ولا غرور وكبر. بل «خاضعة» إلى ربها، وإلى عبادته مسلمة إليه.

ولخص لنا ابن عربي مقام الرضا في كلمات موجزة معبرة قائلًا:

«فكل مقام أنت بالغه بنفسك فهو كذب، وكل مقام أنت بالغه بربك فهو مقامك، فإدراك مقام الرضا هو العجز عن إدراك الرضا بنفسك». (748)

لتصبر تحتاج إلى الله، ولتقوى تحتاج إلى الله، ولترضى تحتاج إلى الله. لو أدركت عجزك، وأيقنت قوته وحده تصل إلى الرضا. لو جاهدت وحدك دون اللجوء إليه، لن تستطيع. هو طلب منك الاستعانة به. هل هناك أحد على الأرض يتحملك ويعينك مثله؟ هو الموجود، وكل ما دونه وهم.

يقول ابن عطاء الله «وإنما ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، لأنه لما رضي بالله ربًّا، استسلم له وانقاد لحكمه، وألقى القياده إليه خارجًا عن تدبيره واختياره إلى حسن تدبير الله واختياره، فوجد لذاذة العيش وراحة التفويض. ولما رضي بالله ربًا، كان له الرضا من الله، كما قال تعالى: {قَالَ للَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ لصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا لْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَ ا رَّضِىَ للَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُو عَنْهُ ذَٰلِكَ لْفَوْزُ لْعَظِيمُ}[المائدة: 119]». (749)

يؤكد ابن عطاء الله أن الرضا شعور متبادل بين الله وعباده، فعندما ترضى عن الله، يرضى عنك مع أنه لا يحتاج إلى رضاك، بل تحتاج أنت إلى رضاه، ولنتذكر الآن قول رابعة لسفيان الثوري: «أما تستحي أن تطلب رضا مَن لست عنه براضٍ» (750) لو مكنك الله، تصبح له راضيًا.يقول عبد القادر الجيلاني: «إذا صحت عبوديتك له أحبك، وقوى حبه في قلبك، وآنسك به، وقربك منه». (751)

ملخـص

تكلمنا في هذا المقال عن معان مهمة منها القضاء والألم والصبر والتوكل، ثم التمكين والرضا. لنذكر القارئ ببعض النقاط المهمة في هذا المقال.

لنتذكر أن البشرية قيد، والدنيا قيد، والشهوات قيد، والسجن قيد، والمرض قيد، والذنوب قيد، والسراء قيد، والضراء قيد، كل الناس مقيدون بقيود كثيرة»ونداء الحق إلينا، يحثنا أن نفك كل هذه القيود» (752) كيف نفك القيود؟ باللجوء إليه هو فقط. بل إن ابن عربي يرى أن من يريد في الجنة الأكل الجميل والمتعة هو مقيد، لأن الهدف الأكبرهو لقاء الله. وهذه درجة الأولياء.«مؤسف أن يدخل بعض الناس الجنة، وهم مازالوا في قيودهم من الانشغال بالمأكل والمشرب والنساء: {إِنَّ أَصْحَـٰبَ لْجَنَّةِ لْيَوْمَ فِى شُغُ فَـٰكِهُونَ} [يس: 55]». (753)

التسليم يأتي بالفرار إلى الله، وليس منه ولا من قضائه.

«لما فر موسى من قومه، وهبه الله الرسالة والخلافة، وأمرنا الله بالفرار إليه، والإنسان يفر من وإلى، وهناك من يفر ولا يعين من يفر إليه؛ فأرشدنا الله أن نفر إليه، ولا نفر من كون إلى كون. والحق يلقى من فر إليه بعطاء عظيم؛ فالفرار أسرع من المشي والهرولة، والفرار حكم يستصحب العبد في الدنيا والآخرة». (754)

لا تفر من خلق الله إلى خلق الله، ولكن فر إلى الله. أسرع بخطاك أقصى سرعة للجوء إليه. من يهرب من بلد إلى بلد من شدة الحروب، يجري بأقصى

سرعته طالبًا النجاة. فما بالك بمن يفر لمن معه كل أمان الدنيا والآخرة؟

فالفرار إلى الله لا بد أن يكون هدف كل مؤمن.

أما عن معنى العافية فهي لا تعني صحة البدن «قال الرسول : «إذا سألتم الله فاسألوه العافية» والعافية: ذهاب أثر البلاء، ومن الأدب مع الله وقوف العبد مع عجزه وفقره وفاقته». (755) فذهاب أثر الألم هو العافية.

وتذكر أيها القارئ أن من يدعي حب الله والتسليم له، عليه أن يثبت هذه الدعوة. فلو ادعيت أنك تحب الله على كل حال لا بد أن تأتي بالدليل على دعواك في الثقة في قضائه.

ويبقى الرضا مفتاح الإيمان، والسعادة في الدنيا والآخرة.

بعد التمكين من الله تصبح كل فاقات الدنيا بالنسبة لك سواء. لأنك راض عن ربك. ولننهي هذا المقال المهم بقصة السيدة زينب رضي الله عنها مع الابتلاء.

فابنة فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب أصبحت أسيرة لدى الأمويين، بل وشهدت على قتل أخيها وربما التنكيل بجثته ورأسه وقتل أولادها وزوجها. عانت كأم ثكلى، وكأخت، وكزوجة وكامرأة مسلمة. وعندما وقفت منهزمة كما يبدو لنا، وأسيرة أمام عبيد الله بن زياد سألها سؤالًا صعبا «ما ظنك بصنع الله بالحسين وآله؟» والهدف من السؤال هو ربما إدراكه بذنبه، أو محاولة منه لإثبات أنه على حق، وأن الله لا يقف مع الحسين وعائلته. وكانت إجابة زينب ملخصًا لحياة كل صوفي وكل مؤمن. قالت: «ما رأيت إلا جميلًا».

هنا لخصت زينب الرؤية، والإدراك، والفهم لهذا العالم الذي نعيش به هذه الدنيا العاجلة. فقالت إنها لم تر من الله إلا كل ما هو جميل. بينما يظهر للغريب أنها عانت الأمرين، نزل العناء على قلبها المؤمن كالبرد والسلام، وليس كالنار. كلما ازداد الفناء في الله، تلاشى الألم. وكلما تعمق الصبر على الألم ورافقه الرضا بالقضاء، على المقام وارتفع. فأصبحت ترى إن كل فعل ينتسب لله هو جميل، حتى ولو كان في ظاهره مؤلم جل الألم. كما أعطانا الصوفيون في كل كتاباتهم أمثلة كثيرة على القدرة على تحمل الألم بعد الاقتراب من الله. تعطينا زينب الدرس نفسه والمثل. لم يشعر الحلاج بقطع أطرافه لأنه فنى في حب الله، ولم يتكلم ابن عربي على موت ابنته الصغيرة سوى وهو يؤكد أنها لله، فكيف يسأله ما يفعله بها. فنجد أن شدة التقوى واليقين والدعاء تساعد على التحمل.

نتعلم أيضا من زينب أن الحياة الدنيا مقام، وليست دار بقاء، ولكننا في هذه الدار لنا حرية رؤيتها. فكلنا نراها إما ظاهرًا أو باطنًا كسجن. ولكن منا من

يراها سجنًا لأنه لم يصل إلى ما يريده من حب أو مال أو رياسة، ومنا من يراها سجنًا لأنها لا تقارن بالآخرة ونعيمها، ولأنها محدودة في ظاهرها وباطنها. فمن يراها سجن، يرى في قربه من الله الخلاص. ويتفاءل لا يتشاءم، فمن اقترب من الملك كيف له أن يخاف؟ لذا ترى زينب كل أفعال الملك جميلة. الدنيا نراها بقلوبنا وعقولنا، ولكن من يقترب يتحرر، ويسعد، ويتفاءل.

ومضـة نـور

«ومحال أن يطلب منا ما لم يجعل فينا قوة الإتيان به ويمكننا من ذلك فإنه حكيم». (756) - ابن عربي

«إن الله ما أخذ منك إلا لتصبر، فيحبك. فإنه يحب الصابرين، وإذا أحبك عاملك معاملة المحب لمحبوبه. وما من شيء يزول عنك إلا وله عوض سوى الله. لكل شيء إذا فارقته عوض، وليس لله إن فارقت من عوض». (757) - وصايا ابن عربي

«فإنك تعلم أن صبرك ما كان إلا بالله، ما كان من ذاتك ولا من حولك وقوتك، فإن الله يقول {وَ صْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِ للَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} [النحل: 127]. فما ابتلى الله عباده إلا ليلجئوا في رفع ذلك إليه، ولا يلجئوا في رفعه إلى غيره. فإذا فعلوا ذلك كانوا من الصابرين وهو محبوب الله». (758) - ابن عربي

«فميزانك في حبه إياك، أن تنظر إلى ما رزقك من الصبر على ما أخذه منك». (759)

«إنما جعل الدار الآخرة محلًا لجزاء عباده المؤمنين لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم، ولأنه أجلّ أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها». (760) - ابن عطاء الله

«البلاء يقوي القلب واليقين. ويحقق الإيمان والصبر. ويضعف النفس والهوى. لأنه كلما وصل الألم ووجد من المؤمن الصبر والرضا والتسليم لفعل الرب عز وجل، رضى الرب تعالى عنه وشكره. فجاءه المدد، والزيادة، والتوفيق. {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيٌ } [إبراهيم: 7]». (761) - عبد القادر الجيلاني

«اللهم إنا نسألك القرب منك بلا بلاء، الطف بنا في قضائك وقدرك، اكفنا شر الأشرار وكيد الفجار، احفظنا كيف شئت وكما شئت، نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، ونسألك التوفيق للأعمال الصالحة، والإخلاص في الأعمال، آمين». (762) - عبد القادر الجيلاني.

«استعذ بالله من شر الدنيا إذا أقبلت، ومن شرها إذا أدبرت». (763) - ابن مشيش

«وقال رضي الله عنه: إنّ من الحمق عدم احتمال الهموم... إنما تزهد فيما أنت فيه راغب لأحد أمرين: إما لظهور نقصٍ وخللٍ فيه، وإما لشهود ما هو أعلى» (764) داود بن ماخلا

إشكالية اللغة عند الصوفية

«كلما اتسعت الرؤيا، ضاقت العبارة»

محمد بن الحسن النفري

معظم مشاكل الآخرين مع الصوفيين لها علاقة باللغة التي يستعملها الصوفيون في كتبهم وأشعارهم. فاللغة تلعب دورًا كبيرًا في حياة الصوفي، ودورًا متناقضًا كالظاهر والباطن وكالحياة الدنيا. فهي عاجزة عن وصف لذة القرب من الله، وهي أيضًا تعبّر من خلال حروفها وكلماتها عن مكنون النفس في دقة متناهية، ويصبح كل حرف جر أو حرف عطف له أهمية قصوى في تغيير المعاني. ومن اللافت أن الصوفي يجد في الكلمات وفي الأشعار فتحًا من الله؛ لأنه لو فهم الحق، وكتب عنه فهذا رزق من الله، ربما التشبيه الأقل هو فكرة الوحي عند الكاتب عندما يقول الروائي مثلًا جاءني وحي الكتابة، أو ذهب عني وحي الكتابة. إذن يعتبر الصوفي الكلمات الصادقة فتحًا من الله أي كرامة ومعجزة. فنجد الشيخ الجليل عبد القادر الجيلاني يكتب كتاب بعنوان «الفتح الرباني والفيض الرحماني» ويكتب أيضًا «فتوح الغيب»، ونجد ابن عربي يكتب كتابه الشامل في أعوام كثيرة ويطلق عليه «الفتوحات المكية»، فالكتابة بصدق رزق من الله وفتح. هكذا يرى الصوفيون اللغة التي تعجز أحيانًا وتنطلق أحيانًا بمعان حب وشوق إلى الله وصدق وإخلاص متناهيين.

هناك معضلة في استعمال اللغة عند الصوفية، فكلما زاد القرب من الله تعثر اللسان عن التعبير. وكلما زادت المعلومات أصبح الكلام صعبًا، وكلما زاد الحب يصبح التعبير عنه بالكلمة مستحيل. وهذه معضلة الصوفيين. لا يستطيعون وصف ما يحدث لهم من الأنس والقرب من الله لأنهم يعتبرون هذا القرب ذوقي. فنجد أبو حامد الغزالي يقول لتلميذه في كتابه أيها الولد:

«واعلم بأن بعض مسائلك التي سألتني عنها لا يستقيم جوابها بالكتابة والقول إن لم تبلغ تلك الحالة تعرف ما هي، وإلا فعلمها من المستحيلات، لأنها ذوقية، وكل ما يكون ذوقيا لا يستقيم وصفه بالقول، كحلاوة الحلو ومرارة المر لا يعرف إلا بالذوق». (765)

وعن الصمت يتساءل أبو الحسن الشاذلي عن قلة الرواية عن النبي من أبي بكر الصديق فيقول «كنت أخرج كل يوم من باب البحر إلى نحو المنار، فخرجت يومًا إلى المنار، فنمتُ عند الجانب الشرقي، (ويقول الشاذلي) وكان قد خطر في نفسي: ما سبب قلة رواية أبي بكر رضي الله عنه عن رسول الله مع كثرة ملازمته له؟! فإذا عليَّ يُقال لي: أعلم الناس بعد رسول الله أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وإنما قلّت روايته لتحققه به». (766)

إذن شدة قرب أبي بكر الصديق من النبي، وشدة يقينه جعلت كلماته قليلة. والصمت لا يعني عدم التواصل بل يعني أحيانًا شدة المعرفة. فنجد ابن عربي يضرب مثلين من القرآن الكريم: مثل بزكريا الذي امتنع عن كلام الناس ثلاثة أيام، وكان يتواصل معهما «بالرمز»، ومثل بمريم عندما «أمسكت» عن الكلام. ويشرح لنا ابن عربي أن هذا الإمساك عن الكلام لا يعني عدم التواصل ولكنه تواصل من نوع آخر، وليس تواصلًا باللسان. لأن لو فكرنا نجد أن التواصل بيننا وبين الله ليس فقط باللسان بل بالقلب. (الباب السادس والعشرون الفتوحات المكية).

ثم يعطينا ابن عربي مثالًا آخر لارتباط الصمت بالمعرفة. فنجد موسى يقول عن أخيه هارون أنه أفصح منه لسانًا لأنه ليس بنبي، أما موسى النبي فلا يجد أن الكلمات تسعفه ويتعثر. أما رسول الله فعندما قام برحلة الإسراء والمعراج لم يحك لنا الكثير عما رأى كما يقول ابن عربي ان بعض الناس لم يتحمل قصة الإسراء وأن الرسول لم يتكلم عن المعراج لأن العقول ربما لا تتحمل كلامه:

«ولم تتحمل عقولهم السقيمة ذلك، فكيف لو كان أخبرهم بالمعراج؟ ومن صدقه من المسلمين، فهم على درجات من التصديق. فكلما زاد تصديقهم، أباح بعضًا من السر الذي لم يصلنا منه سوى بضعة أحاديث، فنحن حتى الآن لم نعرف ما رآه مفصلًا في هذه الرحلة المباركة، إذ إنه من الأسرار». (767)

فرحلة النبي رحلة الإسراء والمعراج نعرف عنها القليل لأنها تحتاج إلى من ثبت إيمانه، وتيقن من الله حتى يصدق القصة، ويفهم مغزاها لذا تبقى سرًّا، وربما يتسرب السر إلى قلوب العارفين شيئا فشيئا فتزداد معرفتهم.

وقصة الشاذلي مع العز بن عبد السلام مهمة وشهيرة. فلم يكن العز بن عبد السلام صوفيًّا في باديء الأمر حتى سمع كلام الشاذلي. ولكن الشاذلي تحرج في البدء من الكلام مع الشيخ، وأظهر تواضعه في حضرته، بل وسكت ساعة كاملة لا نعرف لماذا ثم تكلم فأصابت كلماته قلب الشيخ العز بن عبد السلام.

عندما طلب منه الشيوخ الكلام قال الشاذلي «أنتم سادات الوقت وكبراؤه، وقد تكلمتم، فقالوا: لا بد أن نسمع منك. قال: فسكت الشيخ ساعة: ثم تكلم بالأسرار العجيبة، والعلوم الجليلة؛ فقام الشيخ عز الدين، وخرج من صدر الخيمة، وفارق موضعه، وقال: اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله». (768) «أي أن كلام أبي الحسن قريب العهد من الله على حد تعبير العز بن عبد السلام، أي أن كلامه إلهام من الله، إنه ليس علـمًا مكتسبًا من الكـتب، إنه ليس تقليدًا ولا توليدًا، إنه ليس نتيجة دراسة وبحث وإن كان الشيخ قد أطال الدرس والبحث وليس ثمرة كتب ومنطق وإن كان الشيخ قد أطال النظر في الكتب، وأنعم الروية فيها وإنما هو إلهام وبصيرة، ونور من نور الله سبحانه. ومع بلوغه هذه المنزلة، أو بسبب بلوغه هذه المنزلة كان يقول: من لم يزدد بعلمه وعمله افتقارًا إلى ربه، وتواضعًا لخلقه، فهو هالك. ويقول: لا تركن إلى علم ولا مدد وكن بالله، واحذر أن تنشر علمك ليصدقك الناس، وانشر علمك ليصدقك الله تعالى». (769)

ثم نجد أن أبا العباس المرسي تلميذ الشاذلي لم ينسب مما قال أو علم به تلاميذه شيئًا إلى نفسه، ولكن إلى شيخه الشاذلي. ولم يترك لنا كتابًا. وهذه اللغة التي يستعملها كلها تواضع وافتقار إلى الله. يقول أبو العباس

«لو أردت عدد الأنفاس أن أقول: قال الله عز وجل.. لقلت.

لو أردت عدد الأنفاس أن أقول: قال رسول الله لقلت.

ولو شئت أن أقول عدد الأنفاس: قلت أنا. لقلت.

ولكن أقول: قال الشيخ، وأترك نفسي أدبًا». (770)

استحى أبو العباس المرسي أن ينسب أي من دروسه لنفسه مع علمه الغزير بالقرآن والسنة.

أنـواع الصمـت

ويفرق ابن عربي بين نوعين من الصمت: صمت اللسان وصمت القلب. لو صمت لسانك فستكف عن اللغو، والسخرية، وإيذاء غيرك، وبهذا ستكسب أجرًا، وتبتعد عن الذنب، أما صمت القلب فهو كف القلب عن التفكير في الحسد والحقد على الغير، أو الطمع، أو الشهوة ولو كف قلبك عن هذا الكلام ستحظى بقربك من الله، ويظهر لك سره، وتخلو معه، وتفرغ قلبك مما هو دونه.

«الصمت على قسمين، صمت باللسان عن الحديث بغير الله تعالى مع غير الله تعالى جملة واحدة، وصمت بالقلب عن خاطر يخطر في النفس في كون من الأكوان ألبتة، فمن صمت لسانه ولم يصمت قلبه خف وزره، ومن صمت

لسانه وقلبه ظهر له سره وتجلى له ربه، ومن صمت قلبه ولم يصمت لسانه فهو ناطق بلسان الحكمة، ومن لم يصمت بلسانه ولا بقلبه كان مملكة للشيطان ومسخرة له، فصمت اللسان من منازل العامة وأرباب السلوك، وصمت القلب من صفات المقربين أهل المشاهدات وحال صمت السالكين السلامة من الآفات، وحال صمت المقربين مخاطبات التأنيس». (771)

أن يصمت القلب، ويتكلم اللسان فهذا يعني أنه سيتكلم كلمات تفيد الناس لأنها ليست نابعة عن كبر أو طمع في القلب. ولو صمت القلب، وتفرغ لله فقط هو واللسان فسيأنس بالكلام فقط مع الله، ويتقرب منه أكثر وأكثر.

بل يزيد ابن عربي أن كل المتحابين بينهما أسرار. فاجعل حبيبك هو الله وسلمه سرك.

«فكل متحابين لا بد وأن يكون بينهما سر لا يفشى وقول لا يذاع، إلا عن تراض منهما، وتشاور». (772)

الكلمات عند الصوفية لا تكفي للتعبير عن صفاء القلب. إنما الأعمال بالنيات، والنية ظاهرة وباطنة، والكلمة ظاهرة وباطنة، واللسان ظاهر وباطن. فلو تكلمت بلسان الشريعة وقلبك ملوث بالذنوب لن ينفعك الكلام. يقول ابن عربي «إنك لو اتبعت الشريعة وقلبك به إخلاص وصفاء، غير لو اتبعتها وقلبك ليس بمخلص». (773)

«فمثال الجوارح كالسواقي تجري إلى القلب، فإياك أن تسقي قلبك بالرذائل كالغيبة والنميمة والكلام السيئ والنظر إلى ما لا يحل وغير ذلك، فإن القلب لا يحجبه ما طرح منه، وإنما يحجبه ما أقام فيه». (774)

يشبه ابن عطاء الله الجوارج بما فيهم اللسان بالسواقي التي تسقي القلب حتى يعيش فلو نطق لسانك بالكلام السيئ عن أحد فكأنما تمنع المياه عن قلبك فيعطش ويجف أو يمرض لأنك اعطيته ماء فاسدًا.

اللغة والفرق بين الحقيقة والشريعة

فرق الصوفية بين علم الحقيقة وعلم الشريعة. فعلم الحقيقة يكمل ويعمق علم الشريعة. أن تمتنع عن الذنوب بجوارحك هذا شريعة وأن تمتنع عنها بقلبك ونيتك هذا حقيقة. فمظهر الشرع لا يكفي لأنه ليس المراد وحده. فقد نهانا الله عن السرقة لما فيها من ضرر على الغير وعلى أنفسنا. إذًا فهم الهدف من النهي والتحقق بمعرفة الله وحبه مهم.

يقول ابن عربي: «الحقيقة: هو حقيقة ما أراد الله منك في القيام بشريعته. هما وجهان لعملة واحدة هي الدين، لا ينفكان عن بعضهما. من تشرع و لم يتحقق فقد تفسق ومن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق ولِم؟ والحقيقة هي

درجة الإحسان، وهي أن تعبد الله كأنك تراه: {شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} [آل عمران: 18]». (775)

ولكن كيف تعبر اللغة عن الله؟ لا بد من إدراك عجز اللغة كما أدركنا عجز الخيال لأنه ليس كمثله شيء. حتى الجنة ونعيمها نقف عاجزين عن فهمها أو استيعابها أو التعبير عنها.

لغة القرآن مصدر أساسي للصوفية

نجد أن الصوفي يستعمل لغة القرآن باعتبارها مصدرًا أساسيًّا في أعماله حتى أن ابن الفارض في أشعاره يعتمد تمامًا على تشبيهات القرآن. من صورة يوسف في القرآن يستلهم ابن الفارض أبياتًا عندما يقول:

وكأنه في الحسن صورة يوسف

وكأنني في الحزن مثل أبيه (776)

ويعتمد علماء الصوفية على القرآن في توضيح فكرة أن «لا فاعل إلا الله». فلو طلبنا الصبر نطلبه منه هو، هو من يعطينا الصبر، وهو من يقدرنا على التوبة.

فنجد ابن عربي يكتب عن مقام في ترك التوبة. أي ألا نطلب التوبة إلا من الله. ونجد مثالًا لرابعة عندما قالت للشيخ، بل لو تاب عليك ستتوب. إذن كل شيء من عند الله.

وفي مقام في «ترك الصبر» أي عدم الاعتماد على قوتنا نحن بل أن نستمدها من الله: لأن القرآن يقول {وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} [النحل: 127] فالصبر يأتي منه. كما يوضح لنا ابن عربي في الفتوحات.

إذن الفاعل هوالله. وليس للإنسان سوى نفسه يسيطر عليها، ويجاهد لتصفى، ولكنه يؤمن بأن القدر بيديه.

لذا قال النبي : أدخلني وأخرجني، رب أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق.

أي أن مدخل الصدق بيده هو الله. هو سيدخله وهو سيخرجه.

أما عن معاني آيات القرآن. فهناك معنى ظاهر وباطن بالنسبة للصوفي. يقول ابن عربي«المعنى الباطن للآيات {يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ} [العنكبوت: 56] أرض بدنك هي الأرض الواسعة

على الحقيقة، التي أمرك الحق أن تعبده فيها. وذلك أنه ما أمرك أن تعبده في أرضه، إلا ما دام روحك يسكن أرض بدنك، فإذا فارقتها: أسقط عنك التكليف، مع وجود بدنك في الأرض مدفونًا فيها». (777)

يوضح ابن عربي أن على الإنسان أن يعبد الله بكل حواسه فلا يصلي أو يصوم فقط، بل يكف عينيه عن رؤية المعاصي، ولسانه عن النطق بالشر، وخلق الفتن، ويده عن أخذ ما ليس له إذن أرض بدنك أمانة في رقبتك تعبد الله بكل جوارحك.

ولا بد أن تتوقع كل خير من ربك. يفسر الصوفية هذه الآية: {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ} [الحج: 15] بقولهم:

ويقول عبد الحليم محمود عن العلاقة بالله «من سوء الظن بالله أن يستنصر بغير الله من الخلق. قال تعالى:

«إذا عرض لك عارض يصدك عن الله فأثبت قال الله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[الأنفال: 45] (778)

«من النفاق: التظاهر بفعل السنة، والله يعلم منه غير ذلك. ومن الشرك بالله: اتخاذ الأولياء والشفعاء من دون الله قال الله تعالى: { ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ}[السجدة: 4] (779)

هذا هو تفسير معاني الآيات عند علماء الصوفية وهو لا يختلف في الجوهر عن تفسير المفسرين.

ذكـر الله واللغـة

فكلمة الله يكمن بداخلها كل الأسماء. لأنها الاسم في بسم الله ولا إله إلا الله والله أكبر.

يوضح ابن عربي أن اللغة هبة من الله للعبد، كما وهبه العقل والشعور مثلا«قال تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ}]الحجر: 9] فسمى كلامه ذكرًا فاعلم إن أصل وجود الكون لم يكن عن صفة إلهية إلا عن صفة الكلام»...فمن هناك استراح المحبون إلى كلام المحبوب وذكره والقرآن كلامه وهو ذكر فلا يؤثرون شيئًا على تلاوته لأنهم ينوبون فيه عنه فكأنه المتكلم كما قال {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ

كَلَـٰمَ   للَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْ لَّا يَعْلَمُونَ} [التوبة: 6]». (780)

سماع كلام الله إذن متعة ومعجزة وهو القرآن. من لا يشتاق لسماع كلام حبيبه؟ واللغة خلقها الله لك لتفهم وتبدع وتعبد على معرفة ويقين.

كلمات يستعملها الصوفي بمعنى أعمق: القيد والحرية، الغربة والوطن

تكلمنا في المقالات السابقة عن فكرة الغربة في الدنيا؛ لأن كما قال ابن عربي موطن الرحلة ليس بموطن. بما أننا غير مستقرين في الدنيا فنحن بها غرباء نسير في رحلة الى مكان الاستقرار. الأمان والاطمئنان عندنا في هذا السفر يأتي من توكلنا الكلي عليه، ورضانا عنه، لذا وصف الله النفس المطمئنة بالنفس الراضية. ولأننا غرباء في هذا السفر فهناك الكثير من المخاطر في الطريق، ولكن كما علمنا الشاذلي اعتناء الله بك مميز لأنك أنت بشخصك مهم عنده، علمك، وحماك، وفتح عليك من الخير، ومنع عنك شرور نفسك، ولكن لا بد أن تسعى.

أما تشبيه القيد والحرية فهو أيضا مرتبط بالدنيا. مثلا نحن في رحمتنا بالبشر نرحمهم شفقة عليهم كما قال الفليسوف أرسطو ما نشفق على الناس منه هو ما نخاف أن يحدث لنا. وهذا النوع من الرحمة مقيد بشروط لكن رحمة الله مطلقة. لذا شبه لنا الله في كتابه رحمته بأنها كنز يملأ الخزائن، ولو أعطى مفتاحها لبشر لخافوا من الإنفاق والبسط والكرم. يقول ابن عربي: «فرحمة المخلوق عن شفقة، ورحمة الله مطلقة». (781)

كل ما نريده قيدٌ لنا. أنت مقيد داخل جسدك وروحك حرة لذا لن تجد السعادة المطلقة، ولكن لتجد الرضا تحرر من بعض قيودك قدر المستطاع. الحرية في الدنيا بالقرب من الله. يوضح لنا علماء الصوفية أن البلاء يكون مطلقًا وهو الكفر، ومقيدًا كالمرض والفقر والسجن... إلى آخره. وهناك نعمة مقيدة كزينة الدنيا من ولد ومال وأهل، ونعمة مطلقة وهي إيمان عن يقين لا يتزعزع.

الحرية تأتي بالونس بالله واليقين به وهذا اليقين يؤدي الى الفتح والكشف أي رؤية الله بالبصيرة. ولكن ابن عربي يتكلم عن نوع آخر من الحرية أو توهم الحرية وهي الحرية في أن نظلم او نسرق أو نأخذ حق الغير وهذه حرية ليست من حقنا فنحن في مملكة الملك نطيع أوامره. أما لو تصرفنا كأننا نحن ملوك وتصرفنا في ما لا نملك فهذا ذنب وعصيان. هذه حرية الوهم. والدنيا وهم. ونحن بها مقيدون بالوقت والحال والجسد الضعيف والسعادة في البحث عن حرية من هذا القيد وهذه الحرية هي بالقرب منه هو فقط والانتساب إليه فقط.

سمعنا كلمات كثيرة في هذا الكتاب كلمة «السر» وهو ما ينطق به قلبك لربك فقط. وكلمة الحضرة وهو قربك من الله ووجودك معه بكل جوارحك، وكلمة العارف بالله كلقب يطلق على الصوفي لأن هدفه طوال رحلته هو معرفة الله. هذا علم الصوفية له كلماته الخاصة، ومفتاح فهمه فهمها.

وقال أبو العباس المرسي: «الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا. وقال : الزاهد غريب في الدنيا؛ لأن الآخرة وطنه، والعارف غريب في الآخرة؛ لأنه عند الله».

«وأما الغربة في كلام الشيخ المرسي فمعناها أن الزاهد يكشف له عن ملك الآخرة، فتبقى الآخرة موطن قلبه، ومعشش روحه، فيكون غريبًا في الدنيا، إذ ليست وطنًا لقلب عاين الدار الآخرة، فأخذ قلبه فيما عاين من ثوابها ونوالها، وفيما شاهد من عقوبتها ونكالها، فاستغرب في هذه الدار».

«وأما العارف فإنه غريب في الآخرة، فإنه كشف له عن صفات معروفه، فأخذ قلبه فيما هنالك، فصار غريبًا في الآخرة، لأن سره مع الله بلا أين، فهؤلاء العباد تصير الحضرة معشش قلوبهم، إليها يأوون، وفيها يسكنون، فإن تنزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ، فبالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين، فلم ينزلوا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة، ولا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة، بل كانوا في ذلك كله بآداب الله وآداب رسله وأنبيائه متأدبين، وبما اقتضى منهم مولاهم عاملين. وقال رضي الله عنه: الخوف على قسمين: خوف العامة، وخوف الخاصة، فخوف العامة على أجسادهم من النار، وخوف الخاصة على خلعهم التي كساهم مولاهم أن تدنس بالمخالفة». (782)

تكفير الصوفيين من أجل استعمال اللغة

كتب جلال الدين السيوطي أكثر من كتاب ليشرح فكر الصوفية ويبرئ شيوخها، ويطلق هو عليهم «أولياء الله» هذا الموضوع سنقوم بشرحه بالتفصيل في المقالات المتصلة بابن عربي وابن الفارض. ومن المهم أن نتذكر أن السيوطي كتب كتابين، واحدًا لتبرئة ابن عربي (تنبيه الغبي في تخطئة ابن عربي)، وواحدًا لتبرئة ابن الفارض. في كتابه الذي يبرئ فيه ابن عربي من الاتحاد والحلول يشرح جلال الدين السيوطي أنه أحيانا يختلط على البعض كلام الصوفية. ولكن أولًا دعونا نشرح معنى الاتحاد والحلول وهو مصطلح ربما ارتبط إلى حد كبير بالحلاج عندما قال: «أنا من أهوى ومن أهوى أنا» (783) واتهم الناس الحلاج أنه يدعي أنه الله، وأنه اتحد مع الله فأصبحا واحدًا. وهذا عكس كلام الحلاج وغيره من الصوفيين تمامًا. بل بالنسبة للصوفيين كل شيء هالك إلا وجه الله. لماذا إذن نشأت هذه المشكلة وما أصلها؟ هناك بالطبع جانب سياسي، واجتماعي للتحامل على الصوفيين

الأوائل من جانب بعض الأمراء ورجال الدين عندما زادت أهمية الصوفية، وذاع صيت شيوخها، ولكن هناك جانب لغوي مهم جدًّا. استعمال اللغة عند الصوفيين مختلف تمامًا عن استعمال اللغة عند أهل الشريعة. لذا يفرق الصوفي بين أهل الشريعة وأهل الحقيقة. فاستعمال اللغة عند الصوفيين يعتمد على المجاز والرمز. وهذا قد يختلط على بعض الناس الذين اعتادوا التفكير في اللغة بمعانيها الحرفية. السيوطي مثلًا يقول إن الاستعمال المجازي للغة لا يتوقف عند الصوفيين، بل فهم المعاني المجازية مهم حتى في فهم القرآن فمثلًا يد الله، أو وجه الله لا تعني اليد التي نعرفها أو الوجه الذي يتصوره عقلنا الناقص. والصوفي لا يعني بوحدة الوجود أن الله يحل في كل موجود، بل أن ما في الوجود غير الله، وكل شيء هالك إلا وجهه، وإننا نرى شواهد وثوابت وجود الله في كل خلقه، ولكن كل خلقه فانٍ، فالموجود الوحيد إذن هو الله. فعندما قال الحلاج جملته قصد بها أن لا وجود له هو كإنسان، ولكن كل الوجود للحي الموجود وهو الله. ويقول الغزالي في إحياء علوم الدين: «وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا القيوم الحي الذي هو قائم بذاته» (784) ولكن السيوطي يقول إن هذا الاستعمال للغة ربما يستعصى على البعض لذا لا يمكن لكل الناس قراءة كتب الصوفيين، حتى إن ابن عربي نفسه حرّم قراءة كتبه لمن لا يستطيع أن يتعدى المعنى الحرفي للمعنى المجازي.

وحجة الإسلام الشيخ الغزالي كتب في كتابه مشكاة الأنوار شرحًا لاستعمال اللغة عند الصوفيين فقال: إن الصوفيين يعرفون أن كل شيء هالك إلا وجهه وأن نداء يوم القيامة سيكون {يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ} [غافر: 16].

حتى كلمة «الله أكبر» لها معنى أعمق عند الصوفي، فهي بالطبع لا تعني أن إلهًا أكبر من غيره فلا يوجد مقارنة بينه وبين غيره بل معناها «أنه أكبر من أن يقال له أكبر بمعنى الإضافة والمقايسة، وأكبر من أن يدرك غيره كنه كبريائه، نبيًا كان أو ملكًا». (785)

تذكر أن خيالك يعتمد على ما رأى و الله ليس كمثله شيء. لا خيال يستطيع أن يجسده أو حتى يتخيله. تقترب منه وتراه ببصيرتك بالشرع والحقيقة بتأدية واجبه بإخلاص وليس ببعض الجوارح دون غيرها.

يقول الغزالي عن العارفين «والعارفون - بعد العروج إلى سماء الحقيقة – اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحق». (786) وربما كما يقول الغزالي والسيوطي يتفوه الصوفيون في حالة السكر بحب الله بكلمات تصدم العامة، ولكن كما قال السيوطي من جاع جوعهم وسهر سهرهم سيفهمهم. وكما قال الغزالي «كلام العشاق في حال السكر يطوي ولا

يحكى». (787) والسُكر هنا ليس سكر من خمر بل من القرب من الله. وأي كلام يقال حينها هو من «فرط العشق» كما قال الغزالي.

وقال ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية، «ولهذا كان الحِسُّ أقرب شيء إليه. فإنه من الحِسِّ أخذ (الخيال) الصور. فالخيال أوسع المعلومات. ومع هذه السعة العظيمة، التي يحكم بها على كل شيء، قد عجز أن يقبل المعاني مجردة عن الموادِّ، كما هي في ذاتها. فيرى «العلم في صورة لَبَن، أو عسل، وخمر، ولؤلؤ» ويرى «الإسلام في صورة قُبَّة، وعَمَد» ويرى «الدين في صورة قَيْد» ويرى «الحق في صورة إنسان وفي صورة نور» - فهو الواسع الضيق. والله «واسع» على الإطلاق»عليم» بما أوجد الله عليه خلقه. كما قال تعالى: {قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ} [طه: 50] – أي بَيَّن الأمور على ما هي عليه، بإعطاء كل شيء خَلْقَهُ». (788)

الخيال مقيد ومع ذلك فهو نور لأنه يمكن أن يعكس الأشياء فنراها به. ولكن بعضنا لا يرى في الدين سوى قيد ولا يعرف عن الإسلام إلا شكل الجامع أو الكعبة. هؤلاء قوم مقيدون بخيالهم الضيق فلا يفهمون ما وراء الكلمات ولا يتوغلون في الهدف من القبة والأشكال.

وعن الخيال يقول ابن عربي «وأمّا كون «القَرْن» من نور، فإن النور سبب الكشف والظهور. إذ لولا النور، ما أدرك البصر شيئًا. فجعل الله هذا الخيال نورًا، يُدْرَك به تصوير كل شيء، أيّ أمر كان، كما ذكرناه. فنوره ينفذ في العدم المحض، فيصوِّره وجودًا. فالخيال أحق باسم «النور» من جميع المخلوقات، الموصوفة بالنورية. فنوره لا يشبه الأنوار. وبه تُدْرَك التجليات». (789)

اللغة السرية: (اصطلاح أهل الله على ألفاظ لا يعرفها سواهم إلا منهم)

يقول ابن عربي: «ولمّا رأى أهل الله أنه (أي الله) قد اعتبر «الإشارة»، استعملوها فيما بينهم. ولكنهم بينوا معناها، ومحلَّها، ووقتها. فلا يستعملونها فيما بينهم، ولا في أنفسهم، إلّا عند مجالسة من ليس من جنسهم، أو الأمر يقوم في نفوسهم. واصطلح أهل الله على ألفاظ لا يعرفها سواهم إلّا منهم؛ وسلكوا طريقة فيها لا يعرفها غيرهم. كما سلكت العرب في كلامها، من التشبيهات والاستعارات، ليفهم بعضهم عن بعض. فإذا خلوا بأبناء جنسهم، تكلموا بما هو الأمر عليه بالنص الصريح. وإذا حضر معهم من ليس منهم، تكلموا بينهم بالألفاظ التي اصطلحوا عليها. فلا يعرف الأجنبي الجليس ما هم فيه، ولا ما يقولون». (790)

يستعمل الصوفيون لغة تبدو سرية لأن ما بينهم وبين الله يصعب شرحه بأي لغة.

ويقول جلال الدين السيوطي: «واعلم أن دقائق علم التصوف لو عرضت معانيها على الفقهاء بالعبارة التي ألفوها في علومهم لاستحسنوها كل الاستحسان وكانوا أول قائل بها وإنما ينفرهم منها إيرادها بعبارة مستغربة لم يألفوها، ولهذا قال بعضهم الحقيقة أحسن ما تعلم وأقبح ما يقال وأنا أورد لك مثالًا تعرف صحة ذلك، قال في منازل السائرين (لأبي اسماعيل الهروي) حقيقة التوبة ثلاثة أشياء تميز الثقة من العزة ونسيان الجناية والتوبة من التوبة أبدًا، فإذا سمع فقيه هذا اللفظ وهو «التوبة من التوبة» استغربه جدًّا، وقال كيف يتاب من التوبة وهي عمل صالح، وإنما يتاب من المعاصي، وتقرير معناه أن العبد إذا كمل في رجوعه إلى الله لم يلتفت إلى أعماله ولم يسكن إليها بقلبه توبة كانت أو غيرها، فيتوب من سكونه إلى توبته. ويزاد إيضاحًا أن التوبة وان كانت من كسب العبد فهي من خلق الله وتوفيقه فهو التائب عليه ولم يتب عليه لما تاب، قال تعالى {وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ} [التوبة: 118]، فأي صنع للعبد في التوبة أو غيرها وهو الذي وفقه الله لفعلها، فرؤية العبد التوبة من نفسه ذنب يستغفر». (791)

لا بد للعبد أن يدرك أن الفاعل هو الله. فيربي نفسه ويجاهد، ولكن يطلب من الله أن يتوب عليه ويطلب منه أن يلهمه الصبر. هنا مصطلح لغوي مهم وهو بالإنجليزية agency أو القدرة على الفعل.

الفاعل والقادر هو الله وفي هذا الإدراك بداية للطريق الصواب. هذا لا يعني ألا نتوب بل طوال الكتاب نتكلم عن الإخلاص في العمل والتوبة ولكن هذا يعني أن نتوب ونحن نتكئ عليه ونتوكل عليه وندرك عجزنا.

مجتمع الممارسة واللغة الصوفية

في كثير من الأحيان يتكلم ابن الفارض فيخاطب حبيبة، وأحيانًا يتكلم فيخاطب الله. يجد الشخص العادي صعوبة في التفرقة أحيانًا أو تلتبس عليه الأمور لكن في الحقيقة أن ابن الفارض يستعمل ما نطلق عليه في علم اللغويات الاجتماعية لغة مجتمع الممارسة (community of practice Eckert) في كل مجتمع مهنى هناك لغة يفهمها أصحاب المهنة فقط، وتصعب على من هو خارج هذه المهنة أو هذا المحيط. وربما هذا ما أدى إلى سوء فهم لغة الصوفيين.

مجتمع الممارسة واللغة الخاصة بالصوفيين هي السبب في الخلط في فهم مقاصدهم.

نقل عن ابن عربي: «نحن قوم يحرم النظر في كتبنا». (792)

«فقال غيرة على طريقنا: أن يدعيه من لا يحسنه، ويدخل فيه من ليس من أهله». (793)

لذا قال السيوطي (أحد أصحاب كتاب تفسير الجلالين) عن كون ابن عربي وليًّا من أولياء الله أنه يعتقد في ولايته، ويحرم النظر في كتبه إلا لمن يستطيع فهم المجاز مهم جدًّا.

يقول السيوطي «على تقدير أن يكون المقرئ لها عارفًا». (794)

ولنذكر القارئ هنا بأزمة تكفير ابن الفارض أيضا التي تكلمنا عنها باستفاضة في مقال ابن الفارض. يقول ابن إياس عن هذه الأزمة أن السلطان قايتباي قد طلب من قاضي القضاة زكريا الأنصاري أن يكتب رأيه في مسألة تكفير ابن الفارض. وكان من الواضح من رسالة السلطان قايبتاي تبجيله واحترامه لابن الفارض وللصوفيين عامة.

ألح عليه السلطان أيامًا حتى كتب زكريا الأنصاري: «يحمل كلام هذا العارف - رحمة الله عليه، ونفع ببركاته - على اصطلاح أهل طريقته، بل هو ظاهر فيه عندهم، إذ اللفظ المصطلح عليه حقيقة في معناه الاصطلاحي مجاز في غيره كما هو مقرر في محله، ولا ينظر إلى ما يوهمه تعبيره في أبيات في التائية من القول بالحلول والاتحاد، فإنه ليس من ذلك في شيء بقرينتي حاله ومقاله المنظوم في تائيته بقوله من أبيات القصيدة:

ولي من أتم الرؤيتين إشارة تنزه عن رأي الحلول عقيدتي». (795)

«وهذا يصدر عن العارف بالله إذا استغرق في بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحل ذاته في ذاته، وصفاته في صفاته، ويغيب عن كل ما سواه بعبارات تشعر بالحلول والاتحاد لقصور العبارة عن بيان حالته التي يرقى إليها كما قاله جماعة من علماء الكلام رضى الله تعالى عنهم. ولكن ينبغي كتم تلك العبارات عمن لم يدركها فما كل قلب يصلح للسر، ولا كل صدف ينطبق على الدر، ولكل قوم مقال، وما كل ما يعلم يقال. وحق لمن لم يدركها عدم الطعن فيها كما قيل:

وإذا كنت بالمدارك غرًا

ثم أبصرت حاذقًا لا تمارى

وإذا لم تر الهلال فسلم

لأناس رأواه بالأبصار.

ولو ذاق المنكر ما ذاق هذا العارف لما أنكر عليه» (796)

بكل وضوح برأ زكريا الانصاري ابن الفارض. واستعمل كلمات مثل «المجاز» و«كتم العبارات» ليؤكد مرة أخرى أن للصوفيين لغتهم الخاصة التي تحتاج من الإنسان أن يستعمل الخيال والمجاز ويدرس ويفهم. كما تحتاج من الدارس أن يفهم الحالة النفسية للصوفي. ولكن الأنصاري وضح أيضًا أن هذا العلم ربما لا يفهمه كل الناس فهو يحتاج إلى الخيال أيضًا، فلو قلت لك أنا أرى الهلال فقلت أنت لي: لا أنا لا أرى هلالًا، وأكدت أنت أنه لا يوجد هلال فربما عليك أن تتذكر أن هناك من رآه. ولذا فمثلا في رمضان رؤية الهلال ليس من الضروري أن تكون من كل البشر بل من بعض الناس. لزم على الإنسان استعمال عقله لفهم خصوصية لغة الصوفيين.

ولكن تبقى الصوفية ضحية للفهم الحرفي للغة حتى يومنا هذا. ومفتاح فهم التعبيرات الصوفية في كلمات زكريا الأنصاري «قصور العبارة». تقف العبارت والجمل عاجزة أمام الكشف والقرب لدى الصوفي. أطلق على الصوفي العارف بالله لأنه تعمق في هذه المعرفة فغيبته عن كل شيء حوله.

ومضـة نـور

«طَلَبتُ المُستَقَرَّ بِكُلِّ أَرضٍ

فَلَم أَرَ لي بِأَرضٍ مُستَقَرّا

وَذُقتُ مِنَ الزَمانِ وَذاقَ مِنّي

وَجَدتُ مَذاقَهُ حُلواً وَمُرّا

أَطَعتُ مَطامِعي فَاِستَعبَدَتني

وَلَو أَنّي قَنَعتُ لَكُنتُ حرًا». (797)

الحلاج

قال ابن عربي «وصية: احذر أن تكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب. فقد ثبت أن من قال لأخيه كافر، فقد باء به أحدهما إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه، أي أنه هو الكافر، فإن من كفّر مسلمًا لإسلامه فهو كافر.

«ولا تنسب صفة مذمومة لأخيك المؤمن، وإياك والاستهزاء والسخرية بأهل الله؛ فإنه استهزاء بدين الله، ووبال ذلك يعود عليك يوم القيامة حيث يستهزئ الله بك. وقد رأينا جماعة من الفقهاء يسخرون بأهـل الله، المخبرين عن الله بقلوبهم. فاحذر من هذه الصفة، ومن صحبة من هذا صفته لئلا يسرقك الطبع.

وإن كان لك زوجة، فلا تنشر سرها؛ فإنه من الكبائر». (798)

«وصية: إذا قلت خيرًا ودللت عليه، فكن أنت أول عامل به. فإن الرجل يقرأ القرآن والقرآن يلعنه ويلعن نفسه فيه، يقول «لعنة الله على الكاذبين»، وهو كاذب. والقرآن حجة لك أو عليك». (799)

«وقال بعضهم: جعلت على نفسي بكل كلمة أتكلم بها فيما لا يعنيني صلاة ركعتين فسهل ذلك علي فجعلت على نفسي بكل كلمة صوم يوم فسهلّ علي فلم أنتهِ حتى جعلت على نفسي بكل كلمة أن أتصدق بدرهم فصعب ذلك فانتهيت» (800)

«وقيل لبعض العلماء: فلان أعلم وفلان أكثر كلامًا ففرق بين العلم والكلام». (801)

«وقال بعض السلف: الصمت زين العالم وستر الجاهل». (802)

«وقال بعض السلف: تعلم الصمت كما تتعلم الكلام، فإن يكن الكلام يهديك فإن الصمت يقيك». (803)

«وقال بعض العلماء: الصمت نوم العقل والنطق يقظته وكل يقظة تحتاج إلى نوم». (804)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفاتحة مفتاح القرآن: اللغة والمعاني

ولا عجب في أن يقول بعض العلماء: إن سر القرآن في الفاتحة، وسر الفاتحة في: «بسم الله الرحمن الرحيم» (805)

عبد الحليم محمود

ربما أول طرق السعادة هي أن نتدبر معاني القرآن، ولا نقرأه لمجرد أن ننتهي منه. فلو تدبرنا المعاني ندرك حجم رحمة الله بنا. وسوف نكتفي في هذا الكتاب بأن نتكلم عن المعاني الباطنة لأم السُور، الفاتحة.

كلمة الله جامعة لكل أسماء الله المنتقم، الجبار، القاهر، الأول، الظاهر، الباطن، الرحمن، الرحيم. ولكن ذكر الله في البسملة «الله»، ثم تبعه بالرحمن الرحيم، فرجحت كفة الرحمة عن كفة كل الأسماء الأخرى لتكرارها في الرحمن الرحيم. فأصبحت رحمة الله هي مفتاح فهم الاسم كله. وهي السبيل إلى معاملة كل خلق الله لنقتضي بما أخبرنا الله عن نفسه.

ولاحظ أن سورة الفاتحة تبدأ بـ

{بِسْمِ للَّهِ لرَّحْمَـٰنِ لرَّحِيمِ. لْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ لْعَـٰلَمِينَ . لرَّحْمَـٰنِ لرَّحِيمِ} [الفاتحة: 1، 2، 3]

فيقول ابن عربي أن الله ذكر الرحمة أربع مرات، مرتين في ال «بسم الله»، ومرتين في أول سورة الفاتحة. وهذا التكرار إن دل على شيء فيدل على أن العالم يتضمن رحمته. وفرق ابن عربي بين كلمة الرحمن والرحيم. فقال إن الرحمن من رحمة، امتنان التي تعم كل المخلوقات، والرحيم هي رحمته الخاصة التي يكتبها للذين يتقون كما قال في الآية الكريمة: ﭑ ﭒ ﭓ [الأعراف: 156]. هناك إذن نوعان من رحمة الله، رحمة تشمل كل البشر، ورحمة مضافة لها، وهي رحمة يختص بها عبادة المتقين. ولكن رحمته العامة هي التي أدت بنا أن نكون متقين وصالحين فنفوز بالرحمة الخاصة، فرحمة الله تغرقنا وتحوم حولنا طوال الوقت وحول كل البشر، العاصي والمذنب والمؤمن.

يقول ابن عربي «فهو رحمن بالرحمتين العامة وهي رحمة الامتنان، وهو رحيم بالرحمة الخاصة، وهي الواجبة في قوله {وَ كْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ لدُّنْيَا حَسَنَ وَفِى لْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ لزَّكَوٰةَ وَ لَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: 156]». (806)

«وقال { ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَ ٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ}[النجم: 32] و قال {وَ ٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَ ٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ}[الأعراف: 156] وغضبه شيء فقد وسعته الرحمة و حصرته و حكمت عليه فلا يتصرف إلا بحكمها». (807)

{ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ . صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ} [الفاتحة: 6، 7].

ما أنعم الله به علينا هي الرحمة. برحمته هدانا إلى الطريق الصحيح، ولولا رحمته لبقينا في ضلال. أما المغضوب عليهم فهم في حيرة من أمرهم لم يصلوا بعد. ولكن رحمة الله تتسع لهم وللضالين أيضًا. يقول ابن عربي في الفتوحات المكية:

«وهذه رحمة الامتنان قوله لنبيه {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ}[آل عمران: 159] وهذا معنى قوله ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ أي الطريق الذي أنعمت بها عليهم وهي الرحمة التي أعطتهم التوفيق والهداية في دار التكليف وهي رحمة عناية فكانوا بذلك غير مغضوب عليهم ولا ضالين لما أعطاهم من الهداية فلم يحاروا». (808)

أنت أيها العبد تصل إلى الله برحمته، وتصل إلى درجة الإحسان برحمته ودرجة الإيمان برحمته، وتدخل الجنة برحمته أيضًا وليس فقط بأعمالك. فمن منا تؤهله أعماله للقرب من الله والخلود في جنته؟

ويقول ابن عربي عن ذكر رحمة الله في سورة الفاتحة التي هي أم الكتاب:

«فليس في أم الكتاب آية غضب، بل كلها رحمة». (809)

الإسلام إذن دين رحمة يعرف الإنسان ربه بالرحمة.

فتذكر أيها القارئ يومًا رحمك الله فيه بأن جعلك تحسن الاختيار، أو سترك وقت معصية، أو دفع عنك ضررًا أو قلل وطأة ألم. ستجد أن رحمته تعم هي رحمة عناية كعناية الأم، أم رحمته الخاصة فتزيد على رحمة العناية التي يختص بها كل الخلق بلا تمييز. فتعامل مع البشر برحمة، ولا تصنف، ولا تقسم بينهم، ولا تحدد من يدخل جنة أو نار. فرحمته هي أول كلماته لنا. بل يخبرنا

ابن عربي أننا لو رحمنا أنفسنا لابتعدنا عن الغضب وبدلناه بالرحمة فعفونا وغفرنا.

ويوضح ابن عربي أن هذه المغفرة للإنسان على قدر ما يستطيع، أو ما في يده أن يغفر به، أما إقامه حدود الشرع في من قتل عمدًا أو نشر الفساد في الأرض فهي لا تعني أن الإنسان لا يمتلك رحمة.

يذكرنا ابن عربي أن رحمة الله تشمل الجميع الكافر، والمؤمن المذنب، والعاصي والتائب. فنحن لسنا أهلا لتقسيم رحمته ولا لحجبها.

«وقد شملت الجميع ورأى أن هذه الرحمة الواحدة لو لم تعط حقيقتها من الله أن يرزق بها عباده من جماد و نبات و حيوان و إنس و جان و لم يحجبها عن كافر و مؤمن و مطيع و عاصي عرف أن ذاتها من كونها رحمة تقتضي ذلك، ثم جاء الوحي من أثر هذه الرحمة الواحدة بأن هذه الرحمة الواحدة السارية في العالم التي اقتضت حقيقتها أن تجعل الأم تعطف على ولدها في جميع الحيوان و هي واحدة من مائة رحمة وقد ادخر سبحانه لعباده في الدار الآخرة تسعًا وتسعين رحمة». (810)

تذكر رحمة الأم بوليدها هي من الله عناية بهذا الطفل. وهي لا شيء أمام رحمة ربنا بعباده.

إياك نعبد وإياك نستعين

يشرح الشيخ أبو العباس المرسي تلميذ الشاذلي المعاني الباطنة لسورة الفاتحة والجدير بالذكر أن الصوفيين في شرحهم لا يدّعون الحقيقة المطلقة، ولا يدّعون أن هذا الشرح هو الوحيد الصواب، بل هي محاولة منهم لفهم معنى أعمق للآيات.

بالنسبة لأبي العباس فالإسلام هو أن تسلم قلبك لله، ولكن أن تسلم قلبك لله معناه أيضًا التوكل عليه في كل أمورك. لذا جاءت الآية الكريمة:

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5].

إياك نعبد إسلام لوجه الله وتوحيد به وهذا يقتضي أن نعتمد عليه أيضًا. يقول ابن عطاء في لطائف المنن على لسان أبي العباس: «وذلك يقتضي التوكل على الله كجزء لا يتجزأ من الإسلام، ويتلون التوكل بحسب درجاته، ويأخذ اسماً تبعاً لدرجته، فيكون توكلًا. ويكون: تسليمًا. ويكون: تفويضًا. والتوكل: بداية هذا المقام الروحي. والتسليم: واسطة. والتفويض: نهاية إن كان للثقة في الله نهاية. ومع ذلك فإن كلمة «التوكل» تطلق على كل درجاته، وتستعمل في كل أنواعه». (811)

الاستعانة بالله تقتضي التفويض له في كل شيء. ودرجة التفويض والتوكل درجة أعلى من درجة العبادة مع أنها جزء لا يتجزأ منها. لذا قال أبو العباس «وسمعته يقول في قوله عز وجل:{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5]:
ٹ ٹ - شريعة، ٿ ٿ - حقيقة، ٹ ٹ - إسلام، ٿ ٿ - إحسان، و
ٹ ٹ - عبادة، ٿ ٿ - عبودية». (812)

الاستعانة بالله هي درجة من درجات الإيمان والإحسان وهي أعلى من الإسلام. فأنت لا تعبد الله فقط بل تفوض أمرك إليه.

أما شرح استعمال الجمع هنا في «اياك نعبد واياك نستعين» فيقول ابن عربي إننا نجد أن المسلم يواجه ربه بحرف الخطاب (ك) لأننا قلنا من قبل أن الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك. لذا جاء حرف الكاف ونحن نتكلم مع الله كأنه أمامنا نراه وهو أقرب إلينا من هذا. لذا نستعمل إياك لأنه ماثل أمامنا، أقرب إلينا من حبل الوريد».

يقول ابن عربي إن الانسان يمر في الدنيا بضيق وألم، وكل ألم وضيق في الدنيا كفارة للإنسان ورحمة من الله. ولا بد أن يعي الإنسان أن كل ضيق في الدنيا محدود مؤقت لأن الدنيا نفسها محدودة مؤقتة، ولكن رحمة الله ليست محدودة ولا مؤقتة بل مطلقة. وهنا يأتي استعمال اللغة مهم جدًّا، فيفرق الصوفي دومًا بين نعمة محدودة مؤقتة مثل المال والأولاد وبين نعمة مطلقة مثل الهداية والإيمان واليقين. ونفس الشيء يحدث مع الضرر أو الألم فلو لم يكن شك في الله أو كفر فهو مقيد مؤقت. وهنا نذكر مرة أخرى رحمة الله التي ذكرها أربع مرات.

لاحظ هنا استعمل «نعبد ونستعين» الجمع، وليس «أعبد وأستعين»، يشرح ابن عربي هذا قائلًا في الفتوحات: (813)

إن العبادة تقتضي أن تعبد الله بكل جوارحك لذا جاء الجمع في نبعد ونستعين. نعم نعبد لأننا كثيرون كبشر تعبد الله، ولكن أيضًا نعبد لأننا بنفسنا لنا قلب وعقل ورجلان وأذنان وعينان، فأن تعبد الله بكل نفسك هو أن تكون جوارحك معه وعقلك وقلبك. فتصلي وكلك معه لا تصلي وأنت تنظر بعينيك إلى أحد أو يكون خاطرك في تجارتك مثلًا. تحاول وتجاهد لتكون معه بكل ما فيك.

المراد بتلاوة القرآن التدبر لمعاني القرآن

هذه قصة مهمة لابن عربي في الفتوحات عن الفاتحة: «روينا في هذا الباب على ما حدثنا به شيخنا المقري أبو بكر محمد بن خلف بن صاف اللخمي عن بعض المعلمين من الصالحين أن شخصًا صبيًّا صغيرًا كان يقرأ عليه القرآن

فرآه مصفر اللون فسأله عن حاله فقيل له إنه يقوم الليل بالقرآن كله فقال له يا ولدي أخبرت أنك تقوم الليل بالقرآن كله فقال هو ما قيل لك فقال يا ولدي إذا كان في هذه الليلة فأحضرني في قبلتك واقرأ عليّ القرآن في صلاتك ولا تغفل عني، فقال الشاب نعم. فلما أصبح قال له هل فعلت ما أمرتك به، قال نعم يا أستاذ، قال وهل ختمت القرآن البارحة، قال لا ما قدرت على أكثر من نصف القرآن، قال يا ولدي هذا حسن إذا كان في هذه الليلة فاجعل من شئت من أصحاب رسول الله أمامك الذين سمعوا القرآن من رسول الله واقرأ عليه واحذر فإنهم سمعوه من رسول الله فلا تزل في تلاوتك، فقال إن شاء الله يا أستاذ كذلك أفعل، فلما أصبح سأله الأستاذ عن ليلته، فقال يا أستاذ ما قدرت على أكثر من ربع القرآن، فقال يا ولدي اتل هذه الليلة على رسول الله الذي أنزل عليه القرآن واعرف بين يدي من تتلوه، فقال نعم. فلما أصبح قال يا أستاذ ما قدرت طول ليلتي على أكثر من جزء من القرآن أو ما يقاربه، فقال يا ولدي إذا كان هذه الليلة فلتكن تقرأ القرآن بين يدي جبريل الذي نزل به على قلب محمد فاحذر و اعرف قدر من تقرأ عليه، فلما أصبح قال يا أستاذ ما قدرت على أكثر من كذا و ذكر آيات قليلة من القرآن، قال يا ولدي إذا كان هذه الليلة تب إلى الله وتأهب و اعلم أن المصلي يناجي ربه وإنك واقف بين يديه تتلو عليه كلامه فانظر حظك من القرآن وحظه و تدبر ما تقرأه فليس المراد جمع الحروف ولا تأليفها ولا حكاية الأقوال و إنما المراد بالقراءة التدبير لمعاني ما تتلوه فلا تكن جاهلًا، فلما أصبح انتظر الأستاذ الشاب فلم يجئ إليه فبعث من يسأل عن شأنه، فقيل له إنه أصبح مريضًا يعاد، فجاء إليه الأستاذ فلما أبصره الشاب بكى وقال يا أستاذ جزاك الله عني خيرًا ما عرفت أني كاذب إلا البارحة، لما قمت في مصلاي وأحضرت الحق تعالى وأنا بين يديه أتلو عليه كتابه فلما استفتحت الفاتحة ووصلت إلى قوله ٿ ٺ نظرت إلى نفسي فلم أرها تصدق في قولها فاستحييت أن أقول بين يديه ٿ ٺ وهو يعلم أني أكذب في مقالتي فإني رأيت نفسي لاهية بخواطرها عن عبادته فبقيت أردد القراءة من أول الفاتحة إلى قوله ملك ٿ ٺ ٹ ولا أقدر أن أقول ٿ ٺ إنه ما خلصت لي فبقيت أستحيي أن أكذب بين يديه تعالى فيمقتني فما ركعت حتى طلع الفجر». (814)

عندما بدأ القارئ يقرأ الفاتحة، وهو يعرف أن الله يشاهده استحى من نفسه ومن غفلتها خاصة في الآية «إياك نعبد وإياك نستعين» لأنه ربما لم يصدق عندما قال إنه يعبد الله بكل قلبه ولا يشارك قلبه أحدٌ في مرتبة الله وأنه يستعين بالله في كل أمره. إذن تلاوة الكثير من الآيات دون التفكر في معانيها ليس المراد. بل الفهم وقراءة الآية وكأن الله يرانا ويسمعنا. فهو فعلًا يرانا ويسمعنا.

ومضـة نـور

«والتوحيد نهاية التصوف، يقول الشبلي في تعريف التصوف: بدؤه معرفة الله، ونهايته توحيده». (815) - عبد الحليم محمود

«وإن: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5]، تعبير صادق عن التوحيد». (816)

عبد الحليم محمود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



لك أنت أيها القارئ: بعض الأسئلة والملاحظات

«فكل من حاز البقاء في حضرتك أصبح سعيدًا»

فريد الدين العطار

خضنا رحلة في معرفة الله مع الغزالي، وسافرنا مع الشاذلي باحثين عن المعنى والهدف وقرأنا حكم ابن عطاء الله السكندري وتذوقنا الحب مع ابن عربي وأدركنا المعنى الباطن للنقاء والوضوء مع عبد القادري الجيلاني. غصنا في أسرار اللغة والفكر عرفنا كيف الوصول إلى الرضا أو حاولنا. ولنعود الآن لهذا السؤال لماذا الصوفية؟ هل جاوب الكتاب عن الأسئلة التي تم طرحها في الفصل الأول؟

لماذا الصوفية؟ ولم لا نقول الإسلام فقط ؟ لم علينا أن نجد مسمى جديدًا لأخلاق وأفعال الصالحين؟ وهل تعتمد الصوفية على شيخ يأمر وينهي؟ وهل لا بد لمن يندرج تحت اسم صوفي من شروط معينة؟ وإذا كان الإسلام دينًا للعالمين، فلم نحدده بأي مسمى؟

كررنا طوال الكتاب أن اسم صوفية هو اسم أطلقه هؤلاء الصالحون على أنفسهم، ككلمة محسن أو مؤمن، ولم يكن الغرض منه تصنيف أو تقسيم، بل ترقية وتزكية للنفس. والكثير من الصوفيين موجودون حولنا دون أن يستعملوا المسمى، ودون أن يدركوا أنهم صوفيون. الصوفية خلق وعلم وعمل. هو فكر ارتقى بالنفس ورقاها، فأصبح ربما أجمل فكر خرج من العقل البشري.

وكالأفكار الجميلة لا بد من مهاجم، ولا بد لبعض الناس أن يحاولوا الكلام عنها دون علم أو دراية وللأسف ادعى البعض أنهم من القوم وهم ليسوا منهم. فأصبح الاسم يطلق على من لم يصل، ولم يفهم، ولم يرتق. وأصبح البعض يكتفي بالكلمات والشكليات، ونسى البعض المعنى الأعمق. فما أسهل الكلمات، وما أصعب جهاد النفس. في الفهم الصحيح لهذا الفكر بعض السعادة. ولنوضح حجم الغلط الذي واجه الصوفية على مر التاريخ، نعطي مثالًا مما قاله البعض عن موقف الإمام أحمد بن حنبل عن الصوفية.

لطالما ادعى البعض أن الإمام أحمد بن حنبل كان يهاجم الصوفية، وهذا عار عن الحقيقة. بل العكس، هناك حكايات وأقوال عن الإمام ابن حنبل توضح إعجابه واقتناعه بالصوفية.

موقف الإمام أحمد بن حنبل من التصوف والصوفية:

«وقد نقل العلامة السفاريني الحنبلي عن إبراهيم القلانسي أن الإمام أحمد قال عن الصوفية: لا أعلم قومًا أفضل منهم». (817)

قال الإمام عبد الحافظ الصعيدي «ولأحمد بن حنبل كتاب خاص في الزهد، شحن فيه أقوال الصحابة وكبار التابعين والصوفية، أمثال إبراهيم بن أدهم، ومالك بن دينار، والفضيل بن عياض، ومحمد بن واسع، وسواهم». (818)

وعن الزهد نجد الآتي «أما ابن القيم فيذكر أن الزهد عند الإمام أحمد ثلاث أنواع: الأول: ترك الحرام وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين». (819)

يضيف الإمام عبد الحافظ الصعيدي عن ابن حنبل «كان أحمد بن حنبل يناجي الله عز وجل مناجاة الصوفية فيقول: اللهم، إن كنت تعلم أني أحبك خوفًا من نارك فعذبني بها، وإن كنت تعلم أني أحبك طمعًا في جنتك فاحرمني إياها، وإن كنت تعلم أني أعبدك حبًّا مني إليك، وشوقًا إلى وجهك الكريم، فابحنياه مرة واصنع ما شئت». (820) وهذا الدعاء هو أيضا دعاء رابعة العدوية.

والقصة التالية والأخيرة هنا لتوضيح تواضع العلماء وقدرتهم على العودة في قرار لو تعلموا أنه ليس بأفضل قرار. وكان أحمد بن حنبل يملك القدرة على تغيير رأيه إذا أقنعه أحد برأي أفضل مع علمه «وقد أراد السري السقطي (أحد أعلام الصوفية) - وكان تاجرًا - أن يوصل إلى أحمد شيئاً فرده، فقال له: يا أحمد احذر آفة الرد فإنها أشد من آفة الأخذ. فشرح أحمد صدرًا بما قال السري، وأجاب: ما رددت ذلك إلا لأن عندي قوت شهر، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إليّ. وعلق صاحب كتاب (أحمد بن حنبل، إمام أهل السنة)، وأحمد يستفيد من كلام السري، ولا يلقي القول بإصرار رجل تستعبده آراؤه، فتلك كبرياء على العلم والعلماء». (821)

فهؤلاء العلماء احترموا أهل التصوف وزهدهم.

تذكر يا إنسان أن كل ما تريده قيد. حريتك الحقيقية في أن تحب الله، وتزهد فيما سواه. حب أهلك، ولكن لا تجعل حبك لهم يجعلك تخالف مراد الله منك؛ لأن حبهم نابع من حب الله. تذكر أنك في رحلة تبغي الوصول إلى الحرية، وفي هذه الرحلة عوائق وأخطار لو سعيت بإخلاص وصدق، وتوكلت عليه ستشعر ببعض الحرية حتى في الدنيا، وستنطلق محلقا في سماء ربك قريبا منه. بقاؤك معه سعادة وتحرر من كل قيد.

سعادتك في خطوات: غير استعمالك للغة

تذكر استعمال حروف الجر عند ابن عربي عندما قال:

إن الله في كتابه العزيز يقول {فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} [الذاريات: 50]. أنت تلجأ لمن تثق به، وتثق أنه سيساعدك. الله لم يقل ففروا من الله، بل قال ففروا إلى الله. حرف جر (إلى) هنا معناه أن هذه هي غايتك، وهدفك أن تجد الطمأنينة في كنفه كأنك طفل مفزوع تجري إلى صدر أمك، ولا تجري مبتعدًا عنها. هو الله الذي وسعت رحمته كل شيء.

وتذكر أيضًا كما قال ابن عربي أن الله يقول: {قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: 51].

المصيبة مكتوبة لنا لا علينا. هي ليست فعلًا ضدنا ولا أذى يصيبنا، بل هي من الله، وكل ما من الله لنا وليس علينا.

وتذكر تحليل ابن عطاء الله السكندري عن معنى الإيمان، الإيمان به، والإيمان له. الإيمان به أن توقن بوجود الله ووحدانيته، وأن تؤمن له، هو جزء من إيمانك به. فلو كنت تدرك أنه الخالق، البارئ، المصور، لا بد أن تدرك أنه يتحكم في القضاء، فلتأمن له ولقضائه وتثق في اختياره؛ لأن هذا جزء من الإيمان به.

وعندما قال الله أنه «كتب» على نفسه الرحمة، فقد قضى الرحمة على البشر، كما يذكرنا ابن عطاء الله. لكل حرف ولكل كلمة معنى أعمق من المعنى الظاهر، وفي هذا المعنى طمأنينة وأمل وسعادة.

تذكر مَن الفاعل

الله هو من يدخلك وهو يخرجك كما قال ابن عطاء الله. لذا تدعوه كما دعاه النبي {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا}[الإسراء: 80]. وربما تدعوه كما دعاه سحرة فرعون، وفرعون يتوعدهم بالعذاب الأليم لأنهم آمنوا بإله موسى، {وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ}[البقرة: 250]. إذًا الصبر منه هو، هو من يسكب علينا الصبر سكبًا حتى يغطينا فيختفي الألم في غمرة الصبر الغزير.

والبلاء ليس سببًا للسخط ولا لعدم الرضا

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ} [ق: 16]، {وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: 60].

في هذه السياحة عَبْر صفحات الكتاب، صاحبنا بعضًا من أرقى عقول البشرية وأصفاها، فهمنا معًا، وتعلمنا معًا مقام العبودية والتفويض إلى الله، والافتقار

إليه وترك ما يغضبه من عادات ذميمة وأخطاء. وعرفنا كيف نجادل الجاهل بالسلام، وكيف نكره فعل البشر، ولا نكره خلق الله، وكيف نبجل كل ما خلق الله، وكيف نراه في كل ما خلق. وعرفنا أن مقام الحب ممتلئ بالشوق إليه وحده، لا لجنة ولا نار، وأن من يحب يتبع محبه، ويحب ما يحب، ويكره ما يكره، وعرفنا مع أبي حامد الغزالي أن الصوفية فعلٌ لا علم فقط. وأن للصمت أحيانًا معاني أكثر عمقًا من الكلام. عرفنا أن اللغة سر الوجود، وأننا بها نعبر عن حب الله، ولكنها محدودة وحدودها تحبطنا أحيانًا فيصبح الصمت أكبر تعبير. في سياحتنا عرفنا معنى التسامح وتقبل الآخر، وفهمنا كيف يطغي حب الله على كره أي مخلوق. أخبرنا الشاذلي أن حبه لله شغله عن كره الشيطان. وحكى لنا ابن عطاء الله أن لطف الله في كل منع، وكل عطاء، ولطفه في السراء والضراء. حاولنا معًا أن نجاهد لنرتقي، ونصل إلى مقام الرضا أعلى المقامات، وأقربها إلى الجنة. في طريقنا للبحث عن السعادة، تذكرنا كل فقد مررنا به، وكل ظلم تعرضنا له، وكل مرارة، وكل خطأ ارتكبناه، وكل خير أعطيناه لغير أهله. تذكرنا كل ما يؤلمنا، ولكننا أيضًا فهمنا أن الرضا يأتي من عمق النفس، وليس من أي عامل خارجي طيب أو خبيث. فهمنا أن الدنيا محدودة بساعات وأماكن، وأننا نحاول دومًا توسيعها بالبحث عن السعادة مع أن توسيعها يأتي بفهم النفس ومعرفة الله، فمعرفته تعطينا نفحات الحرية التي تؤدي بنا إلى الراحة والاطمئنان. فهمنا أن المصائب لا تعني اليأس، وأن كل صوفي متفائل لأن معه اللطيف قريب إليه رحيم به. قالها ابن عربي، كل ما تحت العرش مرحوم. رحمته وسعت كل شيء. حاولنا معًا ألا نعبده خوفًا من نار ولا عذاب قبر ولا أهوال يوم القيامة، حاولنا أن نعبده معًا ليس طمعًا في حورٍ عينٍ ولا جنة بأعناب بل طمعًا في رؤيته {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: 22 - 23]. خلونا به كثيرًا، وذكرنا اسمه، وتمنينا أن يعطينا إشارة في الدنيا أنه لن يحجب عنا، وأعطانا إشارات، ولكنه طلب منا أن نشرح صدرنا أولًا لنتقبل عطاءه. فهو الكريم.

أريد أن أذكرك أيها القارئ ببعض القصص وأقص عليك قصصًا جديدة.

قصة السيدة زينب حفيدة النبي رضي الله عنها وهي قد قاست كثيرًا في حياتها، فابنة فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب أصبحت أسيرة لدى الأمويين، بل شهدت على قتل أخيها وربما التنكيل بجثته ورأسه، وقتل أولادها وزوجها. عانت كأم ثكلى وكأخت وكزوجة وكامرأة مسلمة. وعندما وقفت منهزمة كما يبدو لنا وأسيرة أمام عبيد الله بن زياد سألها سؤالًا صعبًا «ما ظنك بصنع الله بالحسين وآله؟» والهدف من السؤال هو ربما إدراكه ذنبه أو محاولة منه لإثبات أنه على حق، وأن الله لا يقف مع الحسين وعائلته. وكانت إجابة زينب ملخصًا لحياة كل صوفي وكل مؤمن. قالت: «ما رأيت إلا جميلًا»

الجمال من صفات الله. فالله جميل يحب الجمال. وكل ما يصيب المؤمن «جميل». شعور زينب لا يأتي من حوادث دنيا فانية بل من طمأنينة داخلية ونظرة لفعله هو القادر على كل شيء. لاحظ أن زينب علقت على ما رأت وليس عن الألم الذي شعرت به. بالطبع تألمت ولكن كل ما شاهدته من ربها جمال وكل ما رأته ببصيرتها خير. كون القضاء من عند الله يجعله هينًا ويجعل كل آلامه محتملة.

ثم أخبرنا ابن عربي بأحد ابتلاءاته عندما ماتت ابنته زينب وكانت من أحب أولاده إليه.

قالها ابن عربي بلغته التي تنسكب بالعذوبة «كيف أرجو راحة ما دمت في ذا البلد؟» والبلد هي الدنيا، والدنيا هي موطن الرحلة، والرحلة هي حياتنا فيها. وقد قالها لنا ابن عربي بوضوح: «موطن الرحلة ليس بموطن». (822) فنحن هنا للزوال والفناء. ولكن هناك حياة أخرى هي الحقيقة لا نشقى فيها ولا نتعذب. بل أي عذاب في هذا البلد ليس بعذاب بل ألم يصاحب قضاء اللطيف. قضاؤه دومًا لطيف.

وها هو أبو الحسن الشاذلي يفقد بصره، وهو من كان يركب الخيل ويزرع الفاكهة. ماذا قال لتلميذه بعد أن فقد بصره؟ «يا أبا العباس انعكس بصرى على بصيرتي فأصبحت كلى مبـصـرًا».

أدرك الشاذلي أن في قضاء الله رحمة، وأن البصيرة خير من البصر، فالبصيرة بلا حدود والبصر محدود دومًا.

أود أن أعطي مثالًا أخيرًا من العصر الحديث عن الدكتور عبد الحليم محمود. نعرف عنه أنه كان شيخًا للأزهر، وأنه تعلم في فرنسا، وكانت له مواقف شجاعة كثيرة في حياته. كتب كتابًا سماه «الحمد لله هذه حياتي». لا نعرف الكثير عن حياته الشخصية من خلال الكتاب سوى أنه تزوج في سن صغيرة، وعاش مع زوجته عمرًا طويلًا. يبدو من كتابه أنه مثل كل البشر تعرض أحيانًا للظلم، وأحيانًا للغيبة والحسد والغيرة. ونعرف أن الطرق كانت أمامه، بعضها براق، ولكنه لم يختر سوى الطرق المستقيمة. ونعرف أيضًا شيئًا لم يكتبه في هذا الكتاب ولم يحمله للقارئ، وهو أنه فقد ابنته في حياته ونحن نعرف حجم هذا البلاء وآلامه. لقد شعرت بالخجل والتواضع وأنا أقرأ ختامه للكتاب الذي كتبه قبل وفاته بثلاث سنوات (1978 - 1910). قال:

«ولقد كان توفيق الله سبحانه وتعالى في حياتي عامرًا، وكانت المقادير تسير بي في خط مرسوم لو حاولت أن اختار خيرًا منه لما استطعت. ولو حاولت أن أحيد عنه لما استطعت أيضًا. ولو استقبلت من حياتي ما استدبرت لما اخترت حياة أخرى. ولقد وقفت في فترات كثيرة على مفترق طرق كان

بعضها براقًا. وكان من الممكن أن أتجه هذه الوجهة أو تلك، ولكن الله تعالى كان يختار لي فالحمد لله». (823)

واستهل كتابه وهو في الطائرة متجهًا إلى الهند فقال:

الحمد لله هذه حياتي

وبينما كانت الطائرة تحلق في الأجواء كان تفكيري كله يحلق في جو الحمد لله.

لقد أخذت أسباب الحمد في حياتي تتوالي إلى ذهني: أستعرضها الواحد تلو الآخر، ملاحظًا لطف الله تعالى الخفي ولطفه سبحانه الظاهر». (824)

أيها القارئ

تفاءل..اطمئن وارض. فقد وكلت محاميًا قويًّا قوة خارقة، وفوضت أمرك إلى من يدبر كل الأمور، وكل ما يأتي منه خير، السراء والضراء.

اثبت فالثبات من مقامات الحب واسم الله الودود، والود بالنسبة لابن عربي هو الثبات في الحب. خذ منه صفاته، واثبت في حبك وفي كل مشاعرك، لا تأس على ما فات، ولا تفرح بما هو آت. وتذكر «الدنيا ساعة».

{فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ} [غافر: 44].

تذكر قول ابن عطاء الله عن الرضا فقد قال «نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد: فإنه اختار له الأفضل».

وتذكر قول ابن عبد البر «وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم». (825)

ربما تجد الطريق إلى الله من مسلك غير هذا. تتعدد المسالك، ويبقى الله واحد، موجود، رحيم. ربما لا تدرك عنايته بك، ولكنك تحتاج أن تتأمل وتفهم. قالها ابن عجيبة: «لا يلزم من اختلاف المسالك اختلاف المقاصد».

وقالها ابن عربي «غايات الطرق كلها إلى الله والله غايتها فكلها صراط مستقيم». (826)

وعن قلب الصوفي قال الشيخ الداراني «القلب الصوفي قد رأى الله، وكل شيء يرى الله لا يموت، فمن رأى الله فقد خلد». (827)

والآن أيها القارئ. أريد أن أتركك مع كلمات ابن الفارض سلطان العاشقين. وأريد أن أحثك أن تقوم وتختلي بالله، ومن يدري ربما تدرك قربه وعلاماته

ونفحاته. هو قريب منك، ولكنك أنت تحتاج أن تمد يدك لتشعر بقربه، وتفتح قلبك ليصيبك نوره.

فعندما يصيبك نوره ستعرف أنه يختصك برحمته، ويحبك، وستتحول من منكّر إلى معرّف، ومن تائه إلى واثق من خطاه.

ولقد خَلَوْتُ مع الحَبيب وبَيْنَنَا

سِرٌّ أرَقّ منَ النسيمِ إذا سرى

وأباحَ طَرْفِي نَظْرَةً أمّلْتُها

فَغَدَوْتُ معروفاً وكُنْتُ مُنَكَّرا

فَدُهِشْتُ بينَ جمالِهِ وجَلالِهِ

وغدا لسانُ الحال عنّي مُخْبِرا (828)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



المراجـع

1 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، (مطبعة حسان، 1974م). تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، (القاهرة، دار المعارف، 2006م).

2 - ابن عطاء الله السكندري، التنوير في إسقاط التدبير، (المطبعة الوهبية، 1882م)، (دار الكتب العلمية، 2013 م).

3 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، (دار الكتب العلمية، 2017م).

4 - ابن عطاء الله السكندري، الأعمال الكاملة، الحكم العطائية - المناجاة - المكاتبات - التنوير في إسقاط التدبير - تاج العروس - رسالة في التفسير - لطائف المنن، تحقيق د. محمد نصار، د. محمود مرسي، الطبعة الثانية، (القاهرة، دار الإحسان للنشر، 2019 م).

5 - ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، (دار الكتاب العربي، 2003م).

6 - ابن قيم الجوزية، الضوء المنير على التفسير، جمعه على الحمد المحمد الصالحي، عن كتب الإمام المعروف بابن قيم الجوزية، 6 مجلدات، (عنيزة، مؤسسة النور، 2008م).

7 - أحمد بن محمد بن عباد المحلي الشافعي، المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، (مصطفى البابي الحلبي، 1961م)، (القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، 2004م).

8 - أحمد عمر هاشم، في ظل الإسلام التصوف في مواجهة التفكير والتطرف، (دار المعارف، 2013م).

9 - أحمد فريد المزيدي، قطب المشرق والمغرب، أبو الحسن الشاذلي، (بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، 2017م).

10 - إبراهيم إبراهيم محمد ياسين، دلالات المصطلح في التصوف الفلسفي، إشارات فلسفية في كلمات صوفية، (دار المعارف، 1999م).

11 - أبو القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، الجزء الأول والثاني، تحقيق د. عبد الحليم محمود و د. محمود بن الشريف، الطبعة الثالثة (القاهرة، دار المعارف، 2019م).

12 - أبو القاسم الجنيد، السر في أنفاس الصوفية، الطبعة الأولى (لبنان، كتاب - ناشرون، 1436 هـ، 2015م).

13 - أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا، كتاب الزهد، الطبعة الأولى، (دمشق، دار ابن كثير، 1420 هـ - 1999م).

14 - أبو حامد الغزالي، كيمياء السعادة، (مطبعة السعادة، 1343 هـ).

15 - أبو حامد الغزالي، الجواهر الغوالي من رسائل الإمام حجة الإسلام الغزالي (جامعة تكساس، مطبعة السعاددة، 1943م)

16 - أبو حامد الغزالي، أيها الولد منهاج العارفين، أسعد السحمراني، محمد المرعشلي، (دار البشائر الإسلامية، 1431 هـ - 2010 م)، (مطبعة المعارف، 1388 هـ - 1968 م)، (دار النفاس، 2017م).

17 - أبو حامد الغزالي، القسطاس المستقيم، الموازين الخمسة للمعرفة في القرآن، (المطبعة العلمية، 1413 هـ - 1993 م).

18 - أبو حامد الغزالي، مشكاة الأنوار، تحقيق رضوان جامع رضوان، (دار الحرم للتراث، 2004م).

19 - أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل الإمام الغزالي (دار الكتب العلمية، 2010م).

20 - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، (الجزء الأول، الطبعة الأولى، مكتبة الصفا، 2003 م)، (المطبعة الأزهرية، 1884م)، (دار ابن حزم، 1426 هـ - 2005م)، (دار الكتب العلمية، 2016م)، (المكتبة العصرية، 2016م)، (بيروت - لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2018م).

21 - أبو حامد الغزالي، رسالة أيها الولد، (دار الكتب العلمية، 2016م).

22 - أبو حامد الغزالي، جواهر القلوب: كيمياء السعادة ويليها رسالة أيها الولد، تحقيق جميل إبراهيم حبيب (بيروت – لبنان، دار الأرقم بن أبي الآرقم، 2016م).

23 - أبو حامد الغزالي، رسائل في الحكمة، (دار الكرمة، 2018م).

24 - أبو طالب المكي (محمد بن علي بن عطية الحارثي)، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، تحقيق محمود إبراهيم محمد الرضواني، (دار التراث، 2001م) – تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، الطبعة الخامسة (بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، 1442 هـ - 2020 م).

25 - أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي، غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية 732- 792 هـ، الجزء الثاني، تحقيق عبد الله الشريف، الطبعة الثانية (القاهرة، دار المعارف، 2015م)، (دار الكتب العلمية، 2007م).

26 - أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم في شرح الحكم (القاهرة، دار المعارف، 2011)، (مصطفى البابي الحلبي، 1961 م)، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي (دار الكتب العلمية، 2016م).

27 - الإمام الحافظ أبي عبد الرحمن بن شعيب بن علي الخرساني النسائي، سنن النسائي، بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي (بيروت، دار المعرفة، 1420).

28 - الإمام عبد الحافظ بن علي الصعيدي المالكي الخلوتي، موقف الإمام أحمد بن حنبي من التصوف والصوفية.

29. الحافظ أبو الفرج بن الجوزي، صفوة الصفوة، تحقيق خالد مصطفى طرطوسي (لبنان، دار الكتاب العربي، 2012).

30 - العارف بالله الشيخ داود بن ماخِلّا، عيون الحقائق، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، الحسيني الشاذلي الدرقاوي، الطبعة الأولى، (لبنان، كُتاب ناشرون، 2015 م).

31 - العارف بالله الشيخ زروق، حكم ابن عطاء الله، تحقيق عبد الحليم محمود، الطبعة، (،الشركة القومية، 2021 م).

32 - العز بن عبد السلام، زبدة خلاصة التصوف، وهو المسمى حل رموز ومفاتيح الكنوز، تحقيق محمد عبد الرحمن الشاغول، (الجزيرة للنشر والتوزيع، 2005 م).

33 - الديوان، موسوعة الشعر العربي.

34 - السيد الحسني، هذه فاطمة صلوات الله عليها، (بغداد، دار الكتب والوثائق، 2012م).

35 - السيد حسن بن السيد محمد زين العابدين بن السيد عبد القادر الشريف الحسن الشاذلي، المنح الحسنية في شرح الوظيفة الشاذلية المشيشية الطبعة الأولى.

36 - السيد يوسف، الإمام محمد عبده رائد الاجتهاد والتجديد في العصر الحديث (دار الثقافة الجديدة، 1999م).

37 - باولو كويلو، الخيميائي، (شركة المطبوعات، 2010 م).

38 - بيرسا كوموتسي، في شوارع القاهرة نزهة مع نجيب محفوظ.

39 - جلال الدين السيوطي، تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي، مكتبة الآداب.

40 - جلال الدين السيوطي، تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية، عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري الحسني، (المطبعة الإسلامية، 1352 هـ - 1934 م)، (دار الكتب العلمية، 2006م).

41 - رفاعة رافع الطهطاوي، هذه رحلة الفقير إلى الله تعالى رفاعة بدوي رافع الطهطاوي إلى ديار فرنسا المسماه بتخليص الإبريز إلى تلخيص باريز أو الديوان النفيس ديوان باريس، (جامعة برينستون، 1861م).

42 - عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، اللطائف الإلهية في شرح مختارات من الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، (بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، 2013م).

43 - عبد الحليم محمود، أبو مدين الغوث، (دار المعارف، 1985 م).

44 - رشيد سيلم الجراح، متصوفة الزهاد، الزاهدة التائبة رابعة العدوية شهيدة الحب الإلهي (لبنان، دار الكتب العلمية، 2006م).

45 - عبد الحليم محمود، قضية التصوف، المنقذ من الضلال، (القاهرة، دار المعارف، 1988م).

46 - عبد الحليم محمود، قطبا المغرب، (القاهرة، دار الكتاب المصري، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1990م).

47 - عبد الحليم محمود، قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، (القاهرة، دار المعارف، 1999م).

48 - عبد الحليم محمود، الرعاية لحقوق الله لأبي عبد الله الحارث المحاسبي، (القاهرة، دار المعارف، 2003م)، (القاهرة، دار المعارف، 2017م).

49 - عبد الحليم محمود، حكم ابن عطاء الله، شرح العارف بالله الشيخ زروق، محمود الشريف، (الشركة القومية، 2021 م).

50 - عبد الحليم محمود، تاج الصوفية أبو بكر الشبلى حياته وآراءه، الطبعة الثالثة، (القاهرة، دار المعارف، 2022م).

51 - عبد الحليم محمود، أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي، الطبعة الثانية (القاهرة، دار المعارف، 2020م).

52 - عبد الحليم محمود، الحمد لله هذه حياتي، الطبعة الثالثة، (دار المعارف، 1985م).

53 - عبد الحليم محمود، العارف بالله سهل بن عبد الله التستري حياته وآراءه، الطبعة الثانية، (القاهرة، دار المعارف، 2015 م).

54 - عبد الرحمن بدوي، شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية، الطبعة الثانية، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1962م).

55 - عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، تحقيق الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيلاني، الطبعة الأولى، (لبنان، كتاب-ناشرون، 1438 هـ - 2017م)، (دار الكتب العلمية، 2017م).

56 - عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني، الطبعة الأولى (دار الفكر، 1435 هـ - 2013 م)، (مصطفى البابي الحلبي، 1968م)، (دار الكتب العلمية، 2016 م).

57 - عبد القادر الجيلاني، سر الأسرار، الطبعة الأولى (بيروت - لبنان، مركز جيلاني للبحوث العلمية والطبع والنشر، 1441 هـ - 2020 م).

58 - عبد الكريم بن العربي بنيس، الواضح المنهاج في نظم ما للتاج، تاج الدين أحمد بن محمد بن عطاء الله السكندري (بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، 2004).

59 - عبد الغني النابلسي، السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، تحقيق خالد الزرعي، الطبعة الأولى (دار نينوى، 2017م).

60 - عبد المنعم الحفني، العابدة الخاشعة رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين، الطبعة الثاني، (القاهرة، دار الرشاد، 1416 هـ - 1996 م).

61 - علي حسين الجابري، مأساة الحلاج بين ماسينيون والباحثين البغداديين (1908- 1998)، (دار نينوى، 200م).

62 - علي سالم عمار، أبو الحسن الشاذلي (عصره- تاريخه- علومه- تصوفه)، (الوابل الصيب، 2020م)

63 - فريد الدين العطار النيسابوري، منطق الطير، بديع محمد جمعة، (دار الأندلس، 2002م)، (القاهرة، آفاق، 2015م).

64 - مأمون غريب، رابعة العدوية في محراب الحب الإلهي، الطبعة، (القاهرة، دار غريب، 2000م).

65 - محمد بن أحمد ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1404 هـ - 1984 م)، (فرانز شتاينر، 1960 م)، (القاهرة، مكتبة مدبولي، 2005).

66 - محمد بن الطيب، الإسلام واحدًا ومتعددًا، إسلام المتصوفة، الطبعة الأولى، (بيروت، دار الطليعة، 2007م).

67 - محمد بن إدريس الشافعي: ديوان الشافعي (دار الثقافة، 1962 م).

68 - محمود محمود غراب، الطريق إلى الله تعالى، الشيخ والمريد من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، (دار الكاتب العربي، 1991 م).

69 - محيي الدين بن عربي، التجليات الإلهية، (مركز دانشكاهي، 1988 م).

70 - محيي الدين بن عربي، الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، تحقيق الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي، (دار الكتب العلمية، 2005 م).

71 - محيي الدين بن عربي، ديوان ترجمان الأشواق، (بيروت، دار المعرفة، 2005 م).

72 - صلاح الدين التجاني، زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول والثاني (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006 م).

73 - محيي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، (بيروت، دار المعرفة، 2011م)، (مدرسة الفقاهة).

74 - محيي الدين بن عربي، كتاب الألف وهو كتاب الأحدية، (دار الحسام، 2015م).

75 - أحمد كمال الجزار، مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الأجزاء الأربعة، (مكتبة الثقافة الدينية، 2019م).

76 - محيي الدين بن عربي، رسائل بن عربي، تحقيق أحمد الشبيني، (أقلام عربية للنشر والتوزيع، 2021م).

77 - محيي الدين بن عربي، فصوص الحكم، مقدمة وتيسير سعيد الوكيل، الطبعة الأولى، (القاهرة، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2022م).

78 - مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، (القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1996 م).

79 - نجيب محفوظ، ليالي ألف ليلة، الطبعة الأولى، (القاهرة، دار الشروق، 2006 م)، (هنداوي، 2017).

80 - نجيب محفوظ، اللص والكلاب، (القاهرة، دار الشروق، 2006م/ 2021 م).

81 - نجيب محفوظ، الشحاذ، (القاهرة، دار الشروق، 2006م)، (هنداوي، 2017م).

82 - نجيب محفوظ، زقاق المدق، (القاهرة، دار الشروق، 2007م)، (هنداوي، 2017م).

83 - نجيب محفوظ، الباقي من الزمن ساعة، (هنداوي، 2017م).

84 - نجيب محفوظ، الحرافيش، (القاهرة، دار الشروق، 2020 م).

85 - أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، تحقيق الدكتور سليمان دنيا، الطبعة الرابعة، (القاهرة، دار المعارف، 1358 هـ، 1966م).

86 - Bassiouney, R. (2014). Language and Identity in Modern Egypt 1st ed.). Edinburgh University Press.)

87. Schimmel, A., & Ernst, C.W. (2011). Mystical Dimensions of Islam. Amsterdam University Press.

88. Shakespeare, W., Mowat, B.A., & Werstine, P. (2003). Macbeth. Simon & Schuster.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



شكــر

هذا الكتاب كتبته لأني شعرت بضرورة كتابته، ولكنني أيضا خضت بحرًا من البحث عن الرضا.

في رحلة البحث، كان لا بد أن أجد جدي. وفي الحقيقة قبل أن أشرع في كتابة الكتاب، وجدت مسجده في الإسكندرية في منطقة مينا البصل، وتعلمت منه الكثير. سافر جدي من زليتن في ليبيا إلى الإسكندرية، ولكنه طوال رحلته يدعو إلى الأخلاق والتقوى. سافر مكلفًا من الشيخ «المدني» بأن يجعل عالمنا أفضل. السيد عبد القادر بن عبد السلام مؤسس الطريقة القادرية الشاذلية، ومريد الشيخ المدني في بلاد المغرب. أشكرك مرة أخرى، وأشكر من تكلمت معهم من أحفادك، وأخص بالشكر فايقة عبد القادر التي وجدت هي نفسها الملاذ في الفهم والمعرفة، وأعطتني بعض الكتب والحكايات. وأشكر عمدة منطقة مينا البصل، ومن ساعدني في الشعور بالراحة داخل هذه المنطقة العريقة الأستاذ محمد بدوي. والأستاذ شبانة محمد شبانة على أنه عرفني على أعمال تلميذ جدي الشيخ محمد الحبشي، ثم أعطاني كتابًا ثمينًا كتبه جدي حفيد عبد القادر الشيخ حسن عبد القادر، والد أم أمي، يشرح فيه الطريقة الشاذلية.

وجود مكان ثقافي أستطيع فيه اللقاء بالقراء، وبكل من يهتم بالصوفية، لم يكن بالأمر السهل. وفي رحلة البحث قابلت أجمل أشخاص وهم القائمون بالعمل في بيت السناري المكان الذي أتاح لي إعطاء محاضرات عن الإنسانية والمعرفة والسعادة. أشكر على وجه التحديد، مهندس هيثم محمد مهيب سالم، مدير بيت السناري التابع لمكتبة الإسكندرية، والأستاذ رامي محمد أبو رية مسئول التصوير ببيت السناري والاثنان بلدياتي من كفر الشيخ، حيث ولد والدي وعاش أول عشر سنوات من عمره. والأستاذ محمد أحمد حجازي منسق إعلامي في بيت السناري،

أشكر من حضر المحاضرات وسأل وتناقش، ومن شجعني بكلمة طيبة. كل الحضور أصبحوا عشرة وإخوة.

أشكر من قرأت هذا الكتاب بعين محب مخلص وأخت، فوقية مصطفى عبد الله. تعلمت من صحبتك أن الصديق لا يحتاج أن يكون جارًا في السكن، بل جارًا في القلب. وأن الصحبة لا تحتاج لوجود مادي، بل ثقة ويقين.

الشكر للجامعة الأمريكية بالقاهرة لمنحي منحة بحثية لتسهيل الانتهاء من هذا الكتاب. دعم العلم رسالة كل جامعة. وهي تعكس تقدم أي مجتمع.

وشكرًا لابنتي قبل أن تكون طالبتي حسناء عصام، لمراجعتها لأسماء المراجع. أتمنى أن يكون لهذا الكتاب بعض الفائدة لك أيضًا.

سأنهي الكتاب بكلمات أحد العارفين بالله الشيخ ابن عجيبة الحسني الشاذلي: «نجز ما قصدنا جمعه بحول الله وقوته، فإن وافق الحق والصواب فالمنة لله العلي الكبير، وإلا فالعبد محل الخطأ والتقصير، ولا سيما مع الباع القاصر والعلم القصير.»

وكما قال الشيخ النفري الرندي «ونحن نستغفر الله تعالى مما يعلمه منا من التعدي والجرأة فيما تعرضنا له من بيان كلام الأولياء، والراسخين من العلماء، وتقرير عباراتهم، وإشاراتهم من غير اطلاع منا على كنهها، ولا بصيرة فيها».

وكما قال البوصيري في البردة: »أستغفر الله من علم بلا عمل».

فليوفقنا الله وإياكم لما هو خير وصواب، وليفتح علينا من فضله، ويثبت أقدامنا، ويغفر لنا أي خطأ في هذا الكتاب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



بعض أهم الصوفيين المذكورين في الكتاب

العصـر الأمـوي

• سفيان الثوري

فقيه، ولد بالكوفة سنة 97 هـ/ 716م، وتوفي بالبصرة سنة 161 هـ/ 778م.

• رابعة العدوية

عابدة، ولدت بالبصرة حوالي سنة 100 هـ/ 717م، وتوفيت في بداية العصر العباسي سنة 180 هـ/ 796م، وقيل سنة 185 هـ/ 801م.

العصر العباسي

• محاسبي

عالم وزاهد، ولد بالبصرة حوالي سنة 170 هـ/ 786م، وتوفي ببغداد سنة 243 هـ/ 857م.

• البسطامي

عابد زاهد، ولد ببسطام سنة 188 هـ/ 803م، وتوفي هناك سنة حوالي سنة 261 هـ/ 874م.

• الجنيد

عالم، ولد ببغداد سنة 215 هـ/ 830م، وتوفي هناك سنة 298 هـ/ 910م.

• الحلاج

شاعر وعابد صوفي، ولد قرب مدينة واسط سنة 244 هـ/ 858م، وتوفي ببغداد سنة 309 هـ/ 922م.

• الغزالي

عالم فقيه، ولد بطوس سنة 450 هـ/ 1058م في أيام الدولة السلجوقية، وتوفي هناك سنة 505 هـ/ 1111م.

• عبد القادر الجيلاني

فقيه، ولد بجيلان سنة 470 هـ/ 1077م، وتوفي ببغداد سنة 561 هـ/ 1166م.

عصر الدولة الأيوبية

• ابن الفارض

شاعر صوفي، ولد بالقاهرة سنة 576 هـ/ 1181م، في أيام الدولة الأيوبية، وتوفي هناك سنة 632 هـ/ 1235م.

• ابن عربي

عالم، ولد بمديـنة مرسية في الأنـدلس سنة 560 هـ/ 1165م، في أيام دولة الموحدين، وتوفي بدمشق 638 هـ/ 1240م.

عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية

• الشـاذلي

عالم زاهد، ولد في المغرب حوالي سنة 593 هـ/ 1196م، في أيام دولة الموحدين، وتوفي بحميثرة في صحراء مصر الشرقية، في بداية أيام الدولة المملوكية، سنة 656 هـ/ 1258م.

• أبو العباس المرسي

عالم، ولد بمديـنة مرسية في الأنـدلس سنة 616 هـ/ 1219م، في أيام دولة الموحدين، ثم استقر في الأسكندرية، وتوفي بها سنة 686 هـ/ 1287م.

• البوصيري

شاعر صوفي، ولد سنة 608 هـ/ 1213م، وتوفي بالأسكندرية سنة 696 هـ/ 1295م.

عصر الدولة المملوكية

• ابن عطاء الله السكندري

فقيه، ولد بالأسكندرية حوالي سنة 658 هـ/ 1260م، وتوفي بالقاهرة سنة 709 هـ/ 1309م.

للتواصل مع المؤلفـة

البـريد الإلكـتروني:

reembassiouney@hotmail.com

الصفحـة الرسمـية:

https://www.facebook.com/reembassiouney.official

القـناة الرسمـية:

https://youtube.com/@reembassiouney.official

الهوامش

(1) عبد القادر بن عبد السلام بن عبد الوهاب اليزليتني، تراجم عبر التاريخ، https: / /tarajm.com / people/21639

(2) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين صـ40.

(3) الرياضة بالنسبة للصوفية هي رياضة روحية، وجهاد نفس لمحاربة الهوى والاستغفار المستمر والتوبة. أما «السياحة» فتعني في الفكر الصوفي السفر من أجل عبادة الله، ومعرفة النفس، والتعلم.

(4) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 10.

(5) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 5

(6) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 8.

(7) أحمد عمر هاشم: في ظل الإسلام - التصوف في مواجهة التكفير والتطرف صـ 57.

(8) جلال الدين السيوطي: تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية صـ 37.

(9) جلال الدين السيوطي: تنبئة الغبي في بتبرئة ابن عربي صـ 48.

(10) محمد بن الطيب: الإسلام واحدًا ومتعددًا، إسلام المتصوفة صـ 29.

(11) أبو القاسم عبد الكريم القشيري: الرسالة القُشيرية صـ 313.

(12) محمد بن الطيب: الإسلام واحدًا ومتعددًا، إسلام المتصوفة صـ 33.

(13) جلال الدين السيوطي: تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية.

(14) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب التراجم صـ 405.

(15) أحمد عمر هاشم: في ظل الإسلام - التصوف في مواجهة التكفير والتطرف صـ 59.

(16) محمد بن الطيب: الإسلام واحدًا ومتعددًا إسلام المتصوفة صـ 17.

(17) محمد بن الطيب: الإسلام واحدًا ومتعددًا، إسلام المتصوفة صـ 14.

(18) محمد بن الطيب: الإسلام واحدًا ومتعددًا، إسلام المتصوفة.

(19) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 39.

(20) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب نقش الفصوص صـ 656.

(21) محمد بن الطيب: الإسلام واحدًا ومتعددًا، إسلام المتصوفة صـ 38.

(22) جلال الدين السيوطي: تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية صـ 31، 32.

(23) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ 80.

(24) ابن عطاء الله السكندري: التنوير في إسقاط التدبير صـ 236.

(25) محمود محمود غراب: الطريق إلى الله تعالى، الشيخ والمريد من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي،الجزء الأول صـ 9.

(26) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 45.

(27) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 91.

(28) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ 104.

(29) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 191.

(30) جلال الدين السيوطي: تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية صـ 54.

(31) جلال الدين السيوطي: تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية صـ 55.

(32) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 440.

(33) جلال الدين السيوطي: تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية صـ 55.

(34) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الرابع صـ 377.

(35) محمود محمود غراب: الطريق إلى الله تعالى، الشيخ والمريد من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي صـ 7.

(36) أبو القاسم عبد الكريم القشيري: الرسالة القُشيرية الجزء الثاني صـ579.

(37) محمود محمود غراب: الطريق إلى الله تعالى، الشيخ والمريد من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي صـ 9.

(38) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الأول صـ 31.

(39) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 365، 366.

(40) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 366.

(41) محمود محمود غراب: الطريق إلى الله تعالى، الشيخ والمريد من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي صـ 29.

(42) جلال الدين السيوطي: تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية صـ 29.

(43) محمود محمود غراب: الطريق إلى الله تعالى، الشيخ والمريد من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي صـ 53.

(44) أبو حامد الغزالي: أيها الولد صـ 34.

(45) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 296.

(46) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الرابع صـ 263.

(47) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 310.

(48) جلال الدين السيوطي: تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية صـ 56.

(49) عبد الحليم محمود: تاج الصوفية، أبو بكر الشبلي، حياته وآراؤه صـ 29.

(50) عبد الحليم محمود: تاج الصوفية، أبو بكر الشبلي، حياته وآراؤه صـ89.

(51) عبد الحليم محمود: تاج الصوفية، أبو بكر الشبلي، حياته وآراؤه صـ 90

(52) أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني: إيقاظ الهمم في شرح الحكم صـ 43.

(53) عبد الحليم محمود: تاج الصوفية، أبو بكر الشبلي، حياته وآراؤه صـ 48.

(54) السيد يوسف: الإمام محمد عبده، رائد الاجتهاد والتجديد في العصر الحديث صـ187.

(55) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الرابع صـ 146.

(56) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، الجزء الرابع صـ 94.

(57) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة ،رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 32.

(58) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 32.

(59) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، رسالة الذي لا يعول عليه صـ 411.

(60) عبد الرحمن بدوي: شهيدة العشق الإلهي، رابعة العدوية صـ 118.

(61) رشيد سيلم الجراح: متصوفة الزهاد، الزاهدة التائبة، رابعة العدوية، شهيدة الحب الإلهي صـ 69.

(62) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 16.

(63) عبد الحليم محمود: الرعاية لحقوق الله، لأبي عبد الله الحارث المحاسبي.

(64) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 23.

(65) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين صـ 16.

(66) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 16، 17.

(67) فريد الدين العطار النيسابوري: منطق الطير صـ 107، 108.

(68) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 34.

(69) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 35.

(70) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 43.

(71) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 44.

(72) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 45.

(73) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 56.

(74) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، الجزء الخامس صـ 238.

(75) نجيب محفوظ: اللص والكلاب صـ 19.

(76) نجيب محفوظ: اللص والكلاب صـ 19.

(77) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين صـ 17.

(78) انظر باب مقام ترك التوبة عند ابن عربي، وهو ينوه إلى نفس الفكرة في كتاب الفتوحات المكية.

(79) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 21.

(80) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 26.

(81) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 13.

(82) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين صـ 10.

(83) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 26.

(84) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 24.

(85) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 24.

(86) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 27.

(87) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 67.

(88) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 153.

(89) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفرى الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 358.

(90) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين صـ 50.

(91) رشيد سيلم الجراح: متصوفة الزهاد، الزاهدة التائبة، رابعة العدوية، شهيدة الحب الإلهي صـ 58.

(92) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين صـ 22.

(93) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، الجزء الأول صـ 84.

(94) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 122.

(95) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 49.

(96) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 49.

(97) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 163.

(98) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 49.

(99) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 98.

(100) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 98.

(101) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 70.

(102) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 101.

(103) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 102، 103.

(104) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 105.

(105) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ99.

(106) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 100.

(107) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 101.

(108) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 39.

(109) أبو حامد الغزالي: أيها الولد صـ 17.

(110) أبو حامد الغزالي: أيها الولد صـ 28.

(111) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ 42.

(112) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 100.

(113) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 127.

(114) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 126.

(115) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 105.

(116) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال صـ 54.

(117) أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني: إيقاظ الهمم في شرح الحكم صـ 25.

(118) جلال الدين السيوطي: تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية صـ 37.

(119) جلال الدين السيوطي: تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية صـ 22.

(120) أبو حامد الغزالي: رسائل في الحكمة صـ 123.

(121) العز بن عبد السلام: زبدة خلاصة التصوف، وهو المسمى حل رموز ومفاتيح الكنوز صـ 73.

(122) نجيب محفوظ: الشحاذ صـ92.

(123) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية - المناجاة - المكاتبات - التنوير في إسقاط التدبير - تاج العروس - رسالة في التفسير - لطائف المنن صـ 62.

(124) أبو حامد الغزالي: مشكاة الأنوار صـ 61.

(125) أبو حامد الغزالي: مشكاة الأنوار صـ 66

(126) السيد حسن بن السيد محمد زين العابدين بن السيد عبد القادر الشريف الحسن الشاذلي: المنح الحسنية في شرح الوظيفة الشاذلية المشيشية صـ 36.

(127) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري صـ 95.

(128) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين صـ 91.

(129) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين صـ 118.

(130) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين صـ 93.

(131) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين صـ 83.

(132) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين صـ 94.

(133) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين صـ 118.

(134) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين صـ 120.

(135) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين صـ 123.

(136) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين صـ 124.

(137) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين صـ 149.

(138) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين صـ 147.

(139) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين صـ 129.

(140) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 80.

(141) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ93.

(142) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 76.

(143) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 78.

(144) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 78، 79.

(145) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 109.

(146) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 347.

(147) أبو حامد الغزالي: مشكاة الأنوار صـ 66.

(148) أبو حامد الغزالي: مشكاة الأنوار صـ 61.

(149) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 224.

(150) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 197.

(151) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي صـ412.

(152) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 192.

(153) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ 49.

(154) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ134.

(155) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ134.

(156) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 111.

(157) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 111.

(158) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 222.

(159) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 206.

(160) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، رسالة الأنوار صـ 229.

(161) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، رسالة الأنوار صـ 324.

(162) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، رسالة الأنوار صـ 324.

(163) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، رسالة إلى الإمام الرازي صـ324.

(164) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب التراجم صـ 406.

(165) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب التراجم صـ 406.

(166) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، رسالة الانتصار صـ 448 – 449.

(167) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 115.

(168) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، رسائل القسم الإلهي صـ 181 – 182.

(169) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، رسالة الأنوار صـ 230.

(170) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، رسالة الذي لا يعوّل عليه صـ 411.

(171) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 234.

(172) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية - المناجاة - المكاتبات - التنوير في إسقاط التدبير - تاج العروس - رسالة في التفسير - لطائف المنن صـ 443.

(173) السيد حسن بن السيد محمد زين العابدين بن السيد عبد القادر الشريف الحسن الشاذلي: المنح الحسنية في شرح الوظيفة الشاذلية المشيشية صـ 38، 39.

(174) أبو القاسم عبد الكريم القشيري: الرسالة القُشيرية صـ 233.

(175) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 138.

(176) أبو حامد الغزالي: مشكاة الأنوار صـ 39.

(177) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 76.

(178) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 39.

(179) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 24.

(180) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الرابع صـ 240.

(181) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 212.

(182) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 337.

(183) الحسين بن منصور الحلاج: قصائد الحلاج، الديوان موسوعة الشعر العربي.

(184) فريد الدين العطار: منطق الطير صـ 107، 108.

(185) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 366.

(186) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 263.

(187) أبو نواس: قصائد أبي نواس، الديوان، موسوعة الشعر العربي.

(188) نجيب محفوظ: ليالي ألف ليلة، بيرسا كوموتسي، في شوارع القاهرة، نزهة مع نجيب محفوظ صـ 61.

(189) الشيخ داود بن ماخِلّا: عيون الحقائق صـ 69.

(190) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، رسالة الذي لا يعوّل عليه صـ 405 – 406.

(191) أبو حامد الغزالي: كيمياء السعادة، رسائل في الحكمة صـ 95.

(192) أبو حامد الغزالي: كيمياء السعادة، رسائل في الحكمة صـ 96.

(193) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري صـ 206.

(194) أبو حامد الغزالي: رسالة أيها الولد صـ 76.

(195) أبو حامد الغزالي: رسائل في الحكمة صـ 21.

(196) أبو حامد الغزالي: رسائل في الحكمة، أيها الولد صـ 21.

(197) أبو حامد الغزالي: أيها الولد صـ 25 - 28.

(198) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 64.

(199) أبو حامد الغزالي: أيها الولد صـ 91.

(200) أبو حامد الغزالي: أيها الولد صـ 93.

(201) أبو حامد الغزالي: أيها الولد صـ 93.

(202) أبو حامد الغزالي: أيها الولد صـ 93.

(203) أبو حامد الغزالي: أيها الولد صـ 93.

(204) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، رسائل في الحكمة صـ 38.

(205) أبو حامد الغزالي: رسالة أيها الولد صـ 83.

(206) أبو حامد الغزالي: كيمياء السعادة، رسائل في الحكمة صـ 76.

(207) أبو حامد الغزالي: الرسالة الوعظية، رسائل في الحكمة صـ 133.

(208) أبو حامد الغزالي: الرسالة الوعظية، رسائل في الحكمة صـ 133.

(209) أبو حامد الغزالي: رسائل في الحكمة، الرسالة الوعظية صـ 135.

(210) أبو حامد الغزالي: رسائل في الحكمة، الرسالة الوعظية صـ 135.

(211) أبو حامد الغزالي: رسائل في الحكمة، الرسالة الوعظية صـ 136.

(212) أبو حامد الغزالي: رسائل في الحكمة، الرسالة الوعظية صـ 137.

(213) أبو حامد الغزالي: رسائل في الحكمة، الرسالة الوعظية صـ 89.

(214) أبو حامد الغزالي: الرسالة الوعظية، رسائل في الحكمة صـ 199.

(215) أبو حامد الغزالي: رسائل في الحكمة، الرسالة الوعظية صـ 139.

(216) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ 66.

(217) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ 71.

(218) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ 68.

(219) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ72.

(220) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ 73.

(221) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ 79.

(222) أبو حامد الغزالي: كيمياء السعادة، رسائل في الحكمة صـ 97.

(223) جلال الدين السيوطي: تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية صـ 46.

(224) أبو حامد الغزالي: كيمياء السعادة، رسائل في الحكمة صـ 99.

(225) أبو حامد الغزالي: كيمياء السعادة، رسائل في الحكمة صـ 106.

(226) أبو حامد الغزالي: كيمياء السعادة، رسائل في الحكمة صـ 118.

(227) أبو حامد الغزالي: كيمياء السعادة، رسائل في الحكمة صـ 120.

(228) أبو حامد الغزالي: كيمياء السعادة، رسائل في الحكمة صـ 120.

(229) أبو حامد الغزالي: كيمياء السعادة، رسائل في الحكمة صـ 121.

(230) أبو حامد الغزالي: كيمياء السعادة، رسائل في الحكمة صـ 121.

(231) أبو حامد الغزالي: كيمياء السعادة، رسائل في الحكمة صـ 76.
(232) أبو حامد الغزالي: كيمياء السعادة، رسائل في الحكمة صـ 76.
(233) أبو حامد الغزالي: رسائل في الحكمة صـ 122.
(234) أبو حامد الغزالي: كيمياء السعادة، رسائل في الحكمة صـ 122.
(235) ابن الفارض: قصائد ابن الفارض، الديوان موسوعة الشعر العربي.
(236) ابن الفارض: قصائد ابن الفارض، الديوان موسوعة الشعر العربي.
(237) أبو حامد الغزالي: كيمياء السعادة، رسائل في الحكمة صـ 123.
(238) أبو حامد الغزالي: كيمياء السعادة، رسائل في الحكمة صـ 123.
(239) أبو حامد الغزالي: كيمياء السعادة، رسائل في الحكمة صـ 123.
(240) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ 126.
(241) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ 61.
(242) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ 61.
(243) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ 61.
(244) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ 62.
(245) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ 80.
(246) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ 80.
(247) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ 81.
(248) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 57.
(249) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ 206.
(250) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ 86.
(251) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، الجزء الرابع، صـ 464.
(252) محمود محمود غراب: الطريق إلى الله تعالى، الشيخ والمريد، من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي صـ 9.
(253) أبو حامد الغزالي: مشكاة الأنوار صـ 74.

(254) أبو حامد الغزالي: مجموعة رسائل الإمام الغزالي، الجزء الثالث صـ 78.

(255) الشيخ داود بن ماخِلّا: عيون الحقائق صـ 20.

(256) نجيب محفوظ: الحرافيش صـ 347.

(257) أحمد بن محمد بن عباد المحلي الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ 57.

(258) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن صـ 4.

(259) سعيد الوكيل: فصوص الحكم، الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي صـ 81.

(260) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 13.

(261) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 14.

(262) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 14.

(263) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 15.

(264) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية - المناجاة - المكاتبات - التنوير في إسقاط التدبير - تاج العروس - رسالة في التفسير - لطائف المنن صـ 436.

(265) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 67.

(266) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الأول صـ 28.

(267) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 98.

(268) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 89.

(269) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية - المناجاة - المكاتبات - التنوير في إسقاط التدبير - تاج العروس - رسالة في التفسير - لطائف المنن صـ 436.

(270) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية - المناجاة - المكاتبات - التنوير في إسقاط التدبير - تاج العروس - رسالة في التفسير - لطائف المنن صـ 436.

(271) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 45.

(272) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية - المناجاة - المكاتبات - التنوير في إسقاط التدبير - تاج العروس - رسالة في التفسير - لطائف المنن صـ 434.

(273) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية - المناجاة - المكاتبات - التنوير في إسقاط التدبير - تاج العروس - رسالة في التفسير - لطائف المنن صـ 434، 435.

(274) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية - المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 438.

(275) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 235.

(276) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 438.

(277) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ31.

(278) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ31.

(279) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 31، 32.

(280) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 24.

(281) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 75.

(282) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 15، 16.

(283) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ 423.

(284) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 40.

(285) أحمد بن محمد بن عباد المحلي الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ 46.

(286) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 95.

(287) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 73.

(288) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 433.

(289) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 140.

(290) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 57.

(291) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 58.

(292) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 263.

(293) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 390.

(294) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري صـ 206.

(295) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 121.

(296) أحمد بن محمد بن عباد المحلي الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ 101.

(297) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 424.

(298) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 429.

(299) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 438.

(300) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 105.

(301) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 106.

(302) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 555.

(303) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 555.

(304) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 72.

(305) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 64.

(306) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 112.

(307) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 113.

(308) ابن عطاء الله السكندري: التنوير في إسقاط التدبير صـ 236.

(309) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 500.

(310) ابن عطاء الله السكندري: التنوير في إسقاط التدبير صـ 133.

(311) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ 465.

(312) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 116.

(313) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 126.

(314) أحمد بن محمد بن عباد المحلي الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ 115.

(315) أحمد بن محمد بن عباد المحلي الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ 115.

(316) أحمد بن محمد بن عباد المحلي الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ 116، 117.

(317) أحمد بن محمد بن عباد المحلي الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ 158.

(318) أحمد بن محمد بن عباد المحلي الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ 159.

(319) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 121.

(320) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 553.

(321) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 553.

(322) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 554.

(323) أحمد بن محمد بن عباد المحلي الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ 116.

(324) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 560.

(325) أحمد بن محمد بن عباد المحلي الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ 158.

(326) أحمد بن محمد بن عباد المحلي الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ 102.

(327) أحمد بن محمد بن عباد المحلي الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ 113.

(328) أحمد بن محمد بن عباد المحلي الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ 113.

(329) أحمد بن محمد بن عباد المحلي الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ 161، 162.

(330) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ 438.

(331) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 84.

(332) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 84.

(333) السيد حسن بن السيد محمد زين العابدين بن السيد عبد القادر الشريف الحسن الشاذلي: المنح الحسنية في شرح الوظيفة الشاذلية المشيشية صـ 47، 48.

(334) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 477.

(335) أحمد بن محمد بن عباد المحلي الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ 102.

(336) أحمد فريد المزيدي: قطب المشرق والمغرب، أبو الحسن الشاذلي صـ 119.

(337) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 106.

(338) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 464.

(339) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 465.

(340) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 487.

(341) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 7.

(342) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 467.

(343) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ461.

(344) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 462.

(345) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 463.

(346) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 314.

(347) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير-

لطائف المنن صـ 319.

(348) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ 9.

(349) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ 9.

(350) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ 38.

(351) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ 57.

(352) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ 59.

(353) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ 59.

(354) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ 60.

(355) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ 208.

(356) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 319.

(357) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ321.

(358) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 324.

(359) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 343.

(360) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 92.

(361) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 311.

(362) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 312.

(363) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 312.

(364) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 290.

(365) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 330.

(366) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 330.

(367) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 332.

(368) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 336.

(369) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 563.

(370) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 564.

(371) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ273.

(372) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 309.

(373) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 313.

(374) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 263.

(375) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ273.

(376) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 277.

(377) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 303.

(378) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 304.

(379) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 311.

(380) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 292.

(381) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 292.

(382) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 478.

(383) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ477.

(384) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 93.

(385) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 292.

(386) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري صـ 32.

(387) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري صـ 44.

(388) جلال الدين السيوطي: تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية صـ 37.

(389) محمد بن إدريس الشافعي: ديوان الشافعي صـ 21.

(390) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 526.

(391) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 176.

(392) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 11.

(393) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 76.

(394) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 346.

(395) أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني: إيقاظ الهمم في شرح الحكم صـ 360.

(396) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 26، 27.

(397) أبو سليمان الداراني، حكم ابن عطاء الله للعارف بالله الشيخ زروق صـ 27

(398) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 55.

(399) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 57.

(400) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 66.

(401) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 70.

(402) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 117.

(403) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 120.

(404) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 164.

(405) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 107.

(406) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 110.

(407) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 116.

(408) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 70.

(409) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 51.

(410) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 156.

(411) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 175.

(412) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 76.

(413) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 76.

(414) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 76.

(415) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 69.

(416) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 90.

(417) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 90.

(418) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 90.

(419) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 91.

(420) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 91.

(421) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 91.

(422) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 108، 109.

(423) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 54.

(424) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 39.

(425) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 30.

(426) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 61.

(427) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 161، 162.

(428) أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني: إيقاظ الهمم في شرح الحكم صـ 28.

(429) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 232.

(430) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 158.

(431) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 83.

(432) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 96.

(433) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 90.

(434) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 91.

(435) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 98.

(436) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 98.

(437) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 102.

(438) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 80.

(439) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 171.

(440) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 144.

(441) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 147.

(442) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 148.

(443) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 205.

(444) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 309.

(445) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 324.

(446) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 325.

(447) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 327.

(448) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري صـ 206.

(449) أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني: إيقاظ الهمم في شرح الحكم صـ 36

(450) أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني: إيقاظ الهمم في شرح الحكم صـ 44.

(451) أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني: إيقاظ الهمم في شرح الحكم صـ 38.

(452) أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني: إيقاظ الهمم في شرح الحكم صـ 41.

(453) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 20.

(454) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 203.

(455) ابن عطاء الله السكندري: كتاب التنوير في إسقاط التدبير صـ 9

(456) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 308.

(457) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 350.

(458) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 351.

(459) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 143.

(460) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 9.

(461) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 10.

(462) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 10.

(463) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 135.

(464) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 62.

(465) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية - المناجاة - المكاتبات - التنوير في إسقاط التدبير - تاج العروس - رسالة في التفسير - لطائف المنن صـ 314.

(466) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 176.

(467) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 178.

(468) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 178.

(469) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 355.

(470) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 71.

(471) عاصم إبراهيم الكيالي: اللطائف الإلهية في شرح مختارات من الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري صـ 54.

(472) ابن عطاء الله السكندري: التنوير في إسقاط التدبير صـ 123.

(473) عبد الحليم محمود: تاج الصوفية أبو بكر الشبلي حياته وآراءه صـ 123.

(474) عبد الحليم محمود: أبو مدين الغوث صـ 135.

(475) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن صـ 4.

(476) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الرابع صـ 462.

(477) جلال الدين السيوطي: تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي صـ 49، 50.

(478) جلال الدين السيوطي: تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي صـ 50، 51.

(479) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الأول صـ 153، 154.

(480) الهادي آدم: قصيدة الغد، الديوان موسوعة الشعر العربي.

(481) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب الإعلام بإشارات أهل الإلهام صـ 153.

(482) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 352.

(483) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 352.

(484) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 352.

(485) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 351.

(486) الهادي آدم: قصيدة الغد، الديوان موسوعة الشعر العربي.

(487) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 351

(488) عبد الرحمن بدوي: شهيدة العشق الإلهي، رابعة العدوية صـ 64.

(489) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 325.

(490) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 352.

(491) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 325، 326

(492) المتنبي: قصيدة أرق على أرقٍ ومثلي يأرقُ، الديوان موسوعة الشعر العربي.

(493) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 327.

(494) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 330.

(495) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني، صـ 175، 176.

(496) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 337، 338.

(497) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 338، 339.

(498) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 326.

(499) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 326.

(500) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 327.

(501) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 334.

(502) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 335.

(503) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 328.

(504) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 323.

(505) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 373.

(506) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 336.

(507) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 336.

(508) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 373.

(509) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري صـ 81.

(510) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 328.

(511) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 184.

(512) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 362.

(513) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 184.

(514) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 363.

(515) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري صـ 80.

(516) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 325.

(517) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 234.

(518) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 239.

(519) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 354.

(520) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 345.

(521) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الرابع صـ 455، 456.

(522) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الرابع صـ 456.

(523) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 340.

(524) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 340.

(525) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الرابع صـ 457.

(526) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 326.

(527) فريد الدين العطار: منطق الطير صـ 149.

(528) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني 332.

(529) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 349.

(530) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني، صـ 322.

(531) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني، صـ 322.

(532) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 322.

(533) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 43.

(534) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 322.

(535) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 342.

(536) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 322.

(537) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 342.

(538) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 342.

(539) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري صـ 17.

(540) جلال الدين السيوطي: تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية.

(541) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 343.

(542) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 343.

(543) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 343.

(544) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 343.

(545) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 343.

(546) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 344.

(547) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 344.

(548) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 345.

(549) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 345.

(550) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 347.

(551) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 348.

(552) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 348.

(553) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الثالث صـ 42.

(554) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 323.

(555) محيي الدين بن عربي: ديوان ترجمان الأشواق.

(556) Schimmel: Mystical Dimensions of Islam.

(557) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 242.

(558) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ242.

(559) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 163.

(560) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 244.

(561) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الرابع صـ 270.

(562) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الرابع صـ 273.

(563) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب التراجم صـ 397.

(564) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين الجزء الرابع صـ 385.

(565) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم ابن عطاء الله صـ 70.

(566) ويليام شكسبير: ماكبث.

(567) عبد الغني النابلسي: السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، الكتاب الثاني صـ 504.

(568) عبد الغني النابلسي: السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، الكتاب الثاني صـ 504 - 505.

(569) عبد الغني النابلسي: السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، الكتاب الثاني صـ 510.

(570) عبد الغني النابلسي: السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، الكتاب الثاني صـ 511.

(571) عبد المنعم الحفني: العابدة الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين، رابعة في كتابات الشرق والغرب صـ 16.

(572) عبد الغني النابلسي: السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، الجزء الأول صـ 240.

(573) عبد الغني النابلسي: السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض.

(574) عبد الغني النابلسي: السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، الكتاب الثالث صـ 1187.

(575) عبد الغني النابلسي: السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، الكتاب الثالث صـ 1188.

(576) عبد الغني النابلسي: السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، الكتاب الثالث صـ 1189.

(577) عبد الغني النابلسي: السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، الكتاب الثالث صـ 1192.

(578) عبد الغني النابلسي: السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض صـ 692.

(579) عبد الغني النابلسي: السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض صـ 708.

(580) عبد الغني النابلسي: السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض صـ 714.

(581) جلال الدين السيوطي: تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية صـ 56.

(582) محمد ابن أحمد ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور صـ 595.

(583) محمد ابن أحمد ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الثالث صـ 48.

(584) محمد ابن أحمد ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الثالث صـ 49.

(585) ابن الفارض: قصيدة حميا الحب راحة مقلتي، الديوان موسوعة الشعر العربي.

(586) رفاعة رافع الطهطاوي: هذه رحلة الفقير إلى الله تعالى، رفاعة بدوي رافع الطهطاوي إلى ديار فرنسا، المسماه بتخليص الإبريز فى تلخيص باريز، أو الديوان النفيس ديوان باريس صـ 4.

(587) محمد ابن أحمد ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور صـ 597 -598.

(588) محمد ابن أحمد ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور صـ 598.

(589) ابن الفارض: قصيدة قلبي يحدثني بأنك متلفي، الديوان موسوعة الشعر العربي.

(590) عبد الحليم محمود: سهل بن عبد الله التستري صـ 78.

(591) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري صـ 74.

(592) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب التراجم صـ 401.

(593) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب التراجم صـ 398.

(594) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 129.

(595) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 133.

(596) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، الجزء الثاني صـ 154.

(597) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، الجزء الثاني صـ 250، 251.

(598) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب الإسرا إلى مقام الأسرى صـ 315.

(599) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب التراجم صـ 385.

(600) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 32.

(601) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 29.

(602) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 26.

(603) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 27.

(604) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب التراجم صـ 379.

(605) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب التراجم صـ 379.

(606) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب التراجم صـ 379.

(607) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثالث صـ 552.

(608) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 362.

(609) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 38.

(610) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 38.

(611) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 38.

(612) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 287.

(613) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 213.

(614) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب التراجم صـ 383.

(615) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الثالث صـ 196.

(616) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 159.

(617) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 160.

(618) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الثالث صـ 196.

(619) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، الجزء الأول صـ 58.

(620) محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في منافب ذي النون المصري صـ 212.

(621) أبو حامد الغزالي: أيها الولد صـ 33.

(622) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الرابع صـ71، 72.

(623) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 190.

(624) محيي الدين بن عربي: رسائل بن عربي، كتاب التراجم، صـ 398.

(625) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الرابع صـ 75، 76.

(626) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 160.

(627) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 217.

(628) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، رسالة الأنوار صـ 232.

(629) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 294.

(630) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 96.

(631) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الرابع 275.

(632) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب الوصية صـ 667.

(633) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب الوصية صـ 668.

(634) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي كتاب الوصية صـ 668.

(635) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي كتاب الوصية صـ 668.

(636) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الرابع صـ 270.

(637) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الرابع صـ 280.

(638) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الرابع صـ 281.

(639) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الرابع صـ281.

(640) أبو حامد الغزالي: أيها الولد، منهاج العارفين صـ 80.

(641) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، الجزء الخامس صـ 238.

(642) نجيب محفوظ: اللص والكلاب صـ 14-17.

(643) نجيب محفوظ: اللص والكلاب صـ 17-18

(644) علي حسين الجابري: مأساة الحلاج بين ماسينيون والباحثين البغداديين (1908- 1998) صـ 77.

(645) نجيب محفوظ: اللص والكلاب صـ 19.

(646) عبد الكريم بن العربي بنيس: الواضح المنهاج في نظم ما للتاج تاج الدين ابن عطاء الله السكندري صـ 52.

(647) نجيب محفوظ: اللص والكلاب صـ 19.

(648) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني في الفيض الرحماني صـ 75..

(649) عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار صـ 89، 90.

(650) عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار صـ 92.

(651) عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار صـ 92.

(652) عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار صـ 96، 97.

(653) عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار صـ 91.

(654) عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار صـ 80.

(655) عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار صـ 80.

(656) عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار صـ 67.

(657) عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار صـ70.

(658) عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار صـ 73.

(659) عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار صـ 56.

(660) عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار صـ 71.

(661) عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار صـ 30.

(662) عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار صـ37.

(663) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 49.

(664) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 67.

(665) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 49.

(666) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ43.

(667) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ36.

(668) عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار صـ 25.

(669) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ157.

(670) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 53.

(671) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ50.

(672) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 79.

(673) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 102.

(674) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 101.

(675) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ32.

(676) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض صـ 16.

(677) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ92.

(678) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ45.

(679) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ89.

(680) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 80.

(681) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 32.

(682) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ30.

(683) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ22.

(684) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ17.

(685) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 15.

(686) الشيخ داود بن ماخِلّا: عيون الحقائق صـ 37.

(687) الشيخ داود بن ماخِلّا: عيون الحقائق صـ 45.

(688) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الرابع صـ 134.

(689) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الرابع صـ 134.

(690) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الثالث صـ 131.

(691) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية الجزء الرابع صـ 123.

(692) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 95، 96.

(693) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، الجزء الرابع صـ 158.

(694) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 61.

(695) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 62.

(696) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 176.

(697) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 43.

(698) أبو حامد الغزالي: القسطاس المستقيم صـ 145.

(699) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، الجزء الرابع صـ 154.

(700) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 47.

(701) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 62.

(702) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 52.

(703) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 9.

(704) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 9.

(705) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 9.

(706) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب الكتب صـ 487.

(707) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب الكتب صـ 487.

(708) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب الكتب صـ 488، 489، 490.

(709) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب الكتب صـ 489.

(710) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الرابع صـ 158.

(711) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب الكتب صـ 467.

(712) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب الكتب صـ 471.

(713) أبو حامد الغزالي: قصيدة قل لإخوان رأوني ميتًا، الديوان موسوعة الشعر العربي.

(714) أبو حامد الغزالي: أيها الولد منهاج العارفين صـ 62.

(715) أبو حامد الغزالي: أيها الولد منهاج العارفين صـ 64.

(716) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب الأسفار عن نتائج الأسفار صـ 601.

(717) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 111.

(718) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 35.

(719) أبو حامد الغزالي: جواهر القلوب، كيمياء السعادة ويليها رسالة أيها صـ 82.

(720) أبو حامد الغزالي: أيها الولد صـ 82.

(721) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير-

لطائف المنن صـ 477.

(722) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 342، 343.

(723) أبو حامد الغزالي: جواهر القلوب، كيمياء السعادة ويليها رسالة أيها صـ 81.

(724) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 7.

(725) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 9.

(726) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 11. وشرح هذا أيضًا ابن عطاء الله السكندري في كتابه التنوير في إسقاط التدبير.

(727) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 12. وشرح هذا أيضًا ابن عطاء الله السكندري في كتابه التنوير في إسقاط التدبير.

(728) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 14.

(729) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 15.

(730) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 15.

(731) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 16.

(732) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 17.

(733) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية.

(734) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 20.

(735) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 36.

(736) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 10، عن ابن عطاء الله السكندري في كتابه التنوير في إسقاط التدبير.

(737) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الرابع صـ 101، 102.

(738) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الرابع صـ 282.

(739) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين صـ40.

(740) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 24.

(741) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 24.

(742) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الثالث صـ 189.

(743) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 25، عن أبي الحسن الشاذلي.

(744) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 111.

(745) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 115.

(746) شرح العارف بالله الشيخ زروق: حكم بن عطاء الله صـ 70.

(747) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الرابع صـ273.

(748) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 123.

(749) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 97.

(750) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، الجزء الخامس صـ 238.

(751) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 36.

(752) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 190.

(753) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 190.

(754) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 96.

(755) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 119.

(756) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 186.

(757) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب الوصية صـ 666.

(758) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 343.

(759) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الرابع صـ 456.

(760) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية صـ 109.

(761) عبد القادر الجيلاني: فتوح الغيب صـ 42.

(762) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني صـ 115.

(763) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 72

(764) الشيخ داود بن ماخِلّا: عيون الحقائق صـ 58.

(765) أبو حامد الغزالي: أيها الولد صـ 28.

(766) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 457.

(767) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 199.

(768) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 22.

(769) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 17، قطبا المغرب صـ 22.

(770) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية صـ 177.

(771) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي كتاب حلية الأبدال صـ 645.

(772) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 199.

(773) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 199.

(774) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير- تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 307.

(775) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الثاني صـ 204.

(776) ابن الفارض: قصائد ابن الفارض، الديوان موسوعة الشعر العربي.

(777) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول صـ 149.

(778) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 12.

(779) عبد الحليم محمود: قطبا المغرب صـ 118.

(780) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثاني صـ 325.

(781) صلاح الدين التجاني: زبدة الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، الجزء الأول، صـ 150.

(782) ابن عطاء الله السكندري: الأعمال الكاملة، الحكم العطائية- المناجاة- المكاتبات- التنوير في إسقاط التدبير - تاج العروس - رسالة في التفسير- لطائف المنن صـ 534.

(783) الحسين بن منصور الحلاج: قصائد الحلاج، الديوان موسوعة الشعر العربي.

(784) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين صـ 225.

(785) أبو حامد الغزالي: مشكاة الأنوار صـ 51.

(786) أبو حامد الغزالي: مشكاة الأنوار صـ 52.

(787) أبو حامد الغزالي: مشكاة الأنوار صـ 52.

(788) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الأول صـ 418، 419.

(789) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الأول صـ 419.

(790) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الأول صـ 281.

(791) جلال الدين السيوطي: تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية صـ 21.

(792) جلال الدين السيوطي: تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي صـ 21.

(793) جلال الدين السيوطي: تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي صـ 24.

(794) جلال الدين السيوطي: تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي صـ 25

(795) محمد بن أحمد بن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الثالث صـ 50.

(796) محمد بن أحمد بن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الثالث صـ 50.

(797) الحسين بن منصور الحلاج: قصائد الحلاج، الديوان موسوعة الشعر العربي.

(798) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الرابع صـ 279.

(799) أحمد كمال الجزار: مختصر الفتوحات المكية، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الجزء الرابع صـ 279.

(800) أبو طالب المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد صـ 171.

(801) أبو طالب المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد صـ 172.

(802) أبو طالب المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد صـ 172.

(803) أبو طالب المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد صـ 172.

(804) أبو طالب المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد صـ 173.

(805) عبد الحليم محمود: تاج الصوفية أبو بكر الشبلى حياته وآراؤه صـ 39.

(806) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثالث صـ 550.

(807) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثالث صـ 9.

(808) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثالث صـ 550، 551.

(809) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الثالث صـ 551.

(810) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الأول صـ 423.

(811) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ 79.

(812) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن صـ 491.

(813) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الأول صـ 425.

(814) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، الجزء الأول صـ 425.

(815) عبد الحليم محمود: تاج الصوفية أبو بكر الشبلى حياته وآراؤه صـ 37.

(816) عبد الحليم محمود: تاج الصوفية أبو بكر الشبلى حياته وآراؤه صـ 38.

(817) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين. الإمام عبد الحافظ بن علي الصعيدي المالكي الخلوتي، موقف الإمام أحمد بن حنبل من التصوف والصوفية.

(818) الإمام عبد الحافظ بن علي الصعيدي المالكي الخلوتي: موقف الإمام أحمد بن حنبي من التصوف والصوفية.

(819) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، الجزء الثاني صـ 12. الإمام عبد الحافظ بن علي الصعيدي المالكي الخلوتي: موقف الإمام أحمد بن حنبل من التصوف والصوفية.

(820) مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب صـ 461. الإمام عبد الحافظ بن علي الصعيدي المالكي الخلوتي، موقف الإمام أحمد بن حنبل من التصوف والصوفية.

(821) الحافظ أبو الفرج بن الجوزي: صفوة الصفوة صـ 135. الإمام عبد الحافظ بن علي الصعيدي المالكي الخلوتي، موقف الإمام أحمد بن حنبل من التصوف والصوفية.

(822) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب التراجم صـ 405.

(823) عبد الحليم محمود: الحمد لله هذه حياتي، كلمة الغلاف.

(824) عبد الحليم محمود: الحمد لله هذه حياتي صـ 7.

(825) جلال الدين السيوطي: تأييد الحقيق العلية وتشييد المدرسة الشاذلية صـ 34.

(826) محيي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي، كتاب نقش الفصوص صـ 656.

(827) أبو سليمان الداراني، مجموعة رسائل الإمام الغزالي لأبي حامد الغزالي صـ 56.

(828) ابن الفارض: قصيدة زدني بفرط الحب فيك تحيرا، الديوان موسوعة الشعر العربي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞




متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس